












سلسلة مدرسة الحياة

مفكرون عظماء

تحرير: آلان دو بوتون

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة

التنوير

مدرسة الحياة THE SCHOOL OF LIFE

سلسلة مدرسة الحياة

مفكرون عظماء

الكتاب: **مفكرون عظماء (سلسلة مدرسة الحياة)**

إعداد: **مدرسة الحياة**

إشراف: **آلان دو بوتون**

ترجمة: **الحارث النبهان**

عدد الصفحات: 400 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-194-0

الطبعة الثانية : 2022

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

سلسلة مدرسة الحياة

مفكرون عظماء

تحرير

آلان دو بوتون

ترجمة

الحارث النبهان

مكتبة

t.me/soramnqraa



الفهرس

مقدمة 7

الفلسفة

أفلاطون 12
أرسطو 19
الفلاسفة الرواقيون 25
إبيقور 31
أوغسطين 36
توما الأكويني 41
ميشيل دي مونتاني 47
لا روشفوكو 53
باروخ سبينوزا 57
آرتور شوبنهاور 63
جورج هيغل 69
فريدريك نيتشِه 76
مارتن هيدغر 81
جان بول سارتر 87
ألبير كامو 93

النّظريّة السّياسيّة

نيكولو ماكيافيلّي 100
توماس هوبز 105
جان جاك روسّو 109
آدم سميث 114
كارل ماركس 120
جون روسكين 131
هنري ديفيد ثورو 138
ماثيو آرنولد 145
ويليام موريس 151
جون راولز 157

الفلسفة المشرقية

بوذا 164
لاو تزو 169
كونفوشيوس 176

سِن نو ريكيو 182
ماتسو باشو 186

علم الاجتماع

القديس بِنِديكت 192
ألكسيس دي توكفيل 199
ماكس فيبر 210
إميل دوركهايم 218
مارغريت ميد 224
تيودور أدورنو 232
ريتشل كارسون 238

العلاج النفسي

سيغموند فرويد 246
آنّا فرويد 255
ميلاني كلين 263
دونالد وينيكوت 268
جون بولبي 275

الفن والعمارة

أندريا بالاديو 284
يوهانس فيرمير 290
كاسبر دافيد فريدريش 296
هنري ماتيس 302
إدوارد هوبر 307
أوسكار نيميير 313
لويس كاهْن 319
كوكو شانيل 324
جين جيكوبز 330
ساي تومبلي 337
كريستو وجان كلود 342
دييتر رامز 348
آندي وارهول 355

الأدب

جين أوستن 362
يوهان وولفغانغ فون غوته 369
ليو تولستوي 378
مارسيل بروست 384
فيرجينيا وولف 390

مقدمة

يضم هذا الكتاب ما يُشكّل «قانون» مدرسة الحياة[1]: إنهم من وقع عليهم اختيارنا من مفكّرين كبار في ميادين الفلسفة والنظرية السياسية وعلم الاجتماع وعلم النفس والفن والعمارة والأدب؛ مفكرون نرى أن عندهم الكثير مما يقدمونه لنا في يومنا هذا.

لعلّ فكرة تجميع «قانون» تبدو غريبة إلى حدٍّ ما... بل لعل من الممكن أيضًا أن تبدو فكرة مُسيئة. وقد يتبادر إلى الذهن أن ثمة نوعًا من الظلم في أن يترك المرء ذلك العدد الكبير من المفكرين الذين لا يرد لهم ذكرٌ هنا. وفوق هذا، فمن الذي يقرِّر الأمر؟ أليس من المؤكّد أن لدى الأشخاص الذين يصنعون هذا الدليل شيئًا من الانحياز الذي لا بد أن يكون له أثر على مهمّتهم؟

يسرّنا أن نعترف بانحيازنا. يعلّموننا أحيانًا أن ننظر إلى فكرة الانحياز على انها فكرة سلبية وكأن النوع الجيّد الوحيد من أنواع المعلومات هو الذي يكون بريئًا براءة مطلقة من أي قصد أو غاية، بحيث يترك الأمر كلّه للمتلقّي. إن هذا التأكيد على الحياد أمر مفيد، فقد شهد التاريخ (في القرن العشرين خاصة) قدرًا كبيرًا وأنواعًا شتّى من الانحياز الذي كان سيئًا. لكننا مؤمنون بأن الهدف، في نهاية المطاف، ليس تحاشي كل انحياز على الإطلاق، بل هو تغليب الانحياز «الحسن». ونعني بالانحياز الحسن ذلك الانحياز الذي يجنح إلى تفضيل باقة منتخبة من المفكرين الذين يلفتون انتباهنا إلى أفكار مهمّة كبيرة القيمة. إننا، في مدرسة الحياة، منحازون كثيرًا إلى الذكاء العاطفي، وإلى استخدام الثقافة أداةَ تنوير ومواساة للبشر.

لدينا آراء محدّدة تمامًا في شأن ما يجعل مفكّرًا من المفكِّرين «كبيرًا». عادة ما يجري إدراج المفكّرين الكبار في الموسوعات استنادًا إلى سمعتهم: يجري وضع قائمة من خلال السؤال عن الأسماء التي كان لها أكبر الأثر، وعن الأفكار التي كانت لها أكبر مساهمة في تشكيل العالم المفكّر. إلّا أننا وضعنا هدفًا آخر نصب أعيننا: نريد اكتشاف الأفكار التي من شأنها الآن أن تمدّ لنا يد العون في بعض من المشكلات الأكثر أهمية في زماننا هذا. فالمفكّر «الكبير» هو الشخص الذي تكون لأفكاره فرصة كبيرة في مساعدتنا في حياتنا الآن.

---

(1) مدرسة الحياة (The School of Life): مؤسّسة تعليمية في لندن تقدّم المشورة في شؤون الحياة، أسسها آلان دو بوتون وصوفي هاورث سنة 2008، ثم صار لها فروع في بلاد كثيرة.

وبما أن «القانون» يكون (بالضرورة) شديد الانتقائية، فإن من السهل دائمًا توجيه الانتقادات إليه. إن لنا رأيًا متفائلًا في مسألة الاختيار. فالاختيار، بكل بساطة، سمة من سمات عالم غني بالمعلومات التي لا سبيل إلى تفاديها. ليست الغاية أن نتجنّب الانتقاء، بل كان معنى التحدّي هو محاولة الانتقاء بطريقة جيّدة إلى أقصى حدٍّ ممكن. وهذا يعني في رأينا اختيار المفكّرين القادرين على المساهمة في حل بعض أعظَم الصعوبات التي تواجهنا في حياتنا السياسية والمهنية والشخصية. نحن لسنا مؤرّخين عاملين على استعادة الأفكار من أجل الأفكار في حد ذاتها، بل نحن فلاسفة تطبيقيون ساعون خلف مفاهيم عقلية قابلة لأن توضع موضع الاستخدام، الآن وهنا.

لقد بذلنا جهدًا كبيرًا لكي نجعل أفكار من يتناولهم هذا الكتاب سهلة وبسيطة وجذّابة أيضًا (هذا أملنا). ففي الماضي، وقع كثيرون من أولئك المفكّرين في فخٍّ شيطاني. كان ما أرادوا قوله ذا أهمية كبيرة جدًّا، وذا صلة عظيمة بحياة الناس. لكن طريقة قولهم ما قالوه كانت كفيلة بألّا يسمعهم أحد: هذا لأن كتبهم كانت أكثر كثافة مما ينبغي أن تكون، وبعض أفكارهم بدت غريبة، وكثيرٌ من المفاهيم ذات الأهمية الحاسمة التي حملوها كانت ميّالة إلى الضياع وسط خليط مضطرب زاخر بمعلومات مُكمّلة. لقد استخرجنا ما رأيناه أفكارًا مهمّة لدى مفكّرينا المختارين؛ مستعينين بالمبادئ التالية:

– بضعة أشياء فقط مما يمكن أن يكون قد قاله واحد من أصحاب العقول العظيمة يحتمل أن تكون لها أهمية مركزية دائمة.

– هذه النقاط المفتاحية غير قابلة للفصل عن مجمل عمل صاحبها.

– نحن مخلوقات نزّاعة إلى النسيان، واقعة تحت ضغط الزمن. ونحن ميالون إلى نسيان الجوانب الدقيقة في أية محاججة معقدة. وهذا يعني أننا في حاجة إلى تجزئة الأفكار ذات الأهمية المركزية تجزئة بسيطة تسمح لنا بتذكّرها.

– السياق ليس حاسم الأهمية، وذلك مهما يكن ما تقوله لنا الثقافة الأكاديمية. تستقرّ الحقائق المهمة في أماكن غريبة؛ ومن الممكن استخراجها منها. قد تكون موجودة في الصين في القرن الثالث الميلادي. أو في صالون أرستقراطي من باريس القرن الثامن عشر، أو في بيت صغير في قرية وسط جبال الألب في القرن التاسع عشر. لكن ما يعنينا في نهاية المطاف هو ما تستطيع تلك الأفكار فعله الآن من أجلنا.

– ثمة مفارقة مأساوية في أن هناك طرقًا لإظهار الاحترام للمفكّرين الكبار تؤدي إلى الحيلولة بينهم وبين أن يكون لهم أثر في العالم – تمامًا على العكس مما يرمي إليه ذلك الاحترام. أكبر تقدير يمكننا إبداءه إزاء مفكّر كبير هو أن نرفع الكلفة معه قليلًا.

- همُّنا الأول هو أن تصير الأفكار العظيمة معروفة على نطاق واسع، وأن تكون فاعلة في حياتنا.

بعد قول هذا كلّه، نظلّ مدركين أن هناك مخاوف مشروعة من «التبسيط»؛ وهناك مخاوف (يغذيها العالَم الأكاديمي) من أنه لا مفر لك من الخيانة إذا حاولت التبسيط: أنت تحذف محتوى له أهمية حقيقية! نتفهم هذا القلق، لكننا لا نريد السماح له بأن ينتصر علينا لأننا مدركون أيضًا مخاطرَ المبالغة في الإصغاء إليه: «قد يؤدي التعقيد الذي لا لزوم له إلى جعل الأفكار القيّمة موضع تجاهل تام. نحن مؤمنون بأن الحقائق المهمة عن «كيف ينبغي أن نعيش» قابلةٌ تمامًا لأن تكون لها صياغة شعبية. ونحن ضد وجهة النظر المأساوية القائلة بأن ما هو مهم محكومٌ عليه دائم بأن يظل غير شعبي، أو بأن يظلّ غير قابل للفهم لدى أكثر الناس.

إن إكساب الأفكار القيّمة طابعًا شعبيًا مهمة عظيمة من وجهة نظرنا. يصح هذا خاصة في عالم ديمقراطي ذي توجّه استهلاكي فقدت فيه الثقافة النخبوية ألَقها، إلى هذا الحدِّ أو ذاك. فذلك الألق هو ما يجعل الأفكار حقيقيةً في المجتمع. وعلى أية حال، فإن حياتنا ليست كلّها حياة ثقافة، وكتب: نحن مدفوعون دائمًا بالأفكار الواضحة المباشرة التي توجّه مسلكنا؛ بل إننا معتمدون عليها إلى حدٍّ ما. هذه الأفكار هي ما له أهمية من أجل ازدهار الحياة التي تحياها الجماعة البشرية من يوم إلى يوم. قد يكون مقتلُ أفضلِ الأفكار متمثِّلًا في المبالغة في تثمينها.

حتى يومنا هذا، ترك العالم الحديث دراسة الأفكار الثقافية ونقلها (ترك ذلك إلى حد كبير) بين أيدي الدوائر الجامعية في المجتمعات البشرية. لقد كان محور تركيز تلك الدوائر محاولة فهم ما اشتغل عليه كبار المفكّرين، وما كانوه في حياتهم. وأما هنا فإننا نفعل شيئًا شديد الاختلاف... نفعله على نحو «هرطوقي» بعض الشيء: نريد معرفة ما يستطيع أولئك المفكرون فعله من أجلنا.

نقّبنا في التاريخ لكي نأتي القارئ بالأفكار التي يرى أن لها أكبر الصلة بزماننا هذا. وسوف نعتبر أننا قد نجحنا في مسعانا، في الأيام والسنين القادمة، إذا وجدت نفسك تعود إلى هذه الأفكار حتى تساعدك في إلقاء الضوء على ما تجده في حياتك اليومية من عناء ومشكلات.



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الفلسفة

أفلاطون

(Plato)

428 ق.م. ـ 348 ق.م.



أثينا قبل 2400 سنة من الآن. إنها مكان مزدحم يعيش فيه نحو مئتين وخمسين ألف إنسان. في هذه المدينة حمامات فاخرة، وفنون، ومعابد، وأسواق، وصالات رياضية. الفن مزدهر؛ والعلوم مزدهرة أيضًا؛ يمكنك شراء أسماك ممتازة من الميناء في بيرايوس. الطقس دافئ أكثر من نصف السنة.

كانت أثينا أيضًا موطن أول فيلسوف حقيقي في العالم، ولعله أعظم فيلسوف: أفلاطون.

ولد أفلاطون لأسرة ثرية ذات مقام رفيع في المدينة؛ وقد كرّس حياته لهدف وحيد: مساعدة الناس في الوصول إلى حالة أطلق عليها إسم أوديمونيا، أو «εὐδαιμονίαor»[1]. إن ترجمة هذه الكلمة اليونانية الدقيقة الساحرة صعبة بعض الشيء. فهي تكاد تعني «السعادة»، لكنها في الحقيقة أقرب إلى معنى «الاكتمال». وهذا لأن «السعادة» كلمة موحية بالبهجة المستمرة. في حين أن كلمة «اكتمال» متّفقة أيضًا مع فترات الألم والمعاناة الكبيرين - فترات يبدو أن ما من سبيل إلى تفاديها، حتى في حياة جيدة.

فما الذي اقترحه أفلاطون لجعل الناس أكثر «اكتمالًا»؟ إن في أعماله أفكارًا مركزية أربع:

1 ـ فكّر أكثر:

رأى أفلاطون أن قسمًا غير قليل من حياتنا يتّخذ وجهة خاطئة لأننا لا نكاد نمنح أنفسنا وقتًا للتفكير المتأنّي، ولا نكون منطقيين إلى الحدِّ الكافي في ما يتعلّق بخططنا. وهذا ما ينتهي بنا إلى قيَم أو مهنٍ أو علاقات سيئة. لقد أراد أفلاطون أن يُدخل إلى عقولنا وضوحًا ونظامًا.

لاحظ أفلاطون كثرة الأفكار التي نستمدّها مما يفكر فيه المجموع، أي مما كان اليونانيون يدعونه «*doxa*»، أو ما ندعوه الآن «الحسّ العام»، أو «الحسّ السليم». إلّا أنه بيّن، تكرارًا، في كتبه الستة والثلاثين، أن هذا «الحسّ السليم» فيه أغلاط كثيرة، وفيه

(1) أوديمونيا: الرخاء والازدهار البشريان.

أفكار مسبقة وخرافات. فالأفكار الشائعة عن الحب والشهرة والمال والخير غير قادرة على الصمود أمام المناقشة المنطقية.

أشار أفلاطون أيضًا إلى مدى اعتزاز الناس بأنهم مقودون بعواطفهم أو بغرائزهم (القفز إلى اتخاذ القرارات من غير الاعتماد على ما هو أكثر مما «يحسّونه»). وقد شبّه هذا بأن تجرَّ المرء -على نحو خطير- مجموعة خيول هائجة معصوبة الأعين.

كان فرويد مسرورًا بالاعتراف لأفلاطون بأنه مخترع المعالجة النفسية من حيث إصراره على أن نتعلّم كيف نُخضع أفكارنا ومشاعرنا كلّها للمناقشة المنطقية. وكما كتب أفلاطون مرارًا، فإن جوهر الفلسفة يتلخّص كلّه في النصيحة التالية: اعرف نفسك (γνῶθι σεαυτόν).

2 ـ كن حكيمًا في الحب:

أفلاطون واحد من أكبر منظرّيّ العلاقات العاطفية بين الجنسين. وقد كان كتابه «الندوة» (*The Symposium*) محاولةً لشرح ماهية الحب. يروي في هذا الكتاب قصة مأدبة عشاء أقامها الشاعر الوسيم آغاسون، ودعا إليها عددًا من أصدقائه حتى يأكلوا ويشربوا ويتحدّثوا عن الحب.

كانت لضيوفه جميعًا نظرات مختلفة في ماهية الحب. وقد قدّم أفلاطون إلى صديقه سقراط نظرية عظيمة الفائدة – سقراط واحد من الأشخاص الرئيسيين في هذا الكتاب وفي كتب أفلاطون كلّها. كانت نظريته على النحو التالي: عندما تقع في الحب، فإن ما يحدث حقًّا هو أنك ترى في شخص آخر بعض الخصال الحسنة غير الموجودة لديك. قد يكون ذلك الشخص هادئًا، وأما أنت فسريع الهياج؛ أو يكون شخصًا منضبطًا، في حين أنك في حالة فوضى دائمة؛ أو يكون فصيحًا، وأما أنت فعييّ اللسان.

الفكرة المتخيّلة الكامنة في الحب هي أن قربك من هذا الشخص قد يجعلك شبيهًا به بعض الشيء... وقد يساعدك في تحقيق مقدّراتك كلها.

رأى أفلاطون أن الحبَّ في جوهره نوع من التربية: لا يمكنك أن تحبّ أحدًا، أن تحبّه حقًا، إذا لم تكن راغبًا في أن يجعلك شخصًا أفضل. ينبغي أن يكون الحب لِقاءَ شخصين يحاولان النمو معًا ويساعد كل منهما الآخر في فعل ذلك. يعني هذا أنك في حاجة إلى القرب من الشخص الذي تجد أن لديه عنصرًا أساسيًا مفتقدًا من عناصر ارتقائك: أي إن فيه فضيلة غير موجودة فيك.

يبدو هذا غريبًا تمامًا في زماننا لأننا ميالون إلى تفسير الحب بأنه العثور على شخص كامل في حدِّ ذاته. وأحيانًا، يقول كل من الحبيبين للآخر، في غمرة مشاحنة بينهما: «لو كنت تحبني، لما حاولت تغييري».

لكن فكرة أفلاطون عكس هذا تمامًا: يريدنا أن ندخل العلاقات العاطفية بقدر أقل كثيرًا من الميل إلى هذه الروح «القتالية» وهذا الاعتزاز بالنفس. علينا أن نقبل بأننا لسنا أشخاصًا كاملين، وأن نسمح لأحبابنا بأن يعلّمونا بعض الأمور. تعني العلاقة العاطفية الجيدة ألّا نحبّ الشخص الآخر كما هو تمامًا، وهي تعني أيضًا التزامًا بمساعدته في أن يصير نسخة أفضل من ذاته – وتحَمّل المحطات العاصفة التي لا بد أن ينطوي عليها هذا الأمر – والتزامًا بألّا نقاوم محاولاته الرامية إلى تحسيننا.

3 ـ أهمية الجمال:

إلى حدٍّ كبير، يحب كل منا الأشياء الجميلة. لكننا ميّالون للنظر إليها باعتبارها غامضة قليلًا من حيث أثرها وسلطانها علينا، ونرى أنها، ضمن الصورة الكبيرة للأمور، ليست مهمة إلى حدٍّ كبير جدًّا.

لكن أفلاطون يذهب إلى أن هناك أهمية حقيقية لأشكال البيوت والمعابد والآنية والمنحوتات التي تكون من حولنا. لم يسبق أحد أفلاطون إلى طرح السؤال المفتاحي: لماذا نحبّ الأشياء الجميلة؟ لقد عثر على سبب ساحر حقًّا. إننا نرى فيها جزءًا من «ما هو خيّر». هناك أشياء كثيرة نتطلّع إلى التحلّي بها: الرقة، واللطف، والانسجام، والتوازن، وراحة البال، والقوّة، والكرامة. هذه كلّها خصائص بشرية. لكنها أيضًا خصائص في الأشياء. نتأثّر ونتحمّس عندما نجد في الأشياء خصالًا وخصائص نحن في حاجة إليها، لكنها غائبة عن حياتنا. من هنا، فإن للأشياء الجميلة وظيفة مهمّة بالفعل: إنها تدعونا إلى التطوّر والارتقاء في اتجاهها، وإلى أن نصير مثلها. إن الجمال قادر على تثقيف نفوسنا وتربيتها.

يستتبعُ هذا أن القبح أمر جدّي أيضًا، فهو يعرض أمامنا خصائص مَعيبة وخطيرة. إنه يشجّعنا على أن نكون مثله: قساة، فوضويون، متهوّرون. وهو يجعل من الأصعب علينا أن نكون حكماء، أو لطيفين، أو هادئين.

يرى أفلاطون في الفن وسيلة علاجية: إن من واجب الشعراء والرسامين (وفي أيامنا، يكون هذا أيضًا من واجب الروائيين والمصمّمين والمنتجين التلفزيونيين) أن يساعدونا في عيش حياة حسنة.

كان أفلاطون مؤمنًا بالرقابة على الفنون. لكن هذه ليست مفارقة مثلما قد تبدو لنا. إذا كان الفنانون قادرين على مساعدتنا على العيش عيشًا حسنًا، فهم، للأسف، قادرون أيضًا على إكساب الأفكار والمواقف غير المفيدة مكانة وجاذبية في عيوننا. إن كون المرء فنانًا غير كافٍ لضمان الاستخدام الحكيم لقوة الفن.

هذا ما جعل أفلاطون مؤمنًا بوجوب أن يعمل الفنانون تحت إشراف الفلاسفة، الذين يقدّمون إليهم الأفكار الصحيحة، ويطلبون منهم جعلها مقنعة وجذّابة للناس. إن على الفنّ أن يكون نوعًا من الدعاية من أجل الخير.

4 ـ تغيير المجتمع:

أنفق أفلاطون وقتًا طويلًا في التفكير في الكيفية المثالية التي ينبغي أن يكون عليها كلٌّ من المجتمع والحكومة. لقد كان أول مفكّر طوباوي في العالم.

وفي هذا المضمار، كان مصدر إلهامه خصم أثينا الكبير، مدينة إسبارطة. كانت إسبارطة آلة بحجم مدينة من أجل صنع المقاتلين العظام. وكان كل ما يفعله الإسبارطيون -كيف ينشئون أطفالهم؛ وكيف ينظّمون اقتصادهم؛ ومن يستقطب إعجابهم، وكيف يمارسون الجنس، وكيف يأكلون- مصمّمًا لخدمة تلك الغاية الوحيدة. وقد حقّقت إسبارطة نجاحًا كبيرًا جدًّا، من الناحية الحربية.

لكن أفلاطون ما كان مهتمًا بهذا كلّه. لقد أراد معرفة التالي: كيف السبيل إلى أن يتحسّن المجتمع، لا من حيث إنتاج القدرات الحربية، بل من حيث الرخاء والازدهار البشريين (إوديمونيا). وكيف تصير لديه قدرة موثوقة على مساعدة الناس في «الاكتمال». يحدّد أفلاطون في كتابه «الجمهورية» عددًا من التغييرات التي ينبغي إحداثها:

1) نحن في حاجة إلى أبطال جدد:

كان المجتمع الأثيني مفرط التركيز على الأثرياء، كالأرستقراطي سيّئ السمعة ألسيبياديس. وعلى كبار الرياضيين، كالملاكم ميلو من كروتون. إلّا أن أفلاطون لم يكن راضيًا عن هذا: هناك أهمية حقيقية لمن نجعلهم موضع إعجابنا؛ وذلك لأن لأولئك المشاهير أثرٌ على نظرتنا إلى العالم، وعلى تفكيرنا ومسلكنا. ومن شأن الأبطال السيئين أن يمنحوا نقائص الطبع وعيوبه ألقًا وجاذبية.

من هنا، أراد أفلاطون أن يعطي أثينا مشاهير جددًا، فيستبدل بالجمهرة السيئة التي كانت لديها أشخاصًا خيّرين وحكماء إلى حدٍّ مثاليٍّ كان يدعوهم «الأمناء»: نماذجَ يُحتذى بها من أجل التطور الجيّد لكلّ إنسان. ويكون لدى أولئك «الأمناء» سجلٌ متميّز في الخدمة العامة، والتواضع، والحياة البسيطة، والنفور من الأضواء، فضلًا عن الخبرة العميقة الواسعة. وسوف يكونون أكثر من يوقرهم المجتمع ويعجب بهم.

2) نحن في حاجة إلى رقابة:

في زماننا هذا، تثير كلمة «الرقابة» قلقًا في نفوسنا. لكن النوع الخاطئ من الحرية

هو ما كان مقلقًا لأفلاطون: كان الأثينيون معرضين تمامًا لأسوأ «بائعي الآراء». مفاهيم دينية مجنونة، وأفكار حلوة المظهر تستقطب حماسة الجمهور لكنها خطيرة، وتقود أثينا إلى حكومات متهوّرة وحروب لا معنى لها (من بينها هجوم على إسبارطة كانت له نتائج كارثية).

إن التعرّض المستمر لعاصفة من الأصوات المشوشة أمر سيئ جدًا بالنسبة إلينا – هذا ما كان يراه أفلاطون. وهذا ما جعله راغبًا في الحدّ من نشاطات من يخطبون في الناس، وكذلك من نشاطات الواعظين الخطيرين. لو كان حيًّا الآن، لنظر بريبة كبيرة إلى ما تتمتّع به وسائل التواصل الاجتماعي من قوة.

3) نحن في حاجة إلى تعليم أفضل:

كان أفلاطون شديد الحماسة لإيمانه بالتربية والتعليم، لكنه أراد إعادة النظر في محتوى ذلك التعليم. ليس الشيء الأولي المهمّ الذي لا بد لنا من تعلّمه مقتصرًا على الرياضيات واللغة، بل ينبغي لنا أن نتعلّم كيف نكون خيّرين: علينا أن نتعلّم عن الشجاعة، وضبط النفس، والتفكير المنطقي، والاستقلالية، والطبع الهادئ.

وحتى يضع أفلاطون هذه الأمور موضع التطبيق، أنشأ مدرسة في أثينا دعاها «الأكاديمية» ظلّت مزدهرة على امتداد أربعمئة عام. تذهبُ إلى تلك المدرسة لكي تتعلّم كيف تعيش جيّدًا، وكيف تموت جيّدًا.

لمن المدهش، والمحزن إلى حد غير قليل أبدًا، أن تكون المؤسسات الأكاديمية الحديثة قد جعلت من هذا الطموح تطلّعًا غير قانوني. فإن ظهر اليوم في جامعة أكسفورد أو هارفارد طالب ينشُد أن يتعلّم كيف يعيش، فسوف يستدعي الأساتذة رجال الشرطة... أو قد يتّصلون بمصحّة الأمراض العقلية.

4) طفولة أفضل:

تبذل الأسر قصارى جهدها. ويحالف الحظ الأطفال بعض الأحيان. يكون أهلهم معلّمين جيدين ومتوازنين، ويكونون ناضجين وحكماء على نحو يمكن الركون إليه. إلّا أن الأهل، في أحيان كثيرة جدًا، ينقلون حيرتهم واضطرابهم وفشلهم إلى أطفالهم.

كان أفلاطون يرى أن تنشئة الأطفال تنشئة حسنة واحدة من أكثر المهارات صعوبة (وأكثرها ضرورة). وقد كان شديد التعاطف مع الطفل الذي تعوق نموَّه بيئة منزلية غير سليمة.

هذا ما جعله يرى أن من الأفضل لأطفال كثيرين ألّا يتلقّوا فهمهم للحياة ونظرتهم إليها من آبائهم وأمهاتهم، بل من أوصياء يتحلّون بالحكمة تدفع الدولة أجورهم. وقد

اقترح أن تتمّ تنشئة شطر غير قليل من الجيل التالي على أيدي أشخاص أحسن من الأهالي تأهيلًا لهذه المهمة.

خلاصة

لا تزال أفكار أفلاطون متمتّعة بالقدرة على إدهاشنا وتحريض أذهاننا. وما يخدم تلك الأفكار هو طموحها ومثاليتها. لقد أراد أن تكون الفلسفة أداة لمساعدتنا في تغيير العالم. وسوف يظلّ المثال الذي كانه أفلاطون مصدر إلهام لنا.

أرسطو

(Aristotle)

384 ق. م. ـ 324 ق.م.



ولد أرسطو سنة 384 ق.م. في مملكة مقدونيا الإغريقية القديمة حيث كان والده طبيب البلاط الملكي. ثم كبر فصار صاحب أكبر أثر بين الفلاسفة جميعًا (هذا ما يراه كثيرون)، وحمل ألقابًا متواضعة من قبيل «المعلم» أو «الفيلسوف»، بكل بساطة. كان إشرافه على تعليم الإسكندر الأكبر واحدًا من أكبر الأعمال التي أدّاها إذ إن تلميذه لم يلبث أن انطلق وفتح العالم المعروف في ذلك الوقت.

تلقّى أرسطو تعليمه في أثينا، وعمل مع أفلاطون سنوات كثيرة، ثم استقلّ بنفسه. أقام مركزًا للبحث والتعليم أسماه «الليسيوم» (Lyceum): تُسمى المدارس الثانوية الفرنسية «ليسّيه» تكريمًا لذلك المشروع. وكان يحبّ التجوّل بين التلامذة أثناء التعليم ومناقشة الأفكار. وقد حمل أتباعه اسم «الجوّالون» (Peripatetics). وفي واقع الأمر، لم تكن كتبه الكثيرة إلّا دروسًا ألقاها.

كان أرسطو مفتونًا بكيفية حدوث الأشياء. فكيف يتطوّر جنين الدجاجة في البيضة؟ وكيف يتكاثر الأخطبوط؟ ولماذا تنمو نبتة نموًا حسنًا في هذا المكان، بينما لا تكاد تفلح في العيش إن وضعت في مكان آخر؟ وأهم من هذا كلّه، ما الذي يجعل حياة الإنسان، والمجتمع جملة، تسير سيرًا حسنًا؟ في نظر أرسطو، كانت الفلسفة معنية بالمعرفة العملية. وهناك أربعة أسئلة فلسفية كبرى أجاب عنها:

1 ـ ما الذي يجعل الناس سعداء؟

في «علم الأخلاق النيكوماخي» -عُرف كتاب أرسطو بهذا الاسم لأن ابنه نيكوماخوس تولّى تحريره- يطرح أرسطو على نفسه مهمّة تحديد العوامل التي تجعل الناس يعيشون حياة حسنة، أو غير حسنة. وقد ذهب إلى أن الأشخاص الأخيار والناجحين يمتلكون جميعًا فضائل بعينها؛ وقال إن من المفيد لنا أن نحدّد تلك الفضائل حتى نستطيع رعايتها وتنميتها في أنفسنا، وحتى نستطيع تقديرها لدى الآخرين.

أشار أرسطو أيضًا إلى أن كل فضيلة واقعة بين رذيلتين. وهي تحتل ما أسماه «الوسط الذهبي» بين حالتين حدّيتين من حالات الطبع البشري. فعلى سبيل المثال، ينظر أرسطو في كتابه «علم الأخلاق» -ضمن الفصل الموسوم «الفضائل والرذائل الكلامية» في

كيف يكون الناس أحسن، أو أسوأ، عند الكلام مع الآخرين: هَذَرٌ وتهريج؛ خفّة ظل؛ فظاظة.

لاحظ أرسطو أن معرفة كيفية خوض حديث جيّدٍ واحدٍ هو من المكوِّنات الأساسية للحياة الحسنة. يخطئ بعض الناس ذلك لأنهم يفتقرون إلى ذلك الحسّ الرهيف بالفكاهة: فها هو الشخص، الشخص المضجر، «شخص لا نفع منه في أي نوع من أنواع التواصل الاجتماعي لأنه لا يقدم شيئًا، ولأنه يستاء من كل شيء». إلّا أن هناك من يبلغ بالفكاهة حدّ الإفراط: لا يستطيع صاحب الطبع المَيّال إلى التهريج أن يضبط نفسه عند أية فرصة للمزاح، فلا يوفّر نفسه، ولا يوفّر أحدًا غيره، إن وجد أنه قادر على إضحاك الناس وقول أشياء لا يقولها شخص صاحب ذوقٍ حتى في أحلامه. من هنا، فإن الشخص الفاضل يكون في الوسط الذهبي بين هذين الحيّزين: خفيف الظل، لكنه فطنٌ أيضًا.

وفي استعراض ساحر للسلوك والشخصية، يبسط أرسطو ما يراه «أقل مما ينبغي»، و«أكثر مما ينبغي»، و«القدر الصحيح بالضبط»، وذلك في ما يتصل بجملة واسعة من الفضائل. نحن غير قادرين على تغيير سلوكنا تغييرًا سريعًا في أيٍّ من هذه المجالات. لكن التغيير يكون أمرًا ممكنًا في نهاية المطاف. يقول أرسطو إن الفضائل الأخلاقية ثمرةٌ لما يعتاده المرء. وهي في حاجة إلى زمن، ومِرانٍ، وتشجيع. وهذا ما جعله يذهب إلى وجوب النظر إلى الناس المفتقرين إلى الفضيلة على أنهم أصحاب حظٍّ عاثر، لا أشرار. وهم في حاجة إلى معلّمين أفضل وقدر أكبر من الإرشاد، لا إلى توبيخهم أو زجّهم في السجون.

2 ـ ما غاية الفن؟

في ذلك الزمان، كان المسرح فنًا يلقى إقبال الناس جميعًا. وكان الأثينيون يشاهدون المسرحيات في مهرجاناتهم المقامة في مسارح مكشوفة. كانت أسماء أسخيلوس، ويوروبيدس، وسوفوكليس، معروفة في كل بيت. وقد ألّف أرسطو دليلًا إرشاديًا إلى كتابة المسرحيات الممتازة اسمه «فن الشعر» (*The Poetics*). وهو كتاب زاخر بنصائح عظيمة. على سبيل المثال، احرص على استخدام «انقلاب الحظ» (*peripeteia*) عندما تتغير الأمور، بالنسبة إلى البطل، من الحسَن إلى السيئ. وكذلك «الصحوة الدرامية» (*anagnorisis*)، أي لحظة التجلّي الدرامي، عندما يدرك البطل فجأة أن حياته قد اتخذت وجهة سيّئة جدًّا، بل إنها صارت كارثة في حقيقة الأمر.

ولكن، ما غاية المسرح حقاً؟ ما الغاية من اجتماع الناس لكي يشاهدوا أشياء فظيعة تصيب الشخصيات الرئيسية؟... وذلك من قبيل ما حدث لأوديب في المسرحية التي

كتبها سوفوكليس؛ فهو يقتل أباه مصادفة، ثم يتزوج أمه، ثم يدرك ما فعله فيفقأ عينيه ندمًا وتحسّرًا. إجابة أرسطو هي «التطهّر» (*Catharsis*)، أي التخلّص مما هو سيئ. وفي هذه الحالة، يكون التطهّر هو تنظيف مشاعرنا - على وجه التحديد، اضطرابنا وحيرتنا إزاء أحاسيس الخوف والشفقة.

إن لدينا مشكلات أخلاقية هنا: نحن قساة القلوب، ونحن لا نجود بالشفقة حيث تكون مستحقة؛ ونحن أميَل إلى الجنوح وإما إلى المبالغة في مخاوفنا، أو إلى عدم الإحساس بالذعر كما ينبغي لنا. يذكرنا المسرح بأن أمورًا فظيعة يمكن أن تصيب أشخاصًا جيدين، بمن فيهم نحن. ومن الممكن أن يؤدّي خلل أو عيب صغير إلى اضطراب حياة بأسرها. وهذا يعني أنه ينبغي أن يكون لدينا تعاطف أكبر، أو شفقة أشدّ، إزاء أولئك الذين تكون أفعالهم خاطئة إلى حد كارثيّ. نحن في حاجة إلى إعادة تعلّم جماعية لهذه الحقائق ذات الأهمية الحاسمة، وذلك على نحو منتظم. فمهمة الفنون -كما رآها أرسطو- هي جعل الحقائق العميقة في ما يخص الحياة راسخة في أذهاننا.

جدول الفضائل والرذائل			
مجال الفعل أو الشعور	إفراط	توسّط	نقص
الخوف والثقة بالنفس	الطّيش	الشجاعة	الجبن
المتعة والألم	الشهوة المفرطة	الاعتدال	البلادة
الكسب والإنفاق (في حدود صغرى)	التبذير	السخاء	عدم السخاء
الكسب والإنفاق (في حدود كبرى)	السّوقية	العظمة	النذالة
الشّرف والضّعة (في حدود كبرى)	الخيلاء والغرور	الشّهامة	الجبن
الشّرف والضّعة (في حدود صغرى)	الطّموح	الطّموح المعقول	انعدام الطموح
الغضب	شدّة الانفعال	الصّبر	الخواء
التعبير عن النفس	التشدّق	الصّدق	التواضع
المحادثة	التّهريج	الظُّرف	الإضجار
السلوك الاجتماعي	فرط المجاملة	المودّة	المشاكسَة
مشاعر الخجل	الاستحياء	التواضع	قلّة الحياء
مشاعر الاستياء والسّخط	الحسد	الاستياء المحقّ	السرور الخبيث

جدول الفضائل والرذائل لدى أرسطو

3 ـ ما الغاية من الأصدقاء؟

في الجزأين الثامن والتاسع من كتابه «علم الأخلاق»، يحدّد أرسطو ثلاثة أنواع من الصداقة. هناك صداقة تأتي عندما يكون كل شخص من طرفيها باحثًا عن المرح والبهجة ويكون اهتمامه الأول منصبًّا على متعته وعلى الفرصة التي تتيحها له اللحظة؛ وهذا ما يوفّره له الشخص الآخر. وهناك أيضًا صداقة تقوم على معرفة استراتيجية حقًّا حيث يستمتع كل من الشخصين بصحبة الآخر طالما كان لديه أمل الاستفادة منه.

وهناك نوع ثالث هو الصداقة الحقيقية. ليس الصديق الحقيقي شخصًا مثلك، بل هو شخص ليس أنت، لكنّك تحرص عليه مثلما تحرص على نفسك. يكون حزن الصديق الحقيقي حزنك أنت. وتكون فرحته فرحتك. ويصيبك بالضعف كل ما يحلّ به من مكروه. إلّا أن ذلك يمنحك قوّة كبيرة أيضًا. تصير متحرّرًا من المدار الصغير المحدود لأفكارك ومخاوفك الخاصّة بك. تتّسع حياتك وتمتدّ إلى حياة شخص آخر؛ وتصيران معًا أكبر وأكثر ذكاء وقوة ورجاحة عقل. إنكما تتقاسمان الفضائل، ويخفف كل منكما ما لدى الآخر من رذائل وعيوب. تُعلّمنا الصداقة كيف ينبغي أن نكون. وهي -حرفيًا أفضل جزء من أجزاء الحياة.

4 ـ كيف يمكن أن يكون للأفكار أثرها في عالم مزدحم؟

مثلما يحدث لبشر كثيرين، فوجئ أرسطو كثيرًا بحقيقة أن أحسن الحجج المنطقية لا تخرج فائزة دائمًا في المجادلات والمناظرات، أو أنها لا تحظى بقدر كبير من الشعبية. أراد أن يعرف سبب حدوث هذا، وما يمكن أن نفعله في هذا الشأن. وقد سنحت له فرص كثيرة لمراقبة الأمر. في أثينا، كانت قرارات كثيرة تتّخذ أثناء المناقشات العامة الجارية في «الأغورا» التي هي ساحة المدينة حيث يتنافس الخطباء من أجل استمالة الرأي العام.

تمكّن أرسطو من تمييز الطرق التي يتأثّر بها الجمهور والأفراد بعوامل كثيرة، لكنهم لا يتقيّدون كثيرًا بالمنطق أو بحقائق الحالة المعنية. أمر يثير الجنون، ولا يستطيع أشخاصٌ جادّون كثيرون احتماله؛ وهذا ما يدفعهم إلى تجنّب الساحة والمناقشات العامة. إلّا أن أرسطو كان أكثر طموحًا، لقد اخترع ما نسميه «فن البلاغة» (rhetoric) - أي فن جَعْل الناس يتّفقون معك. نحن في حاجة إلى أن يتعلم الأشخاص الجادّون، الفطنون، ذوو النيات الحسنة، كيف يكونون مقنعين، وكيف يتمكّنون من الوصول إلى من هم غير متّفقين معهم بعد.

يورد أرسطو عددًا من الأفكار التي تظلّ صحيحة على مرّ الزمان: لا بد لك من تهدئة مخاوف الناس؛ وعليك أن تبصر الجانب العاطفي الانفعالي في الأمر المطروح: هل يشعر أحدهم بأن كبرياءه قد صار على المحك؟ هل يشعر أحدهم بالحرج؟ وبعد ذلك، عليك أن تُدخل هذه العوامل في الحسبان. عليك أيضًا أن تجعل كلامك ممتعًا للناس لأن فترات الانتباه والتركيز قصيرة دائمًا. وقد يكون عليك أن تستخدم رسومًا وأمثلة توضيحية حتى تجعل فكرتك حيّة في أذهان المستمعين.

نحن تلامذة نتعلّم من أرسطو. وفي يومنا هذا، لا تبدو الفلسفة نشاطًا عمليًا تمامًا... لعلها لا تبدو كذلك لأننا لم نكن نولي أرسطو اهتمامًا كبيرًا في الآونة الأخيرة.

الفلاسفة الرواقيون

(The Stoics)



ازدهرت الفلسفة الرواقية على امتداد أربعمئة سنة في اليونان القديمة وفي الدولة الرومانية، واكتسبت تأييدًا واسعًا بين طبقات المجتمع كلّها. كان لهذه الفلسفة طموح واسع متّسم بصفة عملية إلى حدٍّ كبير: تعليم الناس كيف يكونوا هادئين وشجعانًا في مواجهة القلق الطاغي وفي مواجهة الألم.

ونحن نكرّم هذه المدرسة الفلسفية كلّما قلنا عن واحد من الناس إنه «رواقي» أو «صبور» أو «فلسفي» عندما تقلب له الأقدار ظهر المِجَن: عندما تضيع مفاتيح بيته؛ وعندما يقلّلون من شأنه في العمل؛ وعندما يواجه رفضًا في الحب أو خزيًا في المجتمع. ومن بين الفلسفات كلها، قد تكون الرواقية أكثر فلسفة لها صلة مباشرة وآنية، ووحيدة أيضًا، بما في زماننا هذا من اضطراب وذعر.

مارس مئات الفلاسفة الفلسفة الرواقية؛ إلّا أن من بينهم فيلسوفين يمكن اعتبارهما أفضل من يمكن أن يرشدنا إليها: السياسي الروماني سينيكا (4 ق. م. – 65 م.) الذي كان كاتب الإمبراطور نيرون ومعلّمه. والإمبراطور الروماني العظيم الطيب ماركوس أوريليوس (121م. – 180م.) (الذي كان يمارس الفلسفة في أوقات فراغه أثناء قتاله قطعان القبائل الجرمانية على أطراف إمبراطوريته). لا تزال أعمال هذين الفيلسوفين صالحة جدًا للقراءة، ولا تزال مصدر سلوى ومادة مثالية للقراءة في ليالي الأرق التي تكثر فيها الأفكار المخيفة المرهقة للنفس.

إن الفلسفة الرواقية قادرةٌ خاصةً على مد يد العون إلينا في أربع مسائل:

1 ـ القلق.

من الممكن في أي وقت أن تحدث أمور مخيفة كثيرة. والطريقة المعتادة التي يستخدمها الناس لكي يروّحوا عن أنفسنا عندما نغرق في القلق هو قولهم لنا أن كل شيء سيكون على ما يرام في آخر المطاف: قد لا يكتشف أحد أمر ذلك الإيميل الذي يضعك في موقف محرج؛ وقد تتحسّن المبيعات بعد حين؛ وقد لا تثور فضيحة...

إلّا أن الرواقيين يعارضون هذا الأسلوب معارضة شديدة لأنهم يرون أن القلق يجد أحسن مكان لنموه وازدهاره في الفجوة الكائنة بين ما نخشى أن يحدث وما نأمل حدوثه.

كلما ازدادت هذه الفجوة اتساعًا، كلما ازدادت تذبذباتنا واضطرابات حالتنا النفسية. إن ما علينا فعله، حتى نستعيد روعنا، هو أن «نسحق»، بطريقة منهجية وعقلانية، كل أمل باقٍ لدينا. فبدلًا من هدهدة أنفسنا بحكايات متفائلة، يكون من الأفضل كثيرًا جدًا (هذا ما يذهب إليه الرواقيون) أن نتصالح بشجاعة مع أسوأ الاحتمالات على الإطلاق. عندما ننظر إلى مخاوفنا وجهًا لوجه ونتخيّل ما يمكن أن تكون الحياة إذا بقينا صادقين، فإننا نصل إلى إدراكٍ ذي أهمية حاسمة: سوف نتمكّن من تدبّر أمرنا. سوف نتمكّن من تدبّر أمرنا حتى إذا كان علينا أن نذهب للسجن؛ وحتى إذا خسرنا مالنا كله؛ وحتى إذا حلّ بنا العار في المجتمع؛ وحتى إذا هجرَنا من نحبهم؛ وحتى إذا تبيّن أن الورَم الذي أصابنا ورم خبيث (كان الرواقيون راسخي الإيمان بالانتحار).

نحن لا نجرؤ، بشكل عام، على فعل ما يتجاوز إلقاء نظرة خاطفة عبر أجفان شبه مغلقة على النتائج المخيفة التي يمكن أن نصل إليها؛ ولهذا فهي تظلّ قادرة على الإطباق علينا بقبضتها السادية من غير انقطاع. بدلًا من ذلك، بحسب تعبير سينيكا: «حتى تخفّف قلقك، فإن عليك افتراض أنّ ما تخشى إمكانية حدوثه سوف يحدث بكل تأكيد». وقد رد سينيكا، بكل فجاجة، على صديقه الذي حطّمه خوفه من احتمال الزج به في السجن: «من الممكن دائمًا أن يحتمل السجن شخص فهم الوجود فهمًا صائبًا».

يقترح علينا الرواقيون أن نخصّص وقتًا لكي «نمارس» المسارات التي يمكن أن تتخذها الأمور: علينا مثلًا أن نخصص أسبوعًا في السنة لا نأكل فيه شيئًا غير الخبز البائت، ولا ننام إلّا على حصير، ولا نستخدم إلّا بطانية واحدة... بهذه الطريقة، نتخلّص من خشيتنا الشديدة من طردنا من البيت أو من إلقائنا في السجن.

يقول ماركوس أوريليوس إننا سندرك عند ذلك «أننا لا نحتاج إلّا إلى أقل القليل حتى تكون حياة المرء سعيدة».

وفي كل صباح، يقوم الرواقي الصادق بـ«تأمّل مسبق»: تأمّل مسبق في كل ما يمكن أن تحمله له الساعات القادمة من أشياء مخيفة. إن لسينيكا كلمات قد تثير القشعريرة: «وُلِدتُ فانيًا، ووَلّدتَ فانين. ولهذا فإن عليك أن تتفكر في كل شيء، وأن تتوقّع كل شيء».

ليست الرواقية بأقل من تمرين ذكي من أجل استقبال الكوارث.

2 ـ الغضب.

إننا نغضب – نغضب من شركائنا خاصّة، ومن أطفالنا، ومن سياسيينا. إننا نحطم الأشياء، ونوقع الأذى بالآخرين. لكن الرواقيين يرون أن الغضب تهاون خطير مع

النفس؛ بل هو أيضًا نوع من الغباء. وذلك لأن الانفجارات الغاضبة، بحسب تحليلهم، لا تكون ناتجة إلّا عن أمر واحد وحيد: صورة مغلوطة للوجود. إنها الثمار المرّة للسذاجة.

يذهب الرواقيون إلى أن الغضب يحدث نتيجة التصادم العنيف بين الأمل والواقع. نحن لا نصرخ غاضبين كلّما وقع لنا أمر محزن، بل نفعل ذلك فقط عندما يكون الأمر المحزن غير منتظَر. بالتالي، حتى نكون أكثر هدوءًا، يتعيّن علينا أن نتعلّم كيف نقلّل إلى أقصى حد ما نتوقّعه من الحياة. فبالطبع، سوف يخيّب من نحبهم آمالنا؛ ومن الطبيعي أن يخذلنا زملاؤنا؛ ولا مفرّ أبدًا من أن يكذب أصدقاؤنا علينا... ليس لنا أن يفاجئنا أي شيء من هذا كله. قد يجعلنا ذلك نشعر بالحزن؛ لكن من غير الجائز أبدًا، إن كنا رواقيين، أن يجعلنا غاضبين.

على الإنسان الحكيم أن يستهدف الوصول إلى حالة لا يفلح فيها أي شيء في أن يصيب صفاء حالته الذهنية بأي اضطراب مفاجئ. فمن الواجب أن تكون المآسي كلّها داخلة في الحساب. يسألنا سينيكا: «ما الداعي إلى البكاء على أجزاء من الحياة إن كانت الحياة كلّها مدعاة للبكاء؟»

3 ـ جنون الارتياب.

ما من شيء أسهل من الظنّ بأن الأشياء السيّئة تستهدفنا دونًا عن غيرنا. نتساءل عن السبب الذي يجعلها تصيبنا. ونمزّق أنفسنا لومًا، أو نصبّ حقدنا على العالم.

ينهانا الرواقيون عن هذا وذاك: فالغلطة ليست غلطتنا، وليست غلطة أي شخص آخر. على الرغم من بعدهم عن الدين، كان الرواقيون مفتونين بربّة الحظ الرومانية المعروفة باسم «فورتينا» التي كانت معابدها منتشرة في الإمبراطورية، وكان أكثر الناس يعتقدون بأنها متحكّمة بأقدار البشر، وكانوا يعتبرونها مزيجًا مفزعًا من الكرم والمزاجية والحقد. لم تكن فورتينا واحدة من أهل الطبع الفاضل! وقد كانوا يمثّلونها على هيئة امرأة تحمل في إحدى يديها حُقًّا كبيرًا على شكل قرن حيوان ممتلئًا بالخيرات كلّها (المال، والحب، إلخ)، وتحمل في يدها الأخرى سجلًا يمكّنها من تغيير مجرى الحياة. وبحسب مزاجها، من الممكن أن تنعم عليك بوظيفة رائعة، أو بعلاقة عاطفية جميلة؛ ثم لا تلبث بعد دقيقة واحدة أن تجعلك تموت مختنقًا بشيء علق في حلقك، لمجرد أنها أحسّت برغبة في ذلك.

يرى الرواقيون أهمية كبرى في احترام حقيقة وقوع قدر كبير من الحياة بين أيدي هذه المخلوقة المعتوهة. ويقول لنا سينيكا منذرًا: «ما من شيء لا يجرؤ الحظ على فعله».

إن من شأن الفهم المسبق لهذا الأمر أن يجعلنا، في الوقت نفسه، نكف عن الاطمئنان إلى النجاح، ولا نقسو على أنفسنا كثيرًا عند الفشل. ففي كل حال من الأحوال، نحن لا نستحق معظم ما يصيبنا.

من هنا، تكون مهمّة الشخص العاقل ألّا يؤمن أبدًا بما يهبه الحظ: المجد، والمال، والقوة، والحب، والصحة -هذه أشياء لا نمتلكها أبدًا-. وينبغي دائمًا أن تكون حيازتنا لها «خفيفة الوطأة»، وأن نظلّ في حذرٍ دائمٍ إزاءها.

4 ـ فقدان المنظور الصحيح.

نميل بطبعنا إلى المبالغة في أهمّيتنا. وتحتل الحوادث التي تجري في حياتنا مكانة كبيرة في نظرتنا إلى العالم. وهذا ما يجعلنا نتوتّر، ونقع في حالات من الذعر، ونشتم، ونقذف بالأشياء من أول الغرفة إلى آخرها.



منظر من ولادة نجم في منطقة S106 الذي نشرته وكالة الفضاء الأميركية «ناسا"

حتى نستعيد روعنا ونتمالك أنفسنا، علينا أن نعمل دائمًا على التقليل من شأن أنفسنا في أعيننا. علينا أن نكفّ عن الإيمان بذلك الوهم المألوف كثيرًا، لكنه خاطئ تمامًا، القائل إن هناك أهمية لما نفعله ولما نكونه.

كان الرواقيون مولعين بعلم الفلك؛ وكانوا ينصحون طلاب الفلسفة جميعًا بتأمّل

السموات. أنظر إلى الكواكب عندما تخرج في نزهة مسائية: سوف ترى الزهرة والمشتري مشعَّين في السماء التي تزداد ظلمة. وإذا صارت الظلمة شديدة، فمن الممكن أن ترى نجومًا أخرى -البدران، وأندروميدا، وبرج الجمل، وغيرها الكثير-. هذه لمحة عن اتساع الفضاء الذي يصعب تخيّله ضمن المنظومة الشمسية، وضمن المجرّات والكون كلّه. إن لذلك المشهد أثرًا مهدئًا يجلّه الرواقيون كثيرًا لأننا ندرك، عندما نرى هذه الصورة، أن نجاحاتنا وخيباتنا وآمالنا كلّها لا أهمية لها أبدًا.

فمن منظور كوني، ما من أهمية لأي شيء يصيبنا، وما من أهمية لأي شيء نفعله.

خاتمة

نحن في حاجة إلى الرواقيين أكثر من أي وقت مضى. وذلك أن كل يوم يأتي يواجهنا بحالات فهموها وأرادوا جعلنا متأهّبين لها.

تعاليمهم قاتمة، لكنها تجعل الإنسان يصحو؛ وهي ذات أثر عميق من حيث سلواها للروح البشرية، على أنها قد تكون غريبة في بعض نقاطها.

تدعونا هذه التعاليم إلى أن يكون لدينا إحساس بطولي متمرّد في مواجهة مشكلاتنا ومصاعبنا الكثيرة.

يذكّرك سينيكا بأن عليك أن «تنظر إلى يديك. فهناك -في كل وقت- تجد الحرية».

حتى نعثر على ثقل موازٍ لنزوعنا، المبتهج الساذج، إلى التفاؤل في زماننا هذا، ما من شيء أفضل من الحكمة المهدّئة، الحكمة الحلوة المرّة، لدى أولئك العقلاء القدامى.

إبيقور

(Epicurus)

341 ق.م. ـ 270 ق.م.



ولد الفيلسوف الإغريقي القديم إبيقور في سنة 341 قبل الميلاد في جزيرة ساموس الواقعة على مسافة أميال قليلة من ساحل دولة تركيا الحالية. كان صاحب لحية طويلة إلى حدٍّ غير مألوفٍ. وقد كتب أكثر من ثلاثمئة كتاب. كان أيضًا واحدًا من أوسع الفلاسفة شهرة في زمانه.

ما جعله شهيرًا هو تركيزه الحاذق المستمرّ على موضوع واحد بعينه: السعادة. كان الفلاسفة الذين من قبله راغبين في معرفة كيف يكون المرء صالحًا. وأما إبيقور فقد أصرّ على رغبته في التركيز على ما يجعل الإنسان سعيدًا. قلائل هم الفلاسفة الذين أفصحوا عن اهتماماتهم بهذه الصراحة والواقعية. فوجئ أناس كثيرون، بل صدموا خاصّة عندما سمعوا أن إبيقور قد أنشأ مدرسة للسعادة أسماها «الروضة». وأما فكرتهم عمّا كان يجري داخل تلك المدرسة فقد كانت صادمة جدًّا وذات إغراء عميق. وقد سرّب عدد ممن تركوا الإبيقورية أخبارًا مؤذية عمّا كان يجري في تلك المدرسة. قال تيموكراتس إن إبيقور يتقيّأ مرتين كل يوم لأنه يمضي وقته كله على الأريكة حيث يأتيه فريق من العبيد بوجبات متعاقبة من أفخر أنواع اللحوم والأسماك. كما نشر الرواقي ديوتيموس خمسين رسالة فاحشة، قال إن إبيقور كتبها ووجهها إلى نفر من تلامذته الفتيان عندما كان ثملًا ولا شيء في ذهنه غير الجنس. ونتيجة هذه الدسائس، لا نزال نستخدم أحيانًا صفة «إبيقوري» في وصف البذخ والانحلال.

إلّا أنه ما من أساس للربط بين إبيقور وهذه الأفكار. فالحقيقة في ما يخص إبيقور أقل إثارة للحواس بشوط بعيد... إلّا أنها أكثر إثارة للاهتمام بشوط بعيد أيضًا. لقد كان تركيز ذلك الفيلسوف الإغريقي منصبًّا حقًّا على السعادة والمتعة؛ لكنه ما كان مهتمًّا بالوجبات الباذخة ولا بالإفراطات الجنسية. ما كان لديه إلا ثوبان اثنان؛ وما كان يأكل غير الخبز والزيتون؛ وإذا أسرف أحيانًا، فقد يأكل قطعة جبن. إلّا أنه انكبّ انكبابًا صبورًا على دراسة السعادة، وأمضى في ذلك سنين كثيرة، فتوصّل إلى مجموعة من النتائج الثّورية المتميزة في شأن ما يلزمنا حقًّا حتى نكون سعداء؛ وهي نتائج متعارضة كل التعارض مع ظنّ الناس في زمانه -وفي زماننا أيضًا-.

رأى إبيقور أننا عادة ما نرتكب ثلاثة أغلاط عندما نفكر في السعادة.

1 ـ نظن أننا في حاجة إلى علاقات عاطفية.

كان الناس في ذلك الزمان -كما هم الآن- منشغلين بالحب. لكن إبيقور لاحظ أن السعادة والحب (فضلًا عن الزواج) لا يكادان يتّفقان أبدًا. فهناك قدر زائد من الغيرة وسوء التفاهم والمرارة. يكون الجنس على الدوام مشوبًا بتعقيدات كثيرة، ونادرًا ما يكون منسجمًا مع العاطفة. استنتج إبيقور أن على المرء ألّا يبالغ في علاقاته العاطفية. وعلى النقيض من ذلك، أشار إلى أن الصداقة تكون منبعًا للرضا والاكتفاء، في أحسن الأحوال. فهنا نكون مهذّبين، ونبحث عن الاتفاق، ونتمنّع عن التوبيخ والمذمّة، ولا نكون نزّاعين إلى الامتلاك. لكن المشكلة هي أننا لا نرى أصدقاءنا بالقدر الكافي. إننا نترك للعمل والأسرة أن يحتلا المقام الأول. لا نستطيع العثور على وقت لأصدقائنا. وهم يعيشون بعيدًا عنا.

2 ـ نظن بأننا في حاجة إلى مال كثير.

في ذلك الزمان، كما هو الحال في زماننا، كان الناس منشغلين في أعمالهم تشدّهم الرغبة في حيازة المال والثناء. لكن إبيقور شدّد على الصعوبات التي تكتنف كل عمل: الغيرة، والغيبة، والطموحات الخائبة.

وقد كان إبيقور يرى أن ما يجعل العمل مُرضيًا حقًّا هو أن نتمكّن من أن نعمل منفردين، أو ضمن جماعات صغيرة جدًّا؛ وكذلك عندما ينشأ لدينا إحساس بأننا نساعد الآخرين بطريقة من الطرق، أو بأننا نصنع أشياء تجعل العالم أفضل حالًا. لا نكون، في حقيقة الأمر، راغبين في مال ولا في مكانة، بل في إحساس بالرضا ناتج عن كدّنا.

3 ـ نؤمن إيمانًا زائدًا بالرخاء.

نحن نحلم بالرخاء: بيت جميل، وغرف أنيقة، ومناظر تسرّ العين. نتخيل رحلات إلى أماكن مثالية حيث نستطيع أن نرتاح ونترك الآخرين يهتمّون بنا ويخدموننا...

لكن إبيقور غير متّفق مع هذه الأشياء التي نتوق إليها. فهو يعتقد بأن الهدوء هو ما نريده من خلف هذه الخيالات عن الرفاهية. لكن ذلك الإحساس بالهدوء والسكينة لا يمكن أن يأتي -ببساطة- من خلال تغيير المنظر الذي نراه، أو نتيجة امتلاك بيت جميل.

ذلك أن السكينة خصّيصة داخلية تكون ناتجة عن التحليل: تأتي السكينة عندما نتأمل مخاوفنا وأسباب قلقنا، واحدًا تلو الآخر، ونفهمها على الوجه الصحيح. من هنا، فنحن في حاجة إلى وقت وافر للقراءة والكتابة، وفوق هذا كله، للاستفادة من المساندة التي عادة ما نتلقّاها من مستمع جيدٍ: شخص ذكي، لطيف، متعاطف، يمكن أن يكون في زمن إبيقور فيلسوفًا، ويمكنّ أن يكون في زماننا هذا معالجًا نفسيًا.

اعتمادًا على تحليله للسعادة، طرح إبيقور ثلاثة تجديدات مهمة:

- أولًا، قرر أن يعيش مع أصدقاء. لقد اكتفى من عدم رؤيتهم إلّا من وقت لآخر. اشترى رقعة أرض مقبولة الثمن قريبة من أثينا، وبنى مكانًا يستطيع العيش فيه جنبًا إلى جنب مع أصدقائه عيشة دائمة. يكون لكل واحد منهم مسكنه؛ ولهم حيّز مشترك في الطابق السفلي وفي الخارج. على هذا النحو، يكون السكان محاطين دائمًا بأشخاص يشاطرونهم نظرتهم، بأشخاص لطيفين ومسلّين. وأما مهمة رعاية الأطفال، فإن القاطنين يتولّونها بالدور. يأكل الجميع معًا. ويستطيع المرء تبادل الأحاديث ليلًا في الممرات مع الآخرين. لقد كانت هذه أول مشاعة حقيقية في العالم.
- ثانيًا، يكف كل من في هذه المشاعة عن العمل لدى أشخاص آخرين. يقبلون جميعًا أن تنقص مداخيلهم مقابل تمكّنهم من التركيز على أعمال تجعلهم يشعرون بالغنى والإشباع. كرّس عدد من أصدقاء إبيقور أنفسهم للزراعة والبستنة؛ وكرس غيرهم أنفسهم لإعداد الطعام؛ وانصرف نفر للفنون وصناعة قطع الأثاث. نقص ما لديهم من مال؛ لكنهم حصلوا على رضا حقيقي وافر.
- ثالثًا، انكبّ إبيقور ورفاقه على مهمة الوصول إلى الهدوء والسكينة من خلال التبصّر والتحليل المنطقي. كانوا ينفقون شطرًا كبيرًا من كل يوم في التأمل في مخاوفهم ومنابع قلقهم وفي تطوير فهمهم لنفسياتهم، وفي التمكن من المسائل الكبرى في الفلسفة.

لقيت تجربة إبيقور في العيش نجاحًا. انتشرت المشاعات الإبيقورية على طول سواحل البحر المتوسط واجتذبت آلاف المريدين. ظلت هذه المراكز مزدهرة أجيالًا كثيرة إلى أن تعرّضت لقمع وحشي من جانب الكنيسة المسيحية العدوانية الغيورة في القرن الخامس الميلادي. إلّا أن جوهر تجربتهم ظلّ حياً، على الرغم من ذلك، عندما تحوّل كثير منهم إلى العيش في الأديرة.

استمر أثر إبيقور إلى العصر الحديث. وقد جعله كارل ماركس موضوع أطروحة الدكتوراه التي قدّمها، وكان فيلسوفه المفضل. إن ما ندعوه شيوعية هو، في جوهره، نسخة من التصوّر الإبيقوري، لكنها نسخة أكثر سلطوية وخالية من البهجة.

وحتى في أيامنا هذه، يظلّ إبيقور دليلًا ومرشدًا للعيش لا يستغنى عنه في مجتمعاتنا الرأسمالية الاستهلاكية المتقدمة لأن الدعاية -التي يقوم عليها هذا النظام- تعمل على التلاعب الذكي بالناس في شأن ما يظنون أنهم في حاجة إليه حتى يكونوا سعداء.

يركّز عدد كبير جدًّا من الإعلانات على الأشياء الثلاثة التي حدّدها إبيقور باعتبارها وعودًا مغرية زائفة بالسعادة: الحب الرومانسي، والرفاهية، والمكانة الوظيفية.

لا يمكن أن تصل الإعلانات إلى ما تحقّقه من نجاح لو لم تكن مصنوعة وفق إحساس دقيق بما هي حاجاتنا الحقيقية. لكن، وفي حين تثير تلك الإعلانات حماستنا من خلال استحضارها تلك الحاجات، فإنها ترفض تلبيتها تلبية حقيقية. نرى في إعلانات البيرة جماعات من الأصدقاء المتعانقين، لكنها لا تبيعنا إلّا كحولًا قد ينتهي الأمر بنا إلى شربه وحدنا. وإعلانات الساعات الفاخرة تقدم لنا اختصاصيين ذوي مكانة رفيعة يسيرون بخطوات واثقة صوب مكاتبهم، لكننا لا نحصل منها على ما يرشدنا إلى العمل الذي يحقق لنا الرضا والاكتفاء الحقيقيين. وقد تذهلنا إعلانات الشواطئ المدارية بما فيها من صفاء ووداعة، لكنها غير قادرة في حد ذاتها على أن تقدم إلينا الهدوء والسكينة اللتين نتوق إليهما.

يدعونا إبيقور إلى تغيير فهمنا لأنفسنا، وإلى العمل على تغيير مجتمعنا بما ينسجم مع ذلك. علينا ألّا نستنفد أنفسنا، وألّا نستنفد كوكبنا، في سباق من أجل أشياء لا يمكن أن تخلق الرضا في نفوسنا، حتى إذا حصلنا عليها. نحن في حاجة إلى العودة إلى الفلسفة، وإلى المزيد من الجدّية في التعامل مع مسألة الوصول إلى السعادة.

أوغسطين

(Augustine)

354 ـ 430 م.



كان أوغسطين فيلسوفًا مسيحيًا، عاش في أوائل القرن الخامس الميلادي على أطراف الإمبراطورية الرومانية التي كانت في مرحلة أفولها السريع، وذلك في مدينة هيبو في شمال أفريقيا (اسمها اليوم عنّابة، وهي مدينة في الجزائر).

كان أسقفًا طيلة ثلاثين عامًا أثبت خلالها شعبية واسعة، وقدّم الإرشاد الروحي لرعيته التي كان يغلب عليها الفقر والجهل. وفي آخر أيامه، غزت مدينته القبائل الجرمانية المعروفة بالفاندال وأحرقتها، وقتلت جنودها، وسبت صباياها؛ لكنها تركت كاتدرائية أوغسطين ومكتبته من غير أن تمسّهما نظرًا لما كانت تحظى به منجزات ذلك الفيلسوف الكهل من احترام كبير.

إنه شخص مهمّ لنا اليوم، نحن غير المسيحيين، نتيجة ما انتقده في الدولة الرومانية من قيم ونظرة إلى العالم، ونتيجة المشتركات الكثيرة بين تلك الدولة والغرب الحديث، الولايات المتحدة الأميركية خاصّة التي بلغ من إجلالها الإمبراطورية الرومانية أنها أرادت جعل عاصمتها على نهر بوتوماك تبدو كأنها منقولة -بفعل سحر- من ضفاف نهر التيبر.

كان الرومان مؤمنين خاصّة بأمرين اثنين:

1 ـ السعادة الدنيوية.

كان الرومان عامةً أميل إلى التفاؤل. وكان بناة الكولوسيوم، و«بونت دو غارد» مؤمنين بالتكنولوجيا وبقدرة البشر على أن يكونوا سادة أنفسهم، وكذلك بقدرتهم على التحكّم بالطبيعة وعلى ترتيب الأمور بما يحقّق لهم السعادة والرضا. يعثر المرء لدى كتّاب من أمثال شيشرون وبلوتارك على سوية من الطموح والاعتزاز والثّقة بالمستقبل ليست مختلفةً كثيرًا -في بعض المواضع- عمّا يمكن أن يجده في مدينة بانو آلتو في كاليفورنيا، أو في صفحات مجلة «Wired». كان الرومان ممارسين متحمّسين لما ندعوه اليوم «المساعدة الذاتية»؛ أي تدريب الجمهور من أجل التوصّل إلى قدرٍ متعاظم من النجاح والفاعلية. ففي نظرهم، كان الحيوان البشري شيئًا قابلًا تمامًا لبلوغٍ الكمالً.

2 ـ النظام الاجتماعي العادل.

على امتداد أزمنة طويلة، كان الرومان مطمئنين إلى أن مجتمعهم متّسم بالعدل.

صحيح أن وراثة الثروة كانت عاملًا بالغ الأهمية، إلّا أنهم آمنوا أيضًا بأن أصحاب الطموح والذكاء قادرون على إحراز النجاح. وكانت لديهم ثقة بأن الجيش صاحب فضيلة. وأما القدرة على جني المال، فقد اعتبروها تجلّيًا لكل من المهارات العملية ولقدرٍ من الفضيلة الذاتية. من هنا، كانت مباهاة المرء بثرائه أمرًا مشرّفًا، ومنبع عزة. كان الاستهلاك لديهم موضع فخر؛ وكانت الشهرة قيمة تتمتّع باحترام عام.

إلّا أن أوغسطين عارض هذين الموقفين خاصة معارضة ضارية. ففي عمله الأكبر، «مدينة الرب»، شرّح أوغسطين كلًا من هذين المذهبين بطرق لا تزال لها أهميتها بالنسبة إلى كل من قد تكون لديه شكوك في ما يتصل بهما - هذا على الرغم من أن الحلول التي يقترحها لم تستهوِ أحدًا من غير المؤمنين لأنها مستمَدة من اللاهوت المسيحي. لقد أتى دحض أوغسطين على النحو التالي:

1) نحن جميعًا عُصاة، أصحاب شهوة، مجانين، خاطئون، ولا أمل لنا في السعادة الدنيوية.

كان أوغسطين هو من أتى بفكرة «الخطيئة الأصليّة». وقد ذهب إلى أن البشر معوجّون جميعًا، لا هذا الشخص العاثر الحظ بعينه، أو ذاك. وذلك لأننا ورثنا كلنا، شئنا أم أبينا، خطيئة آدم. وطبيعتنا الخاطئة هذه تخلق لدينا ما دعاه أوغسطين «شهوة السيطرة» *libido dominandi* -أي الرغبة في الهيمنة- التي هي ظاهرة في الطريقة القاسية، العمياء، عديمة الرحمة، في تعاملنا مع الآخرين ومع العالم الذي من حولنا. نحن غير قادرين على الحب الحقيقي لأننا واقعون دائمًا تحت سطوة أنانيتنا وعزّتنا. إن قدرتنا على الفهم والمناقشة المنطقية هشّة إلى أقصى حدود الهشاشة. ثم إن الشهوة تسكن أيامنا ولياليناء كانت الشهوة موضع اهتمام خاصٍّ لدى أوغسطين الذي أنفق شطرًا كبيرًا من شبابه في خيالات عن النساء في الكَنيسة. نخفق في فهم أنفسنا، ونجري خلف سراب، وتحاصرنا المخاوف... يختتم أوغسطين هجومه بأن ينهال توبيخًا على أولئك الفلاسفة جميعًا ممن «أرادوا، بقدرٍ مدهشٍ من الغباء، أن يكونوا سعداء هنا، في الدنيا، وأن يصلوا إلى النعيم بجهدهم الخاصّ».

قد يبدو هذا محبِطًا، أو قد يثير الاكتئاب؛ لكن من الممكن أن يشعر المرء بنوع غريب من الانفراج عندما يُقال لنا إن حياتنا معوجّة بالتعريف، لا بفعل مصادفة من المصادفات. وذلك لأننا بشر، ولأن ما من شيء بشري يستطيع أن يكون سويًّا على وجه التمام (فالكمال امتياز أصلي موقوف على الرب). نحن مخلوقات مقدّر لها أن تدرك الفضيلة والحب عن طريق الحدس، وأن تظلّ أبد الدهر غير قادرة تمامًا على ضمانهما

لنفسها. وبالضرورة، فإن علاقاتنا العاطفية، وأعمالنا، وبلداننا، ليست مثلما نريدها أن تكون. ليس هذا نتيجة شيء فعلناه - هذه هي قسمتنا، منذ البداية.

إن نزعة أوغسطين المتشائمة ترفع عنا قدرًا من الضغط الذي يمكن أن نحسّه (في هزيع متأخّر من الليل خاصّة، وفي أماسي الأحد، وفي أي وقت بعد أن يتجاوز عمر الإنسان أربعين عامًا) عندما نتصالح شيئًا فشيئًا مع الطبيعة الناقصة لكل ما نفعله ولكل ما نحن عليه. ليس لنا أن نحنق، ولا أن نشعر بأننا مضطهدون أو أننا ضحية عقوبة غير مستحقّة. هذا هو الشرط البشري، بكل بساطة... هو الإرث الباقي مما قد ندعوه أيضًا «خطيئة أصلية» حتى إذا كنا غير مؤمنين باللاهوت الأوغسطيني.

2) التراتبيات ظالمة كلّها؛ وما من عدل اجتماعي؛ ومن الطبيعي ألّا يكون كل من في القمة صالحًا، وألّا يكون كل من في القاع سيئًا - والعكس بالعكس.

كان الرومان يعتبرون -في لحظاتهم الأكثر طموحًا أن لمجتمعهم ملامح فاضلة كثيرًا. كان لعائلة المرء أثر كبير على فرَصه، لكنه لا يستطيع مقاربة القمة باتّكاله على ذلك وحده: عليه أن يعتمد على قدراته وفضائله الحقيقية. وقبل كل شيء، كانوا يرون أن عظمة الدولة الإمبراطورية علامة على الفضائل الجمعية للرومان جملة. لقد حكم الرومان أجزاء كبيرة من الأرض لأنهم استحقّوا ذلك. وما الإمبراطورية إلّا جزاء فضائلهم. إن لهذه النظرة جاذبية كبيرة اليوم في نظر من هم في الشركات الكبيرة الناجحة، أو الدول القوية - جاذبية أن يروا أنّ ما لديهم من سلطة وازدهار عظيمين هو جزاء عادل لفضائلهم.

لكن أوغسطين يرد على هذا قائلًا: يا للمزاعم الفجّة، المغرورة، المتشدّقة! ما كان العدل *justitia* موجودًا في روما، ولا في أي مكان على وجه الأرض، وليس له أن يكون موجودًا. لم يهَب الرب الأشخاص الصالحين ثروة، ولا سلطة - ولم يحكم بالضرورة على غير الصالحين بأن يكونوا فقراء، أو مساكين. النظام الاجتماعي خليط فوضوي ممن يستحقون ومن لا يستحقون - ثم إن أية محاولة يقوم بها بنو البشر للحكم على من هو صالح أو غير صالح ليست إلّا خطيئة عظيمة... ليست إلّا محاولة لوضع اليد على مهمّة لا يستطيعها أحد غير الرب. ثم إن الرب نفسه، لا يقوم بتلك المهمة إلّا في آخر الزمان، في يوم الحساب، على صوت أبواق أسراب الملائكة.

يميز أوغسطين بين مدينتين اثنتين، «مدينة البشر»، و«مدينة الرب». مدينة الرب فردوس سماوي مثالي حيث يسود الخير أخيرًا وحيث تسود الفضيلة ويصير السلطان متّفقًا مع العدل، كما ينبغي له أن يكون. إلّا أن البشر غير قادرين أبدًا على إقامة هذه

المدينة، ولا يجوز لهم أبدًا أن يتخيّلوا أنفسهم قادرين على ذلك. إنهم محكومون بأن يعيشوا في مدينة البشر وحدها، أو في «المدينة الدنيوية» التي هي حافلة بالنقائص والعيوب... مدينة لا يمكن فيها أبدًا أن يتبع المال الفضيلة. يصوغ أوغسطين هذه الفكرة على النحو التالي: «العدل الحقيقي لا وجود له إلّا في جمهورية مؤسّسها وخاتمها هو المسيح نفسه». معنى هذا أن توزيع الخيرات العادل حقًا ليس مما نستطيعه على الأرض، وليس مما يصح أن نتوقعه.

نقول من جديد إن هذا قد يبدو شيئًا كئيبًا مظلمًا، لكنه يجعل فلسفة أوغسطين شديدة السخاء إزاء الفشل والفقر والهزيمة - سواء عندنا أو عند غيرنا. وخلافًا لما قد يزعمه الرومان، فليس الفشل الدنيوي إشارة إلى أن صاحبه شخص طالح في جوهره - تمامًا مثلما لا يمكن أن يعني الفوز وجود أية فضيلة عميقة. ليس للبشر أن يحكم أحدهم على الآخر انطلاقًا من علامات النجاح الخارجية؛ فهذا منهج ناضح بالتكبّر والافتقار إلى الحسّ الأخلاقي. إن من واجبنا أن ننظر إلى القوة والسلطة بعين الريبة، وأن يكون مسلكنا إزاء الضعف كريمًا.

لسنا في حاجة إلى أن نكون مسيحيين حتى تريحنا هاتان الفكرتان. إنهما هديتان عامتان يقدمهما الدين إلى الفلسفة السياسية وعلم النفس البشري. وهما تذكرتان دائمتان ببعض ما يحمله من قسوة ومخاطر ذلك الاعتقاد القائل بأن من الممكن جعل الحياة كاملة، أو بأن الفقر وقلة الشأن مؤشران موثوقان على انعدام الفضيلة.

توما الأكويني

(Thomas Aquinas)

1225 ـ 1274م.



قد يبدو غريبًا -أول الأمر- أن نتعلّم منه شيئًا! فقد كان توما الأكويني قديسًا في العصور الوسطى؛ وقيل عنه إن حماسته كانت تحلّق به أحيانًا فتتجلّى له مريم العذراء. وكان أيضًا شديد الاهتمام بتفسير كيف تتكلّم الملائكة، وكيف تتحرّك. على الرغم من هذا...

تظلّ لتوما الأكويني أهمية مستمرة لأنه يساعدنا في التعامل مع مشكلة لا تزال تحيّرنا: كيف نستطيع التوفيق بين الدين والعلم، وبين الإيمان والعقل. كان الأكويني فيلسوفًا ورجل دين، معًا. لقد رفض أن يفقد إيمانه، ورفض أن يكون مؤمنًا من غير عقل، فطَوّر فهمًا جديدًا لمكانة العقل في حياة الإنسان. كانت مساهمة الأكويني الكبرى تعليم الحضارة الأوروبية الغربية أن أي كائن بشري -وليس المسيحي وحده- قادر على بلوغ حقائق عظيمة إن هو استفاد من أعظم عطيّة قدمها الرب إلى بني البشر: العقل. لقد أوجد حلًّا لمأزق كبير في الفكر المسيحي: مسألة كيف يمكن لغير المسيحيين أن يجمعوا بين الحكمة وعدم الاهتمام بالمسيح، بل حتى عدم معرفتهم به. أعطى توما الأكويني الذكاء البشري الصفة العمومية، وفتح العقل المسيحي على ما لدى البشرية كلّها من بصائر على امتداد العصور والقارات. وإلى الآن، يظلّ العالم الحديث مدينًا له كثيرًا لأنه أصرّ على أن الأفكار الحسنة يمكن أن تأتي من أي مكان، بصرف النظر عن العقيدة أو الخلفية الثقافية.

ولد توما الأكويني في عائلة نبلاء في إيطاليا، سنة 1225. وذهب في أول شبابه للدراسة في جامعة نابولي حيث احتك بواحد من مصادر المعرفة أعيد اكتشافه حديثًا في ذلك الوقت: المؤلفون القدامى في بلاد الإغريق والرومان ممن كان الدارسون الأكاديميون المسيحيون يتجنبونهم في ما مضى. وفي الجامعة، وقع تومًا أيضًا تحت تأثير الدومينيكانيين الذين كانوا طائفة رهبانية جديدة آمنت، خلافًا للآخرين، بأن على أفرادها أن يعيشوا في العالم الخارجي، لا في عالم الأديرة.

خالف توما الأكويني أهله وقرر الانضمام إلى هذه الطائفة، فكانت ردة فعل عائلته التقيّة أن اختطفته وحبسته في قلعة تملكها. حرر الأكويني رسائل يائسة وجّهها إلى البابا دافع فيها عن قضيته والتمس إطلاق سراحه. إلّا أن البابا كان منشغلًا بالأمور السياسية فظل الأكويني في محبسه وأمضى وقته في كتابة رسائل إلى الرهبان الدومينيكانيين وفي

الإشراف على تعليم شقيقاته. وتقول أسطورة من الأساطير إن الأمر بلغ بعائلته، في وقت من الأوقات، حد محاولةِ الدفع إليه بمومس ترتدي ثوبًا يكشف عن صدرها، وذلك أملًا في إغوائه وصرفه عن التفكير في أن يصير راهبًا. إلّا أن الأكويني استلّ قضيبًا حديديًا وطرد تلك الشابة.

أدركت العائلة أنها لن تصل إلى نتيجة، فقرّرت أخيرًا أن تفتح الأبواب. وهكذا، ذهب الأكويني الضال (في نظرهم) وانضم إلى الرّهبنة الدومينيكانية. تابع دراسته التي انقطعت، وقصد جامعة باريس حيث كان طالبًا شديد الهدوء، لكنه كان أيضًا كاتبًا غزير الإنتاج، فقد أنجز في أقل من ثلاثة عقود نحو مئتي عمل عن اللاهوت المسيحي. وتحمل كتبه عناوين غريبة، لكنها جميلة؛ وذلك من قبيل: «الخلاصة اللاهوتية» *Summa Theologica* و«خلاصة ضد الكافرين» *Summa contra Gentiles*. وقد صار أيضًا معلّمًا واسع الشهرة، كبير الأثر، فسمحت له القيادة الدومينيكانية بأن يفتتح مدرسة خاصّة به في نابولي. لقد بلغ حدًّا عظيمًا من التفاني من أجل المعرفة؛ وقيل عنه إنه كان لحظة موته (كان عمره تسعةً وأربعين عامًا) منشغلًا بكتابة تعليق مطوّل على «نشيد الإنشاد» لم يستطع تجاوز منتصفه. رسمته الكنيسة الكاثوليكية قديسًا بعد موته. وهو اليوم القديس الراعي للمعلمين.

لقد كان في قلب تطلّعات الأكويني الفكرية فهم الكيفية التي تسمح للناس بمعرفة ما هو خير وما هو شر. كان هذا أمرًا بعيدًا عن الاهتمامات الأكاديمية لأن الأكويني أراد -باعتباره مسيحيًا معرفة كيف يستطيع الإنسان أن يكون واثقًا من أن أعماله ستتيح له دخول الجنة. وكان مدركًا أن هناك أفكارًا كثيرة تبدو صائبة إلى حدٍّ بعيدٍ، لكنها ليست نتاجًا مسيحيًا. على سبيل المثال، كان لديه إعجاب خاص بأرسطو: رجل لا علم له أبدًا بالحقائق التي أتى بها الإنجيل. استجابة لهذه المعضلة، قدم الأكويني دفاعًا مهمًا عن فكرة التوافق بين الاعتقاد الديني والتفكير العقلي.

كان الأكويني عارفًا بأن هناك فلاسفة عظامًا كثيرين ممن كانوا وثنيين، لكن هذا لم يكن حائلًا بينهم وبين نفاذ البصيرة؛ وذلك لأن العالم (بموجب الفكرة التي طرحها) يمكن اكتشافه من خلال العقل وحده. وحتى يشرح كيف يكون هذا ممكنًا، قال الأكويني إن الكون وكل ما فيه من آليات يعمل بموجب نوعين من القوانين: «القانون الطبيعي»، و«القانون الأزلي» الذي هو القانون الإلهي.

في نظر الأكويني، يمكن استنباط «قوانين» كثيرة من تجربتنا الذاتية في العالم. نستطيع أن نتوصل بأنفسنا إلى كيفية صهر الحديد، أو بناء القنوات المائية، أو تنظيم

إقامة اقتصاد عادل. هذه هي القوانين الطبيعية. لكن هناك قوانين «أزلية» أخرى تتكشّف لنا: إنها الأشياء التي لا يستطيع العقل أن يصل إليها بمفرده. فمعرفتنا أن ربًا رحيمًا سوف يحاسبنا بعد موتنا، أو أن للمسيح طبيعتين معًا، بشرية وإلهية، لا بد لها من أن تكون معتمدة على ما جاءت به الكتب المقدّسة من وحي: علينا أن نأخذ بها مؤمنين بأنها صادرة عن مرجعية ربّانية عليا.

وفي ملاحظاته التي كتبها عن الفيلسوف الروماني بويثيوث، صاغ الأكويني نظرية كانت سائدة في ذلك الوقت: «ليس العقل البشري قادرًا على معرفة أية حقيقة ما لم يضِئها نور من الرب». يعني هذا أن كل ما يكون فهمه مهمًا لنا ينبغي أن يأتينا من مصدر وحيد نقرّ به: الرب. إلّا أن الأكويني يعارض هذه الفكرة عندما يصرّ على أن «ما من ضرورة لأن يحظى العقل البشري بنعمة النور الإلهي حتى يفهم الأشياء الواقعة ضمن الميدان الطبيعي لمعرفته».

حقق الأكويني نقلة جذرية عندما أفسح حيزًا مهمًّا لـ«القانون الطبيعي». لقد كان مدافعًا عن أهمية الملاحظة والخبرة الشخصيتين. لقد شغلت باله مسألة أن الكتاب المقدس كان مصدرًا ذا مكانة جليلة إلى حد يمكن معه أن يطغى على الملاحظة البشرية: من شأن هذا أن يجعل الناس شديدي التأثر بالوحي الآتي من المرجعية الربانية إلى حدٍّ يجعلهم يُعرِضون عمّا لديهم من قدرة على الملاحظة وعما يستطيعون اكتشافه والتوصل إليها بأنفسهم.

الفكرة التي دافع عنها توما الأكويني هي أن لكل من القانون الطبيعي والقانون الأزلي أهميته. وقد أصر على أنهما غير متعارضين من حيث الأساس. تظهر المشكلة عندما نصرّ على واحد منهما دون الآخر. وأما ما نحن في حاجة إلى تطويره، فهو معتمد على «الانحياز» الذي هو لدينا.

لا يزال التوتّر بين المرجعية العليا والتجربة الشخصية باقيًا إلى يومنا هذا؛ وذلك على الرغم من أن «الوحي» الصادر عن «المرجعية العليا» لم يعد يعني عودتنا إلى الكتاب المقدس. لقد صار معناه العلم المنظّم. والنسخة الحديثة من المشكلة نفسها هي رفض أي نوع من المعرفة لا يأتي مصحوبًا بما يسانده من تجارب وبيانات ونماذج رياضية ومناقشة له في المجلات العلمية.

في يومنا هذا، تحتل الفنون والآداب والفلسفة المكان الذي حدّده توما الأكويني لاشتغال القانون الطبيعي. إنها تحاول فهم العالم انطلاقًا من التجربة والملاحظة الشخصيتين، ومن التفكير الفردي. ولا تأتي النتائج ممهورة بخاتم مرجعية عليا

(صارت المرجعية الآن العلم، لا الكتاب المقدس). كان معاصرو الأكويني مدركين، بشكلٍ عامٍّ، وجود أعمال الإغريق والرومان القدامى، لكن موقفهم كان أن «الوثنيين» غير مؤهلين، ببساطة، لأن يكون لديهم شيء مهم يقولونه في الموضوعات التي كانوا يرون أنها ذات أهمية حقيقية بالنسبة إليهم. لم يكن ذنب القدامى أنهم عاشوا قبل يسوع المسيح. لكنهم اعتُبروا مخطئين في أهم مسألة من مسائل الحياة على الإطلاق: الإيمان الديني. وقد كان ذلك في نظرهم عيبًا فظيعًا جعل كل ما قاله أولئك الفلاسفة الوثنيون منعدم الفائدة أو الأهمية. لكن الأكويني ذهب إلى القول بأن الناس الذين يضلّون سواء السبيل في عدد من الأمور الأساسية يمكن، على الرغم من ضلالهم، أن يكون لديهم ما نتعلّمه. لقد شخّصَ وجود نوع من التعالي الثقافي. فنحن ميّالون إلى صرف النظر عن فكرة من الأفكار بسبب الخلفية التي أتت منها: نشعر بأننا غير راغبين في الإصغاء إلّا إذا أتى الكلام من المكان الصحيح. وقد نعرّف «المكان الصحيح» بأنه المختبرات أو جامعة «mit» بدلًا من الكتاب المقدّس؛ إلّا أن المشكلة تظلّ هي نفسها.

من هنا، يمكن أن يجد شخص حداثي ملحد جالس الآن في لندن، أن من غير المعقول أن يجد أي شيء يتعلّمه إذا قرأ إنجيل يوحنا. فهو يرى أن الكتاب المقدّس مخطئ، بشكل واضح تمامًا، في النقاط الأكثر أهمية. إن فيه أغلاطًا بدائية في شأن أصول العالم. وهو مليء بمعجزات لا دليل عليها. هكذا كان شعور مسيحيي القرون الوسطى إزاء الوثنيين القدامى.

كانت النقطة المفتاحية في نظر توما الأكويني هي أن القانون الطبيعي فرع من القانون الأزلي، وأن من الممكن اكتشافه عن طريق التفكير العقلي المستقل. لقد ضرب مثالًا على ذلك باستخدام مقولة المسيح: «افعل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك». لعل المسيح منح هذه الفكرة صياغة رائعة، إلّا أنها كانت حجر الزاوية في المبادئ الأخلاقية لدى المجتمعات كلّها على مر الزمان. كيف يكون هذا ممكنًا؟ يقول الأكويني إن سبب ذلك هو أن القانون الطبيعي ليس في حاجة إلى تدخّل مباشر من الرب حتى يصير معروفًا لدى الإنسان. فاعتمادًا على التفكير العقلي اليقظ وحده، يكون المرء منفّذًا حدسيًا لمشيئة الرب. كما ذهب الأكويني إلى أن الرب لا يعمل من خلال القانون الإلهي إلّا في بضعة أحوال بعينها تكون واقعة خارج حدود عقل البشر. لقد ضرب على ذلك مثالين: الوحي الذي يتكشّف للأنبياء، وزيارات الملائكة. على أن القسم الأكبر من المعارف المفيدة يمكن التوصّل إليه ضمن إطار ميدان القانون الطبيعي.

انتشرت أفكار توما الأكويني في زمن كانت الثقافة الإسلامية فيه تعاني معضلات

مماثلة لما تعانيه المسيحية، وذلك من حيث كيفية التوفيق بين العقل والإيمان. وعلى امتداد مرحلة زمنية طويلة، ازدهرت الدول الإسلامية في كل من إسبانيا والمغرب ومصر فولّدت ثروة من المعارف العلمية والفلسفية الجديدة. إلّا أن النفوذ المتزايد الذي حازه الزعماء الدينيون المتشدّدون جعل تلك الدول الإسلامية أكثر ميلًا إلى الدوغمائية والقمع أيام ولادة توما الأكويني. على سبيل المثال، كانت هناك ردة فعل عنيفة على الفيلسوف المسلم ابن رشد. فعلى غرار توما الأكويني، كان ابن رشد عميق التأثّر بأرسطو وقال بأن العقل والدين متفقان. إلّا أن الدول الإسلامية -المصرّة على التمسّك بحرفية كلمات الرب- حرصت على حظر أفكار ابن رشد، وأحرقت كتبه.

قرأ توما الأكويني كتابات ابن رشد، ورأى أن مشروع ذلك الفيلسوف العالم المسلم يشبه مشروعه. كان على علم بأن الرفض الجذري للتفكير العقلي الذي يزداد شدّة في العالم الإسلامي يلحق الضرر بما كان فيه من ثقافة عقلية مزدهرة. ويعود لأفكار توما الأكويني نصيب من الفضل في أن المسيحية لم تشهد عمليات خنق التفكير ذاتها التي شهدتها الحضارة الإسلامية في تلك الحقبة.

صحيح أن توما الأكويني كان رجلًا عميق الإيمان، إلّا أنه قدّم إطارًا فلسفيًا لعملية الشك، وفتح الباب أمام الاستطلاع والبحث العلميين. وهو يذكّرنا بأن الحكمة (أي الأفكار التي نحن في حاجة إليها) يمكن أن تأتي من مصادر شتى. يمكن أن تأتي من الحدس مثلما يمكن أن تأتي من التفكير العقلي؛ ويمكن أن تأتي من العلم، وأن تأتي أيضًا من الوحي. يمكن أن تأتي من وثنيين، ويمكن أن تأتي من رهبان: إنه منفتح على ذلك كله؛ وهو يأخذ كل ما يراه مفيدًا فيستخدمه من غير أن يحفل بالمصدر الذي أتت منه تلك الأفكار. قد يبدو لنا هذا واضحًا... إلى أن نلاحظ مقدار إحجامنا عن تطبيقه في حياة كل منا: فكم نرفض الإصغاء إن أتت الفكرة من مصدر «خاطئ»، (شيء واضح)، أي من شخص له لكنة لا تعجبنا، أو من صحيفة لها توجّهات سياسية مخالفة لتوجّهاتنا، أو من أسلوب أدبي يبدو لنا مفرط التعقيد، أو مفرط البساطة... أو من امرأة عجوز على رأسها قبعة من صوف.

ميشيل دي مونتاني

(Michel De Montaigne)

1592 - 1533



نحن ميالون عادة إلى فكرة أن الفيلسوف ينبغي أن يكون معتزًا بعقله الكبير، وأن يكون من مشجعي التفكير والتأمل الذاتي والتحليل العقلاني. لكن هناك فيلسوفًا واحدًا ولد في فرنسا سنة 1533 كانت له وجهة نظر مختلفة.

كان ميشيل دي مونتاني مثقفًا أمضى عمره في مهاجمة غرور المثقفين. ففي رائعته الكبيرة، «المقالات»، يتبدى لنا شخصًا ذكيًا واسع الحكمة؛ لكنه دائم التواضع أيضًا، إلى جانب حرصه الدائم على السخرية مما يكتنف التعلم والمتعلمين من ادّعاء. ثم إنه شديد الطرافة أيضًا: «لا أهمية لأن نعرف أننا قلنا أو فعلنا شيئًا غبيًا؛ علينا أن نتعلم درسًا أكثر أهمية، ألا وهو أننا لسنا أكثر من أغبياء... نجلس على أعلى عرش في العالم، لكننا نظل جالسين على مؤخراتنا». ثم يذكّرنا حتى لا ننسى: «الملوك والفلاسفة يتغوّطون، وكذلك تفعل السيدات».

كان مونتاني ابن عصر النهضة؛ وكان الفلاسفة المشهورون في زمانه قد شرحوا لنا أن قدرتنا على التفكير المنطقي قادرة على منحنا السعادة والعظمة الممتنعتين على المخلوقات الأخرى. فالعقل يسمح لنا بضبط عواطفنا وطباعنا والمطالب الجامحة لأجسادنا. هذا ما كتبه الفلاسفة، ومنهم شيشرون. لقد كان العقل أداة شديدة الإتقان، تكاد تكون إلهية، تتيح لنا السيطرة على العالم وعلى أنفسنا. إلّا أن هذا التوصيف للعقل البشري أثار غضب مونتاني الذي عاشر الأكاديميين والفلاسفة، ثم كتب: «من حيث الممارسة العملية، تعيش آلاف النساء البسيطات في قراهنّ حياة أكثر استقرارًا واتّزانًا ونبلًا من الحياة التي عاشها شيشرون».

لم تكن فكرته أن بني البشر غير قادرين على مناقشة العقلية أبدًا، بل إنهم - ببساطة - نزّاعون إلى المبالغة كثيرًا في غرورهم واعتزازهم بعقولهم. وقد كتب قائلًا: «حياتنا مؤلفة من جزأين، جنون وحكمة. وكل من يكتب عنها باحترام فحسب يترك خلفه أكثر من نصفها».

ولعل أكثر الأمثلة على وضوح جنوننا هو ذلك الصراع الذي يستلزمه العيش مع الجسد البشري. تطلق أجسادنا رائحة، وتتألم، وتتعب، وتنبض، وتتشنج، وتشيخ. لقد كان مونتاني أول فيلسوف في العالم - ولعله الوحيد - الذي يتحدث عن الضعف الجنسي الذي كان يبدو له مثالًا ممتازًا على مدى جنون عقولنا وهشاشتها.

كان لمونتاني صديق أصابته حالة ضعف جنسي مع امرأة تعجبه كثيرًا. لم يلق مونتاني لومًا على قضيب صديقه، «فيما عدا حالات الضعف الجنسي الأصلي، لا يمكن أبدًا أن تكون عاجزًا إذا تمكنت من فعلها مرة واحدة». لقد كانت المشكلة في العقل، في الفكرة الثقيلة القائلة إن لنا سيطرة تامة على أجسادنا، فضلًا عن الخوف من الابتعاد عن صورة الشخص «الطبيعي» التي هي صورة غير منصفة. إن الحل كامنٌ في إعادة رسم تلك الصورة؛ أي في تقبّل فقدان تحكم المرء بقضيبه واعتبار ذلك احتمالًا لا ضرر منه في ممارسة الحب بحيث يستبق المرء حدوثه ويتحوَّط له... وهذا ما اكتشفه آخر الأمر الرجل الذي كان واقعًا في تلك المشكلة. لقد تعلم، عندما يكون مع امرأة في السرير، أن يقرّ مسبقًا بأنه معرَّض للضعف، وأن يتحدث عن ذلك صراحة بحيث يرخي ذلك التوتر الذي في روحه. فمن خلال تعامله مع العلّة على أنها شيء متوقع، تناقص إحساسه بالانقباض وصار أثره عليه أقل شدة.

تتيح صراحة مونتاني إرخاء التوترات في روح القارئ. فالرجل الذي يفشل مع امرأته، ويكون غير قادر على فعل شيء أكثر من الغمغمة باعتذاره، يمكن أن يستعيد قوته وأن يهدئ من روع حبيبته عن طريق تقبّل أن الضعف الجنسي الذي أصابه منتمٍ إلى جملة واسعة من العثرات الجنسية التي ليست نادرة ولا فريدة. كان مونتاني على معرفة بواحد من النبلاء فشل في المحافظة على انتصابه عندما كان مع امرأة، فهجر بيته وقطع قضيبه وأرسله إلى تلك المرأة «تكفيرًا عن إساءته إليها». إلّا أن مونتاني اقترح شيئًا مختلفًا:

> إذا لم يكن [الطرفان] مستعدَّين، فإن عليهما ألّا يحاولا استعجال الأمور. فبدلًا من السقوط في حالة من التعاسة الدائمة الناتجة عن صدمة القنوط عند الرفض الأول، يكون من الأفضل... الانتظار إلى أن تأتي لحظة الفرصة... على الرجل الذي عانى الصَدّ أن يقوم بمحاولات لطيفة، وأن يمهد للأمر بهجمات صغيرة. عليه ألّا يعاند ويصرّ على إثبات ضعف قدرته مرة وإلى الأبد.

على امتداد كتابه كله، يتناول مونتاني التغوّط، وإطلاق الريح، وقضيب الرجل، معتبرًا إياها كلها موضوعات جادة صالحة للتأمل فيها. فعلى سبيل المثال، يقول لقرائه إنه يستمتع بالهدوء عندما يكون جالسًا في المرحاض: «من بين العمليات الطبيعية كلها، هذه هي العملية التي أكون فيها بعيدًا كل البعد عن قبول أن يقاطعني أحد».

اقترح الفلاسفة القدامى أن يحاول المرء جعل حياته تسير وفق نموذج أشخاص بعينهم ممن لهم تقدير كبير عنده... وعادة ما يكون هؤلاء من الفلاسفة. وفي التقليد

المسيحي، يكون على المرء أن يتخذ المسيح نموذجًا لحياته. إن فكرة النموذج جذّابة؛ وهي قائمة على أننا في حاجة إلى العثور على من يقود دربنا وينيره. لكن النماذج التي يجدها المرء من حوله أمر مهم. وذلك أن ما نراه ظاهرًا لدى الآخرين نحاول محاكاته داخليًا؛ وما يسكت الآخرين عنه يمكن أن يظل محتجبًا عن أعيننا أو أن نخجل عندما نعيشه. إن مونتاني كاتب منعش لأنه يقدم لنا حياة تشبه حياتنا إلى حد غير قليل، لكنها تظل ملهمة لنا... هذا نموذج بشري جدًا!

كان للعالَم الأكاديمي مكانة كبيرة جدًا في أيام مونتاني، مثلما هي الحال في أيامنا هذه. وقد كان مونتاني أستاذًا ممتازًا، إلّا أنه يمقت التعليم. ما كان يريد غير تعلم أشياء مفيدة؛ وقد هاجم العالم الأكاديمي من دون هوادة لأنه وجده منقطع الصلة بهذا كله: «لو كان البشر حكماء، لقدَّرنا القيمة الحقيقية لأي شيء من خلال نفعه ومدى ملائمته لحياتنا». وقد لا يستحق شيء عناء فهمه إلّا إذا قادرًا على جعلنا في حال أفضل.

رصد مونتاني مظاهر الادعاء والمفاخرة في ميادين كثيرة؛ وكان يحاول دائمًا أن يعيدنا إلى الأرض.

> إخماد عصيان، وأداء مهمة رسمية، وحكم أمة، أفعال لامعة كلها. إلّا أن التوبيخ، والضحك، والشراء، والبيع، والحب، والكره، وأن تعيش مع أسرتك - ومع نفسك أيضًا - عيشة ملؤها اللطف والإنصاف من غير أن تتراخى، ومن غير أن تكذب على نفسك، فهو أمر أكثر تميزًا وندرة وصعوبة. فمهما يكن ما يقوله الناس، يشتمل عيش حياة من هذا النوع على واجبات كثيرة ليست أقل جسامة ولا صعوبة مما تستلزمه أية حياة أخرى.

وعلى هذا النحو، كان مونتاني يسخر من الكتب صعبة القراءة. وهو يعترف لقرائه بأنه يجد أفلاطون مضجرًا كثيرًا، وبأنه لا يريد من الكتب إلّا أن تكون ممتعة:

> لست مستعدًا لإرهاق ذهني بأي شيء، ولا حتى من أجل التعلم مهما يكن التعلم أمرًا ثمينًا. لست أبغي من قراءة الكتب إلّا منح نفسي متعة من خلال تزجية لائقة للوقت... إذا مررت بفقرات صعبة في قراءتي، فإننا لا أقضم أظافري أبدًا، ولا أعاني من أجل فهمها: أحاول مرة، أو مرتين، ثم أتركها وشأنها... إذا أرهقني كتاب من الكتب، فإنني أبدأ قراءة كتاب آخر.

وهو قادر على أن يكون لاذعًا جدًا عند حديثه عن الفلاسفة الذين يصعب فهمهم: «الصعوبة عملة يستحضرها ويستعين بها أهل الكتب لكي لا يكشفوا عن عقم كتاباتهم؛ ثم يأتي الغباء البشري فيحرص على قبول تلك العملة».

يشير مونتاني إلى أن الثقافة الأكاديمية القائمة على التخويف تجعلنا جميعًا ندرس كتب أشخاص آخرين قبل أن ندرس عقولنا. إلّا أننا، كما يعبّر عن الأمر «أكثر غنى مما نظن... كل واحد منا».

ولعلنا جميعًا قادرون على التوصل إلى أفكار حكيمة إذا كففنا عن اعتبار أنفسنا لسنا أهلًا لتلك المهمة لأن عمرنا لم يبلغ ألفي عام، ولأننا غير مهتمين بما تناوله أفلاطون في محاوراته، ولأننا نعيش ما يدعونه حياة عادية. «إن في وسعك ربط الفلسفة الأخلاقية كلها بحياة فرد عادي واحد، تمامًا مثلما تستطيع ربطها بحياة أكثر غنى».

ولعل رغبة مونتاني في جعل الأمر واضحًا تمامًا هي ما دفعته إلى تقديم كثرة كبيرة من المعلومات عن مدى عادية حياته - لعل هذا ما جعله راغبًا في القول لنا:

إنه لا يحب التفاح.

«لست شديد الولع... بأي نوع من أنواع الفاكهة، عدا البطيخ».

وإن له علاقة معقدة مع الفجل.

«وجدت أول الأمر أن الفجل يعجبني؛ ثم لم يعد يعجبني؛ والآن، عاد مقبولًا من جديد».

وإن لديه حرصًا كبيرًا جدًا على العناية بأسنانه.

أسناني... كانت على الدوام في حالة جيدة جدًا. تعلّمت منذ الطفولة أن أدعكها جيدًا بمنديل الطعام عندما أستيقظ في الصباح، وقبل كل وجبة وبعدها».

وإنه يأكل بسرعة زائدة كثيرًا.

«في عجالتي، يحدث كثيرًا أن أعض لساني، وأن أعض أصابعي أحيانًا».

وإنه يحب أن يمسح فمه بمنديل.

«لا مشكلة عندي في تناول الطعام من غير مفرش على الطاولة. لكني أشعر بضيق شديد إذا أكلت من غير منديل طعام نظيف... يؤسفني أننا لم نبق متمسكين بما درج عليه الملوك عندما كانوا يغيرون مناديل المائدة مع كل صنف من أصناف الطعام، مثلما يغيرون الأطباق».

توافه... قد تكون كذلك... لكنها تذكراتٌ رمزية بأن هناك «أنا» مفكرة خلف هذا الكتاب، وبأن الفلسفة الأخلاقية قد نشأت - ومن الممكن أن تنشأ مرة أخرى - عن روح حية عادية تأكل الفاكهة.

ما من شيء يدعونا إلى الشعور بالإحباط إذا لم نكن نبدو، من الخارج، مثل أولئك الذين كانوا يطيلون التفكير في أزمنة مضت.

ففي اللوحة التي يعيد مونتاني رسمها للكائن البشري الطبيعي، نصف العقلاني، يكون ممكنًا ألّا يتكلم المرء اللغة اليونانية، وأن يطلق ريحًا من وقت لآخر. وأن يغير رأيه بعد تناول الطعام، وأن يضجر من الكتب، وأن يصيبه ضعف جنسي، وألّا يعرف شيئًا عن الفلاسفة القدامى جميعًا.

إن حياة عادية فاضلة، فيها سعي إلى الحكمة لكن من غير الابتعاد كثيرًا عن الحماقات، لهي إنجاز في حد ذاتها.

يظل مونتاني من أكثر المثقفين الكبار قابلية للقراءة، فنحن قادرون على أن نشاركه الضحك من المثقفين ومن أنواع التظاهر والادعاء كلها. لقد كان نسمة هواء نقية في أروقة العالم الأكاديمي المغلقة، المتكبرة، المنفصلة عن العالم، في القرن السادس عشر. وبما أن العالم الأكاديمي لم يتغير كثيرًا، هذا أمر محزن، فإن مونتاني يبقى مصدر إلهام ومواساة لنا جميعًا، نحن الذين كثيرًا ما نشعر بالظلم إزاء ظهور من يسمونهم «أشخاصًا أذكياء» وإزاء حذلقتهم.

لا روشفوكو

(La Rochefoucauld)

1680 - 1613



ثمة اعتقاد شائع مفاده أن الفلسفة، عندما تكون على وجهها الصحيح، ينبغي أن تبدو ثقيلة، شديدة الصعوبة، ومحيّرة بعض الشيء، وكأنها كلام مترجم عن اللغة الألمانية ترجمة غير متقنة. إلّا أن فيلسوفًا فرنسيًا عاش في بدايات العصر الحديث كان يفضِّل عرض أفكاره بطريقة مختلفة جدًّا. كان رجلًا ألّف كتبًا صغيرة جدًا لا يكاد الواحد منها يتجاوز ستين صفحة، إلّا أنها تستحق اعتبارها من بين أعظم الأعمال الفلسفية: مجموعة موجزة من الملاحظات الكئيبة الحادّة عن الشرط البشري لا تتجاوز الواحدة منها جملة أو جملتين إلّا أن فيها عددًا استثنائيًا من الدروس الحكيمة التي تأتي في وقتها الصحيح وتفاجئنا بقدرتها الغريبة على تهدئة نفوسنا في هذا الزمن الذاهل، الحائر من الناحية الأخلاقية.

ولد الدوق دو لا روشفوكو في باريس سنة 1613. وعلى الرغم من المزايا الكثيرة التي ولد متمتّعًا بها (الثروة، والصلات، والمظهر الحسن، وواحد من تلك الأسماء القديمة الجميلة) فقد عاش حياة صعبة، وبائسة أحيانًا كثيرة. وقع في حب دوقتين ولم يلق معاملة حسنة من أيٍّ منهما؛ ثم وجد نفسه في السجن بعد عدد من المناورات السياسية التي كانت فاشلة، لكنها مشرِّفة. وفي أربع مناسبات، أُبعد قسرًا عن مدينته المحبوبة، باريس. ولم يستطع أبدًا أن يصل إلى المكانة التي أرادها لنفسه في البلاط الملكي. ثم أصاب عينه طلق ناري أثناء وقوع تمرّد، وكاد يصيبه العمى. خسر أكثر ماله؛ ونشر بعض خصومه ما زعموا كاذبين إنه مذكرات كتبها بنفسه فيها إهانات وإساءات كثيرة في حق أشخاص كان معجَبًا بهم ومعتمدًا عليهم... فانقلب أولئك الناس عليه ورفضوا تصديق براءته من تلك المزاعم.

وبعد ذلك كله -بعد الخيانة، والحبس، والفقر، والإصابة، والتشهير، والكتابات المنسوبة إليه زورًا أعلن لا روشفوكو أنه اكتفى من الحياة النشطة، وأنه سينسحب مكتفيًا بحياة تأمّل هادئة. علّق سيفه، وصار يمضي وقته في غرف الاستقبال لدى شخصيتين ثقافيتين بارزتين في ذلك الوقت، الماركيز دو سابليه، والكونتيس دو لافاييت، اللذين كانا يدعوان الكتاب والفنانين إلى صالونَيْهما الباريسيَّيْن من أجل مناقشة مسائل الوجود الكبرى... وكثيرًا ما يكون ذلك مع تناول عصير الليمون والمعجّنات الخفيفة.

كان في هذين الصالونَيْن تقدير كبير للفطنة والبداهة. لم يكونا قاعتين للمحاضرات

أو للندوات الدراسية، وما كان فيهما تسامح مع المباهاة والكآبة الثقيلة على النفوس؛ وبالتالي فقد كان الفوز برضا المستمعين يستلزم مهارات خاصة كانت ذات أثر كبير في تشكيل عقل لا روشفوكو وأعماله.

في هذين الصالونين، ابتكر لا روشفوكو الجنس الأدبي الذي صار معروفًا به: إنه الأقوال المأثورة، أو الحِكَم... قولٌ بليغ يبرع في التقاط لمحة قاتمة مما في النفس البشرية فيذكّرنا بحقيقة صادقة، مزعجة أكثر الأحيان. لدى شخص قدير، ينبغي للقول المأثور أن «يسدد اللكمة» في أقل من ثلاث ثوانٍ (إذا لم يسرع فقد يصل طبق شهي ينشغل به المستمعون).

أنجز لا روشفوكو في هذين الصالونين صياغة متقنة لـ 504 من أقواله المأثورة التي حقّقت له شهرة. كان منتبهًا إلى ردّات أفعال بقية الضيوف؛ وكان يصوغ عمله ويعدّله تبعًا لها. تناولت أقواله المأثورة موضوعات نفسية شتى؛ وكانت أمورًا من قبيل الحسد والادعاء الزائف والحب والطموح موضوعات متكررة عنده. عادة ما تبدأ أقوال لا روشفوكو المأثورة بمخاطبة القارئ بكلمة «نحن» أو «أحدهم» التي ترغمه، إرغامًا لطيفًا، على القبول الأوَّلي. ثم تستهدف الجملةُ معتقدًا راسخًا متّصلًا بالطبيعة البشرية، وذلك بأسلوب متهكّم أو متشكّك. ثم تأتي اللسعة في الثلث الأخير من الجملة؛ وغالبًا ما تجعلنا نضحك مثلما يحدث عندما نجد أنفسنا مضطرين إلى الإقرار بما كان في موقف سابق من زيف عاطفي أو منافق.

ولعل هذه من أكثر أقوال لا روشفوكو الكلاسيكية إتقانًا:

> إن لدينا جميعًا قوة كافية لاحتمال المصائب التي تقع على الآخرين.

ثم يليه مباشرة قول مأثور آخر لا يقل عنه بلاغة:

> هناك أشخاص لا يمكن أبدًا أن يقعوا في الحب لولا سماعهم بأن هناك شيئًا من هذا القبيل.

وقول آخر لا يقلّ إتقانًا عما سبق:

> إن من يرفض الثناء عندما يسمعه أول مرة يفعل ذلك لأنه يحب أن يسمعه مرة أخرى.

يقول فولتير إن كتاب لا روشفوكو، «الأقوال المأثورة» كان من أكثر العناصر قوة في تشكيل شخصية الشعب الفرنسي؛ فقد منح تلك الشخصية ما فيها من تأملٍ نفسي، ودِقّة، وميل إلى السخرية. فخلف كل قَول من تلك الأقوال -تقريبًا هناك تحدٍّ لنظرتنا المعتادة إلى أنفسنا، ولما في تلك النظرة من ملاءمة للنفس. يستمتع لا روشفوكو

بالكشف عما يدين به اللطف للأنانية، ويصرّ على أننا لا نكون أبدًا خالصين من الخيلاء والأنانية والوضاعة؛ بل إننا نكون أكثر قربًا إليها، عندما نكون واثقين من صلاحنا.

ونظرًا لما سببه له الحب من معاناة غير مستحقّة، فقد كان لدى لا روشفوكو شك كبير في الحب الرومانسي:

> ما يجعل العاشقَيْن لا يشعران أبدًا بالضجر من وجودهما معًا هو أنهما لا يتحدثان إلّا عن نفسَيْهما.
>
> إن كان للمرء أن يحكم على الحب وفقًا للجزء الأكبر من الآثار التي ينتجها، فقد يكون محقًّا تمامًا إذا اعتبره كرهًا، لا رقّة.
>
> قول المرء إنه لا يعبث مع النساء أبدًا هو، في حد ذاته، نوع من العبث.

قد يبدو قول هذا سهلًا! كان نيتشه شديد التأثر بكتابات لا روشفوكو؛ فكتب أقوالًا مأثورة (جُمعت في كتابه «إنساني مفرط في إنسانيته»)، لكنّها كانت شديدة الافتقار إلى ما في أقوال الرجل الفرنسي المأثورة من سخرية مُرّة وحسٍّ سليم:

> يحزن بعض الرجال عند اختطاف زوجاتهم؛ لكن أكثر الرجال يحزنون لأن زوجاتهم بقين ولم يرِد أحدٌ اختطافهن.

كان لا روشفوكو يكتب بطريقته هذه لأنه أراد لأفكاره أن تكون قادرة على إقناع الناس الذين كان مدركًا أنهم في ضيق من وقتهم، وأن من الممكن ألّا يكونوا متفقين معه. إنْ كان أكثر الفلاسفة منذ ذلك الوقت (مع استثناءات قليلة) لم يجدوا حاجة إلى الكتابة بأسلوبه الأنيق، وبظرفه ودقته، فهذا لأنهم كانوا واثقين (ثقة لا محلّ لها) من أن لا أهمية للأسلوب الذي يعرض به المرء أفكاره إن كانت لديه أفكار مهمة حقًا.

لكن لا روشفوكو أدرك أن الأمر ليس كذلك. فتشتُّت الذهن مشكلة لدى أكثرنا؛ وإذا أراد أحد أن يجعل فكرة تصل إلينا، فإن عليه استخدام البراعة الفنية لكي يستقطب انتباهنا ويتغلّب على ضجرنا طيلة المدّة اللازمة لإيصال فكرته. كان من شأن تاريخ الفلسفة أن يصير مختلفًا أشد الاختلاف لو أن ممارسيها تخيّلوا أنهم يكتبون من أجل جمهور قليل الصبر، غير مختصٍّ، تتجوّل أذهان أفراده على هواها في صالون باريسي حافل بالثرثرة.

باروخ سبينوزا

(Baruch Spinoza)

1677 - 1632



كان باروخ سبينوزا فيلسوفًا عالميًا من القرن السابع عشر حاول إبعاد الدين عن كونه شيئًا قائمًا على الغيبيات وعلى فكرة التدخّل المباشر للإله، وجعله دربًا أكثر بعدًا عن التشخيص، دربًا شبه علمي؛ لكن مع الإبقاء دائمًا على قدرته على تسكين الروح.

ولد باروخ سنة 1632 في الحي اليهودي في أمستردام الذي كان مركزًا نشطًا للفكر والتجارة اليهوديين، ومعنى باروخ باللغة العبرية هو «مبارك».

كان أسلافه من اليهود السفارديم الذين فرّوا من إسبانيا نتيجة حملة التهجير ذات الدوافع الكاثوليكية التي جرت في سنة 1492. تلقّى باروخ، الذي كان طفلًا مُجِدًّا لامع الذكاء، تعليمًا يهوديًا تقليديًا مكثفًا: كان يذهب إلى المدرسة اليهودية المحلية -ييشيفا- وكان ملتزمًا بالأعياد والطقوس اليهودية كلها.

لكنه بدأ ينأى بنفسه، شيئًا فشيئًا، عن عقيدة أسلافه. وفي وقت لاحق، كتب بأسلوبه الحذر الذي كان مميزًا له: «منذ أن كنت صبيًا، نشأت على المعتقدات المقبولة في ما يخص الكتاب المقدس، لكنني شعرت آخر الأمر بأنني مضطر إلى اعتناق وجهات نظر غيرها».

لقد عبّر عن أفكاره بإسهاب كبير في عمله العظيم «الأخلاق»، الذي كتبه كله باللاتينية ونشره سنة 1677. يقدّم سبينوزا في «الأخلاق» تحدّيًا مباشرًا للمعتقدات الرئيسية في اليهودية خاصة، وفي الديانات المأسسة عامّة:

- ليس الرّب شخصًا واقفًا خارج الطبيعة.
- ما من أحد يسمع صلواتنا ودعاءنا.
- ... وما من أحد يخلق المعجزات.
- وما من أحد يعاقبنا على خطايانا.
- وما من حياة أخرى.
- ليس الإنسان مخلوقًا مختارًا عند الرّب.
- التوراة كتاب من صنع بشر عاديين.
- ليس الرب صانعًا، ولا معماريًا، ولا هو ملك ولا قائد عسكري يدعو الناس إلى امتشاق سيف مقدّس. الرب لا يرى شيئًا، ولا يتوقّع شيئًا. وهو لا يحكم علينا؛ ولا يكافئ الإنسان الفاضل بالحياة بعد الموت. وما كلّ تمثيل للرّب على صورة

إنسان إلّا عمل من أعمال الخيال.

• كلّ ما في تقويم الطقوس اليهودي التقليدي ليس إلّا خرافة وكلامًا فارغًا.

على الرغم من هذا كلّه، لم يعلن سبينوزا نفسه ملحدًا. كان مصرًا على بقائه مدافعًا قويًّا عن الرّب.

يلعب الرّب دورًا ذا مركزية مطلقة في «أخلاق» سبينوزا. لكنه لا يشبه أبدًا الرب القاطن في صفحات العهد القديم.

إن ربّ سبينوزا غير مشخّص على الإطلاق، ولا يمكن تمييزه عما يمكن أن نسميه «طبيعة»، أو «وجودًا»، أو «روحًا كونية»: الرّب هو الكون وقوانينه؛ والرّب هو العقل والحقيقة؛ والرّب هو القوّة الحيّة في كل ما وُجد وما يمكن أن يوجد. الرب هو سبب كل شيء، لكنه «السبب الأزلي». إنه غير مشارك في التغيير. إنه ليس في الزمان. إنه غير قابل للإفراد أو التشخيص.

لقد كتب سبينوزا: «كلُّ موجودٍ موجودٌ في الرب؛ وما لشيء أن يوجد أو يولَد من غير الرب».

وعلى امتداد النصّ كله، حرص سبينوزا على تقويض فكرة الصلاة والدعاء. ففيهما يتوسّل الفرد إلى الرب طالبًا منه تغيير عمل الكون. لكن سبينوزا يقول إن هذا مجانب للصواب مجانبة تامّة. فمهمّة البشر هي محاولة فهم كيف هي الأشياء، ولماذا هي كذلك، ثم قبولها بدلًا من الاعتراض على تصاريف الوجود عن طريق إطلاق رسائل صغيرة صوب السماء.

يعبّر سبينوزا عن هذا تعبيرًا جميلًا، وإن يكن لاذعًا: «من يحبّ الرّب لا يمكن أن يسعى جاهدًا إلى أن يحبّه الرب بدوره».

بكلمات أخرى، فإن النرجسية الساذجة وحدها (وإن تكن مثيرة للمشاعر بعض الشيء) يمكن أن تجعل شخصًا يؤمن بالرّب الذي صنع قوانين العالم المادّي الأزلية، ثم تجعله يتخيّل أن هذا الرّب نفسه يمكن أن يغيّر قوانين الوجود تلك بغية تحسين حياته على نحوٍ أو آخر.

تأثّر سبينوزا على نحو بفلسفة الرواقيين القدامى في اليونان والإمبراطورية الرومانية. فقد ذهب الرواقيون إلى القول بأن الحكمة ليست في الاعتراض على حالة الأشياء، بل في مواصلة العمل على فهم سُبُل اشتغال العالم، ثم الانحناء أمام الضرورة بكل احترام.

كان سينيكا الفيلسوف المفضَّل عند سبينوزا. وقد قارن البشر بكلاب مربوطة بأرسان تشدها ضرورات الحياة في اتجاهات مختلفة كثيرة. وكلما ازداد شدُّ الواحد

منها في اتّجاه ما هو ضروري، كلما اشتدَّ خناق الرسن على رقبته. من هنا، فإن على من يكون حكيمًا أن يحاول دائمًا فهم حال الأمور في وقت مسبق -مثلًا، ما هو الحب، أو كيف تعمل السياسة- ثم يغيّر اتجاهه تبعًا لذلك حتى لا يخنقه الرسن من غير داعٍ. إن هذا النوع من الفهم الرواقي يتخلّل فلسفة سبينوزا كلها.

كان فهم الرب يعني، تقريبيًا، دراسة التوراة وبقية الكتب المقدسة. إلّا أن سبينوزا طرح فكرة أخرى.

السبيل الأمثل لمعرفة الرّب هو فهم كيفية اشتغال الحياة والكون: يكون هذا عبر معرفة علم النفس والفلسفة والعلوم الطبيعية لأنها كلّها تؤدي إلى معرفته.

في الدين التقليدي، يطلب المؤمنون من الرّب منحهم أعطيات خاصة. لكن سبينوزا يقترح أن علينا بدلًا من ذلك أن نفهم ما يريده الرّب. ونحن قادرون على فعل هذا بطريقة متقدّمة على كل ما عداها: دراسة كل ما هو موجود. نستطيع بإعمال العقل أن نصل إلى الرؤية الإلهية الأزلية.

يقيم سبينوزا تمييزًا شهيرًا بين أسلوبين في النظر إلى الحياة. يمكننا أن ننظر إليها نظرة أنانية، أي من منظورنا المحدود. يصف هذا المنظور بعبارة «من منظور زمني» *Sub specie durationis*؛ أو يمكننا أن ننظر إلى الأشياء نظرة أزلية شاملة: «من منظور الأبدية» *Sub specie aeternitatis*.

تعني طبيعتنا أننا سنكون دائمًا مقسَّمين بين هذين المنظورين. تشدّنا الحياة الحسّية صوب المنظور الزمني الذي هو منظور جزئي. إلّا أن ذكاءنا العاقل قادرٌ على منحنا مدخلًا فريدًا إلى منظور آخر. وهو قادر تمامًا على أن يتيح لنا – هنا تصير لغة سبينوزا شاعرية جميلة – أن نصير مساهمين في الكُلّية الأزلية.

في الأحوال العادية، يكون ما ندعوه «سيئًا» أمرًا سيئًا بالنسبة إلينا. ويكون ما ندعوه «جيدًا» كل ما يزيد قوّتنا ومكتسباتنا. حتى يكون المرء صاحب أخلاق حقًّا، لا بد له من الارتفاع فوق هذه المصالح والاهتمامات المحدودة. قد يبدو هذا أمرًا عزيز المنال، لكن سبينوزا كان يتصوّر فلسفته سبيلًا إلى حياة قائمة على التحرّر من الإحساس بالذنب، ومن الحزن والإشفاق والعار.

تشتمل السعادة على إقامة انسجام بين إرادتنا وإرادة الكون. فالكون -الرّب- له مقاصده؛ ومهمّتنا فهم تلك المقاصد، لا الاحتجاج عليها ومناوأتها. الشّخص الحرّ هو من يدرك الضرورات الملزِمة لنا.

كتب سبينوزا قائلًا إن الحكيم، الشخص الذي يفهم كيف هي الأمور ولماذا، «يكون

فائزًا أبديًّا برضا الروح».
لا حاجة إلى القول إن هذه الأفكار أوقعت سبينوزا في مشكلات كبيرة جدًّا. لقد طُرد من الجماعة اليهودية في أمستردام في سنة 1656، وأصدر حاخامات الجماعة في حقّه وثيقة الحَرم المعروفة باسم «شيريم». وقد ورد في تلك الوثيقة: «وبأمر من رجال الدين المقدّسين، نحرّم باروخ سبينوزا، ونطرده، وندينه ونلعنه... بكل ما في التوراة من لعنات مكتوبة. ملعون هو في النهار، وملعون هو في الليل. ملعون هو عندما ينام، وملعون هو عندما يستيقظ».

أُرغم سبينوزا على الفرار من أمستردام؛ ثم استقر به المطاف آخر الأمر في لاهاي حيث عاش عيشة وادعة هادئة وعمل في صقل العدسات وإعطاء دروس خصوصية حتى موته في سنة 1677.

بقيت أعمال سبينوزا موضع تجاهلٍ كبير. ثم جاء القرن التاسع عشر واهتمّ بها الفيلسوف هيغل؛ وحظيت أيضًا باهتمامٍ فيتغنشتاين، فضلًا عن عدد من الدارسين في القرن العشرين.

إلّا أن سبينوزا يقدّم لنا -بشكل عام- إنذارًا في ما يخص نواحي فشل الفلسفة.

كان كتابه «الأخلاق»، واحدًا من أجمل الكتب في العالم. فقد اشتمل على آراء في الحياة تمنح النفس السكينة، وتعيد تشكيل نظرته إلى العالم. إنها تستبدل بالرب القائم على معتقدات خرافية وحدةَ وجودٍ متّسمةً بالحكمة. إلّا أن عمل سبينوزا فشل تمامًا من حيث إنه لم يتمكّن من إقناع أكثر من عددٍ محدود من الناس بترك الدين التقليدي والتحوّل إلى نظام إيماني عقلاني حكيم.

وأما أسباب ذلك فهي بسيطة، بل مألوفة تمامًا.

لم يفهم سبينوزا -شأنه في ذلك شأن فلاسفةٍ كثرٍ قبله وبعده- أن ما يقود الناس إلى الدين ليس المنطق العقلي وحده؛ فأهم منه كثيرًا دور العاطفة، والإيمان، والخوف، والتقليد.

يتمسّك الناس بمعتقداتهم لأنهم يحبّون الشعائر... يحبّون المناسبات الدينية والعمارة الجميلة والموسيقى واللغة الطنانة التي يستمعون إليها في الكنيس أو الكنيسة.

يمكن القول إن في كتاب سبينوزا «الأخلاق» حكمةً أكثر مما في التوراة من حكمةٍ؛ لكنه أتى من غير البنية الداعمة التي ترافق التوراة، فظلّ عملًا هامشيًا يدرسونه هنا وهناك في جامعات الغرب. وأما الدين التقليدي الذي ظنّ سبينوزا في العقد الثامن من القرن السابع عشر أنه صار عتيقًا، فهو لا يزال مزدهرًا، ولا يزال مقنعًا للناس.

إن كان لنا أن نستبدل بالمعتقدات الدينية شيئًا آخر، فإن علينا تذكّر حجم العون الذي يستمدّه الدين من الشعائر والتقاليد والفنون والرغبة في الانتماء... أي من تلك الأمور كلّها التي تجاهلها سبينوزا -على الرغم من حكمته الكبيرة- في محاولته الجريئة لاستبدال التوراة.

آرتور شوبنهاور

(Arthur Schopenhauer)

1860 ـ 1788



كان آرتور شوبنهاور فيلسوفًا ألمانيًا من القرن التاسع عشر. وهو جدير بأن نتذكّره اليوم لما جاء من أفكار متبصّرة في كتابه العظيم «العالم إرادة وتمثّلًا» The World as Will and Representation.

كان شوبنهاور أول فيلسوف أوروبي جادّ يهتم بالبوذية - ومن الأفضل قراءة فكره على أنه تفسير غربي، واستجابة غربية، للتشاؤم المستنير في الفكر البوذي.

كتب شوبنهاور في نص كان أشبه بسيرة ذاتية له: «أطبقتْ عليّ تعاسة الحياة عندما كنت في السابعة عشرة، مثلما أُصيب بوذا في شبابه عندما رأى الرب والألم والشيخوخة والموت. كانت الحقيقة هي أن هذا العالم لا يمكن أن يكون من صنع كائن كلّه محبة، بل من صنع شيطان أتى بالمخلوقات إلى الوجود حتى يستمتع بمعاناتها». وعلى غرار بوذا، كان هدف شوبنهاور تشريح هذه المعاناة، ثم التوصّل إلى حلٍّ لها.

يقع اللوم الأكبر على الجامعات في تناول أفكار شوبنهاور بأسلوب يتّسم بصفة أكاديمية شديدة؛ فقد منعه هذا الأسلوب في التناول من أن يصير معروفًا ومقروءًا ومتّبعًا على نطاق واسع. على الرغم مما سبق، فواقع الأمر أنه رجل يستحق - ليس أقل من استحقاق بوذا - أن يكون له أتباع ومدارس وأعمالٌ فنية وأديرة من أجل وضع أفكاره موضع التطبيق.

تبدأ فلسفة شوبنهاور بأن تعطي اسمًا لتلك القوة الأوَّلية فينا التي يقول عنها إنها أشد بأسًا من أي شيء آخر - عقلنا، أو منطقنا، أو حسِّنا الأخلاقي. إنه يسمّيها «إرادة الحياة». فإرادة الحياة قوة دائمة الحضور تجعلنا نندفع إلى الأمام، ونتعلّق بالوجود، ونبحث عن مصلحتنا. إنها قوة عمياء، صمّاء، شديدة الإلحاح. والجنس هو ما تجعلنا إرادة الحياة نركّز عليه أكثر من أي شيء آخر. فمنذ المراهقة حتى آخر العمر، تظلّ هذه الإرادة مضطرمة داخلنا، وتدير رؤوسنا دائمًا صوب تصوّرات مثيرة جنسيًا، وتجعلنا نقدِم على فعل أمور بالغة الغرابة - أغربها جميعًا الوقوع في الحب.

كان شوبنهاور شديد الاحترام للحب... مثلما يحترم المرء إعصارًا، أو نمرًا. وكان لديه مقتٌ شديدٌ لما يصيب الأشخاص العقلاء من اضطراب نتيجة الوَلَه والافتتان -أو ما نسميه انجذابًا عنيفًا لكنه رفض اعتبار هذا الحال أمرًا غريبًا أو عارضًا. فهو يرى أن الحب متّصل بأكثر مقاصد إرادة الحياة أهمية (وأكثرها بؤسًا): إنجاب الأطفال.

يسأل شوبنهاور: «ما سبب هذه الجلبة كلها، وهذا الكلام كلّه عن الحب؟ وما سبب العناء والعذاب والصراخ والإلحاح؟ السبب أن الغاية النهائية لعلاقات الحب كلّها... أكثر أهمية، في واقع الأمر، من بقية غايات الحياة كلّها. من هنا، فالحب جدير بتلك الجدّية العميقة التي يسعى بها إليه كل إنسان».

الرومانسية مهيمنة على الحياة لأن «ما يتقرّر بموجبها ليس بأقل من تكوين *الجيل التالي*... إنه وجود الجنس البشري في المستقبل، وتكوّنه». من الطبيعي أننا نادرًا ما نفكّر بالأطفال الذين سننجبهم عندما نطلب من شخص آخر لقاءً عاطفيًا. وأما في نظر شوبنهاور، فإن سبب هذا بسيط: إن العقل «يظلّ مستبعدًا استبعادًا تامًا عما ينعقد العزم عليه حقًّا وعن القرارات السرّية التي تتخذها إرادته نفسُها».

فما الذي يجعل هذا الخداع أمرًا ضروريًا؟ يرى شوبنهاور أنه لا يمكن أن تكون لنا قدرة موثّقة على التكاثر إلّا إذا فقدنا عقولنا أولًا... بالمعنى الحرفي تمامًا. لقد كان رجلًا عميق الرفض لما يشتمل عليه إنجاب الأطفال من ضجر وروتين وتكاليف وتضحيات كبيرة.

وهو يقول أيضًا إننا سوف نختار أشخاصًا مختلفين اختلافًا جذريًا حتى نمضي حياتنا معهم، لو كانت عقولنا متحكّمة حقًّا في اختيار من نقع في حبهم. لكننا نجد أنفسنا ننتهي آخر الأمر إلى الوقوع في الحب لا مع الأشخاص الذين ننسجم معهم، بل مع أشخاص وجدتْهم إرادةُ الحياة شركاء مناسبين لإنجاب ما يدعوه شوبنهاور بطريقته المباشرة «أطفالًا متوازنين». يرى شوبنهاور أن كلًا منا، وفي كل وقت، لديه شيء من عدم التوازن: نحن ذكوريون أكثر قليلًا مما ينبغي، أو أنثويون أكثر قليلًا مما ينبغي، أو طوال القامة أكثر مما ينبغي، أو قصار القامة أكثر مما ينبغي، أو عقلانيون أكثر مما ينبغي، أو انفعاليون أكثر مما ينبغي. فإن أتيح لحالات عدم التوازن هذه أن تستمرّ أو تتفاقم في الجيل التالي، فسوف ينجرُّ العرق البشري إلى حالة بالغة السوء خلال وقت قصير.

من هنا، تدفعنا إرادة الحياة صوب أشخاص قادرين -نظرًا لما لديهم من عدم توازن يعوّض عدم توازننا- على إلغاء المشكلات التي فينا - أنف ضخم مع أنف صغير يمكن أن يكونا واعدين بأنف مثالي. كان شوبنهاور يقول إن قصار القامة غالبًا ما يقعون في هوى أشخاص ذوي قامات طويلة؛ وإن الرجال الذين فيهم شيء من الطبع الأنثوي يكونون أكثر ميلًا إلى نساء قويات الأجساد والطباع. ومما يؤسف له أن نظرية الانجذاب هذه قادت شوبنهاور إلى نتيجة كئيبة جدًا: الشّخص الأكثر ملاءمة لإنجاب

طفل متوازن لا يكاد يكون أبدًا مناسبًا لنا حقًّا (لكننا لا نستطيع إدراك ذلك في الوقت المناسب لأن إرادة الحياة تعمي عيوننا). لا يجوز أن تفاجئنا زيجات بين أشخاص لا يمكن أبدًا أن يكونوا أصدقاء: «الحب... يلقي بنفسه على أشخاص من شأنهم -بمعزل عن الجنس- أن يكونوا متباغضين، غير متّفقين، بل حتى يمكن أن يكون الواحد منهم مقزّزًا في نظر الآخر. إلّا أن إرادة النوع البشري أقوى كثيرًا من إرادة أفراده، فهي تجعل الحبيبين يتغاضيان عن كل شيء، ويسيئان تقدير كل شيء، ويربطان نفسيهما إلى الأبد برباطٍ ليس إلّا مشروعًا للبؤس».

توحي نظرية شوبنهاور بأن قدرة إرادة الحياة على السعي وراء غاياتها الخاصّة بدلًا من السعي وراء سعادتنا، قابلة لأن تُحسَّ بوضوح خاصّ في لحظة الوحدة المخيفة بعد بلوغ الذروة الجنسية: «بعد المضاجعة مباشرة، تكون ضحكة الشيطان مسموعة».

يراقب شوبنهاور المشهد البشري، ويحزن علينا حزنًا عميقًا. فنحن كالحيوانات تمامًا، لكننا أكثر تعاسة منها لأن لدينا إدراكًا أكبر لأنفسنا.

هناك بضع فقرات تستلفت النظر عندما يناقش شوبنهاور عدة أنواع من الحيوانات، ثم يستقرّ خاصة على الخلد: حيوان برّي قزم يعيش في سراديب ضيقة رطبة، ولا يرى ضوء النهار إلّا في ما ندر، وتبدو صغاره أشبه بديدان هلامية القوام - إلّا أن هذا الحيوان يواصل فعل كل ما يستطيع فعله حتى يظلّ حيًّا، وحتى يتكاثر.

نحن شبيهون تمامًا بالخلد، ولسنا بأقل منه إثارة للشفقة: لدينا دافع حثيث يحملنا دائمًا على المضي إلى الأمام، ويدفعنا للحصول على عمل جيّد وإلى إثارة انطباع حسن لدى شركائنا المرتقبين، وكذلك إلى التفتيش من غير نهاية من أجل العثور على «الشخص الصحيح» (متخيلين أن ذلك الشخص سوف يمنحنا السعادة)؛ ثم ينتهي بنا الأمر إلى الوقوع في غواية شخص زمنًا كافيًا لإنجاب طفل. وبعد ذلك، يصير علينا أن نمضي أربعين سنة في حالة من البؤس حتى نُكفّر عن غلطتنا.

إن نظرة شوبنهاور إلى الطبيعة البشرية قاتمة، لكن على نحو فكاهي جميل:

> ثمة غلطة أصلية واحدة فقط، ألا وهي فكرة أننا موجودون لكي نكون سعداء... وطالما بقينا مصرّين على هذه الغلطة... فسوف يبدو العالم لنا غاصًّا بالتناقضات. وذلك لأننا -في كل لحظة، وفي الأمور الصغيرة والكبيرة- سنعرف بتجربتنا أن العالم والحياة ليسا، بكل تأكيد، مرتَّبَيْن على نحو يهدف إلى أن نكون راضين. هذا ما يجعل وجوه أكثر الأشخاص الكبار في السن مطبوعة بهذا القدر الكبير من الخيبة.

يقدّم شوبنهاور حلّين اثنين للتعامل مع مشكلات الوجود. وأولهما حل صالح لأشخاص يندر وجودهم يدعوهم شوبنهاور «عقلاء».

فالعقلاء قادرون -بجهود ترقى إلى مصاف البطولة- على الارتفاع فوق متطلّبات إرادة الحياة: إنهم يغلّبون الدوافع الطبيعية التي في نفوسهم، أي تلك الدوافع التي تسوقهم إلى الأنانية والخيلاء والجنس. إنهم يتغلّبون على رغباتهم، ويعيشون منعزلين (غالبًا ما يفضّلون البقاء بعيدًا عن المدن الكبيرة)، ولا يتزوجون أبدًا، وينجحون في كبح شهوتَيّ الشهرة والمكانة.

يشير شوبنهاور إلى أن الشّخص الذي يكون من هذا النوع يُدعى في البوذية راهبًا - لكنه يقرّ بأن عددًا بالغ الضآلة منا قادر على المضي في حياة من هذا النوع.

وأما الحل الثاني، الأكثر سهولة، فهو خيار واقعي متاح للجميع. إنه قضاء أطول وقت نستطيعه مع الفن والفلسفة، لأن مهمّتهما هي حمل مرآة نرى فيها العناء الجنوني والعذاب التعس المتولّدَين فينا جميعًا بفعل إرادة الحياة. قد لا ننجح في كبح إرادة الحياة أكثر الأحيان، لكننا نذهب إلى المسرح في المساء، أو نخرج في نزهة مع كتاب شعر، فنصير قادرين على الابتعاد قليلًا عن حياتنا اليومية والنظر إلى الحياة من غير أوهام.

وقد كان الفن الذي أحبّه شوبنهاور أكثر من أي فن آخر نقيضًا لكل ما هو عاطفي: أحبَّ التراجيديا الإغريقية، والأقوال المأثورة التي كتبها لا روشفوكو، والنظريات السياسية لكل من ماكيافيلّي وهوبز. تتحدّث هذه الأعمال صراحةً عن الأنانية وحب الذات وعن أهوال الحياة الزوجية - وفيها عطفٌ كئيب، جليل، تراجيدي، على بني البشر.

ولعلّه كان أمرًا مناسبًا أن تأتي أعمال شوبنهاور نفسها منسجمة مع وصفه لما ينبغي أن يُحسنَ الفن والفلسفة فعله أيّما إحسان؛ فهي أيضًا أعمال حافلة بمنغصات عميقة من خلال تشاؤمها المرّ الكئيب. ها هو يقول لنا، على سبيل المثال:

«أن يتزوج شخصان، فهذا يعني أن كلًّا منهما سيفعل كل ما هو مستطاع لكي يصير موضوع مقت الآخر وتقزّزه»

«تاريخ كل حياة هو تاريخ من المعاناة».

«ما من قيمة أصيلة ملازمة للحياة؛ ولا يُبقي عليها متحرّكةً شيءٌ غير الرغبة والوهم».

بعد قضائه زمنًا طويلًا في المحاولة ثم الفشل في أن يصير شهيرًا، وفي المحاولة

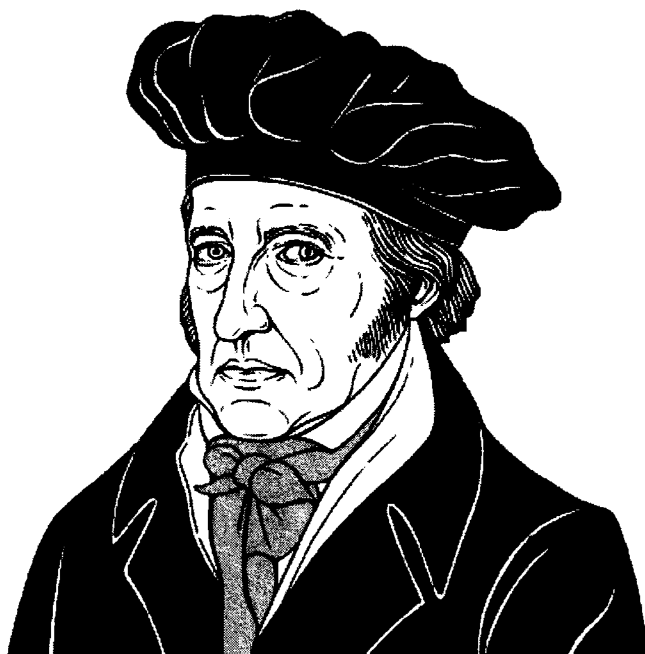
ثم الفشل في أن تكون له علاقات عاطفية جيّدة، عثر شوبنهاور آخر الأمر -قبيل نهاية حياته- على من يحب كتاباته كثيرًا. عاش عيشة هادئة في شقة في فرانكفورت، مع كلب بودل أبيض كان يدعوه آتمان - هذا هو اسم «روح العالم» في البوذية - لكن أطفال الجيران كانوا يدعونه «السيدة شوبنهاور». وقبل فترة وجيزة من موته، أنجز نحّات تمثالًا نصفيًا له. مات في سنة 1860 بعد أن بلغ اثنين وسبعين عامًا من العمر وحقق الصفاء والسكينة لنفسه.

إنه رجل حكيم بالنسبة إلى زماننا... شخص ينبغي ألّا تكون تماثيله أقل انتشارًا، ولا توقيرًا، من تماثيل بوذا الذي أحبه.

جورج هيغل

(Georg Hegel)

1831 - 1770



ولد جورج فيلهلم فريدريش هيغل سنة 1770 في مدينة شتوتغارت. كانت حياته مثالًا حقيقيًا لحياة أي شخص من الطبقة الوسطى: رجل شديد الاهتمام بمساره المهني، وبدخله. كان محرِّرًا في إحدى الصحف، ثم عمل مدير مدرسة قبل أن يصير أستاذًا جامعيًا. وكان دائم العجز عن تسريح شعره. ولما تقدّمت به السن، صار شغوفًا بالذهاب إلى الأوبرا. كان شديد الولع بالشامبانيا. وكان شخصًا مغامرًا من الناحية الذهنية، إلّا أنه ظل شخصًا تقليديًا محترمًا من حيث مظهره الخارجي، ومعتزًّا بذلك. ارتقى على السلم الأكاديمي، وبلغ أعلى درجاته عندما صار رئيس جامعة برلين - كان ذلك في سنة 1830، أي عندما بلغ عمره ستين عامًا. ثم لم يلبث أن مات في السنة التي أعقبت ذلك.

لقد كان أثر هيغل على الفلسفة رهيبًا. وكان يكتب بطريقة رهيبة: شخص يكتب على نحو معقّد ومحيّر حيث ينبغي عليه أن يكون مباشرًا وواضحًا. استفاد من ضعف موجود في الطبيعة البشرية: الثقة في الكتابة غير المفهومة التي تبدو شديدة الجديّة. وقد جعل هيغل عجز القارئ عن التوصّل إلى فهم صحيح لما يقرأ دليلًا على أنه يقرأ أفكارًا عميقة. وهذا ما جعل موقع الفلسفة في العالم أضعف كثيرًا مما ينبغي له أن يكون. ثم إن العالم دفع ثمنًا فادحًا آخر لقاء مشكلة التواصل التي كانت عند هيغل: ازدادت كثيرًا صعوبة سماع الأشياء القيمة التي أراد قولها لنا. ومن بين تلك الأشياء، هناك عدد صغير من الدروس المتميزة:

1 - يمكن العثور في التاريخ على أجزاء مهمّة من أنفسنا.

كان هيغل واحدًا من الفلاسفة النادرين الذين أخذوا التاريخ على محمل الجدّ. ففي زمانه، كانت الطريقة الأوروبية العامة في النظر إلى الماضي متمثّلة في اعتباره «بدائيًا»، وفي الاعتزاز بمدى التقدم الذي تحقّق إلى أن صرنا في العصر الحديث.

لكن هيغل فضّل الاقتناع بأن من الممكن النظر إلى كل حقبة على أنها «ذخيرة» من نوع بعينه من أنواع الحكمة. ومن شأن تلك الحكمة أن تُظهر لنا، بقدر نادر من الوضوح، أفكارًا ومواقف شديدة الفائدة لا تلبث في عهود لاحقة أن تغرق فتصير غير متاحة، أو تصير أقل وضوحًا. إننا في حاجة إلى العودة في الزمان بغية إنقاذ أشياء ضاعت، وذلك على الرغم من عيشنا في زمن ندعوه عصرًا متقدّمًا.

فعلى سبيل المثال، قد نكون في حاجة إلى التنقيب في تاريخ الإغريق القدامى لكي نستوعب جيدًا فكرة ما يمكن أن تكونه الجماعة البشرية. كما أن العصور الوسطى قادرة على تعليمنا -أكثر من أية حقبة أخرى- أمورًا عن دور الشرف. ومن الممكن أيضًا أن نحظى بنظرة ملهمة عن كيف استطاعت الثروة أن تموّل الفن في فلورنسا القرن الرابع عشر، على الرغم مما كان في تلك الحقبة من مواقف مخيفة إزاء الأطفال وإزاء حقوق النساء.

كان هيغل مصرًا على أن التقدم لا يتخذ أبدًا مسارًا خطّيًا. قد يكون الحاضر أفضل من بعض النواحي، لكن من الممكن تمامًا أن يكون أسوأ من الماضي في عدد من النواحي الأخرى. هناك حكمة في كل مرحلة - وهذا ما يدلّنا على مهمّة المؤرّخ: إنقاذ تلك الأفكار التي تشتدّ الحاجة إليها لكي تعوّض النقاط العمياء في الحاضر.

يعني هذا أن ما قد نقع في إغراء تسميته «حنينًا إلى الماضي» يمكن أن يكون فيه جانب من الحكمة. فإذا قال الناس إن الحياة كانت أفضل في منتصف القرن العشرين، أو قالوا إنهم معجبون بما كان في العهد الفيكتوري من قيم تقشّف وعمل جادّ واعتماد على النفس، فإن من المغري إخبارهم بأن عقارب الساعة لا يمكن أن ترجع إلى الخلف، وأن تلك الأزمان كانت -على أيّ حال- حافلة بأمور سيّئة كثيرًا تجعل العودة إليها أمرًا مخيفًا. إلّا أن هناك موقفًا أكثر تفهّمًا وتعاطفًا يعبّر عنه هيغل في كتابه «فينومونولوجيا الروح» The Phenomenology of Spirit الذي فرغ من كتابته سنة 1807: هو النظرة القائلة إنه في كل حقبة زمنية أفكارٌ متبصّرة مهمّة تكون (هذا مما يُؤسف له) مشوبة بجملة مشوّشة من الأغلاط. لذا، فإن من الطبيعي أن تكون العودة التامّة في الزمان أمرًا مفزعًا؛ إلّا أن ذلك الحنين إلى الماضي يظلّ متجهًا إلى ما كان حسنًا فيه. ثم إن النواحي الحسنة في أمر من الأمور تظلّ مما يجدر بنا الاهتمام به في زماننا. لقد تخيل هيغل تاريخًا مثاليًا تتحرّر فيه، تحرّرًا متدرّجًا - الجوانب الحسنة كلّها التي كانت في الماضي وتتخلّص من الأشياء السيئة التي كانت مرافقة لها. وقد تخيّل أيضًا أن من شأن المستقبل الأمثل أن يدغم تلك الأمور الحسنة كلّها معًا. نحن في حاجة إلى تعلّم شيء من صناعيي القرن التاسع عشر، ومن الهيبيين في سنة 1968، وكذلك من أساقفة العصور الوسطى ومن الفلاحين الفرنسيين في القرن الثامن عشر.

يقول هيغل: «تاريخ العالم سجلّ لسعي العقل إلى فهم نفسه». وفي نقاط مختلفة من التاريخ، تكون جوانب مختلفة من العقل أكثر بروزًا. يحدث الأمر نفسه على نطاق صغير في حياتنا. فقد يكون التساؤل والثقة أكثر بروزًا في مرحلة الطفولة؛ وفي أواخر

الطفولة، قد يبرز الميل إلى الامتثال والرغبة في بعث السرور في نفوس من نراهم متفوّقين علينا. وأما في المراهقة، فقد يظهر الميل إلى الشّكّ ظهورًا جليًّا رائعًا. وفي ما بعد، فقد تأتي مراحل من النفعية، أو من تجربة السلطة، أو من خشية الموت. نتعلّم في كل مرحلة من هذه المراحل، تعلّمًا متدرجًا، أشياء جديدة عن أنفسنا، ونكون في حاجة إلى المرور بها كلّها حتى نصل إلى استيعاب كامل لذواتنا. إن من شأن الصورة المثالية لسن النضج أن تكون الحكمة المتراكمة لما نتعلّمه في مراحل العمر المختلفة.

2 ـ تعلّم من الأفكار التي لا تعجبك.

كان هيغل شديد الإيمان بأن يتعلّم المرء من خصومه الفكريين، ومن الآراء التي يجد نفسه مختلفًا معها، أو حتى التي تبدو له غريبة شاذّة. هذا لأن هيغل كان يرى أن من المحتمل كثيرًا وجود ثغرات من الحقيقة متناثرة هنا وهناك، بل حتى في أكثر الأماكن غرابة وتنفيرًا. وكان يرى أن علينا استخراجها من خلال المثابرة على طرح السؤال التالي: أية نُتف من العقل والمعنى يمكن أن تكون محتواة في ظاهرات هي -عدا عن تلك النتف- مفزعة أو شديد الغرابة؟

يمكن أن نضرب على ذلك مثلًا بالقول إن النزعة القومية كانت لها تظاهرات مفزعة كثيرة (حتى في أيام هيغل). ومن هنا، فقد يقع أشخاص من أصحاب الفطنة في إغراء نفض أيديهم تمامًا من هذا الميدان. لكن هيغل يقول إن علينا السؤال عن الأفكار الحسنة، أو الحاجات المهمّة، الكامنة عميقًا، التي يحتمل أن تكون مختفية من خلف التاريخ الدامي للنزعة القومية - حاجة تنتظر الإقرار بها وتفسيرها. أشار هيغل إلى حاجة الناس إلى الاعتزاز بأصولهم، وإلى مماهاة أنفسهم بشيء يتجاوز منجزاتهم الخاصّة، أو إرساء هوياتهم على نحو يتجاوز أناهم. لقد ذهب إلى أن هذه حاجة حسنة الثمار، لا سبيل إلى تفاديها - هي شيء يظل قيّمًا حتى عندما يستغله سياسيون سيّئون، أو حركات سياسية بشعة، فيدفعون به في اتجاهات كارثية. هيغل هو بطل الفكرة القائلة إن الأفكار المهمّة حقًّا من الممكن أن تكون واقعة في أيدي أشخاصٍ قد تجدهم أقل حتى من أن يستحقّوا ازدراءك.

3 ـ التقدّم فوضوي مضطرب.

يرى هيغل أن العالم يحقّق تقدّمًا، لكن فقط عن طريق اندفاعه من تطرف إلى تطرف مقابل في مجرى سعيه إلى التعويض عن الغلطة السابقة. وقد ذهب إلى أنه لا بد

-عامةً- من ثلاث نقلات قبل الوصول إلى إمكانية العثور على التوازن الصحيح؛ وهذه هي العملية التي أطلق عليها «ديالكتيك».

فعندما تحدّث عن زمانه، أشار إلى أن الحكومات قد تحسّنت؛ لكن تحسّنها كان بعيدًا أشد البعد عن اتخاذ مسار مباشر. أنهت الثورة الفرنسية الأنظمة الملكية التقليدية الوراثية في القرن الثامن عشر، تلك الأنظمة التي كانت ظالمة، خانقة، كثيرة المعايب - وقد أراد رواد الثورة الفرنسية إعطاء أكثرية الناس دورًا حقيقيًّا.

لكن ما كان ينبغي أن يكون ولادة سلمية للحكومة التمثيلية، انتهى به الأمر إلى السقوط في حالة من الفوضى، وإلى أهوال عهد الإرهاب. وهذا ما أفضى بدوره إلى ظهور نابليون بونابرت الذي استعاد النظام، وضمن فرصًا لأصحاب الموهبة والقدرة؛ لكنه لم يلبث أيضًا أن تجاوز نفسه وصار بهيمةً عسكريًا فبسط طغيانه على بقية القارة الأوروبية، وسحق الحرية التي كان يزعم محبتها. ثم ظهرت «التركيبة المتوازنة» الحديثة آخر الأمر فكانت ترتيبًا أقام توازنًا أكثر منطقية بين التمثيل الشعبي وحقوق الأقليات وقدرًا معقولًا من مركزية السلطات. لكن التوصّل إلى هذا الحل استغرق ما لا يقل عن أربعين عامًا، واشتمل على قدر كبير جدًّا من سفك الدماء.

وفي زماننا هذا، يمكننا التفكير في المسار البطيء صوب مواقف منطقية من الجنس. لقد فرض العصر الفكتوري كبتًا مفرطًا. إلّا أن ستينيات القرن العشرين اندفعت إلى ما تبين أنه كان تحررًا مفرطًا. وقد لا نعثر على التوازن الصحيح بين هاتين الحالتين المتطرّفتين قبل عشرينيات القرن الحادي والعشرين.

يزيح هيغل قدرًا من العبء الواقع على ظهورنا من خلال إلحاحه على أن التقدّم يكون بطيئًا دائمًا، مضطربًا دائمًا. وهو يضيف أيضًا أن ما يحدث في التاريخ يحدث في الأفراد أيضًا. فنحن بدورنا نتعلّم ببطء شديد، وبتصحيحات كبيرة مبالغ فيها. فلننظر في تطور حياتنا العاطفية: في سن العشرين، يمكن أن نكون مع شخص ذي عاطفة شديدة تجعلنا نشعر بالاختناق؛ وهذا ما يدفعنا إلى تحرير أنفسنا والمتابعة مع شخص أكثر تحفّظًا وبرودًا. إلّا أن من الممكن أيضًا أن يصير هذا الشخص الجديد ثقيلًا على نفوسنا أيضًا. وقد نبلغ الثانية والخمسين من العمر قبل أن نحقّق هذا القدر أو ذاك من النجاح في وضع الأمر في نصابه الصحيح. قد يبدو هذا تبديدًا مهولًا للوقت. لكن هيغل يؤكّد على أن الخَطو المؤلم من غلطة إلى غلطة أمرٌ لا مهرب منه... أمرٌ لا بد لنا من توقعه ومن أن نوطّن نفوسنا عليه عندما نخطّط حياتنا أو نتأمّل في الفوضى التي نراها في كتب التاريخ أو في نشرة الأخبار المسائية.

4 ـ إن للفن غاية.

يرفض هيغل فكرة «الفن للفن». وفي عمله الأكبر أثرًا «المدخل إلى علم الجمال» *Introductory Lectures on Aesthetics*– يذهب إلى القول بأن الرسم والموسيقى والعمارة والأدب والتصميم كلّها لديها وظيفة كبرى تؤدّيها. نحن في حاجة إليها حتى تصير الأفكار المهمّة قوية، وحتى تساعدنا في حياتنا. فالفن هو «التمثيل الحسّي للأفكار». إن الوقوف عند معرفة حقيقة من الحقائق يتركنا باردي المشاعر تجاهها. فمن الناحية النظرية، نعرف أن النزاع في سورية أمر مهم. وأما في الممارسة العملية، فإننا ننسى ذلك وننتقل إلى غيره. ومن حيث المبدأ، نعرف أن سلوكنا تجاه من يشاركوننا حياتنا ينبغي أن يكون متّسمًا بقدر أكبر من التسامح. إلّا أن هذه القناعة المجرّدة تصير منسية عند أدنى قدر من الاستفزاز (صحيفة مرمية في الممر، أو قلّة المهارة في إيقاف السيارة في مكانها).

يدرك هيغل أن غاية الفن ليست الخروج بأفكار غريبة أو جديدة كثيرًا، بل جعل الأفكار المفيدة، المهمّة، الحسنة، التي هي معروفة لدينا أكثر الأحيان، تظلّ ماثلة في أذهاننا.

5 ـ نحن في حاجة إلى مؤسّسات جديدة.

اتخذ هيغل موقفًا شديد الإيجابية من المؤسسات ومن القوة التي تستطيع التمتّع بها. قد تكون بصيرة الفرد عميقة؛ لكنها تظلّ سريعة الزوال، وغير كبيرة الأثر، إلّا إذا تجسدت في مؤسّسة. كانت أفكار المسيح عن المعاناة والمحبة والتعاطف في حاجة إلى الكنيسة الكاثوليكية حتى تحملها إلى العالم. ولم تصبح أفكار فرويد عمّا في فترة الطفولة من تعقيدات قوة بنّاءة حقًا قبل أن تصير منظمة، وقبل أن تتّسع وتتمأسس من خلال عيادة تافيستوك في لندن.

الأمر المهم في هذا هو أن الأفكار، حتى تصير فاعلة ومؤثّرة في العالم، لا بد لها مما يتجاوز كثيرًا مجرّد كونها أفكارًا صائبة. يكرّر هيغل هذه النقطة مرة بعد مرة، بطرق مختلفة. حتى تصير فكرة من الأفكار مهمّة في المجتمع، لا بد لها من موظفين، ومكاتب، وبرامج تدريبية، ومستشارين قانونيين، ومن مؤسّسات تتيح الفترة الزمنية التي لا يستغني عنها أي مشروع كبير – فترة أطول كثيرًا من العمر الناضج لإنسان واحد.

الوظيفة الأساسية للمؤسسة هي جعل الحقائق الرئيسية ذات قوة في المجتمع. (تضلّ المؤسسة سبيلها عندما تكف عن امتلاك رسالة عميقة). وهكذا، مع التعرّف

على حاجات جديدة في المجتمع، ينبغي لهذه الأفكار -في الحالة المثالية- أن تؤدّي إلى صوغ مؤسّسات جديدة.

وفي زماننا هذا، نستطيع القول إننا في حاجة إلى مؤسسات جديدة كبرى لكي تركز على العلاقات بين الجنسين، وتثقيف المستهلك، والخيارات المهنية، والإدارة الحسنة، وكيف ننشئ أطفالًا أقل عطبًا.

خلاصة

يضع هيغل إصبعه على مَعلم من معالم الحياة الحديثة له أهمية حاسمة: نحن توّاقون إلى التقدّم، وإلى التحسّن؛ لكننا نجد أنفسنا دائمًا في مواجهة النزاعات والنكسات.

وقد أدرك هيغل أن النمو والتطوّر في حاجة إلى تنازع أفكار مختلفة؛ وهذا ما يجعله بطيئًا، مؤلمًا. لكن، على الأقل، يكفي أن نعرف هذا حتى لا نستمر في مفاقمة مشكلاتنا من خلال التفكير في أنها مخالفة للطبيعة. يقدّم إلينا هيغل فكرة أكثر دقّة، وبالتالي فهي أكثر قابلية للاستعمال، عن أنفسنا، وعن صعوباتنا، وعن مكاننا في التاريخ.

فريدريك نيتشه

(Friedrich Nietzsche)

1900 ـ 1844



يبدأ التحدّي مع معرفة كيفية نطق اسم نيتشه نطقًا صحيحًا.

ولد فريدريك نيتشه في سنة 1844 في قرية هادئة في الناحية الشرقية من ألمانيا. وكان أسلافه -على امتداد أجيال كثيرة- من رجال الدين. كان أداؤه في المدرسة والجامعة استثنائيًا. وقد تفوّق أيضًا في اللغة اليونانية (في ذلك الزمان، كان إتقان اللغة اليونانية أمرًا مرموقًا جدًّا)، فعُيِّن أستاذًا في جامعة بازل قبل أن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره؛ إلّا أن العمل الوظيفي لم يناسبه. ضاق ذرعًا بزملائه الأكاديميين فتخلّى عن عمله وانتقل إلى سويسرا وإيطاليا حيث عاش حياة متواضعة... وحيدًا، أكثر الوقت. رفضته النساء، امرأة تلو أخرى، فأصابته من ذلك معاناة شديدة («قلة ثقتي بنفسي كبيرة جدًّا»). لم تكن علاقته بعائلته حسنة («لا تعجبني أمي؛ ومن المؤلم لي حتى أن أسمع صوت شقيقتي»). واستجابة لعزلته، صار له شاربان عملاقان، ودأب على الخروج كل يوم في نزهات طويلة على قدميه. ظل سنوات كثيرة لم تكد كتبه فيها تبيع شيئًا. ثم تدهورت صحته العقلية تدهورًا تامًا مع بلوغه الرابعة والأربعين من عمره. لم يُشفَ أبدًا؛ ومات بعد إحدى عشرة سنة من ذلك.

كان نيتشه مؤمنًا بأن مهمة الفلسفة المركزية تعليمنا كيف نصير «نحن». بكلمات أخرى، تعلّمنا الفلسفة كيف نكتشف أعلى مقدّراتنا، وكيف نكون أوفياء لها.

ولهذه الغاية، طوّر أربعة اتجاهات في التفكير:

1 - الإقرار بالحسد.

اعتبر نيتشه أن الحسد يمثل جزءًا كبيرًا من الحياة. لكننا نتعلّم عادة أن نشعر بالعار إزاء مشاعر الحسد التي لدينا؛ وتبدو لنا هذه المشاعر مؤشِّرًا على شرور في نفوسنا. هذا ما يجعلنا نخفيها عن الآخرين، وعن أنفسنا أيضًا. بل إننا نخفيها إلى حدٍّ يجعل الناس يقولون أحيانًا -يقولونها صادقين كل الصدق- إنهم لا يحسدون أحدًا على الإطلاق.

على أن نيتشه كان مصرًّا على أن هذا غير ممكن من الناحية المنطقية، خاصّة إذا كنا نعيش في العالم الحديث (العالم الذي يُعرّفه بأنه أية مرحلة زمنية جاءت بعد الثورة الفرنسية). فالديمقراطية الجماهيرية، ونهاية العصر الإقطاعي - الأرستقراطي القديم قد خلقتا، في نظر نيتشه، تربة شديدة الخصوبة لتنامي مشاعر الحسد. صار كل امرئ يجد الآن ما يشجعه على الشعور بأنه مساوٍ لأي شخص آخر. ففي عصر الإقطاع، ما

كان ممكنًا أبدًا أن تكون لدى القنّ أية مشاعر حسد تجاه الأمير. أما الآن، فقد صار كل إنسان يقارن نفسه بأي إنسان آخر، وصار نتيجة ذلك واقعًا تحت مزيج خطير من الطموح وقلّة الاستطاعة.

إلّا أنه ما من شيء خاطئ في الحسد... هذا ما أصر عليه الفيلسوف. الأمر المهم هو كيفية تعاملنا معه. تأتي العظمة من قدرتنا على المرور بأزمات الحسد التي تصيبنا. لقد اعتبر نيتشه الحسد إشارة مضطربة، لكنها مهمّة، آتية من أعماق نفوسنا لكي تدلنا على ما نريده حقًا. فكل ما يجعلنا نشعر بالحسد هو جزء من مقدّراتنا الحقيقية التي ننكرها على أنفسنا. علينا أن نتعلم كيف ندرس حسَدنا دراسة دقيقة، وكيف نسجّل لحظات الحسد التي تنتابنا، ثم نستعرض تلك المراحل كلّها حتى نستنتج «هيئةَ نفسنا» المستقبلية الأفضل.

من غير هذا، ينتهي الحسد الذي لا نُقرُّ به إلى أن ينفُثَ فينا ما دعاه نيتشه «أبخرة كبريتية خانقة». فالإحساس بالمرارة حسدٌ لا يفهم نفسه. لا يعني هذا أن نيتشه كان مؤمنًا بأننا نصل دائمًا إلى الفوز بما نريد (لقد علّمته حياته نفسها أن هذا غير صحيح أبدًا). كل ما في الأمر هو أنه يؤكّد على وجوب أن نصير مدركين لمقدّراتنا الحقيقية (أي ما نريده حقًّا في قرارة نفوسنا)، وأن نخوض صراعًا بطوليًا لكي نَفيها حقَّها. عند ذلك فقط، يمكن أن نحزن لفشلنا بصراحةٍ وقورٍ وبصدقٍ يمكن احترامه.

2 ـ لا تكن مسيحيًا.

كانت لدى نيتشه بضعة أشياء متطرّفة يقولها عن المسيحية: «أعتبرُ المسيحية أعظم لعنةٍ؛ وأعتبرها أعظم ضلالة متأصّلة... ففي العهد الجديد كلّه، لا نجد إلّا شخصًا واحدًا يستحق الاحترام: إنه الحاكم الروماني بيلاطوس». كانت هذه صورة هزلية؛ لكن هدفه الحقيقي كان أكثر دقة، وأكثر أهمية: كان يمقت المسيحية لأنها تحمي الناس من حسدهم.

بحسب نيتشه، نشأت المسيحية في عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخِّر في أوساط العبيد الخائفين الذين لم تكن لديهم شجاعة كافية لأن يأخذوا لأنفسهم ما أرادوه حقًا (أو لكي يقرّوا بفشلهم بذلك). وهكذا فقد تعلّقوا بفلسفة تجعل من جُبنهم فضيلة. أراد المسيحيون أن يتمتّعوا بمقومات الرضا الحقيقية (المكانة في العالم، والجنس، والتفوّق الذهني، والإبداع)، لكنهم كانوا أعجز من الحصول على ما أرادوه. هذا ما جعلهم يتعلّقون بعقيدة مُرائية تشجب كل ما أراده وعجزوا عن القتال من أجله في حين تمتدح ما لم يريدوه، لكنه موجود لديهم. من هنا، تحوّل الحرمان من الجنس

إلى «طهارة» بموجب نظام القيم المسيحي؛ وصار الضعف «صَلاحًا»؛ وصار خضوع المرء لمن يكرههم «طاعة». كما انقلب «العجز عن الانتقام» - بحسب صياغة نيتشه - «مسامحة وعفوًا».

صارت المسيحية تبريرًا عملاقًا للسلبية، وصارت آليةً لإفراغ الحياة من مقدّراتها.

3 ـ لا تشرب الكحول أبدًا.

لم يكن نيتشه نفسه يشرب شيئًا غير الماء - يمكن أن يشرب الحليب عندما يريد أن يدلل نفسه. وكان يرى أن علينا أن نفعل مثله. إلّا أن هذا لم يكن فكرة غريبة صغيرة في ما يخص النظام الغذائي؛ فمعناه ممتد إلى قلب فلسفته. هذا ما نراه في جملته التالية: «إن في الحضارة الأوروبية نوعين من المخدرات: المسيحية والكحول».

كان يكره الكحول للسبب عينه الذي جعله يزدري المسيحية: كلاهما مخدّر للألم؛ وكلاهما يطمئنُنا إلى أن الأمور لا بأس بها كما هي الآن، فيجرّدنا من إرادة تغيير حياتنا إلى ما هو أفضل. إن من شأن بضع كؤوس أن تخلق لدينا إحساسًا عابرًا بالرضا يمكن أن يكون عقبة كؤودًا تعترض سبيل قيامنا بالخطوات الضرورية لتحسين حياتنا. لا يعني هذا أن نيتشه كان معجبًا بالمعاناة في حدٍّ ذاتها. إلّا أنه أدرك الحقيقة المؤسفة -وإن تكن حقيقة بالغة الأهمية- القائلة بأن للتقدم والإنجاز وجوهًا مؤلمة لا سبيل لإنكارها:

ماذا لو أن المسرّة والتعاسة مرتبطتان معًا بحيث لا يستطيع من يريد الحصول على قدر من إحداهما أن يتفادى حصوله على القدر نفسه من الأخرى... إن لديك في الحياة خيارًا: إما أدنى قدر ممكن من التعاسة مع حدٍّ أدنى من تفادي الألم... أو قدر أقصى من التعاسة يكون ثمنًا لقدر وافر من السعادة والمسرّة العميقتين...

تعيد أفكار نيتشه نبضَ معنى المعاناة: إذا كنا نرى الأشياء صعبة، فهذا ليس بالضرورة علامة على الفشل، بل قد يكون دليلًا على نبل المهمّات التي نضعها لأنفسنا، وعلى عظمتها.

4 ـ «مات الرّب».

ليس تأكيد نيتشه الدرامي لموت الرّب، كثيرًا ما يراه الناس، هكذا نوعًا من تصريح احتفالي. فبصرف النظر عن تحفّظاته عن المسيحية، لم يكن نيتشه يرى نهاية الإيمان أمرًا يستحقّ الاحتفاء به.

كان مقتنعًا بأن المعتقدات الدينية زائفة؛ لكنه لاحظ أنها كبيرة الفائدة -في بعض الميادين- في مجتمع سليم. فمن شأن التخلّي عن الدين أن يعني ترك البشر يعثرون

على سبل جديدة للتزوّد بالهداية والمواساة والأفكار الأخلاقية والتطلّعات الروحية. وقد توقّع أن يكون هذا أمرًا حافلًا بالعثرات.

اقترح نيتشه أن الثقافة هي أحسن ما يملأ الثغرة التي يخلّفها الدين (أي الفلسفة، والفن، والموسيقى، والأدب). ينبغي أن تحلّ الثقافة محلّ النصوص المقدّسة.

على أن نيتشه كان في شك عميق إزاء طريقة تعاطي زمانه مع الثقافة. كان مقتنعًا بأن الجامعات تقتل العلوم الإنسانية وتحوّلها إلى موضوعات أكاديمية جافّة بدلًا من استخدامها في ما كان مرادًا منها على الدوام: مرشدٌ إلى الحياة. وكان مُعجَبًا على نحوٍ خاصٍّ بكيفية استخدام الإغريق القدامى المسرح، واعتبارهم إياه وسيلة علاجية وفسحةً للتفريج عن المشاعر، وللتثقيف الأخلاقي. تمنّى أن يكون لدى عصره ما يوازي هذه التطلّعات.

اتهم نيتشه الجامعة والثقافة القائمة على المتاحف بالاستنكاف عن مهمّة الإرشاد في الحياة، وبالتخلّي عما في الثقافة من مصدر للأخلاق، وذلك تمامًا عندما جعل «موتُ الرّب» هذه الأمور أكثر أهمية من أي وقت مضى.

لقد دعا إلى إصلاح يملأ فيه الناس -الذين صاروا مدركين الأزمة التي تسبّبها نهاية الإيمان- الثغرات التي يتركها اختفاء الدين، وذلك باستخدام ما في الثقافة من حكمةٍ وجمالٍ شافٍ للأنفس.

خلاصة

رأى نيتشه أن كل حقبة زمانية تواجه تحدياتها النفسية الفريدة الخاصة بها، وأن مهمة الفلاسفة متمثّلة في تحديد هذه التحديات والمساهمة في تقديم حلول لها.

كان القرن التاسع عشر، في نظر نيتشه، رازحًا تحت أثر تطوّرَين اثنين: الديمقراطية الواسعة، والإلحاد. حمل التطوّر الأول خطر إطلاق فيض من الكراهية السامة والحسد الذي لا يفهمه أصحابه؛ وأما الخطر الذي يحمله التطور الثاني فهو تركُ البشر من غير هداية ومن غير حسٍّ أخلاقي.

ابتكر نيتشه حلّين ساحرين في مواجهة هذين التحدّيين: إنهما حلّان يستطيع زماننا هذا أن يتعلّم منهما عددًا من الأمور المفيدة جدًا من الناحية العملية؛ وهذا ما تمنّاه نيتشه كثيرًا.

مارتن هيدغر

(Martin Heidegger)

1976 ـ 1889



ليس الميدان خاليًا من نفر من المنافسين الكبار؛ إلّا أنه ينبغي بروز مارتن هيدغر منتصرًا أول -كيفما يكن الحساب- في التاريخ التنافسي للفلاسفة الألمان الذين يصعب فهمهم! وذلك أن ما من منافس لأسلوبه في أهم كتبه «الكينونة والزمان» (1927) من حيث التواءات اللغة، وذلك العدد الضخم من الكلمات الألمانية المركّبة المعقّدة التي نحتها الكاتب وكان من بينها «Seinsvergessenheit» (نسيان الكينونة)، و«Bodenständigkeit» (التجذّر في الأرض)، و«Wesensverfassung» (التكوين الأساسي).

للوهلة الأولى، يبدو الكتاب محيّرًا، بل مزعجٌ أيضًا؛ إلا أن المرء لا يلبث -تدريجيًا أن يألف أسلوب الكاتب ويدرك أن هيدغر يقول لنا، من تحت ذلك السطح الضبابي الغائم، حقائق بسيطة -بل بسيطة جدًّا بعض الأحيان- عن معنى حياتنا، وعن سقم زماننا، وكذلك عن جذور الحرية. ينبغي أن يكون هذا مما نهتمّ به.

ولد الفيلسوف في بيئة ريفية فلّاحية ألمانية، ظلّ كذلك من نواحٍ كثيرة؛ وكان يحبّ جمع الفطر، والسير في البرية، والنوم في وقت مبكر. كان يكره التلّفزيون، والطائرات، وموسيقى البوب، والمأكولات المصنّعة. ولد في سنة 1889 لأسرة كاثوليكية فقيرة، ثم صار نجمًا بعد إصداره كتاب «الوجود والزمان». لكنه ارتكب غلطة قاتلة عندما صدَّق ما كان هتلر يقوله في أواسط الثلاثينيات (لم يكن وحده من صدّق هتلر). كان رجاؤه أن تفلح النازية في استعادة النظام والكرامة لألمانيا، وأن تكون منسجمة مع روح العصر. وقد ألقى بضع كلمات نارية حاول من خلالها طرد الأكاديميين اليهود من جامعة فريبورغ التي كان عميدًا لها. يكاد المرء يستطيع مسامحته على مرحلة الجنون هذه التي دفع ثمنها غاليًا. فبعد هزيمة ألمانيا في سنة 1945، مَثل هيدغر أمام «لجنة نزع النازية»، والتي حرمته من التعليم حتى نهاية العقد. ومن المدهش أن مساره الأكاديمي قد شهد ازدهارًا مضطردًا (كان هذا شهادة على جاذبية أفكاره) على الرغم من أنه صار يمضي أوقاتًا متزايدة في كوخ له في الغابات بعيدًا عن الحضارة الحديثة، واستمرّ حتى موته سنة 1976.

خلال مساره كلّه، أراد هيدغر أن نعيش بقدر أكبر من الحكمة. أراد أن نكون أكثر شجاعة في مواجهة حقائق بعينها، وأن نسير صوب حياة أكثر فطنة وسعادة وغنى. لم

تكن الفلسفة عنده نشاطًا أكاديميًا، بل كانت نداءً روحيًا ونوعًا من أنواع المعالجة - مثلما كانت لدى الإغريق القدامى. لقد شخّص معاناة البشرية الحديثة في عددٍ من الأمراض الجديدة التي أصابت روحها:

1 ـ ننسى ملاحظة أننا أحياء.

بطبيعة الحال، نعرف أننا أحياء، نظريًّا. لكننا لسنا على تماسٍ حقيقيٍّ يوميٍّ مع لغز الوجود الكبير، مع اللغز الذي يدعوه هيدغر «الكينونة» *das Sein*. إن قسمًا كبيرًا من فلسفته مكرّسٌ لجعلنا نرى غرابة الوجود على كوكب دوّار في كون يبدو صامتًا، غريبًا، غير مأهول.

في لحظات قليلة فقط، ولعلّها تكون في آخر الليل، أو عندما نمرض أو نمضي نهارنا كلّه وحيدين، أو نكون في نزهة في البرية، ننتبه إلى الغرابة الخارقة الماثلة في كل شيء: ما الذي يجعل الأشياء موجودة هكذا؟ ولماذا نحن هنا، لا هناك؟ ولماذا يكون العالم على هذا الشكل؟ ولماذا يكون هذا البيت أو تلك الشجرة موجودين حيث هما؟ يعبّر هيدغر عن هذه اللحظات النادرة، عندما تترجرج وتضطرب فيها الحالة المألوفة للأمور، بمصطلح «لغز الوجود» أو «لغز الكينونة» الذي يشدّد عليه كثيرًا. إن فلسفته كلّها مكرّسة لجعلنا نقدّر هذا المفهوم المجرّد ذا الأهمية الكبرى حق قدره، وحتى نستجيب له الاستجابة الواجبة.

كان العالم الحديث في نظر هيدغر آلة جهنمية تعمل على إلهائنا عن طبيعة الوجود الأساسية الرائعة. إنها تجذبنا صوب المهمّات العملية جذبًا متواصلًا، وتغرقنا بالمعلومات، وتقتل العلم، ولا تقبل أن تتركنا وشأننا - هذا عائد في جزء منه إلى أن لإدراك لغز الوجود أبعادًا مفزعة. وعندما نفعل هذا، نجد أنفسنا وقد أطبق علينا الذعر (القلق) لإدراكنا أن كل ما بدا لنا مترسخًا، ضروريًا، بالغ الأهمية، قد يصير أمرًا عارضًا، سريع الزوال، من غير معنى أو غاية حقيقية. قد نسأل أنفسنا عما يجعلنا نعمل في هذه الوظيفة، لا في تلك؛ ولماذا نحن أحياء في حين يمكن أن نكون -بكل سهولة- أمواتًا... إن القسم الأعظم من الحياة اليومية مصمّم بحيث يُبقي هذه الأسئلة الغريبة، المقلقة، بعيدة عن أذهاننا، على الرغم من أهمّيتها الحاسمة.

ما نجري هاربين منه هو، في حقيقة الأمر، مواجهة «العدم - *das Nichts*». كلمة يستطيع حتى من لا يتكلّم الألمانية أن يشعر بالعمق المدوّي لهذا المصطلح المفتاحي عند هيدغر. إنه العدم الكامن في الوجه الآخر للوجود.

العدم هو كل شيء؛ وهو يصفعنا؛ وسوف يبتلعنا آخر الأمر. لكن هيدغر يلحّ على أن

الحياة لا تُعاش على نحو حسن إلّا عندما يتقبّل المرء العدم والطبيعة الوجيزة للوجود - هذا ما قد نعيشه، على سبيل المثال، عندما يخلي ضياء المساء اللطيف الميدان أمام الظلمة في نهاية يوم صيفي دافئ على سفوح جبال الألب البافارية.

2 ـ ننسى أن الوجود مترابطٌ كلُّه.

نحن ننظر إلى العالم عبر موشور مصالحنا واهتماماتنا الخاصّة الضيّقة. ويصطبغ ما نتنبه إليه وما نحفل به بألوان حاجتنا المهنية. نعامل الآخرين والطبيعة كأنهم وسائل، لا غايات.

لكننا قد نتمكّن أحيانًا من الخروج من مدارنا المحدود الضيّق لإلقاء نظرة أكثر سخاء على ما يربطنا ببقية العالم (إن للنزهات الريفية -من جديد- فائدة كبيرة في الوصول إلى هذا الإدراك). وقد نحس بأن هيدغر استخدم مصطلح «وحدة الوجود» عندما لاحظ، بطريقة لم نلاحظها من قبل، أننا كلنا، نحن واليراعة الليلية وتلك الصخرة وتلك الغيمة، كائنون في الوجود في هذه اللحظة، وأن هناك رابطًا أساسيًا يجمعنا هو الوجود نفسه.

يرى هيدغر قيمة كبيرة في هذه اللحظات. وهو يريد أن نستخدمها لكي تكون نقطة انطلاق إلى شكل أعمق من السخاء الروحي، ولكي نتغلّب على الأنانية والاغتراب بحيث يصير لدينا تقدير أكثر عمقًا للزمن الوجيز الباقي لنا قبل أن يأخذنا العدم.

3 ـ ننسى أن نكون أحرارًا وأن نعيش لأنفسنا.

إن فينا -بطبيعة الحال- ما ليس متمتّعًا بقدر كبير من الحرية. وبحسب الصيغة غير المألوفة التي يستخدمها هيدغر نحن «نُرمى في العالم» عند بداية حياتنا: نُرمى في وسط اجتماعي ضيّق بعينه، ونجد أنفسنا محاطين بمواقف وآراء متصلّبة، وبتحزّبات عتيقة وضرورات عملية لم نصنعها بأنفسنا.

يودّ الفيلسوف مساعدتنا في التغلّب على هذه «الارتمائية»[1] من خلال فهم معالمها الكثيرة. علينا أن نسعى إلى التقاط وإدراك محدوديتنا النفسية والاجتماعية والمهنية. وبعد ذلك، علينا أن نعلو فوقها وصولًا إلى نظرة أكثر عمومية.

وعندما نفعل هذا، نقوم برحلة الابتعاد الهيدغرية الكلاسيكية عن الوجود الزائف مقتربين من «الوجود الأصيل»[2]. من حيث الجوهر، نكون قد بدأنا عيش أنفسنا.

---

(1) الارتمائية (*Geworfenheit*): مفهوم طرحه هيديغر لوصف الوجود الفردي للإنسان بأنه «مرمي» في العالم.

(2) الوجود الزائف (*Uneigentlichkeit*)؛ الوجود الأصيل (*Eigentlichkeit*).

إلّا أننا، بحسب هيدغر، نفشل في هذه المهمة فشلًا محزنًا أكثر الأوقات. فنحن نستسلم لنمط وجود سطحي يُقرّه المجتمع؛ وهو ما يطلق عليه «نفسُ- -هم» (أي ضد «أنفسنا»). نسير خلف الثرثرة *das Gerede*. المبتذلة التي نسمعها في كل مكان، من التلفزيون والصحف، وفي المدن الكبيرة التي كان هيدغر يمقت قضاء الوقت فيها.

ما سوف يساعدنا هذا في الابتعاد عن «نفس- -هم» هو التركيز الشديد، إلى الحدّ الكافي، على موتنا الوشيك. فقط عندما ندرك أن الأشخاص الآخرين غير قادرين على إنقاذنا من «العدم»، يصير من المحتمل كثيرًا أن نكفّ عن العيش من أجلهم ونصير غير منشغلين كثيرًا بما يراه الآخرون، ونكفّ عن إعطاء وتكريس نصيب الأسد من حياتنا وطاقاتنا لإحداث أثر حسن لدى أشخاص آخرين ليسوا أصلًا شديدي الولع بنا. إن القلق من العدم قادر على إنقاذنا، مع أنه غير مريح لنا: إدراكُ «كونَنا ذاهبين إلى الموت» *Sein – zum – Tode*. هو طريقنا إلى الحياة.

عندما سأل واحد من الطلبة هيدغر سنة 1961: «كيف يمكن لنا أن نستعيد الوجود الأصيل؟»، كانت إجابة أستاذه مقتضبة عندما قال إنه ليس علينا إلّا محاولة قضاء زمنٍ أطول «في المقابر».

4 ـ نحن نعامل الآخرين كأنهم أشياء.

من غير أن نقصد هذا، نحن نعامل الأشخاص الآخرين كأنهم «أدوات » *das Zeug*، بحسب تعبير هيدغر - أي كأنهم أدوات، لا «كائنات في ذاتهم».

إن علاج هذه الأنانية كامن في الاحتكاك بالفن الرفيع. فمن شأن الأعمال الفنية أن تعيننا على التراجع مبتعدين عن ذواتنا بغية تقدير الوجود المستقل للأشخاص الآخرين، وللأشياء أيضًا.

يسهب هيدغر في بسط هذه الفكرة ضمن سياق مناقشة لوحة لفنسنت فان كوخ فيها زوج من الأحذية. نحن لا نولي الحياة انتباهًا كبيرًا في الأحوال العادية؛ فهي ليست أكثر من جزء من «الأدوات» التي تلزمنا في حياتنا. وأما عندما تُقدّم إلينا مرسومة في لوحة، فإننا نصير ميالين إلى ملاحظتها -كأننا نراها أول مرة- في حدِّ ذاتها، أي بصرف النظر عن كونها أدوات لنا. من الممكن أن يحدث لنا الأمر نفسه عندما تواجهنا أجزاء أخرى من العالم الطبيعي أو المصنوع، وذلك من خلال قيام فنانين كبار بتقديمها عبر أعمالهم. بفضل الفن، نشعر بنوع جديد من المبالاة بالوجود الذي هو أعلى من ذواتنا.



فنسنت فان كوخ، زوج من الأحذية، 1887

خلاصة

نكون كاذبين إن قلنا إن ما يقدّمه هيدغر من معنى وقيمة أخلاقية أمر شديد الوضوح. على الرغم من هذا، فإن ما يقوله لنا ساحر أحيانًا، فضلًا عن كونه حكيمًا ومفيدًا إلى حدٍّ يفاجئنا. حتى مع كلماته ولغته ذات الصعوبة الفائقة، فإن ما يقوله، بمعنى من المعاني، معروف لدينا أصلًا. لسنا في حاجة إلى أكثر من تذكير وتشجيع حتى نأخذ تلك المعاني على محمل الجدّ، وهذا ما يساعدُنا أسلوبه الكتابي الغريب في فهمه. نعرف في أعماق قلوبنا أن وقت تغلبنا على «الارتمائيّة» قد حان، وأن علينا أن نصير أكثر إدراكًا لـ«العدم»، في كلّ يوم؛ ونعرف أنه ليس لدينا إلّا أنفسنا لكي نفرّ من قبضة «الثرثرة» وننشد «الوجود الأصيل»... بشيء من المساعدة من جانب المقابر.

جان بول سارتر

(Jean _ Paul Sartre)

1980 _ 1905



ولد جان بول سارتر سنة 1905. كان أبوه قبطانًا بحريًا مات بُعيدَ ولادته، فنشأ شديدَ القرب من أمه إلى أن تزوّجت من جديد عندما بلغ الثانية عشرة، فساءه ذلك كثيرًا. أمضى سارتر القسم الأكبر من حياته في باريس حيث كان يُكثِر من الذهاب إلى المقاهي الواقعة على «الضفة اليسرى»، ومن الجلوس على مقاعد حديقة لوكسمبورغ. كان في عينيه حَوَلٌ جعله يستخدم نظارة ثقيلة صارت مميزة له. فاز بجائزة نوبل للآداب في سنة 1964، لكنه رفضها انطلاقًا من أنها جائزة رأسمالية وبرجوازية. كان قصير القامة (خمس أقدام وثلاثة إنشات)، وكثيرًا ما وصف نفسه بأنه قبيح الشكل. كان يبالغ في تسريح شعره إلى الخلف. وعندما مات في سنة 1980 عن عمر بلغ أربعة وسبعين عامًا، خرج في جنازته خمسون ألف شخص ساروا في شوارع باريس.

اشتهر سارتر بأنه الشخصية الأولى في الحركة الفلسفية المعروفة باسم «الوجودية» Existentialism. وقد جعل التفكير والفلسفة أمرين جذّابَيْن. ألّف كتابًا كبير الحجم، صعب القراءة، اسمه «الوجود والعدم - *Being and Nothingness*» كان له دور كبير في تعزيز شهرته لا لأن الناس استطاعوا فهم أفكاره، بل لأنهم لم يستطيعوا فهمها على وجه التحديد. لقد استفاد سارتر من ذلك الميل، الذي كان واسع الانتشار في النصف الثاني من القرن العشرين: مَيلٌ إلى توقير الكتب لما تلامسه من غموض، لا لوضوح أفكارها ومقاصدها.

قامت الفلسفة الوجودية على عدد من الأفكار الرئيسية:

1 ـ الأشياء أغرب مما نظنّ

كان سارتر شديد الاهتمام باللحظات التي يكشف فيها العالم عن نفسه، فيتبدى أكثر غرابة وصعوبةَ فهم مما نظنّه عادة؛ أي تلك اللحظات التي يعجز فيها المنطق الذي نستخدمه في حياتنا اليومية وتظهر الأشياء لنا عارضة سريعة الزوال، بل حتى سخيفة ومفزعة.

إن رواية سارتر الأولى - «الغثيان»، صدرت سنة 1938 - مليئة بمواقف تستحضر تلك اللحظات. نرى روكنتين في الترام، بطل الرواية الذي هو كاتب في الثلاثين من عمره، يعيش في بلدة فرنسية متخيّلة على ساحل البحر. يضع يده على المقعد، لكنه يسحبها سريعًا. بدلًا من أن يظهر له المقعد واحدًا من الأشياء المألوفة التي لا تكاد أن

تستدعي أي انتباه، فإنه يفاجئه بغرابته العميقة. تصير كلمة «مقعد» سائبةً مما يحدّدها، ويُشعّ الجسم الذي تشير إليه بكل ما فيه من غرابة أصلية -كأنَّ الكاتب الشاب لم ير شيئًا مثله من قبل- وتجعله مادته وما فيه من انتفاخ بسيط يتخيّل بطن حمار ميت منتفخ مقزّز. يجد روكنتين أنه مضطرٌّ على إرغام نفسه على تذكُّر أن هذا الشيء الذي إلى جانبه شيء مصنوع لكي يجلس عليه الناس. كانت لحظة مفزعة ألقى روكنتين فيها نظرة داخل ما يسميه سارتر «سُخف العالم».

إن اللحظات التي من هذا القبيل تمسّ جوهر فلسفة سارتر. فأن يكون المرء سارتريًا يعني أن يدرك الوجود كما هو عندما يصير مجرّدًا من أية أفكار مسبقة وافتراضات مطَمئِنةٍ نستمدّها من المجريات الرتيبة في الحياة اليومية. نستطيع تجريب النظرة السارترية في جوانب كثيرة من حياتنا. فكّر في ما تعرفه بأنه «وجبة المساء مع والديك». تحت هذا الوصف، يبدو كل شيء منطقيًا تمامًا، إلّا أن ذلك الفهم السارتري ينتزع ما هو عادي على السطح لكي تظهر الغرابة الشديدة المختبئة تحته. المعنى الحقيقي للعشاء هو أن ذلك الجزء من العالم الذي تعيش فيه قد دار مبتعدًا عن الطاقة المنبعثة من انفجارٍ ناءٍ من الهيدروجين والهيليوم، وأنك أدخلت ساقيك تحت ألواح مأخوذة من شجرة، ثم وضعت في فمك أجزاء من نباتات وحيوانات ميتة وبدأت تلوكها؛ وإلى جانبك يجلس حيوانان ثدييان آخران خرجتَ من أعضائهما التناسلية. أو يمكن أن تفكر في عملك انطلاقًا من نظرة سارترية: تكسو جسدك بالملابس مثلما يفعل كثيرون غيرك، وتجتمعون في علبة ضخمة تتبادلون فيها أصواتًا مرتفعة أو مستثارة، وتضغطون بسرعة كبيرة على أزرار بلاستيكية كثيرة حتى تحصلوا على قطع من الورق (نقود). ثم تتوقّفون عن ذلك، وتنصرفون. وفي اليوم التالي، تنير السماء من جديد، فتعودون إلى ذلك المكان.

2 ـ نحن أحرار

من المؤكد أن هذه اللحظات الغريبة تصيبنا بالتشوّش، بل بشيء من الخوف أيضًا. إلّا أن سارتر يريد أن يلفت نظرنا إليها لسبب مركزي وحيد: لأن لها أبعادًا مُحرِّرة.

الحياة أغرب كثيرًا مما نظن (الذهاب إلى المكتب، وتناول العشاء مع صديق - لا شيء من هذا واضحًا جدًّا، ولا عاديًا)؛ لكن الحياة غريبة أيضًا لأنها شديدة الغنى بالاحتمالات. ليس على الأمور أن تكون مثلما هي تمامًا. فنحن أكثر حرية مما نسمح لأنفسنا بتخيّله وسط الضغط المعتاد لالتزاماتنا وواجباتنا. فقط في وقت متأخّر من الليل، أو عندما نمرض ونرقد في الفراش، أو عندما نذهب في رحلة طويلة بالقطار إلى مكان لم نألفه، نمنح أذهاننا رخصة لممارسة أحلام اليقظة في اتجاهات غير تقليدية.

تكون هذه اللحظات مخيفة ومُحرِّرة في وقت واحد. ونصير قادرين على ترك البيت، وإنهاء علاقة عاطفية، وعدم رؤية شخص كنا نعيش معه. قد نتخلى عن أعمالنا، أو ننتقل إلى بلد آخر، أو نعيد اكتشاف أنفسنا فنجد أننا مختلفون تمامًا عما كنا نظنّه.

عادة ما تكون لدينا أسباب كثيرة تجعل ذلك كلّه غير ممكن. إلّا أن سارتر يريد أن يمنحنا -من خلال وصفه لحظات الاضطراب هذه- مدخلًا إلى أسلوب مختلف في التفكير. يريد أن يدفع بنا بعيدًا عمّا هو معتاد، وبعيدًا عن الأفكار المستقرّة لدينا، حتى تتحرّر مخيلتنا: قد لا يكون علينا مواصلة الذهاب بالباص إلى عملنا، أو قول أشياء لا نعنيها لأشخاص لا يعجبوننا، أو التضحية بحيويتنا مقابل أفكار زائفة عن الأمان.

في سياق إدراكنا حريتنا إدراكًا كاملًا، نصل إلى ما يدعوه سارتر «عذاب» الوجود. إن كل شيء ممكن (على نحو مخيف) لأن ما من شيء مُقدّر مسبقًا، ولأن ما من شيء فيه معنى أو غاية منحه إياهما الرّب. كل ما في الأمر هو أن الناس يختلقون هذا في مجرى حياتهم، لكنهم أحرار في تنحية قيودهم جانبًا عند أية لحظة. ما من شيء في نظام العالم غير البشري اسمه «زواج» أو «وظيفة». هذه ليست أكثر من لافتات وضعناها على الأشياء؛ ونحن أحرار - عندما نكون وجوديين حقيقيين - في نزعها عنها من جديد.

لكن هذا مخيف؛ ومن هنا يأتي مصطلح «عذاب الوجود». إلا أن سارتر يرى هذا العذاب علامة على النضج: يراه علامة على أننا أحياء بالكامل، وأننا ندرك الحقيقة فعلًا بكل ما فيها من حرية وإمكانيات وخيارات جسيمة.

3 ـ علينا ألّا نعيش في «إيمان خاطئ»

طرح سارتر مصطلحًا أطلقه على ظاهرة العيش من غير فهم الحرية فهمًا حقيقيًا. لقد دعا ذلك «الإيمان الخاطئ».

يكون إيماننا خاطئًا عندما نقول لأنفسنا إن الأمور يجب أن تكون على نحو بعينه ونغمض أعيننا عن الخيارات الأخرى. يكون إيماننا خاطئًا عندما نصرُّ على أن «علينا» أداء نوع بعينه من العمل، أو العيش مع شخص بعينه، أو اتخاذ مسكن لنا في موقع بعينه.

يرد أشهر وصف للإيمان الخاطئ في كتاب سارتر «الوجود والعدم» *Being and Nothingness*. حيث يلاحظ نادلًا فيفاجئه بشدة تفانيه في أداء دوره وكأنه شخص مخلوق لكي يكون نادلًا إلى الأبد، لا كائنًا حيًا حرًّا:

> حركته سريعة نشطة، مفرطة الدقّة بعض الشيء، مفرطة العجلة بعض الشيء. يتقدّم من مديريه بخطوة أسرع قليلًا مما ينبغي. ينحني إلى الأمام بلهفة مبالغ فيها قليلًا. ويعبر صوته وعيناه عن اهتمام زائد قليلًا بما يطلبه الزبون...

يشخّص سارتر حالة ذلك النادل بالقول إن لديه «إيمانًا خاطئًا». لقد أقنع ذلك الرجل نفسه (لعل سارتر بنى تلك الشخصية على نحو يحاكي نادلًا في «كافيه دو فلور» في حي سان جيرمان الباريسي) بأنه نادل، بالضرورة ومن حيث الأساس، ليس كائنًا حرًّا من الممكن أن يكون عازف بيانو أو صياد أسماك على مركب في بحر الشمال. من الممكن في زماننا ملاحظة هذا النموذج من العبودية المتأصّلة التي لا خيارات لديها عند واحد من مديري تكنولوجيا المعلومات، أو عند أب أو أم ممن يذهبون لإحضار أبنائهم من المدرسة. قد يشعر كل واحد من هؤلاء بالشعور التالي: لا بد لي من فعل ما أفعله، ولا خيار عندي. أنا لست حرًّا، فدوري يجعلني أفعل ما أفعله.

لا يجوز الخلط بين إدراك المرء حرّيته بالمعنى الوجودي وبين الفكرة الشائعة في كتب «المساعدة الذاتية» الأميركية، تلك الفكرة القائلة إننا جميعًا أحرار في فعل أي شيء، أو في أن نكون أي شيء، من غير تضحية ومن غير معاناة الألم. وذلك لأن سارتر أكثر من هذا كآبة وتراجيدية، بل أكثر كثيرًا. فهو لا يبغي أكثر من الإشارة إلى أن لدينا خيارات أكثر مما نظنّ عادة - بل يمكن أن يكون الخيار الأول، في بعض الحالات، أن يُقدِم المرء على الانتحار (يدافع سارتر عن الانتحار دفاعًا عنيفًا).

4 ـ نحن أحرار في تقويض الرأسمالية

المال هو العامل الأول الذي يُثني الناس، أكثر من أي عامل آخر، عن عيش ذواتهم. يعمد أكثرنا إلى إلغاء جملة واسعة من الخيارات المحتملة (الانتقال إلى بلد آخر، أو محاولة بدء عمل جديد، أو ترك شريك أو شريكة) بأن يقول: «هذا لو كنت غير محتاج إلى القلق في ما يخصّ المال».

كانت هذه السلبية في مواجهة المال تثير غضب سارتر الشديد على المستوى السياسي. كان يرى في الرأسمالية آلة عملاقة مصمَّمة لخلق إحساس بالضرورة غير موجود أبدًا في الواقع: يجعلنا هذا الإحساس نقول لأنفسنا إن علينا أن نعمل عددًا معينًا من الساعات، وأن نشتري هذا المنتَج أو هذه الخدمة، وأن ندفع للآخرين أجرًا منخفضًا لقاء عملهم. إلّا أن هذا مُنطوٍ على رفض للحرية - أي على رفض التعامل بالجدّية الواجبة مع إمكانية العيش بطرقٍ أخرى.

ونتيجة هذه الآراء، ظلّ سارتر طيلة حياته مهتمًا بالماركسية (هذا على الرغم من انتقاده الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي الفرنسي). بدا له أن الماركسية تتيح للناس -من الناحية النظرية- استكشاف حريتهم من خلال إنقاص الدور الذي تلعبه الاعتبارات المادية في حياتهم - الدور الذي يلعبه المال وتلعبه الملكية.

إن هذا كلّه فكرة تقضّ مضاجعنا دائمًا: هل نستطيع تغيير السياسات لكي نصير على صلة بحرياتنا الأساسية؟ وكيف يمكن أن تتغيّر مواقفنا وآراؤنا تجاه رأس المال؟ كم ساعة في الأسبوع ينبغي أن نعمل. كيف يمكن تحسين ما يُعرض على التلفزيون، أو الأماكن التي يذهب إليها الناس في العطلة؟ كيف السبيل إلى تغيير إعلامنا السامّ المشبَع بالدعاية؟

إلّا أن سارتر لم يتابع اتجاهات التفكير هذه على الرغم من أنه كتب الكثير جدًا (قدّروا أنه كان يكتب خمس صفحات وسطيًا، على الأقل في اليوم، طيلة حياته منذ أن صار شابًا). لقد فتح باب الإمكانيات، لكننا نحن من ينبغي أن يختار المهمات.

خلاصة

يثير سارتر إلهامًا لدى القارئ من حيث إلحاحه على أن الأمور لا ينبغي بالضرورة أن تكون كما هي. إنه شديد الوضوح إزاء مقدّراتنا الأساسية، أشخاصًا منفردين، وجنسًا بشريًا.

يدعونا سارتر إلى قبول سيولة الوجود، وإلى خلق مؤسّسات وعادات ونظرات وأفكار جديدة. فقبول فكرة أن الحياة ليس فيها منطق مقرَّر مسبقًا، وليست ذات معنى أصيل فيها، يمكن أن يصير منبعًا لارتياح عظيم عندما نشعر بالظلم نتيجة ثقل التقاليد وضغط الحالة القائمة. كما أن سارتر مفيد لنا فائدة خاصة في فترة المراهقة عندما يمكن لما يتوقّعه الأهل والمجتمع منا أن يسحقنا - وكذلك في أكثر لحظات الحياة ظلمة عندما ندرك أنه لا يزال لدينا بعض الوقت للتغيير، لكنه بات قليلًا جدًا.

ألبير كامو

(Albert Camus)

1960 - 1913



في أواسط القرن العشرين، كان ألبير كامو كاتبًا فلسفيًا، فرنسيًا جزائريًا، بالغ الوسامة. وتقوم أهميته بالنسبة إلينا على ثلاث روايات كتبها: «الغريب» (1942)، «الطاعون» (1947)، «السقوط» (1956)؛ فضلًا عن مقالتين فلسفيَّتين، «أسطورة سيزيف» (1942)، و«المتمرّد» (1951).

فاز كامو بجائزة نوبل للآداب سنة 1951 - وقد مات في السادسة والأربعين، قتله ناشره، ميشيل غاليمار، من غير قصد عندما اصطدمت سيارته الرياضية من نوع «فاسيل فيغا» بشجرة. وجدوا في جيب كامو تذكرة قطار قرّر في اللحظة الأخيرة ألّا يستخدمها.

بدأت شهرة كامو مع روايته «الغريب»، ولا تزال قائمة عليها إلى حد كبير. تدور أحداث الرواية في الجزائر التي ولد فيها الكاتب، وتتبع قصة بطلها المتناقض، المنفصل عن الناس، قليل الكلام، الذي كان اسمه ميرسو -رجل لا يرى الغاية من الحب، أو العمل، أو الصداقة- يقتل ميرسو ذات يوم رجلًا عربيًا - كانت تلك غلطة، تقريبًا - عندما يطلق عليه النار من غير أن يعرف ما دفعه إلى ذلك. ثم ينتهي به الأمر إلى الحكم عليه بالإعدام. كان ذلك عائدًا، في جزء منه، إلى أنه لم يُبدِ أي ندم على ما فعله؛ فهو لم يكن مباليًا بمصيره أدنى مبالاة.

تلتقط الرواية الحالة الذهنية التي يسمّيها عالم الاجتماع إميل دوركهايم «الشذوذ الاجتماعي» *anomie*، التي هي حالة من الفتور وانعدام الفعل تجعل صاحبها يشعر بالغربة وبأنه منفصل عن الآخرين انفصالًا تامًا ولا يستطيع العثور على طريقة يشاركهم بها أية عواطف أو قيَم.

لطالما كانت قراءة رواية «الغريب» طقسًا مؤْذِنًا بالانتقال من المراهقة إلى الشباب، وذلك في فرنسا وبلدان كثيرة أخرى - إلّا أن هذا لا يقلل من أهميتها لأن هناك الكثير من المواضيع الكبرى التي يبدأ تعامل المرء معها في سن السابعة عشرة أو نحو ذلك.

إن ميرسو، بطل رواية الغريب، غير قادر على قبول أية إجابة من الإجابات المعتادة على السؤال التالي: ما الذي يجعل الأمور كما هي؟ إنه يرى النِّفاق والمَيل العاطفي المفرط في كل مكان، ولا يستطيع التغاضي عن ذلك. إنه رجل غير قادر على قبول الشروحات العادية المطروحة لتفسير أشياء من قبيل النظام التعليمي، ومكان العمل، والعلاقات العاطفية، وآليات عمل الحكومة. إنه واقف خارج الحياة البرجوازية

العادية؛ وهو شديد الانتقاد للأخلاقيات المنطبعة في نفوس الناس: الاهتمام الضيّق بالمال وبالأسرة.

وكما عبَّر كامو في كلمة ختامية كتبها من أجل الطبعة الأميركية من كتابه: «إن ميرسو لا يلعب اللعبة... يرفض أن يكذب... يقول ما هو، ويرفض إخفاء مشاعره؛ وسرعان ما يشعر المجتمع بخطره».

إن قدرًا كبيرًا من الطبيعة الساحرة لهذا الكتاب آتٍ من ذلك الصوت البعيد البارد الذي يُحدّث به ميرسو القراء.

كانت فاتحة الكتاب من أهم القطع الأدبية في أدب القرن العشرين؛ وهي تبدأ على النحو التالي: «اليوم ماتت أمي. أو لعلّها ماتت يوم أمس؛ لست أدري».

لم تكن خاتمة الكتاب بأقل من فاتحته سطوعًا وتمرّدًا. يُحكم على ميرسو بالموت نتيجة جريمة قتل ارتكبها من غير مبالاة تقريبًا... لمجرد أنّ من الممكن أن يكون شيئًا مثيرًا معرفة المرء كيف يكون إحساسه عندما يضغط على الزناد. وهو يرفض كل مواساة، ويتقبّل تقبّلًا بطوليًا لا مبالاة الكون الكليّة ببني البشر: «كانت أمنيتي الأخيرة أن يشهد إعدامي حشد من الناس، وأن يلتقيني ذلك الحشد بالصياح والكراهية».

حتى إذا لم نكن قتلة، وحتى إذا حزنّا قليلًا عندما تموت أمهاتنا، فإن جوّ رواية «الغريب» يظلّ شيئًا من المحتمل أن يعيش كل واحد منا بعضًا منه... عندما تكون لدينا الحرّية الكافية لكي ندرك أننا في قفص، لكن من غير أن تكون تلك الحرية كافية لكي نهرب منه... عندما يبدو لنا أن ما من أحد يفهم شيئًا... ويبدو كل شيء منعدم الرجاء... قد يكون ذلك في الصيف الذي يسبق ذهابنا إلى الجامعة.

إلى جانب رواية «الغريب»، تقوم شهرة كامو على مقالة نشرها في سنة صدور الرواية نفسها وكان عنوانها «أسطورة سيزيف».

إن لهذا الكتاب بداية جريئة أيضًا: «لا وجود إلا لمشكلة فلسفية وحيدة جادّة حقًّا هي مشكلة الانتحار. الحكم على ما إذا كانت الحياة تستحق أن تُعاش أو لا تستحق أن تُعاش... هذه هي المسألة التي في أساس الفلسفة».

والسبب في هذا الاختيار المفاجئ، كما يراه كامو، هو أننا -فور بدئنا التفكير الجاد، كما يفعل الفلاسفة- نرى أن الحياة لا معنى لها. من هنا، نكون مضطرين إلى التساؤل عما إذا كان علينا، أو لم يكن علينا، أن نضع حدًا لها.

حتى نتمكّن من فهم هذا الزعم المتطرّف، وهذه الأطروحة المتطرّفة، يجب أن ننظر إلى كامو من خلال تاريخ الفكر. فإعلانه الدرامي بأن علينا أن نفكّر في قتل أنفسنا لأن

الحياة قد تكون من غير معنى قائم على مفهوم أسبق عهدًا يقول إن من الممكن حقًّا أن تكون الحياة غنية وفق معنى حدّده الرب - فكرة قد تبدو اليوم بعيدة في نظر كثيرين منا. ومع هذا، فإن علينا أن نتذكّر أن الغرب عاش خلال ألفي سنة مضت فكرة أن للحياة معنى عن طريق مؤسسة كانت فوق كل مؤسسة أخرى: إنها الكنيسة المسيحية.

يقف كامو ضمن صفٍّ طويل من المفكرين، من كيركغارد إلى نيتشه إلى هيدغر إلى سارتر، ممن صارعوا ذلك الإدراك المخيف، إدراك أن ما من معنى «مُعطى قبليًا» في الحياة. لسنا أكثر من مادة بيولوجية تدور من غير معنى مع دوران حجر صغير في زاوية من زوايا كونٍ غير مبالٍ بهذا كله. ما من قوة عليا رحيمة وضعتنا هنا وطلبت منا أن نعمل من أجل خلاصنا فنلتزم بالوصايا العشر أو بتعاليم الكتب المقدسة. ما من خطة طريق، وما من هدفٍ أسمى. هذا هو الإدراك الكامن في قلب كثير من الأزمات التي تحدّث عنها مفكّرون نسميهم الآن «وجوديون».

قبِلَ آلبير كامو، الذي هو ابن الحداثة اليائسة، أن حياتنا كلّها أمر سخيف ضمن المخطط العام للأشياء؛ لكن الأمر انتهى به، خلافًا لبعض الفلاسفة، إلى مقاومة النزوع العدمي والانعدام التام لأي أمل. لقد ذهب إلى القول بأن علينا أن نعيش مع معرفة أن أكثر مساعينا سيكون عقيمًا، وأن حياتنا سرعان ما تصير نسيًا منسيًّا، وأن جنسنا فاسد وعنيف على نحو لا دواء له - لكن علينا أن نحتمل، على الرغم من ذلك كله.

نحن مثل سيزيف، تلك الشخصية الإغريقية التي أمرتها الآلهة بأن تدحرج صخرة كبيرة إلى قمة جبل وبأن نراها تسقط مرة بعد مرة، أبد الدهر.

وفي نهاية المطاف، يقترح كامو أنّ أفضل سبيل لنا هو أن نحاول تدبّر أمرنا على أحسن نحو نستطيعه، وذلك في ما يخص ما لا بد لنا من فعله. لا بد لنا من الإقرار بما في الوجود من منافاة للعقل - ثم لا بدّ من الاحتفاء بالاحتمال الدائم لأن لا يكون هناك أي أمل. وبحسب صياغته الشهيرة، «على المرء أن يتخيّل سيزيف سعيدًا».

هذا ما يصل بنا إلى الجانب الأكثر سحرًا وإغراء عند كامو: كامو الذي يريد تذكير نفسه وتذكيرنا بالأسباب التي يمكن أن تجعل الحياة شيئًا يستحقّ أن نحتمله - إنه كامو الذي يكتب بحكمة وكثافة استثنائيتين عن العلاقات العاطفية، والطبيعة، والصيف، والطعام، والصداقة.

يصير كامو ممتعًا عند النظر إليه على أنه مرشد إلى الأسباب التي تحملنا على العيش. فما أكثر الفلاسفة الذين كانوا بشعين، وكانوا منقطعين عن أجسادهم. فلنفكر في باسكال «الدَّبِق»، أو في شوبنهاور الفاشل من الناحية الجنسية، أو في نيتشه المسكين ذي الطبع الغريب. خلافًا لهم جميعًا، كان ألبير كامو:

- شديد الوسامة.
- ناجحًا جدًا مع النساء: خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، لم تكن لديه أبدًا أقل من عشر صديقات معًا، وزوجات أيضًا.
- كان رفيع الذوق في ملبسه، متأثّرًا بالممثّلَين جيمس دين وهيمفري بوغارد. وليس مفاجئًا أن مجلة «فوغ» الأميركية طلبت منه التقاط صور له.

لم تكن هذه كلّها نزوات أسلوبية فحسب. من الممكن أن تجد نفسك يائسًا عندما توقن فعلًا أن الحياة سخيفة. لكنك تجد نفسك أيضًا ملزَمًا بعيش الحياة على نحو أشد عمقًا وكثافة. من هنا، صار كامو شديد الجدّية في ما يخصّ مباهج الحياة العادية، وشديد الحرص عليها. قال إنه يرى فلسفته «دعوة واضحة إلى العيش والإبداع... وسط الصحراء».

لقد كان من كبار أبطال العادية -التي تعاني الأمرّين في العثور على أبطالٍ لها بين الفلاسفة- وبعد قراءة صفحات وصفحات من فلسفته المكثفة، يلتفت المرء مرتاحًا إلى كامو الذي يكتب في مديح أشعة الشمس والقبلات والرقص.

كان كامو رياضيًا متميّزًا في شبابه. وقد سأله صديقه شارل بونسيه ذات مرة أيهما يفضّل: كرة القدم أم المسرح؟ يقال إن كامو أجابه: «كرة القدم، من غير أي تردّد».

كان كامو يلعب حارس مرمى في فريق شبابي محلّي في الجزائر اسمه «السباق الجامعي الجزائري». وقد فاز هذا الفريق بكأس أبطال نوادي شمال أفريقيا، وكذلك بكأس شمال أفريقيا في الثلاثينيات.

كان الإحساس بروح الفريق، وبالأخوّة، وبالهدف المشترك، مما يستهوي كامو كثيرًا. وعندما طلبت منه مجلة رياضية في الخمسينيات أن يقول لها بضع كلمات عن ناديه الشبابي، قال: «بعد سنين كثيرة رأيت فيها أشياء كثيرة، أقول إنني مدين للرياضية بكل ما أعرفه معرفة أكيدة عن الأخلاق وعن واجب الإنسان». كان كامو يشير بهذا إلى الأخلاقيات التي دافع عنها في مقالاته: أن تقف مع أصدقائك، وأن ترى قيمة كبيرة في الجرأة واللعب النظيف.

كان كامو شديد الحماسة للشمس. وهو يحتفي بها في مقالته «الصيف في الجزائر»: «دفء الماء، وأجساد النساء السمر»... يكتب أيضًا: «لأول مرة منذ ألفي سنة، ظهرت الأجساد على الشواطئ عارية. لقد سعى البشر طيلة عشرين قرنًا إلى إحلال الحشمة محل السذاجة والخلاعة الإغريقيتين، وإلى أن يقلّلوا مساحة ظهور اللحم البشري، ويزيدوا الملابس تعقيدًا. واليوم، يحاكي الشباب الذين يجرون على شواطئ المتوسط حركات رياضيي اليونان القديمة».

لقد دعا إلى نوع جديد من الوثنية قائم على المباهج الجسدية المباشرة:

أتذكّر... فتاة طويلة رائعة الجمال رقصت طيلة المساء. كان عليها طوق من الياسمين فوق فستانها الأزرق الضيق الذي جعله عرقها رطبًا من أعلى ظهرها حتى ساقيها. كانت تضحك وهي ترقص وترمي برأسها إلى الخلف. ومع مرورها بالطاولات، تركت من خلفها شذًا كان مزيجًا من رائحة الأزهار ورائحة جسدها.

لقد هاجم كامو من يقللون من قيمة هذه الأمور ويعتبرونها تافهة ويتوقون إلى شيء أسمى وأفضل، وأكثر نقاء: «إن كانت هناك خطيئة في حق الحياة، فقد لا يكون اليأس منها، بل الأمل في حياة أفضل وفي تفادي ما في هذه الحياة من عظمة».

يقول في واحدة من رسائله: «يجذبني الناس بقدر ما يكونون متحمّسين للحياة، متعطّشين إلى السعادة». «هناك قضايا تستحق الموت في سبيلها؛ لكن ما من قضية تستحق القتل من أجلها».

لقي كامو تقديرًا كبيرًا أثناء حياته، إلّا أن المجتمع الثقافي الباريسي كانت لديه شكوك عميقة تجاهه: لم يكن أبدًا واحدًا من «الباريسيين الراقين». لقد كان «قدمًا سوداء»[1] من الطبقة العاملة مات أبوه عندما كان رضيعًا متأثّرًا بجراح أصابته في الحرب، وعملت أمه في البيوت.

ليس من المصادفة في شيء أن يكون ميشيل دو مونتاني الفيلسوف المفضل لدى كامو: فرنسيٌّ متواضع آخر؛ شخصٌ يمكن أن يحبه المرء لما كان عليه في حياته بقدر ما يمكن أن يحبّه لكتاباته.

---

(1) قدم سوداء، أو أقدام سوداء: تعبير كان مستخدمًا للإشارة إلى ذوي الأصول الفرنسية المولودين في الجزائر.

النّظريّة السّياسيّة

نيكولو ماكيافيلّي

(Niccolò Machiavelli)

1527 _ 1469



يظل تقييمنا للسياسيين ممزّقًا بين الأمل وخيبة الأمل. فمن جهة أولى، لدينا فكرة مثالية مفادها أن السياسي ينبغي أن يكون بطلًا حقيقيًا، رجلًا أو امرأة ممن يستطيعون نفخ حياة أخلاقية جديدة في الأفعال الفاسدة في الدولة. على أننا نجد أيضًا أننا نجنح إلى المرارة والتهكّم عندما ندرك ما يجري في الغرف الخلفية من صفقات ونرى مقدار الكذب الذي يمارسه السياسيون. نحسّ بأننا ممزَّقون بين آمالنا المثالية ومخاوفنا المتشائمة في ما يتعلّق بالوجه الباطن للسياسة. والأمر المفاجئ هو أن الرجل الذي اشتقّت كلمة «ماكيافيلّية» من اسمه - كلمة تستخدم أكثر الأحيان في وصف أسوأ الأحابيل السياسية - قادرٌ على مساعدتنا في فهم مخاطر هذا الانقسام المؤلم الذي نعيشه. تقول لنا كتابات ماكيافيلّي إن علينا ألّا نصاب بالدهشة إذا كذب السياسيون أو عمدوا إلى المراءاة؛ وليس لنا أيضًا أن نعتبرهم عديمي الأخلاق، أو ببساطة «أشخاصًا سيئين»، لفعلهم هذا. ترى وجهة النظر المتميزة عند ماكيافيلي أن السياسي الجيّد ليس هو الشخص الذي يكون صادقًا أو ودودًا أو لطيفًا، بل هو من يعرف كيف يدافع عن الدولة ويزيد ثراءها ويحقّق المجد لها، مهما قد يمكن أن يبدو هذا الشخص -بعض الأحيان- خبيثًا أو مخيفًا. يكفي أن نفهم هذا الشرط الأساسي حتى تصير خيبة أملنا أقل من ذي قبل، وتصير لدينا فكرة أوضح عما نريده من سياسيينا.

ولد نيكولو ماكيافيلّي في فلورنسا سنة 1469. كان أبوه محاميًا ثريًا وواسع النفوذ، فتلقّى ماكيافيلي تعليمًا رسميًا مكثّفًا، حظي بعده بعمله الأول سكرتيرًا للمدينة وصار يعدّ الوثائق الحكومية. على أن فلورنسا شهدت انفجارًا سياسيًا بعد تعيينه لهذا المنصب، وطُردت عائلة ميديتشي التي كانت تحكمها منذ ستين عامًا؛ ثم عانت المدينة بعد ذلك عقودًا من عدم الاستقرار السياسي الذي كانت من نتائجه سلسلة نكسات وتقلّبات أصابت عمل ماكيافيلي.

كان ماكيافيلي منشغل الذهن دائمًا بمشكلة أساسية في السياسة: هل يمكن أن يكون المرء سياسيًا جيدًا، وشخصًا جيدًا في وقت واحد؟ وقد كانت لديه الجرأة لمواجهة الاحتمال المأساوي لأن تكون الإجابة بالنفي، وذلك نظرًا لما هو العالم في حقيقة الأمر. لم يقف ماكيافيلّي عند القول بأن تحقيق التقدّم في السياسة أسهل منالًا على من يكون متخفّفًا من أعباء الضمير، فهو يدعونا إلى التأمّل في احتمال أكثر بشاعة:

إن تصدّي القائد السياسي تصدّيًا سليمًا حسنًا لما ينبغي عليه القيام به، واضطلاعه بالواجبات الحقيقية للقيادة السياسية، متعارضٌ مع كونه شخصًا جيّدًا.

يتناول أشهر كتب ماكيافيلّي، «الأمير» (1513)، كيفية إحراز السلطة والمحافظة عليها، وكذلك ما الذي يجعل الأفراد قادة ناجحين. وقد ذهب إلى أن المسؤولية الأولى للأمير الجيّد هي الدفاع عن الدولة في وجه المخاطر الخارجية والداخلية بغية تثبيت أركان الحكم. يعني هذا أن عليه أن يعرف كيف يقاتل؛ لكن ما يفوق ذلك أهمية هو أن عليه معرفة رعاية سمعته وإدارة أولئك الذين من حوله. لا يجوز أن يراه الناس شخصًا ليّن العريكة يسهُل عصيان أوامره؛ ولا ينبغي أن يجدوه شخصًا شديد القسوة بحيث يثير استياء مجتمعه ونفوره منه. عليه أن يبدو شديد الصرامة، لكنه منطقي. وعندما تناول ماكيافيلّي سؤال ما إذا كان من الأفضل للأمير أن يكون محبوبًا أو مرهوب الجانب، كتب أنه من الرائع نظريًا أن يكون القائد محبوبًا ومُطاعًا معًا، لكن عليه دائمًا أن يميل إلى بث الذعر لأن هذا -في آخر المطاف- هو ما يضمن بقاء الناس متعقّلين.

كان أكثر أفكار ماكيافيلّي جذرية وتميزًا رفضه اتخاذ الفضائل المسيحية دليلًا للقيادة. كان معاصرو ماكيافيلّي المسيحيون يقولون إن على الأمراء أن يكونوا متسامحين، كرماء، مثاليين، رحيمين. كانوا يرون أن معنى كون المرء سياسيًا جيّدًا هو -باختصار- المعنى نفسه لكون المرء مسيحيًا جيّدًا. لكن ماكيافيلّي عارض هذا الرأي معارضة شديدة. لقد طلب من قرّائه أن يدركوا عدم التوافق بين الأخلاقيات المسيحية والإدارة الجيدة للحكم من خلال ما جرى لغيرولامو سافونارولا. لقد كان سافونارولا مسيحيًا مثاليًا متحمّسًا أراد بناء مدينة الرّب على الأرض، في فلورنسا. وكان يُلقي في الناس عِظاتٍ يعارض فيها طغيان حكومة ميديتشي وإفراطاتها؛ بل إنه أفلح أيضًا في قيادة فلورنسا بضع سنوات كانت خلالها دولة ديمقراطية مسالمة، وصادقة نسبيًا. إلّا أن نجاح سافونارولا ما كان ممكنًا أن يستمر لأنه قائم -بحسب رأي ماكيافيلّي- على ضعفٍ يصاحب، مصاحبة دائمة، كون المرء «صالحًا» بالمعنى المسيحي. لم يمض وقت طويل قبل أن يمثّل هذا النظام الجديد خطرًا على البابا الفاسد ألكساندر الذي بدأ أتباعه ومناصروه يكيدون لسافونارولا، ثم قبضوا عليه وعذبوه وشنقوه وأحرقوه في وسط فلورنسا. يرى ماكيافيلّي أن هذا ما يحدث، لا محالة، للأشخاص الطيبين الذين يخوضون غمار السياسة. فسوف تواجههم آخر الأمر مشكلة لا سبيل إلى حلّها بالكرم ولا باللطف ولا باللباقة، لأنهم سيجدون أنفسهم في مواجهة خصوم أو أعداء لا يلعبون وفق هذه القواعد. ودائمًا، سوف يتمتّع المتخفّف من الضمير بمزيّة كبرى. يستحيل

الفوز عليه فوزًا شريفًا. إلا أن الفوز أمرٌ لا بد منه للمحافظة على سلامة المجتمع وأمانه!

بدلًا من اتّباع هذا المثال المسيحي عاثر الحظ (مثال سافونارولا)، يقترح ماكيافيلّي فكرة أن القائد يُحسن صنعًا إن عرف كيف يستخدم استخدامًا حصيفًا ما يصفه ماكيافيلّي بعبارة فيها مفارقة ساحرة بأنه «الفضيلة الإجرامية». ويورد ماكيافيلّي عددًا من المعايير لما قد يكون مناسبةً صالحة لاستخدام الفضيلة الإجرامية: يجب أن تكون ضرورية لحفظ أمن الدولة؛ ويجب أن تنفَّذ بسرعة كبيرة (في الليل غالبًا)؛ ولا يجوز أن يكرّرها الحاكم كثيرًا حتى لا يراه الناس شخصًا متوحّشًا من غير حساب. ضرب ماكيافيلّي مثالًا على ذلك من خلال سيزار بورجيا الذي كان معاصرًا له، وكان قائدًا يحظى بإعجابه الكبير، مع أنه لم يكن راغبًا في أن يكون صديقه. عندما غزا سيزار بورجيا مدينة سيسينا، أمر واحدًا من مرتزقته اسمه ريميرو دي أوركو، بأن يفرض النظام في المنطقة. فعل ريميرو ذلك بطريقة وحشية سريعة. قطع رؤوس الرجال أمام زوجاتهم وأطفالهم، وصادر الممتلكات، وأخصى من اعتبرهم خونة. وبعد ذلك، انقلب سيزار على دي أوركو نفسه، وأمر بقطعه نصفين ووضعه في الساحة العامة حتى يعرف أهل المدينة من هو الزعيم الحقيقي. لكن ماكيافيلّي يلاحظ مستحسنًا أن سيزار بورجيا أدرك أنّ ما من حاجة إلى مزيد من سفك الدماء، فانتقل إلى تخفيف الضرائب المفروضة على الناس، واستورد لهم قمحًا رخيصًا، وبنى مسرحًا، ونظم سلسلة مهرجانات جميلة حتى لا يظل الناس متمسكين بالذكريات السيئة.

حظّرت الكنيسة الكاثوليكية أعمال ماكيافيلّي طيلة مئتي عام نتيجة إصراره الشديد على أن كون المرء مسيحيًا صالحًا غير منسجم مع كونه قائدًا جيدًا. إلّا أن أفكار ماكيافيلّي تظلّ مهمة حتى بالنسبة إلى الملحدين وإلى من لا يشتغلون بالسياسة. كتب ماكيافيلّي أننا لا نستطيع أن نكون «جيّدين في كل شيء»، أو «جيّدين من أجل كل شيء». علينا اختيار الميادين التي نريد التميّز فيها، وأن نتغاضى عن غيرها - ليس هذا بسبب محدودية قدراتنا ومواردنا فحسب، بل أيضًا لأن هناك تضاربات داخل المعايير الأخلاقية نفسها. فبعض الميادين التي نختارها - إذا لم نختر الإمارة، فقد نختار العمل التجاري، أو الحياة العائلية، أو أية صيغ أخرى من الولاء ومن المسؤولية - قد تتطلّب ما نسمّيه بطريقة مراوغة «القرارات الصعبة»؛ وذلك أن المقايضات الأخلاقية هي ما نعنيه حقًا عندما نستخدم هذا التعبير. قد يكون علينا أن نضحّي بتطلعاتنا المثالية إلى اللطف مقابل إحراز نجاحات عملية. قد يكون علينا أن نكذب حتى نحافظ على استمرار علاقة عاطفية، وقد يكون علينا أن نتجاهل مشاعر العاملين حتى نضمن استمرار الشركة. يصرّ

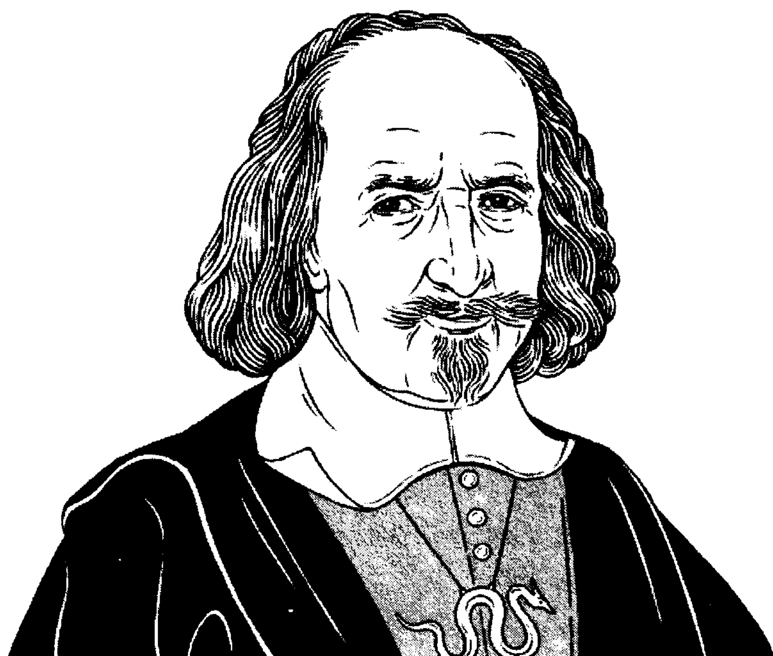
ماكيافيلّي على أن هذا هو ثمن التعامل مع العالم الحقيقي كما هو، لا كما نرى أنه ينبغي أن يكون. وقد واصل العالمُ كرهَ ماكيافيلّي وحبَّه على السواء لتمسّكه الشديد بهذه الحقيقة المزعجة.

إن ماكيافيلّي واقعٌ ضحية سوء فهم طبيعي. فقد يبدو لنا أنه يتخذ جانب الأوغاد، أو المتوحشين؛ وقد يبدو لنا أنه يهلّل لمن كانوا وضيعين أو قساة القلوب. وأما في واقع الأمر، فإن نصيحته المفزعة، فيما يخص انعدام الرحمة، موجّهة إلى من يخاطرون بخسارة ما يهمهم أمره فعلًا عندما يواجهون لحظات حاسمة لا يكونون فيها قساةً إلى الحدّ الكافي.

توماس هوبز

(Thomas Hobbes)

1679 _ 1588



كان توماس هوبز فيلسوفًا إنكليزيًا من القرن السابع عشر. وهو يمد لنا يد العون في مواجهة واحدة من أكبر المشكلات الشائكة في السياسة. إلى أي مدى ينبغي لنا أن نصبر ونطيع الحكام، خاصة إذا لم يكونوا حكّامًا صالحين؟ - ومتى يكون علينا أن نثور ونسقط الحكومات بحثًا عن عالم أفضل؟

إن من غير الممكن فصل تفكير هوبز عن الحوادث الكبرى التي بدأت عندما كان عمره أربعة وخمسين عامًا؛ تلك الحوادث التي أثّرت فيه تأثيرًا عميقًا ولوّنت تفكيره اللاحق كلّه (مما تجدر الإشارة إليه أنه مات في الحادية والتسعين من العمر، وأن كل ما يتذكّره الناس به اليوم كان مما كتبه بعد بلوغه الستين).

كانت الحرب الأهلية الإنكليزية ذلك الحدث الكبير: صراع مكلف، شرس، عنيد، قاتل، اندلع في إنكلترا واستمر قرابة عشر سنين من المواجهات بين البرلمان وقوات الملك. قتل في تلك الحرب نحو مئتي ألف إنسان، من الجانبين.

كان هوبز بطبيعته رجلًا حذرًا عنده ميل عميق إلى السلم. كان يكره أنواع العنف جميعًا؛ وكان ذلك موقفًا لديه منذ السنة الرابعة من عمره عندما حلّ الخُزي بأبيه الذي كان قسًّا، فهجر زوجته وأسرته بعد تورطه في قتال مع قس آخر عند بوابة كنيسة الأبرشية في قرية قريبة من وولتشاير.

إن كتاب هوبز الأهم الباقي في الذاكرة حتى الآن هو «لوياثان - *Leviathan*»؛ وقد صدر في سنة 1651. إنه النص الأكثر فصاحة ووضوحًا وإقناعًا من بين كل ما كُتب دفاعًا عن وجوب طاعة سلطة الحكومة، حتى إن كانت معايبها كثيرة جدًا، وذلك بغية تفادي خطر الوقوع في الفوضى وسفك الدماء. وبغية فهم خلفية النزعة المحافظة عند هوبز، من المفيد معرفة أن منظّري السياسة في أوروبا القرن السابع عشر كلها كانوا قد بدأوا يتساءلون -بطريقة مباشرة غير معهودة في ذلك الزمان- عن الأسس التي يقوم عليها وجوب طاعة الحاكمين.

على امتداد قرون كثيرة، رجوعًا حتى العصور الوسطى، كانت هناك إجابة ثابتة عن هذا السؤال... إجابة متضمّنة في نظرية اسمها «حق الملوك الإلهي في الحكم». هذه نظرية بسيطة قد تكون شديدة الفجاجة، لكنها كانت فعّالة جدًا من حيث قولها إن الرب نفسه هو من عيّن الملوك جميعًا، وإن على المرء أن يطيعهم لسبب واضح جدًّا: لأن الرب قال هذا؛ ولأنه سيرسلك إلى الجحيم إذا لم تفعل ما يطلبه منك!

لكن ما تبين هو أن هذا المنطق ما عاد مقنعًا تمامًا في نظر كثيرين من العقلاء الذين راحوا يجادلون في أن «الحقّ في الحكم» ليس حقًّا للملوك في حقيقة الأمر، بل هو حقّ للناس العاديين الذين يمنحون الملوك سلطانهم. من هنا، فإن على الناس قبول أوامر ملوكهم طالما -فقط طالما- ظلت الأمور جارية على ما يرام بالنسبة إليهم. هذا ما عُرف باسم «نظرية العقد الاجتماعي» في الحكم.

كان هوبز قادرًا على رؤية أن نظرية «الحق الإلهي للملوك» ليست إلّا كلامًا فارغ، فضلًا عن أنها بدأت تصير -على نحو متزايد- غير مقنعة للناس مع تناقص سوية الالتزام الديني بينهم. بل إن هوبز نفسه كان ملحدًا، وإن لم يعلن ذلك. في ذلك الوقت نفسه، كان لدى هوبز خوفٌ عميقٌ من العقابيل الممكنة لنظرية العقد الاجتماعي، فمن الممكن أن تشجّع الناس على خلع حكامهم كلما ضاقوا قليلًا بمجريات حياتهم.

عرف هوبز بقطع رأس الملك تشارلز الأول على منصّة أقيمت أمام «بيت المآدب» في قصر وايتهول سنة 1649 – وقد اتجه عمله الفكري إلى ضمان عدم تكرار حدوث مشاهد بدائية ومخيفة من هذا النوع.

وهكذا نرى في كتابه «الليوثان» مناقشة عبقرية حاولت المزاوجة بين أمرين اثنين: نظرية العقد الاجتماعي، ونظرية الدفاع عن ضرورة الطاعة والخضوع التامّين للسلطة التقليدية. وكانت الطريقة التي اتّبعها هي أخذ قرائِّه في رحلة في الزمان للعودة بهم إلى ما دعاه «الحالة الطبيعية» قبل أن يوجد أي نوع من الملوك، ثم جعْلَهم يفكرون في كيفية نشوء الحكومات انطلاقًا من تلك الحالة.

هناك نقطة جوهرية في مناقشة هوبز هي أن الحالة الطبيعية ما كان يمكن أن تكون «مكانًا لطيفًا»، وذلك لأن البشر المتروكين وشأنهم من غير سلطة مركزية تفرض عليهم هيبتها، سرعان ما ينحدرون إلى حالة من الخصام والعراك، ومن التقاتل الذي لا سبيل إلى احتماله. وسوف يكون في ذلك ما يشبه الحرب الأهلية الإنكليزية، لكنّها حرب يخوضها بشر يرتدون جلود الدببة، ويطعن كل منهم الآخر بأسلحة من حجر الصوان. وبحسب الصياغة الشهيرة الواردة لدى هوبز تكون الحياة في الحالة الطبيعية، «كريهة، بهيمية، قصيرة الأمد».

نتيجة ذلك، اهتدى الناس إلى إقامة الحكومات لشدة خوفهم من الفوضى. لقد فعلوا ذلك طوعًا، تمامًا كما تقول نظريات العقد الاجتماعي؛ لكنهم فعلوه أيضًا تحت وطأة اضطرارهم إلى فعله، فقد فروا من الحالة الطبيعية واحتموا بين ذراعي السلطة القوية، فصار عليهم -هذا ما ألحّ عليه هوبز- واجب البقاء على الطاعة مع حق محدود في الاحتجاج إذا لم تعجبهم السلطة.

لا يكون للناس حقٌّ في الاعتراض على الحاكم المطلق، أو على «اللوياثان» كما يدعوه هوبز، إلّا في حالة واحدة: إذا بات يشكل تهديدًا مباشرًا بقتلهم.

وأما إذا لم يفعل الحاكم شيئًا غير كتم صوت المعارضين، وفرض ضرائب مجحفة، وإلحاق الأذى بالاقتصاد، وحبس المناوئين، فإن هذا ليس على الإطلاق سببًا كافيًا للنزول إلى الشوارع والمطالبة بتغيير الحكومة.

«مع أن تمتّع الحاكم بهذه السلطات التي لا حدود لها أمرٌ قد تكون له عواقب سيئة كثيرة، إلّا أن عواقب عدم وجوده تظلّ أسوأ كثيرًا، فهي حرب دائمة يخوضها كل جار ضد جاره».

كان هوبز مُقرًّا بأن الحاكم قد ينشأ لديه «نزوع إلى أفعال شريرة»، لكن طاعة الناس له تظل واجبة عليهم لأن «الشؤون البشرية لا يمكن أن تخلو من بعض المساوئ والمنغّصات». على أن الحاكم لا يتحمل مسؤولة وجود هذه المنغّصات، بل الناس يتحمّلونها لأنهم... «لو كانوا قادرين على حكم أنفسهم، لما كانت بهم أبدًا حاجة لسلطة عمومية تقسرهم». ثم يضيف هوبز: «إن من يشكو أذيّة من ملِكِه يشكو مما جنته يداه هو؛ وليس له أن يلقي الملامة إلا على نفسه».

كانت نظرية هوبز قاتمة، شديدة الحذر؛ وكانت خاصةً من غير أي شيء باعث على الأمل في ما يتعلّق بالحكومة. نتمنى في لحظات تفاؤلنا أن يكون هوبز مخطئًا. لكن الظاهر أن اسم هوبز سيظل «طازجًا»، وسيظل على صلة بنا كلّما ضلّت سواءَ السبيل ثوراتٌ قامت بدافع البحث عن الحرية. لم تكن لدى هوبز أية دوافع خبيثة عندما ناهض الثورة. فهو لم يفعل أكثر من الإصرار، هذا ما كتبه في مقدمة الليوثان، على أنه يرى ضرورة «... أن يضع أمام عيون البشر العلاقة المتبادلة بين الطاعة والحماية».

جان جاك روسّو

(Jean ـ Jacques Rousseau)

1778 ـ 1712



إن الحياة الحديثة قائمة، من نواحٍ كثيرة، على فكرة التقدم. وهذه فكرة مفادها أن زيادة معارفنا (في العلوم والتكنولوجيا أكثر من أي أمر آخر) ونموّنا الاقتصادي لا بد أن تجعلنا أكثر سعادة. ففي القرن الثامن عشر خاصّة، ومع الزيادة المضطردة في تعقّد المجتمعات الأوروبية واقتصاداتها، كانت الفكرة الشائعة هي أن الجنس البشري قد استقرّ استقرارًا ثابتًا على مسار إيجابي: ابتعادٌ عن الحالة الوحشية وعن الجهل، واقتراب متزايد من الرخاء والتمدّن. لكن القرن الثامن عشر نفسه عرف فيلسوفًا -واحدًا على الأقل- كان مستعدًا للتشكيك القوي في «فكرة التقدّم». لا يزال لدى ذلك الفيلسوف أشياء كثيرة يقولها عن زماننا هذا فتستفز تفكيرنا.

ولد جان جاك روسّو سنة 1712 في جنيف. كان أبوه صانع ساعات متعلّمًا اسمه إسحاق روسّو. وفور ولادته تقريبًا، بدأت معاناة روسو مما سيدعوه لاحقًا «حظّه العاثر»: ماتت أمه بعد تسعة أيام من ولادته. كان اسمها سوزان برنارد؛ وقد أودت بحياتها مضاعفات ناجمة عن عملها الشّاق المؤذي. ولما صار في العاشرة من عمره، دخل أبوه في منازعة قانونية اضطرت الأسرة بعدها إلى الفرار قاصدة مدينة برن حيث لم يلبث إسحاق بعد ذلك أن تزوّج مرة ثانية. ومنذ تلك اللحظة، صارت حياة جان جاك روسّو ميّالة إلى العزلة وقلة الاستقرار. غيّر مكان سكنه كثيرًا خلال سنوات مراهقته وبعد نضجه. كان ذلك، بعض الأحيان، بحثًا عن الحب والرعاية؛ وفي أحيانٍ أخرى، كان فرارًا من الاضطهاد.

ذهب روسّو إلى باريس عندما صار شابًا، فرأى ما فيها من رخاء وترف كانا سمة مميزة لباريس «النظام القديم»[1]: كانت البرجوازية الطامحة تفعل كل ما في وسعها لمحاكاة ما لدى الأرستقراطية والعائلات المالكة من أهواء وأنماط حياة. وكان من شأن ذلك أن عزز الروح التنافسية ونشّط المشهد الاجتماعي الباريسي الناشئ. كانت باريس كما عرفها روسّو بعيدة كل البعد عن مسقط رأسه جنيف التي هي مدينة رزينة ترفض سلع الرفاهية رفضًا شديدًا.

تشكّلت حياة روسّو بفعل انعطافات كبرى في الحظ. حدث واحد من أكثر تلك

(1) النظام القديم (*ancien régime*): تسمية تطلق على الزمن الممتد من العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية في سنة 1789.

الانعطافات أهمية في سنة 1749 عندما قرأ عددًا من صحيفة اسمها «ميركور دو فرانس»، فوجد إعلانًا يطلب مقالات تعالج موضوع ما إذا كانت التطورات الأخيرة في الفنون والعلوم قد ساهمت في «ترقية الأخلاق». بعد قراءته ذلك الإعلان الذي وضعته الأكاديمية الفرنسية للعلوم والآداب والفنون، عاش روسّو ما يشبه «لحظة التجلّي». فاجأته فكرة أن التمدّن والتقدّم لم يفضيا إلى تحسين أخلاق الناس، الظاهر أن هذه الفكرة لم تأتِه قبل ذلك، بل كان لهما أثر هدّام فظيع على أخلاق بني البشر الذين كانوا أخيارًا في زمان مضى.

التقط روسّو هذه الفكرة وجعلها أطروحة مركزية في مقالته التي تحولت في ما بعد إلى كتاب شهير حمل اسم «خطاب في الفنون والعلوم»، وفازت بالجائزة الأولى في المسابقة التي أعلنت عنها الصحيفة. في تلك المقالة، يقدم روسّو نقدًا لاذعًا للمجتمع الحديث الذي يعارض المقوّمات المركزية في فكر التنوير. كانت مناقشته بسيطة: كان الأفراد أخيارًا في ما مضى؛ وكانوا سعداء. لكن الإنسان غزته الرذيلة، وانحطّ إلى الفاقة، بعد أن ترك حالته الأولى «قبل الاجتماعية».

ثم مضى روسّو فرسم تاريخ العالم لا بوصفه حكاية تقدّم من البربرية إلى المصانع الكبيرة والمدن في أوروبا، بل بما هو نكوص عن حالته الممتازة الأولى التي عاش فيها عيشة بسيطة لكنه حظي بفرصة الإصغاء إلى حاجاته. في مرحلة ما قبل التاريخ التي كانت متخلّفة من الناحية التكنولوجية، أي في ما أسماه روسّو «الحالة الطبيعية» l'état de nature عندما عاش الرجال والنساء في الغابات فلم يدخلوا متجرًا ولم يقرأوا صحيفة، صوّر الفيلسوف بشرًا قادرين على قراءة أذهانهم بقدر أكبر من السهولة، بشرًا منجذبين إلى السّمات الأساسية للعيشة الرضيّة: حب الأسرة، واحترام الطبيعة، والخشوع أمام جمال الكون، والاهتمام بالآخرين، والقدرة على تذوّق الموسيقى والتسلية البسيطة. كانت الحالة الطبيعية أخلاقية أيضًا؛ وكانت تسترشد بالعطف على الآخرين وعلى معاناتهم. لقد أبعدتنا «المدنيّة» التجارية الحديثة عن تلك الحالة، وجعلتنا نتزاحم ونتوق ونعاني في عالم من الوفرة.

كان روسّو مدركًا لما سوف تثيره استنتاجاته من جدل - توقّع «غضبًا عامًّا» ضد أطروحته. والواقع أن «خطاب في الفنون والعلوم» قد أثار عددًا كبيرًا من الردود. صار روسّو شهيرًا.

ما الشيء الذي رآه جان جاك روسّو في الحضارة واعتبره سبب فساد الناس ومبعث هذا الانحطاط الأخلاقي؟ لقد كان في جذر فلسفته زعمٌ مفاده أن مسيرة البشر صوب

الحضارة قد أيقظت فيهم نوعًا من «حب الذات» كان مصطنعًا وارتكز على الغيرة والخُيلاء والكِبَر. كما قال إن هذا الشكل الهدّام من حب الذات ظهر نتيجة انتقال الناس للعيش في تجمّعات أكبر حجمًا، في المدن، حيث بدأوا ينظرون إلى الآخرين بغية اكتشاف الإحساس بالذات. كفّ الناس المتحضّرون عن التفكير في ما يريدون وفي ما يحسون... اكتفوا بتقليد الآخرين فدخلوا منافسة مدمّرة من أجل الجاه والمال.

أشار روسّو إلى أن الإنسان البدائي ما كان يقارن نفسه بغيره، بل كان يركّز على نفسه وحدها - ما كان له من هدف غير البقاء. صحيح أن روسّو لم يستخدم مصطلح «المتوحّش النبيل» في كتاباته الفلسفية، لكن ما كتبه عن الإنسان الطبيعي أطلق موجة افتتان بهذا المفهوم. وأما من يمكن أن يروا الآن في هذا الأمر قصّة رومانسية غير معقولة ينبغي تفسيرها على أنها خيالات كاتب تدفعه الحماسة إلى التسرّع وتدفعه ضغينة مُضمَرةٌ إزاء الحداثة، فإن الأمر الذي يستحق أن يتأملوا فيه هو أن ما جعل القرن الثامن عشر يصغي إلى ما قاله روسّو كان، في المقام الأول، أنه قد رأى أمامه مثالًا ساطعًا على صدقه الجلي، وذلك من خلال مصير السكان الأصليين الهنود في أميركا الشمالية.

وصفت التقارير التي تحدّثت عن المجتمع الهندي الأميركي في القرن السادس عشر ذلك المجتمع بأنه مجتمع بسيط من الناحية المالية، لكنه غني من الناحية النفسية: كانت الجماعات البشرية صغيرة، متماسكة، تسودها المساواة؛ كما كانت جماعات مرحة، محاربة، متديّنة. لا شك في أن الهنود كانوا متخلّفين بالمعنى المادي. لقد عاشوا على الثمار والحيوانات البرّية، وناموا في الخيام، وكانت ممتلكاتهم قليلة جدًا. كانوا يرتدون ملابسهم وأحذيتهم نفسها في كل سنة. فحتى الزعيم منهم، ما كان لديه أكثر من رمح وبضعة أوانٍ. إلا أنهم كانوا يتمتّعون بمستوى متميز من الرضا وسط تلك البساطة كلّها.

لكن انقضاء بضعة عقود على وصول الأوروبيين الأوائل كان كافيًا لإحداث ثورة في نظام القيم في المجتمع الهنديّ، وذلك عبر الاحتكاك بالتكنولوجيا الصناعية الأوروبية وما تسعى إليه من رخاء. وبدلًا من حكمة المرء وفهمه سبل الطبيعة، تحوّل اهتمامهم إلى حيازة الأسلحة والحليّ والكحول. صاروا تواقين إلى الأقراط الذهبية، والأساور المصنوعة من النحاس الأصفر أو الأحمر، والخواتم الجميلة، والعقود المصنوعة من زجاج بندقي، والأزاميل الكبيرة لحفر الجليد، والبنادق، والكحول، والقدور، والخرز الملوَّن، والجوارب، والمرايا.

ما كان ظهور هذه الحماسة الجديدة لتلك الأشياء وليد المصادفة. لقد تعمّد التجار الأوروبيون تعزيز هذه الرغبات لدى الهنود حتى تكون حافزًا يدفعهم إلى اصطياد مزيد من الحيوانات وتوريد جلودها إلى الأسواق الأوروبية لتغطية الطلب المتزايد عليها. والمؤسف أن ذلك الثراء الذي حل على الهنود لم يجعلهم أكثر سعادة. من المؤكد أن الهنود صاروا يعملون بجد أكبر من ذي قبل. ففي الفترة الفاصلة بين سنتي 1739 و1759، قُدّر عدد الوعول التي اصطادها مئتا ألف محارب من قبيلة شيروكي بنحو مليون وربع المليون، وذلك تلبية للطلب الأوروبي على جلودها. إلّا أن نسب الانتحار وإدمان الكحول ازدادت، وتشقّقت المجتمعات الهندية، ونشبت صراعات بينها. لم يكن زعماء القبائل الهندية في حاجة إلى فلسفة روسّو حتى يفهموا ما أصابهم. فهم متّفقون تمام الاتفاق مع تحليله، على الرغم من جهلهم به.

مات روسّو سنة 1778 عن عمر بلغ ستة وستين عامًا، وذلك حين كان في نزهة خارج باريس. أمضى سنواته الأخيرة رجلًا شهيرًا، وعاش مع امرأة تزوجها زواجًا مدنيًا. إلّا أنه كان أيضًا في حالة فرار دائم من اضطهاده في جنيف بعد أن ثار فيها جدلٌ نتيجة بعض أفكاره الراديكالية، ما يتعلّق منها بالدين خاصّة (أصابه التوتر الناجم عن ذلك بسلسلة نكسات عقلية). إنه مدفون الآن في البانتيون، في باريس؛ كما صارت جنيف معتزّة به لأنه أوسع بنيها شهرة.

تستمر أصداء تأملات روسّو واضحة في عصرنا هذا الذي يمكن فيه اعتبار الترف والرفاهية مرغوبين وفاحشين على نحو متزايد. إنه يدعونا إلى تنحية الغيرة والتنافس، وإلى تركيز أنظارنا على أنفسنا وحدها للتعرّف على قيمتنا الذاتية. يقول لنا روسّو إن ما من سبيل إلى تفادي شعورنا بالبؤس وقلّة الكفاية غير مقاومة الشرور التي تأتي بها المقارنة مع حال الآخرين.

على الرغم من صعوبة هذا، كان روسّو واثقًا من أنه ليس مستحيلًا. من هنا، فقد ترك لنا فلسفة فيها نقد لأسس المجتمع، لكن فيها أيضًا تفاؤلًا عميقًا. لدينا سبيلٌ للخروج من البؤس والفساد الناجمين عن سُنن الحضارة الحديثة ومؤسّساتها... لكن الصعوبة في الأمر كامنة في النظر إلى أنفسنا وإحياء صلاحنا الطبيعي.

آدم سمیث

(Adam Smith)

1790 ـ 1723



إن آدم سميث دليلنا إلى ما قد يكون أكثر المشكلات إلحاحًا وضغطًا في زماننا هذا: كيف السبيل إلى جعل الاقتصاد الرأسمالي أكثر إنسانية، وأكثر معنى؟

ولد آدم سميث في مدينة كيرغالدي الاسكوتلندية - مدينة صناعية صغيرة - الواقعة على مقربة من إدنبره. وكانت ولادته في سنة 1723. نشأ طالبًا مجتهدًا شديد القرب من أمه. وفي طفولته، اختطفه الغجر فترة وجيزة. وعلى الرغم من كونه واحدًا من أبناء الطبقة الوسطى، ذهب أثناء مراهقته في جولة في أنحاء فرنسا مع أعظم أرستقراطي شاب في ذلك الوقت بعدما صارا صديقين حميمين. ثم لم يلبث أن كبر فصار فيلسوفًا أكاديميًا، وكتب كتابًا ضخمًا عن أهمية الإحساس بالتعاطف والشفقة، وألقى محاضرات في المنطق وعلم الجمال. كان صاحب ابتسامة ساحرة، وكانت الفوضى سمة معتادة في مكتبه. كان آدم سميث أيضًا واحدًا من أعظم المفكّرين السياسيين في التاريخ؛ وذلك عائدٌ في جزء منه إلى أن اهتماماته مضت إلى ما هو أبعد كثيرًا من الاقتصاد. لقد حاول فهم نظام النقود لشدّة طموحه إلى جعل الأمم والناس أكثر سعادة. وفي زمانه، كان من المألوف أن يعني ذلك الطموح اهتمامًا بالدين أو بالحكومة. كان الجدل الثقافي واقعًا تحت هيمنة مناقشات حماسية في دور الكنيسة، وفي أسس الدولة أيضًا. لكن آدم سميث كان مصرًّا على أنه ينبغي للفلاسفة أن يهتموا بالاقتصاد: كيف يُجنى المال، وكيف يُنفق، ومن الذي يحصل على هذا القدر منه أو ذاك، ومقابل فعل ماذا؟

لا يزال آدم سميث مرشدًا كبير القيمة والأثر في أفكار أربعة قادرة على مساعدتنا في الوصول إلى رأسمالية من النوع الأفضل:

1 - التخصص

تبرز حقيقتان اثنتان عندما يتأمّل المرء حالة العمل الحديث:

- يُنتج الاقتصاد الحديث مقادير غير مسبوقة من الثروة (من أجل النخب).
- يجد كثيرٌ من الناس العاديين العمل مضجرًا؛ ونسمع منهم شكوى أساسية مفادها أنه لا معنى له.

إن هاتين الظاهرتين (يا للغرابة!) لفي ترابط وثيق؛ وهذا ما كان آدم سميث أول من فهمه في نظريته عن التخصّص. قال إن مهماتٍ كان ينجزها شخص واحد في يوم واحد صارت في عالم الأعمال الحديث مجزّأة إلى مهمات كثيرة ينفّذها أشخاص كثيرون طيلة أعمارهم المهنية لأن ذلك أكثر ربحية.

رحّب سميث بهذا واعتبره تطوّرًا هائلًا: توقّع أن يشهد ثراء الاقتصادات الوطنية نموًا ضخمًا مع ازدياد تخصّص قوة العمل لديها. إن بلدًا يصنع أهله الخبز بأنفسهم من أجل طعامهم، ويشتغلون فترة من الصباح في بناء بيوتهم، ويحاولون اصطياد الأسماك من أجل غدائهم، ويعلّمون أطفالهم بأنفسهم وقت العصر، يظلّ محكومًا عليه بالفقر. من الأفضل كثيرًا أن يُوزّع كل شيء إلى ميادين محدَّدة من الخبرات والمهارات، وأن يجري تشجيع الناس على تبادل حاجاتهم ومهاراتهم وقدراتهم.

يقول لنا سميث إن من العلامات الدالّة على ثراء عالمنا الآن أننا نقابل شخصًا غريبًا عنا فنجد صعوبة في فهم صنعته. وليس ما نراه من إقبال شديد على الألقاب الوظيفية غير المفهومة «مدير التوريدات اللوجستية»، أو «منسّق التوضيب»، أو «مسؤول الاتصالات والتعلم» إلّا برهانًا على المنطق الاقتصادي في أفكار سميث.

إلّا أن لدينا مشكلة ضخمة في التخصّص: إنها مشكلة المعنى. كلما ازدادت الأعمال تقسيمًا، كلما تراجع احتمال أن يوفّر أي جزء منها إحساسًا بالمعنى. وهذا لأن ما ندعوه «معنى» أمرٌ منبثق من إحساس داخلي عميق بأن المرء مساهمٌ في شيء من شأنه أن يُحدث تغييرًا في حياة شخص آخر. عندما تكون الأعمال أو الشركات صغيرة، ويكون العمل الجاري فيها محدود التنوّع، يظل هذا الإحساس بمساعدة الآخرين قريب المتناول، حتى إذا كان ما يقوم به المرء أمرًا صغيرًا لا يتجاوز تشغيل متجر صغير لبيع الملابس، أو مخبز بسيط. وأما عندما يتّخذ كل شيء طابعًا صناعيًا، فإن الإنسان يصير كأنه ترسٌ مسننٌ صغير في آلة عملاقة يظل منطقها الكلّي (مع أنه موجود ومفهوم لدى الإدارة) بعيدًا عن أذهان الناس في المستويات الدنيا ضمن تنظيم المؤسسة. إن شركة فيها مئة وخمسين ألفًا من المشتغلين الموزّعين على امتداد أربع قارات، ويمتد فيها الزمن بين ظهور فكرة منتَج جديد وطرحه في الأسواق خمس سنين، تجد صعوبة كبيرة في المحافظة على أي إحساس بالغاية والترابط.

وقد بلغت شدة الذعر الذي أصاب نفرًا من المفكّرين نتيجة مفاعيل التخصّص أن جعلتهم يدعون إلى العودة إلى الاقتصاد الحِرَفي (أعظم خيالات الفلاسفة في القرن التاسع عشر). لكن سميث كان أكثر إبداعًا: لقد استنتج أن أكثر ما يحتاجه أكثر العمال في الاقتصادات المتقدّمة هو قصة مُرضية توضّح مساهمة جهودهم الفردية في المجرى العام للأمور، وكيف أنهم يمدّون يد العون إلى بقية الناس ويخدمون المجتمع.

هكذا تصير على مديري الشركات المتخصّصة في الاقتصاد الحديث مسؤوليةٌ إضافية إزاء عمالهم: تذكير أولئك العمال بغاية عملهم، وبدوره، وبأنه عمل يشرّفهم في آخر المطاف.

2 ـ الرأسمالية الاستهلاكية

شهد عصر سميث تطور ما قد ندعوه الآن «الرأسمالية الاستهلاكية». بدأ الصناعيون إنتاج سلع الرفاهية من أجل الطبقة الوسطى التي كانت تشهد توسّعًا مستمرًا. انتشرت مراكز التسوّق، وكثرت مجلات الأزياء، وتنوّعت الأسماء التجارية للأدوات المنزلية. وهذا ما أصاب بعض المعلّقين بالذعر. لقد أراد الفيلسوف جان جاك روسّو حظر «الرفاهية» في مدينته جنيف، والعودة إلى أنماط حياة أكثر بساطة. كان معجبًا خاصة بمثال مدينة إسبارطة القديمة، وذهب إلى أن على مدينته أن تحذو حذوها من حيث التقشّف ونمط الحياة العسكري.

أبدى سميث معارضة شديدة لهذا التوجّه، ولفت نظر الفيلسوف السويسري إلى أن لسلع الرفاهية وللنزعة الاستهلاكية الغبية دورًا بالغ الأهمية من أجل الوصول إلى مجتمع جيد: فالحقيقة أنهما ما يوفّر فائض الثروة الذي يمنح المجتمعات قدرة على رعاية أفرادها الأكثر ضعفًا. صحيح أن المجتمعات الاستهلاكية قد لا تتمتّع بما كان لمجتمع إسبارطة من تماسك أخلاقي ظاهري، إلّا أنها مؤهّلة تمامًا لأن تكون أخلاقية حقًّا، لكن من نواحٍ أخرى: إنها لا تترك الأطفال وكبار السن يقعون ضحية الجوع؛ وهي قادرة على إقامة المستشفيات وإغاثة الفقراء. فتلك المناديل المطرّزة كلّها، وعلب السعوط المرصعة بالجواهر، ومجسّمات المعابد المصغّرة المصنوعة من الكريما من أجل تزيين الحلوى... كلّها غير ضرورية، بل فيها شيء من الوقاحة أيضًا، ولا شكّ في هذا... لكنها تشجّع التجارة، وتخلق فرص عمل، وتولّد ثراءً عريضًا: انطلاقًا من هذا، ينبغي الدفاع عنها.

لو توقّف سميث عند هذا الحد، لكان من شأن كلامه أن يضعنا أمام خيار غير مريح (سخف الرأسمالية الاستهلاكية، أو التقشّف العنيف الذي كان في إسبارطة – أو الذي في كوريا الشمالية). لكن سميث جاء ببعض الآمال الساحرة في ما يخص المستقبل: ليس مما لا يمكن تجنبه أن يشتمل الاستهلاك على أمور مجنونة أو غبيّة. فقد أشار إلى أن لدى البشر حاجات «عليا» كثيرة هي حاجات حسنة وشديدة العقلانية، في واقع الأمر. لكن تلك الحاجات واقعة الآن خارج دائرة اهتمام المشروع الرأسمالي: من بينها حاجتنا إلى التعليم، وإلى فهم الذات، وإلى مدن جميلة وحياة اجتماعية تحقّق الرضا للناس.

لم تتوصل رأسمالية اليوم بعد إلى الاضطلاع بحل الخيارات التي دارت فلسفتا سميث وروسّو من حولها. لكنَّ هناك أملًا في ألّا نظل، في المستقبل، مكتفين بجني

المال من حاجاتنا الاستهلاكية السطحية أو التافهة (مواصلة ضخ مزيد من بطاقات التهنئة، أو من الأحذية الرياضية). سوف نتعلّم أيضًا كيف نولّد أرباحًا كبيرة من خلال مساعدة الناس بطرق فيها طموح حقيقي، ولها أهمية حقيقية. فعلى سبيل المثال، تستحق المعالجة النفسية أن تكون واحدة من الصناعات الضخمة خلال ما بقي من القرن الحادي والعشرين.

3 ـ كيف ينبغي أن تكون معاملة الأغنياء؟

كان السؤال الكبير في ذلك الوقت -مثلما هو الآن- سؤالًا عن كيفية جعل مسلك الأغنياء طيّبًا إزاء بقية المجتمع. كانت الإجابة المسيحية على النحو التالي: اجعلوهم يشعرون بالذنب؛ واجعلوهم يرون معاناة الفقراء؛ وناشدوا ضمائرهم. إلّا أن الإجابة اليسارية الراديكالية كانت: «زيدوا الضرائب عليهم». على أن آدم سميث كان ضد هذين الأسلوبين: من المرجّح أن تظل قلوب الأغنياء باردة، وأن تدفعهم زيادة الضرائب عليهم إلى الفرار من البلاد بأعمالهم وثرواتهم.

لقد توصّل إلى توصيات أكثر أصالة وذكاء، وذلك بفضل نظرية عالجت ما يريده الأغنياء حقًّا. قال سميث إن المال - خلافًا لما يتوقّعه المرء عادة - ليس هو الغاية الحقيقية للأغنياء. غايتهم هي الفوز بالمجد والاحترام. لا يكدّس الغني مالًا لأنه جشع من الناحية المادية، بل لأن لديه فقرًا عاطفيًا. الدافع الأول الذي يحدوه إلى جمع المال هو رغبته في أن يصير محبوبًا، وفي أن يصير موضع استحسان.

توفّرُ هذه الحاجة النفسية أداة كبيرة الفائدة تستطيع الحكومات الرشيدة استخدامها. فبدلًا من زيادة الضرائب على الأغنياء، يتعيّن على هذه الحكومات أن تعرف كيف تمنح الأغنياء تشريفًا ومكانة كبيرين نظير أشياء حسنة كثيرة لم يكن أولئك النرجسيون يهتمون بها عادة، وذلك من قبيل تمويل المدارس والمستشفيات، ودفع أجور أفضل لعمالهم.

يعبّر سميث عن هذا بقوله: «سرّ التعليم العظيم هو توجيه الغرور والخيلاء صوب أهداف سليمة».

4 ـ تثقيف المستهلكين

هذه الأيام، تبدو الشركات الكبيرة في أعيننا شريرة جدًّا، وتصير أهدافًا طبيعية للّوم على الوظائف ذات الأجور المنخفضة، والإساءة إلى البيئة، والمكوّنات الضارّة بالصحة. لكن آدم سميث كان يرى أن هناك عنصرًا غير متوقّع، وإن يكن أكثر أهمية،

مسؤولًا عن هذه الشرور كلّها: إنه ذوقنا! فنحن المستهلكين -بالمعنى الجمعي- نميل إلى أنواع بعينها من اليسر والرفاهية والتسلية، ونفضلها على غيرها. وما إن يحدث هذا، حتى يحذو الجميع حذوه. ففي المقام الأول، ليست الشركات هي من يسوق العالم إلى التدهور، بل هي ميولنا وأذواقنا التي لا تفعل الشركات إلّا تلبيتها.

نتيجة هذا، يتوقّف إصلاح الرأسمالية على مهمة بالغة الأهمية، وإن تبدو غريبة: تثقيف المستهلك. ينبغي تعليمنا أن نريد أشياء أرفع جودة، وأن ندفع مقابلها ثمنًا ملائمًا، الثمن الذي يعكس العبء الحقيقي الواقع على البيئة وعلى العاملين.

هذا يعني أن مجتمعًا رأسماليًا جيّدًا لا يمكن أن يكتفي بإتاحة الخيار للمستهلك، بل إنه يخصص أيضًا قدرًا غير قليل من طاقته لكي يثقّف الناس ويعلمهم كيفية ممارسة حق الاختيار بطرق حصيفة. ينبغي إنقاذ الرأسمالية عن طريق رفع جودة الطلب.

خلاصة

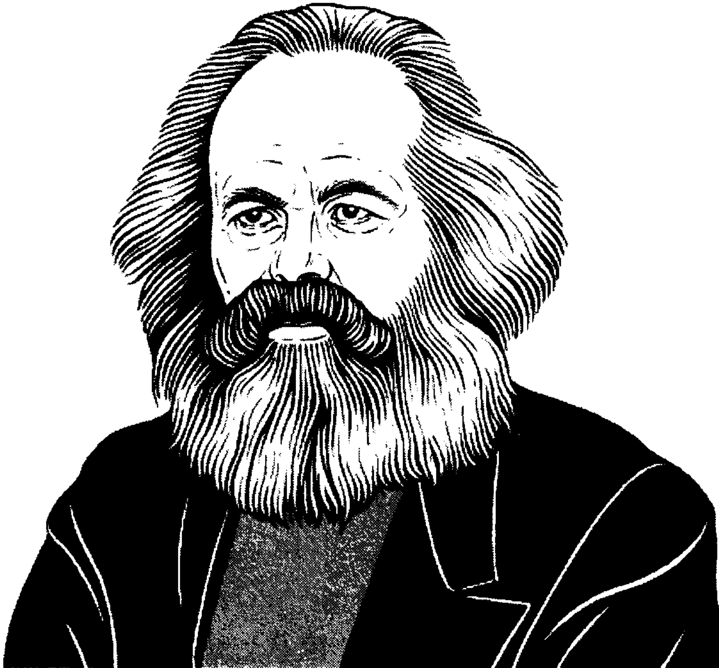
قد تبدو لنا الحالة الاقتصادية في العالم خاطئة ومعقّدة في الوقت ذاته، فينتهي بنا الأمر إلى السقوط في السلبية والقنوط.

لكن آدم سميث جاهز لأن يعطينا ثقة وأملًا. عمله مليء بأفكار عن إمكانيات التوفيق بين القيم البشرية وما تحتاجه الأعمال والشركات. إنه يستحقّ منا انتباهًا واهتمامًا متواصلين لأنه كان عاكفًا على مشكلة صارت من الآن أكبر أولويات زماننا: كيفية خلق اقتصاد يكون مربحًا ومتمدنًا معًا.

كارل ماركس

(Karl Marx)

1883 - 1818



يوافق أكثر الناس على أننا في حاجة إلى تحسين نظامنا الاقتصادي. إنه نظام يشكّل خطرًا على كوكبنا من خلال الاستهلاك المفرط، ويشتت أذهاننا بإعلانات لا تعنينا، ويترك الناس جياعًا ومن غير رعاية صحية، ويُذكّي نار حروب لا ضرورة لها. إلّا أننا كثيرًا ما نميل إلى صرف النظر عن أفكار كارل ماركس الذي كان أشهر منتقدي هذا النظام الاقتصادي وأشدّهم طموحًا. هذا ليس بالأمر المفاجئ كثيرًا. فمن حيث الممارسة العملية، جرى استخدام أفكاره الاقتصادية والسياسية لإقامة اقتصادات مُخطَّطة كارثية ودكتاتوريات شديدة القبح. وإذا أردنا الصراحة، فإن العلاجات التي اقترحها ماركس لشرور العالم تبدو الآن مجنونة بعض الشيء. لقد رأى أن علينا إلغاء الملكية الخاصّة. لا يجوز السماح للناس بامتلاك الأشياء. قد يتعاطف المرء مع هذا الطرح في لحظات بعينها. لكن هذا أشبه بالرغبة في حظر النميمة، أو في منع مشاهدة التلفزيون. فهو إعلان حرب على السلوك البشري. ثم إن ماركس كان مؤمنًا بأن أمور العالم تستقيم من خلال إقامة دكتاتورية البروليتاريا، وهذا أمر لم يعد له كبير معنى في زماننا. لم تنل الأحزاب التي تقول عن نفسها صراحة إنها أحزاب ماركسية إلّا 1685 صوتًا في الانتخابات العامة في المملكة المتحدة سنة 2010؛ وذلك من أصل ما يقارب أربعين مليون صوت انتخابي.

مع هذا، فإن علينا ألّا نستعجل في رفض ماركس. علينا أن نعتبره مرشدًا لا يزال تشخيصُه معايبَ الرأسمالية مفيدًا لنا في اكتشاف طريقنا صوب مستقبل أكثر أملًا.

ولد كارل ماركس سنة 1818 في مدينة ترير الألمانية. كان متحدِّرًا من عائلة فيها أجيال من الحاخامات اليهود، لكن أسرته تحوّلت إلى المسيحية عندما كان في السادسة وذلك حتى يسهل اندماجها في المجتمع الألماني. انتسب إلى جامعة بون المرموقة، لكنه تورّط في ديون ضخمة، ثم حُبسَ نتيجة السُّكر وتعكير النظام العام. كما تورّط أيضًا في مبارزة. أراد أن يصير ناقدًا دراميًا؛ لكن والده استاء من سلوكه فأرسله إلى جامعة برلين التي كانت أكثر انضباطًا وجدّية. وهناك انضم إلى جماعة عُرفت باسم «الهيغليون الشباب». كانت لدى أفراد تلك المجموعة انتقادات عميقة للاقتصاد والسياسة المعاصرين.

سرعان ما انضم ماركس إلى الحزب الشيوعي الذي كان مجموعة صغيرة جدًا من

مثقفين داعين إلى الإطاحة بالنظام الطبقي، وإلى إلغاء الملكية الخاصّة. عمل ماركس صحافيًا، وخطب سرًا شابة من أسرة ثرية اسمها جيني فون ويستفالن. ونتيجة نشاطه السياسي، اضطر الاثنان إلى الفرار من ألمانيا فاستقر بهما المقام آخر الأمر في لندن.

كتب ماركس عددًا كبيرًا من الكتب والمقالات؛ وكان بعضها بالاشتراك مع صديقه فريدريك إنغلز. من أهم كتبه «*نقد فلسفة الحق عند هيغل*» (1843)، و«*العائلة المقدّسة*» (1845)، و«*أطروحات عن فيورباخ*» (1845)، و«*المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لسنة 1844*» (1845)، و«*البيان الشيوعي*» (1848)، و«*نقد برنامج غوتا*» (1875)، وكتابه الطويل جدًا «*رأس المال*» (1867 – 1894).

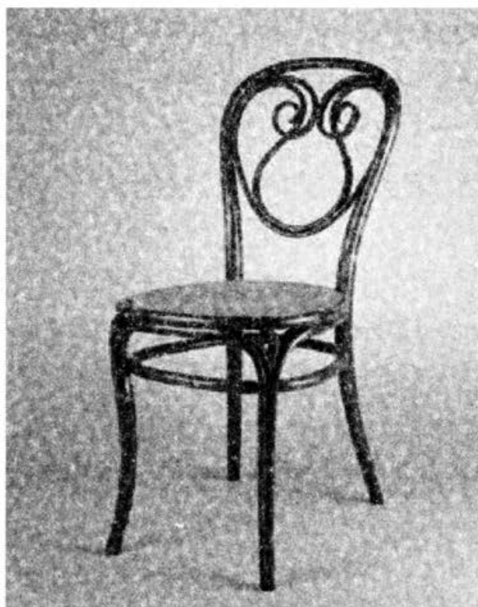
أكثر كتابات ماركس كانت عن الرأسمالية، أي عن النمط الاقتصادي المهيمن في العالم الغربي. وفي أيام ماركس، كان هذا النظام لا يزال في طور التشكّل. وكان ماركس واحدًا من أذكى منتقديه وأعمقهم بصيرة. في ما يلي بعض المشكلات التي حدّدها ماركس في النظام الرأسمالي:

1 - «اغتراب» العمل في العالم الحديث

كانت من أعظم أفكار ماركس فكرة وردت في واحد من كتبه المبكرة، «مخطوطات 1844»، وهي أن العمل يمكن أن يكون منبعًا كبيرًا للبهجة. ولأن آمال ماركس في العمل كانت كبيرة، فقد أغضبه كثيرًا ذلك العمل البائس الذي كان أكثر بني البشر مرغمين على احتماله.

كتب ماركس أن العمال في حاجة إلى «رؤية أنفسهم في الأشياء التي يصنعونها» حتى يشعروا بالرضا إزاء عملهم. فالعمل قادر –في حالة مثلى– على أن يوفّر لنا فرصة لإخراج ما هو حسن في داخلنا (لنقل إن ذلك هو إبداعنا، أو دقتنا، أو منطقنا)، وعلى إكسابه شكلًا دائمًا مستقرًا على هيئة منتَج أو خدمة يصيران مستقلّين عنا. وينبغي أن يكون عملنا – إن سارت الأمور سيرًا حسنًا – أفضل مما يمكن أن نكونه في حياتنا العملية، لأنه يسمح لنا بالتركيز واكتشاف أفضل ما فينا.

فكّر في الشخص الذي صنع هذا الكرسي: إنها جميلة، قوية، واضحة، رشيقة. لكن صانعها قد لا يكون ذلك كلّه في كل وقت. فمن الممكن أحيانًا أن يسوء طبعه، أو طبعها؛ ومن الممكن أن يصيبه القنوط، أو الاضطراب. لكن الكرسي تظلّ تذكارًا لما في شخصية ذلك الإنسان من نواحٍ إيجابية. رأى ماركس أن هذا ما يكون عليه العمل في الحالة المثالية. لكنه لاحظ أيضًا كيف أن في العالم الحديث عددًا متناقصًا أبدًا من الأعمال أو الوظائف التي لا تزال فيها خصّيصة تمكيننا من رؤية أفضل ما فينا مجسّدًا في ما ننتجه أو نفعله.



كرسي يدوية الصنع من خشب الورد

إن جزءًا من مشكلة العمل الحديث كامنٌ في أنه تخصّصي إلى حد يصعب تصديقه. يستطيع المرء قول هذا لأن الناس يحملون الآن ألقابًا مهنية تبدو شديدة الغرابة: تجد أشخاصًا متخصّصين في تكنولوجيا التوضيب، وتجد مسؤولي توزيع المشروبات، وكذلك تقنيي الصحة الغذائية ومعماريي المعلومات. تتطلّب هذه الوظائف سنوات من التدريب حتى يتقنها أصحابها؛ وهذا ما يجعل الاقتصاد الحديث شديد الكفاءة. إلّا أننا ننتهي إلى وضع يكون فيه أمرًا نادرَ الإمكان أن يجد المرء تعبيرًا عن طبيعته الحقيقية في عمله الذي يؤدّيه كل يوم.

وأما في نظر كارل ماركس، فإن كلًا منا عموميٌّ في داخله. نحن لسنا مولودين لكي نقوم بشيء واحد فقط. كل ما في الأمر هو أن الاقتصاد يدفع بنا -خدمة لغاياته الجشعة الخاصة به- إلى التضحية بأنفسنا من أجل تخصّص واحد وحيد؛ وهذا ما يجعلنا (بحسب كلمات ماركس نفسه) «أحاديي الجانب، وغير مستقلّين»، وكذلك «مكتئبين روحيًا ومنحطّين جسديًا إلى مرتبة الآلة». وقد طرح ماركس أول مرة، في كتابه «مخطوطات 1844» فكرة أن العمل الحديث يؤدّي إلى «الاغتراب» - مفهوم عبّر عنه بكلمة «*Entfremdung*» الألمانية.

نحن في أعماقنا أكثر تعدّدًا وتنوّعًا في الأهواء مما يتيحه لنا الاقتصاد الحديث: من

تحت المظهر الخارجي الهادئ لشخص يعمل محاسبًا، من الممكن أن يكون هناك شخص ميال إلى تنسيق الحدائق. وهناك شعراء كثر يحبّون أن يعملوا في الصناعة بضع سنوات.

يدرك ماركس إمكانياتنا المتعدّدة. قد يكون التخصّص ضرورة اقتصادية، لكن الممكن أيضًا أن يكون خذلانًا للإنسان.

يود ماركس أيضًا أن يساعدنا في العثور على العملِ الذي هو أكثر امتلاء بالمعنى. وهو يقول إن العمل يصير ذا معنى عبر واحد من سبيلَيْن اثنين. إما أن يساعد العامل مساعدة مباشرة من أجل تقليل معاناة عامل آخر، أو أن يساعده بطريقة ملموسة في زيادة البهجة لدى الآخرين. لكن الظاهر أن هناك أعمالًا قليلة جدًا -كأن يكون المرء طبيبًا أو نجم أوبرا- تحقّق هذين المعيارين تحقيقًا تامًا. لكننا نرى أشخاصًا كثيرين يتركون أعمالهم ويقولون إنهم غير قادرين على رؤية معنى العمل في المبيعات، أو في تصميم حملات إعلانية تروّج لأثاث الحدائق، أو في تعليم اللغة الفرنسية لأطفال لا يريدون أن يتعلّموا. نحن نعاني عندما نشعر بأن عملنا من غير معنى - حتى إذا تلقّينا مقابله راتبًا مقبولًا. يقوم ماركس بتجربة أولى على الإجابة عن السؤال التالي: «كيف ينبغي أن نصلح الاقتصاد؟». نحن في حاجة إلى نظام اقتصادي يتيح لأعداد متعاظمة منا إنقاص المعاناة أو زيادة المسرّة. وذلك أن لدينا في أعماقنا رغبة في الإحساس بأننا نساعد الآخرين. نحن في حاجة إلى الإحساس بأننا نلبّي احتياجات حقيقية... ونحن لسنا قادرين على الاكتفاء بخدمة رغبات عشوائية.

رأى ماركس أن هناك أعمالًا كثيرة يكسب فيها الإنسان مالًا، لكنه لا يستطيع رؤية طاقته «تتجمع» في أي مكان يشعر فيه أن هناك تبديدًا لذكائه ومهاراته. ولا يستطيع الإشارة إلى شيء بعينه قائلًا: «أنا من صنع هذا. إنه أنا». إن مما يحزن الناس ويؤلمهم أن يقوموا بأعمال تبدو رائعة - مذيع أخبار، أو عارضة أزياء. هذه أعمال مثيرة للحماسة، من يوم إلى يوم. وأما بعد مضي السنين، فهي لا تنتهي إلى أي شيء: لا تتراكم جهود أولئك الناس. ولا وجود لهدف بعيد المدى يتّجه إليه عملهم. وهم يتوقّفون -ببساطة- بعد سنين من العمل. هذه هي الحالة المعاكسة لعمل المعماري الذي قد يعمل على مشروعٍ كبير خمس سنين متواصلة - لكن ملايين التفاصيل، التي قد تكون مزعجة ومرهقة في حد ذاتها، تتجمّع كلها في منتج نهائي، في إنجاز مكتمل. ويتقاسم كل من يكونون جزءًا من ذلك المشروع إحساسًا واحدًا بالتوجّه والغاية. عملهم ضروري من أجل إخراج شيء رائع إلى حيّز الوجود. وهم يعرفون هذا.

2 ـ العمل الحديث غير آمن

تجعل الرأسمالية الكائن البشري شيئًا يمكن الاستغناء عنه تمامًا بعد استعماله، أي مجرد واحد من بين عوامل أخرى ضمن قوى الإنتاج... هو عنصر يمكن الاستغناء عنه -من غير رحمة- لحظة تزداد التكلفة أو تسمح التكنولوجيا بتحقيق قدر من تقليص النفقات. فبكل بساطة، لا وجود لأمان العمل في الرأسمالية. نحن توّاقون في أعماق دواخلنا إلى الأمان -هذا ما أدركه ماركس- تمامًا بمثل قوة شعورنا بالحاجة إلى الأمان في علاقاتنا العاطفية. لا نريد أن يتمّ التخلي عنا بطريقة اعتباطية أو تعسّفية. ويصيبنا الذعر من أن نجد أنفسنا متروكين. يعرف ماركس أننا قابلون للاستغناء عنا؛ فالأمر كلّه متوقّف على التكلفة، وعلى الحاجة. لكنه كان متعاطفًا مع ذلك التوق الشديد لدى العامل. والشيوعية -إذا فهمناها من الناحية العاطفية- وعدٌ بأن يكون لنا مكان في قلب العالم، وبأننا لن نجد أنفسنا مطرودين أو منبوذين. هذا إحساس شديد التأثير.

3 ـ يتلقّى العمال أجورًا منخفضة، في حين يغتني الرأسماليون

لعل هذا أوضح مآخذ ماركس على الرأسمالية. لقد كان مقتنعًا خاصة بأن الرأسماليين يقلّصون أجور العمال إلى أقصى حدٍّ مستطاع بغية توسعة هامش أرباحهم. وقد كان من الصعب كثيرًا على العمال أن يحتجّوا أو أن يغيروا ظروفهم. فالأمر لم يكن مقتصرًا على حاجتهم الماسة إلى العمل، إذ إن أصحاب العمل وأصحاب العقارات يظلّون قادرين على التعاون معًا لإبقاء العمال في أمسّ الحاجة إلى وظائفهم، وذلك بأن يرفعوا تكاليف المعيشة عندما يرفعون الأجور. فضلًا عن هذا، فقد أتت الحياة الحديثة بتحدّيات جديدة أبقتْ على ضعف البروليتاريا: أحياء سكنية مزدحمة، وأمراض، ومدن تعمّها الجريمة، وإصابات في المصنع. باختصار، يكتب ماركس قائلًا إن من الممكن استغلال العمال من غير نهاية تقريبًا.

4 ـ الرأسمالية غير مستقرّة أبدًا

قبل زمن طويل من «الكساد الكبير»، أي من سوق الأسهم التي تجري التعاملات فيها من قبل الكمبيوتر، أدرك ماركس أن الأنظمة الرأسمالية متّصلة بسلاسل من الأزمات. وهذا عائد في جزء منه إلى أن الرأسماليين يقبلون بمخاطر كبيرة متزايدة بغية تحقيق أرباح أكبر؛ وتؤدّي هذه «المضاربة» إلى اضطرابات في الأسعار وفي الوظائف. لكن سبب قلّة استمرار الرأسمالية غير كامن في المنافسة والهشاشة البشرية وحدهما. الرأسمالية غير مستقرّة بطبيعتها -بحسب رأي ماركس- فهي قوّة تتغلب على نفسها

دائمًا كأنها «ساحر ما عاد قادرًا على ضبط قوى العالم السفلي التي استدعاها بسحره».

يشير ماركس إلى أن المفارقة كامنة في أننا نعاني الأزمات في الرأسمالية بسبب الوفرة، لا بسبب القلّة: لدينا مواد فائضة. تتمتّع مصانعنا وأنظمتنا بكفاءة عالية تسمح بإعطاء كل إنسان على الأرض سيارة وبيتًا، وكذلك مدرسة ومستشفى جيدَين. قلائل هم من سيكونون في حاجة إلى أن يعملوا. لكننا لا نحرّر أنفسنا. يرى ماركس أن هذا سخف، وأنه ناتج عن نوع من المازوخية المرضيّة. ففي سنة 1700، كان لا بد لعمل الأشخاص البالغين كلّهم، تقريبًا، بُغية إطعام أمّةٍ. وأما اليوم، فإن أي بلد متطوّر لا يكاد يحتاج إلى توظيف أحد في الزراعة. ومن الناحية العملية، لم يعد صنع السيارات في حاجة إلى عمال. صارت البطالة الآن مخيفة؛ وصار الناس يعتبرونها شرًا فظيعًا. لكن البطالة دليل على النجاح في نظر ماركس: إنها ناتجة عن قدراتنا الإنتاجية التي صارت تفوق حدود التصديق. تؤدّي آلة واحدة الآن ما كان يؤديه مئة واحد من العمال. مع هذا، وبدلًا من الخروج بنتيجة إيجابية مما تحقّق، فنحن لا نزال نعتبر البطالة لعنة وفشلًا. إلّا أن هدف الاقتصاد ينبغي أن يكون، من الناحية المنطقية، جعل أعداد متزايدة منا عاطلة عن العمل. ينبغي لنا أن نحتفل بهذه الحقيقة ونعتبرها تقدّمًا، لا إخفاقًا.

لأننا لا نوزع الثروة على الجميع، ولا ننشد الاحتفاء بالبطالة، فإننا محكومون -كما يرى ماركس- بأن نعاني عدم الاستقرار، وقلّة السعادة، والاضطرابات. لقد كتب قائلًا: «يجد المجتمع نفسه فجأة وقد عاد إلى حالة من البربرية المؤقتة... فلماذا؟ لأن هناك قدرًا زائدًا من الحضارة... قدرًا زائدًا من الصناعة، وقدرًا زائدًا من التجارة».

5 - الرأسمالية سيّئة للرأسماليين

مع أن ماركس يطلق أحيانًا على الرأسماليين والبرجوازيين صفات من قبيل «مصاصي دماء» أو «الأخوة الأعداء»، فهو لم يكن يرى أنهم أشرار في قلوبهم. والواقع أنه كان مؤمنًا بأنهم ضحايا النظام الرأسمالي بدورهم. فعلى سبيل المثال، كان مدركًا تمامًا مقدار ما هو كامن خلف الزيجات البرجوازية من آلام ومعاناة خفية. كان الموسرون في زمانه يتحدّثون عن الأسرة بعبارات عاطفية فائقة الاحترام. إلّا أن ماركس كان يرى أن الزواج ليس، في واقع الأمر، إلّا امتدادًا للأعمال. فالزواج يركّز المال بين أيدي الرجال الذين يستخدمونه للهيمنة على زوجاتهم وأطفالهم. وفي حقيقة الأمر، كانت الأسرة البرجوازية التي جُعلت مثالًا، مصابة بقدر كبير من التوتر والاضطهاد والتباغض؛ وكان الناس يظلّون معًا لا نتيجة الحب، بل لأسباب مالية. لم يكن ماركس يرى أن الرأسماليين يحبون العيش على هذا النحو. إلّا أنه كان مؤمنًا

بأن النظام الرأسمالي يرغم الجميع على وضع المصالح الاقتصادية في مركز حياتهم، وذلك بحيث لا يعودون قادرين على عيش علاقات عميقة صادقة. وقد دعا هذا العامل النفسي «الصَّنميّة السلعية» *Warenfetischismus* لأنها تجعلنا نرى قيمة في أشياء لا قيمة موضوعية لها، ولأنها تدفعنا إلى النظر إلى علاقاتنا مع الآخرين من الزاوية الاقتصادية في المقام الأول.

هذا جانب مهم آخر من جوانب عمل ماركس: إنه يلفت انتباهنا إلى الطريقة الماكرة الخفية التي يلوّن بها النظام الاقتصادي ما يكون لدى الناس من أفكار عن كل شيء. يولّد الاقتصاد ما يدعوه ماركس «الإيديولوجيا». وقد جاء في كتابه «الإيديولوجيا الألمانية» الصادر سنة 1845: «في كل حقبة، تكون أفكار الطبقة السائدة أفكارًا سائدة». فالمجتمع الرأسمالي هو المجتمع الذي يكون فيه أكثر الناس، أغنياء وفقراء، مقتنعين بأمور كثيرة لا تعدو في واقع الأمر أن تكون أحكامَ قيمةٍ يعودُ أصلُها إلى النظام الاقتصادي. وهذا مثال على ذلك: الشخصُ الذي لا يعمل شخصٌ لا قيمة له من الناحية العملية؛ وإذا عملنا بجهدٍ كافٍ فسوف تتحسّن حالنا. ومن شأن ممتلكات أكثر أن تجعلنا أكثر سعادة. والأشياء ذات القيمة، والناس أيضًا، تجني مالًا آخر المطاف.

يمكن القول اختصارًا إن أكبر مشكلات الرأسمالية ليست وجود أشخاص فاسدين في القمة -فهم موجودون في كل نظام بشري تراتبي- بل هي أن الأفكار الرأسمالية تعلّمنا جميعًا أن نكون قلقين، ميالين إلى المنافسة، ممتثلين، راضخين سياسيًا.

***

مما يلفت النظر أن ماركس لم يكتب إلّا القليل عما ينبغي أن يكون عليه النظام الشيوعي. كان مقتنعًا بأن كتاباته وصف لما هو كائن، لا وصفة لما «سوف يكون». وعندما وُجّهت انتقادات إلى ما في توقعاته من غموض (مثلًا، عن «دكتاتورية البروليتاريا» التي ستكون)، أجاب متهكّمًا بأنه لا يريد كتابة وصفات «من أجل مطابخ المستقبل». ربما كان لديه إحساس حكيم بصعوبة توقّع الأذواق والميول المستقبلية في الطبخ والسياسة على حدٍّ سواء.

على الرغم من هذا، نستطيع رؤية لمحات صغيرة من يوتوبيا ماركس خبيئةً في كتاباته. يصف كتاب «البيان الشيوعي» عالمًا خاليًا من الملكية الخاصة، وليس فيه توارث للثروة، مع ضريبة دخل شديدة التزايد، وضبط مركزي لقطاعات المصارف والاتصالات والنقل، فضلًا عن التعليم العام المجّاني للأطفال جميعًا. توقّع ماركس أيضًا أن يتيح المجتمع الشيوعي للناس تطوير جوانب مختلفة كثيرة في طبائعهم. يقول

في كتاب «الإيديولوجيا الألمانية» إنه «في المجتمع الشيوعي... يمكنني أن أفعل اليوم شيئًا، ثم أفعل غدًا شيئًا غيره؛ أستطيع صيد الحيوانات في الصباح، واصطياد الأسماك بعد الظهر، ورعي الماشية في المساء، وممارسة النقد على العشاء... كما يحلو لي، حتى من غير أن أصير صيادًا أو راعيًا أو ناقدًا». سوف نصير قادرين على استكشاف الجوانب المختلفة في أنفسنا - إبداعنا، وذكاءنا، ورقّتنا، وقسوتنا - وسيتوفّر للجميع وقت من أجل شيء من الفلسفة».

بعد انتقال ماركس للعيش في لندن، صار يتلقّى دعمًا ماليًا من صديقه وشريكه الفكري فريدريك إنغلز الذي كان رجلًا ثريًا يمتلك أبوه مصنعًا للقطن في مانشستر، إن في هذا شيء من المفارقة بالنسبة إلى شخص معادٍ للرأسمالية. لقد غطى إنغلز ديون ماركس، وحرص على طباعة أعماله؛ بل إنه زعم أبوّة طفلة من المرجح أنها كانت ابنة غير شرعية لماركس نفسه (حتى يبدّد شكوك السيدة ماركس). وفوق هذا كلّه، كان الرجلان يتبادلان كتابة أشعار الإعجاب.

لم يكن ماركس شخصية ثقافية متمتّعة بالشعبية أو الاحترام في زمانه. لقد أمضى الشطر الأكبر من حياته في ارتياد قاعات القراءة في المتحف البريطاني، وفي تأليف كتاب بطيء شديد الطول عن الرأسمالية («رأس المال»). كما كان أيضًا يحاول دائمًا، ومثلُه صديقه إنغلز، تجنّب الشرطة السرية (بمن فيهم واحد من أقارب زوجته الذي كان مديرًا للاستخبارات البروسية). وعندما مات ماركس في سنة 1883، كان شخصًا من غير جنسية؛ ولم يخرج في جنازته إلّا نحو عشرة أشخاص.

لعل الناس التقليديين المحترمين في أيام ماركس كانوا سيضحكون إن قيل لهم إن أفكاره ستترك أثرًا كبيرًا في العالم. لكن أثرها ظهر بعد عقود قليلة من موته: صارت كتاباته حجر الزاوية في واحدة من أكبر الحركات الإيديولوجية أهمية وأثرًا في القرن العشرين.

كانت لدى ماركس نظرة إلى المشكلات الحديثة اتسمت باتساع غير معتاد. وقد صاغ مصطلحاتٍ ذات وقع رنّان، وذلك من قبيل «دكتاتورية البروليتاريا»، لأنه أراد أن يجعلنا نقيم صلةً بين خياراتنا وتجاربنا اليومية وبين القوى التاريخية حتى يساعدنا في رؤية أنفسنا جزءًا من صراع كبير مهمٍّ أخلاقيًا. كتاباته محيّرة أحيانًا، لا لأن آراءه تغيرت خلال مجرى حياته فحسب، بل أيضًا لأنه أراد بناء لغته الخاصّة لوصف المشكلات الحديثة بطريقة لا تجعلها «وصفة للمستقبل»، ولا علمية على نحو صارم.

علينا أن نحرص على الامتناع عن قراءة ماركس بطريقة تقلّل من شأن أفكاره نتيجة ما أصاب تلك الأفكار في القرن العشرين؛ وذلك لأن في كتاباته فائدة لنا، خاصّة في زماننا الحالي. فعلى غرار كثيرين منا، أراد كارل ماركس أن يفهم السبب الذي يجعل الاقتصاد الحديث يبذو مصدرًا لهذا القدر كلّه من البؤس على الرغم من ثرائه المادي. لقد أدهشته قوة الرأسمالية، وكيف أتاحت «إخضاع قوى الطبيعة للإنسان... وإخلاء قارات بأسرها من أجل الزراعة، وتنظيم مجاري الأنهار، وانتزاع جماعات سكّانية بأسرها من الأرض». لكنه كان قادرًا أيضًا على رؤية أن الرأسمالية لا تجعلنا أكثر سعادة، ولا حكمة، ولا لطفًا - إن فيها عجزًا أصيلًا في إيصالنا إلى أن نكون أكثر إنسانية وأكثر اكتمالًا.

عند النظر إلى فشل الأنظمة التي استوحت الماركسية في الماضي، فمن المستبعد أن نتوصّل إلى جعل الأمور في حالة أفضل عن طريق تطبيق ذلك النوع من الثورات الذي تنبّأ به كارل ماركس. لكن علينا أن نفكّر تفكيرًا شديد الجدّية في ما يقوله لنا عن المشكلات العميقة في الرأسمالية. حيث عنى، ولزمن طويل جدًا، كونك ماركسيًا أن توافق على الجزء الأقل جاذبية من أفكار ماركس: الحلول التي طرحها لمشكلات العالم. وبما أن تلك الحلول تبدو شديدة الغرابة، فقد صار الناس يُسقطون من حسابهم كل شيء آخر مما طرحه.

على أن ماركس كان أشبه بطبيب لامع في أيام الطب الأولى. كان قادرًا على التعرف على طبيعة المرض، على الرغم من أنه لا يعرف كيف يشفيه. لقد تعلّق تفكيره ببعض الحركات التي لعلها كانت تبدو ممكنة في أربعينيات القرن التاسع عشر، لكنها لم تعد مما يفيدنا الاسترشاد به في أيامنا هذه. فعند هذه النقطة من التاريخ، علينا جميعًا أن نكون ماركسيين بمعنى القبول بالتشخيص الذي أتى به لمشكلاتنا. إلّا أن علينا بعد ذلك أن ننطلق لكي نجد الأدوية الشافية بأنفسنا.

الأمر المؤلم هو أن تلك الأدوية موجودة حقًّا، متناثرة في هذه وتلك من الأوراق البحثية، وفي هذا الكتاب وذاك، مما يهمّشه الإعلام الجماهيري. علينا أن نفكّر كيف نبني اقتصادًا لا يأتينا بازدهار أكبر فحسب، بل أيضًا بعلاقة أفضل مع الطبيعة، ومع المال، ومع أنفسنا، وفي ما بيننا. لا نريد دكتاتورية البروليتاريا، لكن علينا التفكير في السبب الذي يجعلنا نُجِلُّ العمل، وفي ما نريده من عملنا. ليس علينا أن نتخلّص من الملكية الخاصة، لكننا في حاجة إلى علاقة أصيلة بالمال وبالاستهلاك... علاقة تكون أكثر تفكّرًا. وعلينا أن نبدأ بإصلاح الرأسمالية؛ لكن ليس من خلال الإطاحة برؤساء

المصارف، بل عن طريق تغيير محتوى عقولنا نفسها. عند ذلك فقط، نكون قادرين حقًا على تخيل اقتصاد لا يكون متّسمًا بالابتكار والإنتاجية المرتفعة وحدهما، بل أيضًا يكون قادرًا على تعزيز حرية الإنسان وشعوره بالرضا والإشباع. لقد كان كارل ماركس نفسه من قال: «لم يقم الفلاسفة إلّا بتفسير العالم بطرق كثيرة. لكن المهمّة هي تغييره».

جون روسكين

(John Ruskin)

1900 - 1819

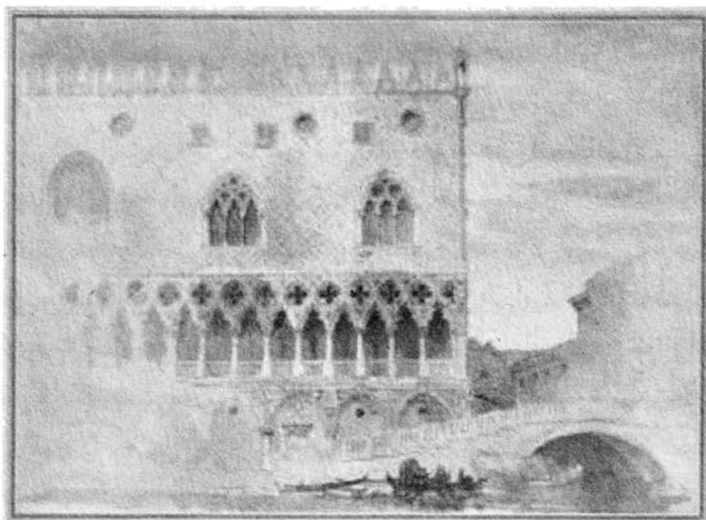


كان جون روسكين واحدًا من أوسع المصلحين الاجتماعيين الإنكليز في القرن التاسع عشر طموحًا وأكثرهم حماسة. وقد كان يبدو -للوهلة الأولى- مُصلحًا من الصعب كثيرًا أن يقتنع أحد بما يقوله؛ وذلك لأن أكثر اهتمامه كان منصبًّا على شيء واحد، على الجمال الذي رآه الناس أمرًا لا علاقة له بالسياسة أبدًا، بل اعتبروه ابتعادًا عن «الحياة الحقيقية». ومع هذا، فقد كان روسكين يزداد اقتناعًا بأن السعي إلى صنع عالم أكثر جمالًا أمرٌ غير قابل للفصل عن حاجتنا إلى إعادة تكوينه من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كان يزداد تمسّكًا بهذه القناعة كلما فكر في الجمال - جمال الأشياء التي يصنعها الإنسان، من المباني إلى الكراسي واللوحات والملابس. ففي عالم يزداد اليوم تلوّثًا وقلة مساواة، ويزداد قبحًا، على الرغم من ندرة انتباهنا إلى هذه النقطة، يشدّد روسكين على الجمال وعلى فهم دور الجمال. إن فهم روسكين لدور الجمال في النظرية السياسية يجعله شخصية خارجة عما هو مألوف، لكنها شديدة الضرورة والراهنية. قبيل آخر حياته، وصف تولستوي روسكين وصفًا دقيقًا بأنه «واحد من أكثر الرجال تميّزًا، لا في إنكلترا وحدها، ولا في جيلنا وحده، بل في كل بلد وكل زمان».

ولد جون روسكين في لندن سنة 1819. نشأ في بيت ثري لا ينقصه شيء. وكان طفلًا وحيدًا لأبوين كرّسا الشطر الأكبر من طاقتهما لتغذية مواهبه الفذّة في الفنون والآداب ولتطويرها. كان أبوه مستوردًا ناجحًا جدًا للنبيذ والشيري؛ وكان من متذوقي كتابات بايرون وشكسبير وولترسكوت وتيرنر. قرر والدا روسكين تعليمه في البيت خوفًا من احتمال أن يشجع الأطفالُ الآخرون ميولًا غير سليمة لدى طفلهما. هذا ما جعله يمضي أكثر أيامه وحيدًا في حديقة بيت أهله الكبيرة، ويرسم الأزهار فيها. وعندما يحب أبواه أن يدللاه في المساء، يسمحان له بالجلوس في زاوية غرفة المعيشة الهادئة لرسم صور من مشاهدَ يصفُها الكتاب المقدس. وعلى امتداد سنيّ مراهقته، كان يذهب مع والديه في جولات طويلة في فرنسا وسويسرا وإيطاليا. كانوا يرتحلون بطيئًا بعربتهم الخاصة الكبيرة. ويتوقفون في كل مدينة يمرون بها.

كان لدى روسكين الشاب ولع خاص بجبال الألب الفرنسية (وبأسماك الترويت الشهيّة التي كثيرًا ما كانوا يتناولونها في العشاء في بلدة شاموني). على أن مدينة فينيسيا

كانت المكان الذي بلغ من أثره في نفسه أن غيّر مجرى حياته كلّها. رآها أول مرة عندما كان في السادسة عشرة من عمره؛ ثم ظل يعود إليها، كل سنة تقريبًا، على امتداد فترات طويلة من حياته بعد أن صار رجلًا. وفي فينيسيا، كان يمضي أيامه في زيارة الكنائس والتنقل بقوارب الجندول والنظر إلى اللوحات. وكان يحب أيضًا أن يرسم لوحات شديدة الدقة تُصوّر التفاصيل المعمارية التي تنال إعجابه.



جون روسكين، «قصر دوج» - فينيسيا، 1858

كان يقول إن فينيسيا «جنة المدائن». كما اعتبر قصر دوج «المبنى المركزي في العالم كلّه». لقد سحره جمال ذلك القصر وجلاله وروعة صنعته... «أظن أن من المستحيل ابتكار تركيبة أكثر روعة مما هو في ذلك المبنى الأكثر جلالًا وجمالًا».

وعند عودته إلى إنكلترا، صُدِم روسكين من التضاد بين روائع فينيسيا والواقع البائس في عمومه للحياة المدينية البريطانية. فقد يحدث لنا أن نعود من «غراند كانال» إلى «شارع سوتشيهول» في غلاسكو، أو إلى «آكتون هاي ستريت»، فنشعر كأن أرواحنا تغور فينا. مع هذا، ومع أننا قد نقول بضع جمل تستهجن ما نراه من مفارقة، فإننا نترك الأمر عند تلك النقطة لإحساسنا بأن ما حلّ بالعالم من قُبح ظاهرةٌ لا سبيل إلى تغييرها، وأن من الأفضل أن نوطّن نفوسنا على قبولها.

إلّا أن هذا لم يكن أسلوب روسكين. فكلّما عاش ذلك التضاد بين فينيسيا وبريطانيا الحديثة، كلما حطّم الأمر قلبه وأشعل فيه نار الغضب. لم يستطع تجاوز إدراكه المفزع حقيقة أن جهدًا بشريًا قد أدى إلى تلك النتائج الجليلة المفرحة في واحد من

المكانين، وأن الكمية نفسها من العمل، والكمية نفسها (أو أكثر) من المال، وكائنات بشرية مماثلة، قد أثمرت كلّها نتائج محزنة تتلف الروح في المكان الثاني (بل في أكثر الأماكن، إن أردنا قول الحقيقة). فما الذي يجعل البشر في العصر الحديث سيئين إلى هذا الحد في خلق بيئات يصلح العيش فيها؟ وما الذي يجعل العالم المعاصر مثبّطًا وقبيحًا هذا القبح الوحشي كله؟

بدأ روسكين حياته العملية ناقدًا فنّيًا. وكان طموحه أن يفتح أعين الناس على جمال عدد من اللوحات والمباني. إلّا أنه وجد لنفسه، في أواسط العمر، هدفًا أكثر مباشرة وإلحاحًا. أدرك أن قبح أكثر الأشياء في بريطانيا (من المصانع إلى محطات القطارات والحانات ومساكن العمال) كان مؤشّرًا شديد الوضوح على انحطاط الأسس الأخلاقية للمجتمع وإيديولوجيته الاقتصادية الفظّة.

وسوف تصير محاولة تغيير ذلك مهمّة حياته كلّها. لقد كرّس ما بقي من عمره العملي من أجل خوض قتال عنيد واضح في مواجهة المبادئ الكامنة في الرأسمالية الحديثة. هاجم المطوّرين العقاريين لأنهم يقدمون الربح على الاهتمام بالمجتمع. وانهال باللوم على الصناعيين لما يسببونه من انحطاط في حياة عمالهم. وهاجم برجوازية العهد الفيكتوري كلّها لإهمالها مسؤولياتها إزاء الفقراء، ولتقصيرها أعمارهم، ولجعلها أرواحَهم خشنة فظّة.

كان جزء من هذه الهجمات يأتي عبر محاضرات يلقيها روسكين في أنحاء مختلفة من بريطانيا. ويمضي في تلك الجولات شطرًا غير قليل من كل سنة. كان يرتحل دائمًا لكي يلقي محاضراته على مجموعات من الصناعيين في برمنغهام أو شيفلد، ويتحدّث عن أنظمة قيمهم المعوجّة، وعن البون الشاسع بين فينيسيا وإنكلترا الحديثة، ذلك البون الذي يمزّق قلبه... كانت هذه حقيقة صادمة لمستمعيه لأن بريطانيا في ذلك الوقت صارت بمثابة «مصنع العالم».

على أن روسكين كان أيضًا مهتمًّا بالنشاط العملي. ترك له أبوه ثروة طائلة بعد موته؛ فبدأ إنفاقها على القضايا النبيلة. وفي سنة 1871، أسس «طائفة القديس جورج». كان معجَبًا منذ زمن بعيد بنظام الطوائف الحرفية في القرون الوسطى حيث كان العمال منظَّمين تنظيمًا جيدًا، كلٌّ في حرفته، يوفّر لهم أمان العمل ويمنحهم اعتزازًا بصنعتهم. كانت طائفة روسكين محاولةً لإعادة تنظيم الحياة الاقتصادية وفق نمط قبل رأسمالي. حاول إقامة شبكة من المزارع التي تنتج موادَّ غذائية مستدامة ومن غير تلاعب أو إضافات (مر وقت كان روسكين فيه من أكبر صانعي عصير التفاح). بنى ورشات

لإنتاج الملابس المصنوعة من الصوف ومن الكتان. وحاول تشجيع الشركات على إنتاج خزفيات وأدوات طعام وقطع أثاث عالية الجودة مقبولة الأسعار. أراد أيضًا جعل «طائفة القديس جورج» تعمل بمثابة شركة تطوير عقاري بحيث تقنَع بأسعار تعادل التكلفة بدلًا من استهداف مستويات الربح الشائعة التي كان مقتنعًا بأنها غير متّفقة مع الجمال. وأخيرًا، أراد إقامة شبكة مدارس تقدّم دروسًا مسائية، فضلًا عن عدد من المتاحف من أجل العمال لكي تكون بديلًا عن الإعلان الجماهيري المخدِّر الذي يستهدفهم. وفضلًا عن تحويله نصيب الأسد من ثروته إلى «طائفة القديس جورج»، عمل روسكين أيضًا على تشجيع الأثرياء في أنحاء البلاد على المساهمة في مشروعه بأموالهم.

كانت «الطائفة» ناجحة من بعض النواحي. لقد قدّم صناعيون غير قلائل فائض أرباحهم إلى روسكين. وتم شراء عدد من الأكواخ على ساحل ويلز حيث أطلق فيها عدد من أتباع روسكين شركة لصنع الملابس. وعلى مقربة من سكاربورو، تم شراء مزرعة بدأت تصنع أنواعًا كثيرة من المربيات. أقيم متحف في شيفيلد. كما أقام تلميذ روسكين الأكثر إخلاصًا له -كان اسمه ويليام موريس- شركة للأثاث المنزلي والديكور الداخلي صار لها أثر واسع وحملت اسم «ويليام موريس وأبناؤه». لا تزال مصنوعات هذه الشركة من الكراسي وورق الجدران ناجحة حتى الآن.

ثم إن «طائفة القديس جورج» لا تزال قائمة إلى يومنا هذا -موقعها على الإنترنت: (www.guildofstgeorge.org.uk) - وهي لا تزال مستمرة في أداء قسم من العمل الذي كان روسكين رائدًا فيه.

لكن من الطبيعي أن روسكين لم يستطع بمفرده التوصّل إلى إصلاح الرأسمالية. والظاهر أن هناك قانونًا عامًّا يجعل الأشخاص القادرين على التفكير غير بارعين في تنظيم التغيير. فهم ليسوا ماهرين في الحسابات؛ فضلًا عن نفاد صبرهم في الاجتماعات - ونتيجة هذه النواقص العملية، لا يتغير العالم بالقدر الواجب. على أن روسكين قريبٌ من نموذج «المفكر - الناشط» الذي أنتجه القرن التاسع عشر. وهو لا يزال منبع إلهام لكل الساعين إلى عدم الاكتفاء بالتأمل في العالم، بل أيضًا إلى تغييره لكي يتّخذ وجهة الجمال والحكمة.

سنلقي نظرة أكثر قربًا على مشاريع روسكين في أواسط عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر عندما كان أستاذًا في جامعة أكسفورد. كان في قلق متزايد من أن طلبته لا يفهمون معنى العمل ومسرّته. كانوا يذهبون إلى الحفلات، ويكتبون المقالات، لكنهم

لا يؤدّون بأيديهم عملًا منتجًا. وهذا ما كان أستاذهم يرى أن له أثرًا مدمّرًا على طبائعهم الشخصية. كانت هناك طريق على مقربة من قرية هينكسي امتلأت شقوقًا وحفرًا إلى حد كاد يجعلها غير صالحة للاستعمال. كان على العربات أن تتجنّبها، وأن تمضي مسافة عبر مروج القرية فتتلف العشب، حتى لم يعد لأطفال القرية مكان يلعبون فيه.

جمع روسكين ستين طالبًا من أجل إصلاح الطريق وإعادة المنطقة الخضراء إلى سابق عهدها. وصف شاهد عيان روسكين في صباح يوم شتوي واضعًا على رأسه «قبعة قماش زرقاء لها واقيتين للأذنين. كان جالسًا عند الطريق مبتهجًا يكسّر الحجارة بنشاط وخبرة معًا، ويلقي بالنكات أثناء عمله». استغرق إصلاح الطريق زمنًا طويلًا؛ ولم تكن نتائج العمل ممتازة. وكانت هناك شكاوى من جانب مالك الأرض، فضلًا عن قناعة عامة مفادها أن جون روسكين لديه شيء من اضطراب العقل.

إلّا أن الفكرة التي جسّدها ذلك كله كانت فكرة بالغة الأهمية. فانطلاقًا من خوفنا من أن نبدو سخفاء في أعين الآخرين، كثيرًا ما ينتهي بنا الأمر إلى عدم مقاربة التحديات التي من حولنا. كان إصلاح الطريق صورة صغيرة عن فكرة أكثر اتساعًا كانت تحرّك حياة روسكين كلّها: إن من واجب الأشخاص المتميزين المبدعين أن يوجّهوا جهودهم صوب جعل العالم أكثر أناقة وإبهاجًا، وأكثر ملاءمة وجمالًا، لا من أجل أنفسهم فحسب، بل لكي يعم الخير أكبر عدد من الناس. وكان مؤمنًا أيضًا بأنه لا يجوز لنا (ولا نستطيع) أن نترك هذا الأمر لقوى السوق لأنها لن تتوصّل أبدًا إلى غرس الزهور على حواف الطرق، أو إلى الحرص على بقاء خضرة القرى على جمالها.

على امتداد حياته كلّها، كان روسكين يشير إلى التضاد بين جمال الطبيعة عامة وقبح العالم الذي يصنعه البشر. وقد أقام معيارًا مفيدًا لتقييم أي شيء من صنع الإنسان: هل هو مُعادل، بأي شكل من الأشكال، لشيء يمكن أن يجده المرء في الطبيعة؟ ذلك هو المعيار الذي نراه في فينيسيا، وفي كاتدرائية شارتر، وفي كراسي شركة ويليام موريس... لكننا لا نراه في أكثر الأشياء التي تنتجها مصانع عالمنا الحديث.

وهكذا، رأى روسكين أن من المفيد لنا أن ننتبه إلى الطبيعة، وأن نجعلها مصدر إلهام لنا (كان من كبار المؤمنين بضرورة أن يتعلم كل فرد من أفراد البلاد كيف يرسم أشياء من الطبيعة). وقد كتب بجدية مدهشة عن أهمية النظر إلى الضوء في الصباح، وعن أهمية عناية المرء برؤية الغيوم المختلفة في السماء، وكذلك ضرورة النظر مليًّا إلى تداخل أغصان الأشجار وتفرّعها. وكانت تفرحه كثيرًا التركيبات الجميلة التي يراها في أعشاش الطيور، وفي سدود القنادس. كان محبًا لريش الطيور، شغوفًا به.

إن في هذا رسالة كبيرة الأهمية. الطبيعة هي التي تضع المعايير! إنها تزوّدنا بأمثلة واضحة جدًا عن الجمال، وعن الجلال. ريش طائر من الطيور، وغيومٌ فوق الجبال وقت الغروب، وشجرة عظيمة تنحني أمام الريح - الطبيعة منظمة، جميلة، بسيطة، ناجحة. ولا تبدو الأمور ذاهبة في غير وجهتها الصحيحة إلّا عندما يقوم بها الإنسان! فلماذا لا نستطيع أن نكون مثل الطبيعة؟ إن هناك تضادًا مخجلًا بين الجمال الطبيعي الذي نراه في شجرة عند جدول، وبين المظهر الكالح لشارع عادي؛ بين طبائع السماء المتغيرة أبدًا، وبين الفقر والرتابة في قسم كبير من حياتنا. رأى روسكين أن هذه المقارنات المؤلمة مفيدةٌ لنا. ولأننا جزء من الطبيعة، فإن لدينا قدرة على الارتقاء إلى سوية معاييرها. علينا أن نستخدم العاطفة التي نحسّها تجاه جمال الطبيعة حتى تزوّدنا بالعزم على مضاهاة صنيعها. غاية المجتمع البشري هي الاحتفاء بعظمة العالم الطبيعي وجلاله.

من خلال هذا التعظيم الشديد للجمال، ينقذ روسكين أجزاء من تجاربنا الحياتية التي لا نأخذها على محمل الجد إلّا في ما ندر. يشعر أكثرنا، أحيانًا، بأن تلك الشجرة جميلة، وبأن هناك مكانًا (من الممكن أن تكون مدينة فينيسيا نفسها) أجمل كثيرًا من المكان الذي نعيش فيه حياتنا. ونشعر بأن في العالم أشياء رديئة كثيرًا، وبأن العمل ليس ممتعًا بالقدر الكافي، وبأننا كثيرًا ما نكون في أعمال ليست مناسبة لنا - لكننا ميالون إلى صرف النظر عن هذه الأفكار واعتبارها أصغر، وأكثر اتسامًا بالصفة الشخصية، من أن نهتم بها... لأنها ليست مهمة في نظر أحد غيرنا. لكن روسكين يحثّنا على اتخاذ موقف أكثر جدية، وأوسع طموحًا. يقول إن الأمر ليس في حاجة إلى أكثر من إيلاء هذه الأفكار والتجارب وزنها الصحيح، والعمل على تحليلها وفهمها. وذلك أنها تقدّم إلينا أدلة بالغة الأهمية ترشدنا إلى ما هو مختلٌّ حقًا في عالمنا، مما يعني أنها تقودنا إلى أفعال قادرة حقًّا على جعل هذا العالم مكانًا أفضل.

لقد تناول روسكين السياسة من خلال التمسك الصلب برؤيته إلى ما ينبغي أن تكون عليه الحياة الحسنة، اللائقة، المنطقية، الواعية حقًّا - وبعد ذلك، يلح في السؤال عن الكيفية الواجبة لتنظيم المجتمع على نحو يصير فيه ذلك كله حياةً عادية للشخص العادي، لا حظًّا نادرًا مقتصرًا على من يتمتعون بامتيازات كبيرة. لهذا، يستحق جون روسكين اهتمامًا وتقديرًا دائمين، لدينا ولدى أجيال ستأتي بعدنا.

هنري ديفيد ثورو

(Henry David Thoreau)

1862 ـ 1817



في أكثر الأحيان، تكتنف الحياة الحديثة الناجحة أمورٌ من قبيل كثرة التكنولوجيا، والتواصل المستمرّ مع أشخاص آخرين، والعمل النشط بغية جني أكبر قدر ممكن من المال، وفعل ما يقال لنا أن نفعله. كذلك تكون هذه العناصر وصفةً تقليدية للنجاح. لهذا، يمكن أن يكون مفاجئًا مجيءُ واحدة من أفضل النصائح في ما يخص الحياة الحديثة من كاتب عاطل عن العمل عاش وحيدًا في الغابات رافضًا أن يدفع الضرائب. يذكّرنا هنري ديفيد ثورو (اسمه في الأصل ديفيد ثورو) بأهمية أن يكون المرء بسيطًا، أصيلًا، عاصيًا عصيانًا معلنًا.

ولد ثورو سنة 1817 في بلدة كونكورد المتواضعة الواقعة إلى الغرب من مدينة بوسطن الأميركية. كان أبوه صانع أقلام رصاص؛ وكانت أمه تؤجّر غرفًا في بيتهم. ذهب سنة 1833 إلى كلية هارفارد، وتخرج فيها سنة 1837 بتقدير حسن. إلّا أنه رفض سُبل الحياة المهنية العادية، كالقانون أو الطب أو السلك الكنسي. عمل في التعليم حينًا من الزمن، لكنه لم يستطع الاستقرار في وظيفته في المدرسة المحلّية لأنه لم يُطقْ أسلوب العقاب الجسدي الذي كان متبعًا فيها. وباختصار، كان رجلًا غير راضٍ عن كل مسارٍ من المسارات الواضحة التي تتيحها الحياة. ثم قامت صداقة متميزة بين ثورو وفيلسوف أميركي اسمه رالف والدو إمرسون (1803 - 1882). كان إمرسون من أنصار الفلسفة المتعالية أو المتجاوزة[1]، التي تعتبر العالم منقسمًا إلى واقعين اثنين: مادّي، وروحي. تركّز الفلسفة المتعالية على أن الروحي يكون متقدّمًا في أهميته على المادي عندما يريد المرء أن يعيش حياة الإشباع والرضا. كان لإمرسون ولفلسفته المتعالية أثر ضخم على ثورو؛ وقد شجّعه على العمل الجاد لكي يصير كاتبًا. كان في بيت ثورو زحام وضجيج؛ كما أنه وجد العمل في صناعة أقلام الرصاص مرهقًا وخاليًا من أي جاذبية. لكن إمرسون كانت لديه رقعة أرض في الغابات المحيطة ببحيرة والدن القريبة منها. وفي سنة 1845، سمح لثورو بأن يبني عليها غرفة صغيرة (عرضها ثلاثة

(1) الفلسفة المتعالية أو المتجاوزة (Transcendentalists): نزعة فلسفية نشأت في شمال شرقي الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وكانت ردة فعل على النزعة العقلانية، إذ اعتبرت أن هناك حضورًا إلهيًا في الأشياء كلها وفي البشر جميعًا. كان ثورو إمرسون من أبرز وجوهها. وقد ارتكزت هذه الفلسفة على كل من الفلسفة الرومانسية والكانطية والرومانية.

أمتار وطولها أربعة أمتار ونصف متر). كان في تلك الغرفة ثلاثة كراسٍ، وسرير واحد، وطاولة، وطاولة مكتب، ومصباح.



غرفة ثورو بالقرب من بحيرة والدن

انتقل ثورو إلى مسكنه الجديد يوم الرابع من تموز؛ وقد وضع لنفسه هدفين اثنين: تأليف كتاب، والتثبّت مما إذا كان ممكنًا أن يعمل يومًا واحدًا في الأسبوع ويخصص الأيام الستة الباقية لعمله الفلسفي.

خلال سنتين أمضاهما ثورو في تلك الغرفة، أنجز كتابة أكثر أعماله أهمية، «والدن؛ أو الحياة في الغابات». الذي نُشر آخر الأمر في سنة 1854. لم يحقّق الكتاب في ذلك الوقت إلّا قدرًا متواضعًا من النجاح الأدبي والتجاري، لكنه لم يلبث أن صار نصًّا ملهمًا في ميدان اكتشاف الذات. قال ثورو إن فراره إلى بحيرة والدن لم يكن مجرّد عزلة للاسترخاء في الغابة. لقد سكن هناك لكي «أعيش عميقًا وأمتصّ رحيق الحياة»، بحسب تعبيره. وقد كتب:

> ذهبت إلى الغابات لأنني أردت عيشة متروّية، وحتى لا أواجه شيئًا غير حقائق الحياة الأساسية، وأرى إن كنت قادرًا على تعلم ما تريد تعليمي إياه حتى لا أكتشف في لحظة موتي أنني لم أعش.

كان ثورو مؤمنًا بأن الناس كثيرًا ما «ينسون» أن يعيشوا - يظلون ملتصقين بنمط حياتهم إلى حد يجعلهم غير قادرين على رؤية وجود سبل أخرى للرضا: «الظاهر أن الناس قد تعمّدوا اختيار نمط الحياة المعتاد لأنهم يفضلونه على كل ما عداه. لكن الحقيقة أنهم يظنّون صادقين أنه ما من خيار آخر». لقد اكتشف ثورو، بعد حين من العيش في تلك الغرفة، نمط حياة مختلفًا، أكثر وعيًا.

استنتج ثورو أول الأمر أننا لسنا في حاجة حقيقية إلّا إلى أشياء قليلة جدًا. وقد اقترح أن نفكر في ممتلكاتنا من زاوية الحد الأدنى الذي يسمح لنا بالاستمرار بدلًا من الحد الأقصى الذي نستطيع الحصول عليه. وكان يرى أن المال أمر لا موجب له، إلى حد كبير، لأنه لا يفيدنا في تطوير أرواحنا. والعمل أيضًا -بمعناه التقليدي- ليس أمرًا ضروريًا: «في ما يخص العمل، ليس لدينا أي عمل فيه أي قدر من المعنى». أراد ثورو أن يكدح يومًا واحدًا في الأسبوع فوجد أن هذا أمر ممكن تمامًا. وقد لاحظ أن سير مسافة ثلاثين ميلًا يقتضي يومًا واحدًا، لكن العمل لكسب مالٍ كافٍ لدفع تكلفة الرحلة نفسها بالقطار يستلزم أكثر من يوم عمل واحد. ثم إن المشي أفضل لأنه يتيح لنا رؤية الطبيعة ويمنحنا وقتًا للتأمل - وهذه هي فائدة الوقت في نظر ثورو: «وجدت أنني قادر على تغطية نفقات المعيشة إذا عملت نحو ستة أسابيع في السنة. وأما الشتاء كله، وقسم كبير من الصيف، فقد ظلّ حرًا لا يشغلني فيه شيء عن الدراسة».

وعلى غرار صديقه إمرسون، كان ثورو يقدّر كثيرًا ما دعاه «الاعتماد على الذات». كان قليل الثقة بالمجتمع وبما يبدو أنه يحقّقه من «تقدم». يقول إمرسون: «صنع الإنسان المتمدّن عربة، لكنه خسر استخدام قدميه». كان يرى أن الاستقلال الاقتصادي عن بقية الناس وعن الحكومة أمرٌ كبير الأهمية. وفي حين كان مدركًا أننا في حاجة إلى رفقة بشر آخرين، من حين لآخر، فقد رأى أننا نستخدم رفقة البشر الآخرين -أكثر الأحيان- لملء فجوات في حياتنا الداخلية نخشى أن نواجهها بأنفسنا. لم تكن مهمة تعلّم العيش المنفرد بالنسبة إلى ثورو مسألة أداء مهمات يومية بقدر ما كانت محاولة منه لأن يكون رفيق نفسه بحيث يعتمد عليها، أولًا وقبل أي شيء آخر، من أجل الرفقة والإرشاد الأخلاقي: «كن مصرًا على ذاتك؛ ولا تُقلّد أبدًا. أنت قادر على إبراز قدراتك في كل لحظة معتمدًا على القوة التراكمية المكتسبة خلال حياة بأسرها. وأما ما تأخذه من غيرك فهو ليس أكثر من نصف امتلاك». وفوق كل شيء، ينبغي على المرء أن يغير نفسه قبل أن يروم تغيير العالم.

وقد اعتبر ثورو أيضًا أن التكنولوجيا أُلهية لا حاجة إليها، أكثر الأحيان. كان مدركًا

المنافع العملية للابتكارات الجديدة، لكنه حذّر أيضًا أن هذه المخترعات غير قادرة على التصدّي لتغيير حقيقي في السعادة الشخصية: «إن مخترعاتنا نزّاعةٌ إلى أن تكون ألعابًا جميلة تشتت انتباهنا عن الأمور الجادة... نحن في عجلة كبيرة من أمرنا لكي ننشئ تلغرافًا مغناطيسيًا بين ولايتي ماين وتكساس؛ لكن من الممكن ألّا تكون بين ماين وتكساس أية اتصالات مهمة». ليس المال ما نحتاجه لكي نكون سعداء، ولا التكنولوجيا، ولا حتى كثرة الأصدقاء، بل الوقت.

كان ثورو يدعونا أيضًا إلى أن ننظر في الطبيعة لأنها مليئة بمغزى روحي عميق. وقد أراد أن يكون «يقظًا دائمًا لكي يعثر على الرب في الطبيعة». وكان يعتبر الحيوانات والغابات والشلالات ذات قيمة أصيلة كائنةٍ فيها، سواء من حيث جمالها أو من حيث دورها في النظام البيئي. قال إن مما يسعده كثيرًا «أن تظل مروج الأرض كلها متروكة في حالتها البرية»، لأن من المحتمل كثيرًا أن نجد «أن الطبيعة أكثر قيمة من التطويرات التي ندخلها عليها، حتى وفق معايير التقييم الحالية لدينا». نستطيع فهم أنفسنا أفضل فهم إذا اعتبرنا أننا جزء من الطبيعة؛ وعلينا أن نرى أنفسنا «طبيعة تنظر في الطبيعة»، لا قوة خارجية أو سيدًا على الطبيعة.

وأهم من أي شيء آخر أن الطبيعة قادرة على إمدادنا بالمعنى الذي لا تستطيع التكنولوجيا إمدادنا به، ولا آراء الأشخاص الآخرين؛ وذلك لأنها تعلّمنا أن نكون متواضعين، وأن نكون أكثر انتباهًا، من خلال تشجيع المرء على التأمل في العمليات العقلية والشعورية الجارية داخله، أي اكتشاف الذات. كان ثورو مؤمنًا بأن البشر قادرون، من خلال نوع صحيح من الوعي، على الارتفاع فوق أفكارهم وحدودهم السابقة. هذه الحالة الذهنية -لا المال ولا التكنولوجيا- هي القادرة على أن توفّر تقدّمًا حقيقيًا. وقد أعلن ثورو متفائلًا: «لا تشرق شمس يوم جديد إلّا على من يكون مستيقظًا. الفجر يعقبه النهار. والشمس ليست إلّا نجمة الصبح». إذا نظّفنا حياتنا من الأُلهيات، وأفسحنا وقتًا لشيء من التأمل، فإن اكتشافات جديدة ستكون في انتظارنا.

***

لعل أفضل ما يشهد على قيمة التأمّل الفردي والأصالة الشخصية لدى ثورو هو أن أفكاره قد قادته إلى استنتاجات سياسية كلّها قوة. رأى أن على الناس أن يتصرّفوا بطريقة تجعل حكوماتهم أكثر أخلاقية بحيث يصير الضمير الأخلاقي متقدّمًا على ما يمليه القانون. وقد ذهب ثورو في مقالته «مقاومة الحكومة المدنية» (1849) إلى أن الناس ملزمون أخلاقيًا بمعارضة الحكومة التي تعمل وفق قوانين مرائية أو ظالمة ظلمًا

بيّنًا. وبحسب رأي ثورو، تحرّشت الحكومة الأميركية في أيامه بالمكسيك حتى جرّتها إلى الحرب جرًا سنة 1846 بغية توسيع رقعة سيطرتها؛ وكانت أيضًا حكومة ملتزمة بالرق. وقد أمضى ليلة في السجن لما أثاره من مشكلات، فكانت تلك الليلة مغامرة جعلته يكتب مقالة «مقاومة الحكومة المدنية». جاء في تلك المقالة: «لن تقوم دولةٌ حرة مستنيرة حقًا إلى أن تعترف الدولةُ بالفرد قوة مستقلة عليا تستمد منها كل ما لها من قوة وسلطان وتعامل الفرد تبعًا لذلك. لست أطالب بأن تكفّ الحكومة عن الوجود على الفور، بل أن تكون حكومة أفضل.

لم يتحول نصّ «العصيان المدني»، كما سُميت مقالة «مقاومة الحكومة المدنية» في وقت لاحق، إلى واحد من أكثر النصوص أثرًا في تاريخ الفلسفة السياسية الأميركية إلّا بعد أن التقط هذه الفكرة مصلحون أتوا بعد ثورو. وقد اعتمد غاندي فكرة ثورو عن العصيان اللاعنفي فجعله أسلوب مقاومة ضد الاستعمار الإنكليزي، وأشار إلى ثورو معتبرًا إياه «واحدًا من أعظم الرجال الذي أنجبتهم أميركا وأكثرهم أخلاقًا». وفي الحرب العالمية الثانية، تبنّى عدد من الأشخاص في الدانمارك طرائق العصيان المدني لمقاومة الحركة النازية، وصار ثورو بطلًا عندهم. ثم إن مارتن لوثر كينغ استخدم أفكار ثورو في كفاحه من أجل حق الأميركيين الأفارقة في المساواة. كان أول تعرف لمارتن لوثر كينغ على الطرائق اللاعنفية في الاحتجاج عندما قرأ أعمال ثورو في سنة 1944، فاقتنع بأن «الامتناع عن التعاون مع الشر التزام أخلاقي لا يقل أهمية عن التعاون مع الخير».

على الرغم من الفترة التي أمضاها متنسّكًا، يعلمنا ثورو كيف نقارب مجتمعنا الحديث الواسع إلى حد مخيف، هذا العالم المتّسم بسوية عالية من الترابطات المتبادلة والذي يثير لدينا اضطرابًا أخلاقيًا. يدعونا ثورو إلى أن نكون أصلاء، ليس فقط من خلال البعد عن الحياة المادية وكل ما يشتت انتباهنا، بل أيضًا من خلال ممارسة دورنا في العالم وسحب مساندتنا لحكوماتنا عندما نرى أنها تسلك مسلكًا ظالمًا. قد يجعلنا هذا نشعر بقدر من عدم الراحة: فما عدد الراغبين في المغامرة بحريتهم، أو بممتلكاتهم، لقاء فعل واحد من أفعال العصيان؟ مع هذا، فقد صار العصيان المدني واحدًا من أقوى أشكال فعل «لا شيء» (أي تجنّب أفعال بعينها) التي عرفها العالم حتى الآن.

يظلّ ثورو على صلة كبيرة بحياتنا الآن لأننا لسنا بعيدين عن المشكلات التي فتّش عن حلول لها. إن إصراره على العيشة المقتصدة، وعلى أن يولي المرء العالم المادي ظهره، فكرتان متبصّرتان راهنتان في عالم متّسم باضطراب اقتصادي. والواقع أن

الاهتمام بثورو يبلغ أوجه كلما حلّت أزمة اقتصادية: فخلال الركود الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين، تمتعت فلسفته بشعبية خاصة في أميركا. لو كان ثورو موجودًا، لكان من المرجَّح أن يقول إننا ما من حاجة إلى أزمة اقتصادية كبيرة حتى تصير الحياة المادية موضع تساؤل لدينا.

ثم إننا قادرون على مواصلة التعلّم من تقديره الكبير للطبيعة وللإمكانيات النفسية التي تتيحها لنا. لقد صار ثورو، في وقت لاحق، «قدّيسًا راعيًا» للحركة البيئية. وصار «نادي سييرا»[1] يستخدم عبارة ثورو «الحياة البرية هي ما يحفظ العالم» شعارًا مرشدًا له.

ارتحل ثورو كثيرًا بعد أن غادر كوخه في منطقة والدن، وأمضى بعض الوقت في العمل مسّاحًا، ونشر مقالات كثيرة أخرى، عن البيئة خاصّة. كان مصابًا بالسل منذ سنواته الجامعية، ثم اشتد عليه المرض من جديد بعد رحلة لإحصاء حلقات الأشجار. مات بعد ثلاث سنوات من ذلك، في سنة 1862. لم يعش إلّا أربعة وأربعين عامًا. إلّا أن أعماله ظلت باقية، وظلت تذكرةً لنا بمدى أهمية إبعاد ما يشتت أذهاننا، «كالمال والتكنولوجيا وآراء الآخرين، حتى نعيش بما يتفق مع طبيعتنا الداخلية».

(1) نادي سييرا (Sierra Club): واحد من أكبر من المنظمات المدافعة عن البيئة في الولايات المتحدة الأميركية.

ماثیو آرنولد

(Matthew Arnold)

1888 ـ 1822



كان ماثيو آرنولد أهم مُصلح تربوي في القرن التاسع عشر. وقد رأى أن التعليم في العالم الحديث سيكون واحدًا من مفاتيح المجتمع الجيّد. لكن من الواجب أن يكون تعليمًا من نوعٍ خاصٍّ - أي إنه ليس ذلك النوع من التعليم الذي نعرفه اليوم ونسعى إليه. فبدلًا من القول إن على المدارس أن تعلم الأطفال قدرًا أكبر من المثلّثات، أو أن تخفِّض مستويات الأمّيّة تبعًا لنسب اقتصادية اجتماعية بعينها، دعا آرنولد إلى خطة قد تبدو غريبة، لكنها ضرورية وعميقة جدًا. إن على المدارس تنمية «العذوبة والنور»، بحسب تعبيره. كانت هذه صيغة محسوبة أراد منها مضايقة معاصريه، لكنها تلتقط ما أراد قوله التقاطًا أنيقًا - تلتقط أيضًا ما قد نحب تجريبه بأنفسنا.

كان آرنولد خلال حياته مادةَ تندّر عند عدد من الصحف في بريطانيا. وكانت صحيفة ديلي تلغراف خاصّة حريصة على مناكفته دائمًا من خلال وصفه بأنه شخصٌ مدّع: «إرميا[1] راقي»، بحسب تعبيرها. وحيثما يجري إضراب أو تندلع أعمال شغب، كأن الساخرون من آرنولد يتخيّلونه واقفًا هناك يقول للناس -مخلصًا تمام الإخلاص- إن عليهم ألّا يهتموا كثيرًا بالأمور العملية السوقية، كالبطالة أو الأجور المنخفضة، بل أن يرتقوا بأذهانهم إلى سوية مثلٍ أعلى، وأن يركّزوا على العذوبة والنور. كان هذا انتقادًا ظالمًا إلى حدٍّ كبيرٍ (كما سنرى بعد قليل)، لكن شخصية آرنولد كان فيها ما يجعل هذه الصورة تلتصق به. يبيّن هذا كم يكون سهلًا أن يبدو المرء كأنه شخص ليس من هذا العالم، أو كأنه منقطع الصلة بما يجري، وذلك عندما يحاول الدفاع عن أشياء هشّة فيها شيء من التعقيد.

ولد ماثيو آرنولد سنة 1822، وكان أبوه - اسمه توماس آرنولد - واحدًا من كبار المثقّفين المشهورين في ذلك الزمان: مدير مدرسة «رغبي بَبْلِك سكول» - رجل صارم، دائم النشاط، لا يعرف كللًا. وقد احتلت تلك المدرسة مكانة مركزية في رواية «أيام توم براون في المدرسة» التي كانت من أكثر الروايات مبيعًا في زمنها. كان ماثيو في نظر أبيه خيبة أمل وأحجية غامضة. كان يحب القراءة في الفراش وقت الصباح، ويستمتع بالسير بين المروج والغابات؛ كما سحرتْه صبايا باريس، وكتب الشعر، وأهمل دراسته، ونشر ديوانَي شعر صغيرين لم يُلقِ إليهما العالم بالًا. وأخيرًا، وقع آرنولد في حب امرأة

(1) إرميا (650 - 585 ق.م) أحد أنبياء بني إسرائيل.

اسمها فرانسيس لوسي وايتمان -كان يدعوها فلو- وكان أبوها قاضيًا. لكنه ما كان قادرًا على الزواج منها قبل أن يصير لديه عمل مقبول. هذا ما دفعه إلى تولي منصب مرموق في وزارة التعليم حيث صار مفتّشًا على المدارس. أمضى سنوات في الارتحال في طول إنكلترا الفيكتورية وعرضها متفقّدًا المدارس للتحقّق من حسن ما توفّره من تعليم. كان دخله من هذه الوظيفة محترمًا جدًا. كبرت أسرته، وكانت تسافر في عطلات جميلة وتعيش عيشة مريحة سعيدة في حي وست إند في لندن (مع أن آرنولد لم يعش يومًا من غير مشكلات مالية).

لم يكتب آرنولد شعرًا كثيرًا في تلك السنين؛ إلّا أن سحره (وكذلك كثرة أصحاب النفوذ ممن كانوا أصدقاء أبيه المتوفّى) ضَمن انتخابه لكي يشغل منصبًا مرموقًا: صار أستاذًا يدرّس الشعر في جامعة أكسفورد. كان هذا منصبًا لا يدرّ مالًا؛ لكنه كان يعني أن على آرنولد إلقاء سلسلة محاضرات كل سنة أمام صُنّاع الرأي في البلاد. كانت هذه فرصة لإظهار معدنه لأن منصبه الجديد كان له الفضل في إنضاجه وجعله ناقدًا اجتماعيًا عميقًا. جُمعَ أفضل محاضراته حتى ذلك الوقت في كتاب صار أكثر أعماله تأثيرًا، «الثقافة والفوضى» (1869).

كان في العالم الحديث - الذي كانت ملامحه قد بدأ اتضاحها - أشياء كثيرة تقلق آرنولد وتشغل باله. لكنه اختصرها في فكرة واحدة تجملها كلّها: الفوضى. لم تكن كلمة «فوضى» عند آرنولد تشير إلى أشخاص ملثّمين متّشحين بالسواد يحطمون واجهات المتاجر. لقد عنى بها شيئًا أكثر ألفة، وأقرب إلى ما نعيشه: نوع سامٌّ من أنواع الحرية. كان يعني بذلك مجتمعًا تهيمن فيه قوى السوق في البلاد، وتضع فيه وسائل الإعلام التجارية الأجندات فتجعل كل ما تمسّه فظًا وخاليا من المعنى... مجتمعًا يكاد لا يضع على الشركات قيودًا تمنعها من إفساد البيئة، مجتمعًا يُعامل البشر فيه على أنهم أدوات يمكن استخدامها أو وضعها جانبًا في كل وقت، مجتمعًا ما عادت فيه رعايةٌ كنسية بل قدر قليل جدًا من الإحساس الثمين بروح الجماعة؛ مجتمعًا فيه مستشفيات تعالج الأجساد، لكن من دون ما يعالج الروح؛ مجتمعًا ما عاد فيه أحد يعرف جيرانه؛ مجتمعًا صار يعتبر العلاقة العاطفية الرومانسية الرابطة الوحيدة التي تستحق السعي إليها... مجتمعًا لا يجد المرء فيه من يستعين به في لحظات الكرَب الحادة والأزمات الداخلية. إنه عالم صرنا الآن على معرفة جيدة به.

كان آرنولد مؤمنًا بأن قوى الفوضى قد صارت طاغية في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان الدين في حالة تراجع لا شفاء منها. وصار عالم الأعمال

سيدًا منتصرًا. وباتت تحكم الناس ذهنية عملية، مادية، ساعية خلف المال. كان توزيع الصحف في تزايد سريع جدًا. وكان التحزّب والنزاع وسوء التمثيل مهيمنًا في عالم السياسة.

لعل الدين كان مفيدًا في الماضي لكبح جماح هذه الميول الفوضوية. لكن آرنولد يصف في أفضل قصائده، قصيدة «شاطئ بوفر» كيف أن «بحر الإيمان قد انحسر مثلما ينحسر الماء عن الشاطئ وقت الجزر، فلم يترك محله إلّا كآبة متطاولة تزأر من غير انقطاع».

فما الذي كان قادرًا على الاضطلاعِ بالوظيفة التي لعبها الدين في المجتمع في وقت مضى؟ وما القوى التي يمكن أن تعقِلَ الفوضى وتهذّب البشر، وترشدهم، وتمدّنهم، وتلهمهم، وتؤنسنهم بدلًا من الدين؟ لقد اقترح آرنولد حلًا «مدوّيًا»: الثقافة. قال إن من الواجب أن تكون الثقافة هي ما يتغلب على قوى الفوضى التي أطلقتها كل من الرأسمالية والديمقراطية.

حتى تقوم الثقافة بهذا الدور، لا يجوز أن نستمر في فهمها مثلما كان بشر كثيرون يفهمونها في ذلك الوقت (والآن أيضًا): الذهاب إلى عرض فنّي في أيام العطلات، والذهاب إلى المسرح من وقت لآخر، وكتابة بضعة مقالات عن جين أوستن أيام كانت في المدرسة.

أراد آرنولد أن تكون الثقافة قوة قادرة على القيادة والتربية والمواساة والتعليم... باختصار، أن تكون «وسطًا معالِجًا شافيًا» بأسمى ما في هذا الوصف من معنى. لا يجوز اعتبار الأعمال الفنية الكبرى مادة تسلية؛ وذلك لأن فيها -عندما تُقدّم وتُفسّر على نحو صحيح (هذه هي النقطة التي رأى آرنولد أن مجتمعه قد أخطأها تمامًا)- منظومةَ أفكار ومقترحات في شأن كيفية العيش والموت على أحسن وجه، وكذلك في شأن إدارة مجتمعاتنا بما يحقّق أسمى الاحتمالات الممكنة.

من هنا، كان هدف آرنولد محاولة تغيير الأسلوب الذي تستخدمه «المؤسسة» (المتاحف والجامعات والمدارس والمجتمعات المتعلّمة) في تعليم الأعمال الثقافية، وذلك حتى تصير تلك الأعمال ما كان مقتنعًا بأنها قادرة على أن تصيره: متراسًا واقيًا في مواجهة الفوضى الحديثة، ووسيلة من أجل بث جرعات كافية من الخصّيصتين المهمّتين: العذوبة والنور.

ما أراده آرنولد بـ«النور» هو «الفهم والتفهّم». إن في الأعمال الفنية العظيمة قدرة على إزالة تشوّشات الذهن؛ وهي تزودنا بكلمات تعبر عما أحسسناه لكننا لم نستطع

التقاطه وفهمه قبل ذلك. وهي تُحلُّ البصيرة محلّ العبارات الجاهزة («كليشيه»). وبالنظر إلى هذه القدرات، رأى آرنولد أن المدارس ووسائل الإعلام الجماهيري تقع عليها مسؤولية مساعدتنا في معرفة أكبر عدد ممكن من هذه الأعمال العظيمة الممتلئة نورًا. إننا في حاجة إلى منهاج دراسي يعلّم كل من على وجه البسيطة، تعليمًا منهجيًا، «أفضل ما فُكّر فيه، وأفضل ما قيل، في العالم، حتى نصير قادرين -من خلال هذه المعرفة- على إضافة «تيار من الفكر النَّضِر الحُرّ إلى مخزوننا من المفاهيم والطباع».

إلّا أن آرنولد كان منتبهًا إلى أن تقديم تلك الأعمال الثقافية يجري، في واقع الأمر، على نحو ينأى بنا عما فيها من قوة، ويخنق فينا إحساسنا بجلالها واهتمامنا بالرسالة التي تحملها إلينا. فالمتاحف من جانبها تجعل الفن شيئًا في غاية التعقيد، وشيئًا مجرّدًا. وأما الأفكار العظيمة المتبصّرة التي قد تكون كامنة في الفلسفة، فكثيرًا ما تجري صياغتها بطرق تجعلها صعبة الفهم إلى حد غير معقول، وتجعلنا عاجزين عن رؤية أهميتها الشخصية بالنسبة إلينا (عندما تحدّث آرنولد عن هذا، كان في ذهنه أكاديميون بعينهم، كهيغل مثلًا). من هنا، حاول آرنولد أن يقدّم إلى معاصريه من أهل الثقافة والفكر مشروعًا لا يزال ذا أهمية ملحّة في يومنا هذا: إنه مشروع «حمل أفضل الأفكار والمعارف في زمانهم من أول المجتمع إلى آخره، وبذل الجهد لتخليص المعرفة مما فيها من ثقل وفظاظة وصعوبة وتجريد وتخصّصية واقتصار على فئة بعينها من الناس؛ وذلك بغية أنسنتها حتى يصير لها أثر حقيقي خارج دوائر المثقفين والمتعلمين».

... «*وذلك بغية أنسنتها حتى يصير لها أثر حقيقي خارج دوائر المثقفين والمتعلمين*».

لاحظ كيف أن لدى هذا الكاتب المفتقر إلى الحسّ العملي، البعيد عن حياة الناس العاديين واهتماماتهم، شيئًا عمليًا إلى أقصى حدٍّ، وشيئًا ديمقراطيًا جدًّا. لقد أدرك آرنولد أن إبقاء الثقافة حكرًا على القلّة في مجتمع مدفوع بقوى السوق، يتّسم بصفة الشعبية، أمر لا طائل منه. ولا طائل أيضًا من تأليف كتب لا يستطيع فهمها إلّا بضع مئات من الأشخاص. المهمّة الحقيقية هي معرفة كيف نجعل الثقافة شعبية. إن كان للثقافة أن تصير قوية حقًا، فإن عليها أولًا أن تتعلّم كيف تكون شعبية.

وأما كلمة «عذوبة»، فقد كان معناها عند آرنولد أنه يريد تقديم الأعمال الثقافية إلى الجمهور بطرق «عذبة». لقد أدرك الضرورة المطلقة لـ«تغليف الأشياء بالسكّر». ففي مجتمع حرّ، لا تعود السلطات الثقافية قادرة على أن تكون صارمة أو متطلّبة - سيَعرِضُ الناس عنها؛ أو أنهم سيعمدون إلى التصويت لصالح من هم أقل تشدّدًا. إن على كل من يريد الترويج لأمور جادّة (لكنها يمكن أن تكون مفيدة جدًّا) أن يتعلّم فن العذوبة.

عليه أن يعرف كيف يكون مسليًا، ساحرًا، سارًّا، وأن يعرف كيف يستميل الناس إليه. ليس هذا لأنه غير صادق في مسعاه، بل لأنه -بالضبط- مخلص في ذلك المسعى إلى أقصى حدود الإخلاص. في العالم المثالي الذي تصوّره آرنولد، ينبغي أن تكون دروس فن الإعلان - الإعلان الذي عرف في أيامه كيف يبيع الساعات الثمينة، وملاقط الموقد، والسكاكين الخاصّة بتقطيع الدجاج - موضع استفادة من جانب المرَبّين والمثقفين. بدلًا من التساؤل عن كيفية إقناع أصحاب الدخل المتوسط بشراء أدوات تقشير البطاطس، أو أطباق الحساء، سوف يبدأ صُنّاع الإعلانات بالتفكير في كيفية جعل فلسفة أفلاطون أكثر تأثيرًا، أو في كيفية العثور على «قاعدة استهلاكية واسعة» لأفكار القديس أوغسطين.

ثم إن آرنولد كان يعني بالعذوبة أمرًا آخر أيضًا: اللطف، والعطف، والتعاطف. لقد أراد عالمًا يكون فيه الناس -في الميدان العام- أكثر لطفًا في ما بينهم. كفانا ما في صحيفة ديلي تلغراف من قسوة وفظاظة... صحيفة تستمتع كل يوم باصطياد ضحايا جدد، وبتحويل المآسي الشخصية إلى مادّة للسخرية. أراد آرنولد من الثقافة أن تكون عاملًا مساعدًا في تشجيع البحث عن روح «طيبة القلب»، حتى إذا كان المرء لا يزال غير قادر على رؤيتها في الناس. لقد أراد تشجيع الإحساس بألم الناس في حالات ضعفهم وإخفاقهم. ولقد رأى في العذوبة مكوّنًا جوهريًا من مكوّنات مجتمع إنساني جيد.

لا يزال كتاب «الثقافة والفوضى» زاخرًا بإجابات صالحة تمامًا عن أسئلة العالم الحديث ومشكلاته. فبعد انحسار الدين، صارت الثقافة وحدها قادرة على درء الفوضى. لكن أمامنا طريقًا لا بد من اجتيازها قبل الوصول إلى ثقافة متخلّصة مما دعاه آرنولد «قسوةً... صعوبةً... تجريدًا... تخصّصًا... حكرًا على».

إن هذا الكتاب -بطريقته الخاصة- مساهمةٌ بسيطة من أجل تحقيق رؤية آرنولد السامية.

ويليام موريس

(William Morris)

1896 - 1834



كان ويليام موريس مصممًا، ورائدَ أعمال، وشاعرًا، في القرن التاسع عشر. وهو واحد من أفضل من لدينا من مرشدين في ما يخص الاقتصاد الحديث؛ وذلك على الرغم من حقيقة أنه مات في سنة 1896 (كانت الملكة فيكتوريا لا تزال على عرشها)؛ ومن أنه لم يُجر في حياته كلها أي اتصال هاتفي، ومن أنه كان سيجد فكرة التلفزيون نفسها أمرًا محيّرًا إلى أقصى حد.

كان موريس أول شخص يفهم أمرين صارا حاسمَيّ الأهمية في زماننا هذا. الأمر الأول: الدور الذي تلعبه المتعة في العمل. والثاني: طبيعة الطلب الاستهلاكي. إن تفضيلات المستهلكين -ما يرى الناس بمجملهم قيمة كبيرة فيه، وما يشتهون الحصول عليه، وما هم مستعدون لدفع المال من أجله- دوافع اقتصادية بالغة الأهمية. وبالتالي، فإن لها دورها في تحديد نوع المجتمع الذي نعيش فيه. وإلى أن يصير لدينا ذوقٌ جمعيٌّ أفضل، سنظل نواجه صعوبات كبيرة في الوصول إلى اقتصاد أفضل، وإلى مجتمع أفضل. إنها فكرة كبيرة حقًا!

ولد موريس سنة 1834 في أسرة ميسورة. كان أبوه صيرفيًا في «سيتي أوف لندن»؛ وعاشوا في بيت ضخم قريب من والثامستو في إيسكس. مات أبوه في وقت مبكر (كان موريس في الثالثة عشرة من عمره)، ثم اتضح أنه كان متورّطًا في سلسلة من المغامرات المالية التي فيها قدر كبير من المضاربة، مغامرات تكاد تكون غير قانونية. ضاع القسم الأكبر من ثروة الأسرة؛ إلّا أن بضعة استثمارات آمنة بقيت فأتاحت لموريس الشاب (على الرغم من أنها لم تكن استثمارات ضخمة) دخلًا يكفيه طيلة حياته.

لم تؤدِّ حقيقة أنه عاش ميسورًا، إلى حدٍّ معقول، طيلة عمره إلى تقليل تعاطفه مع حالات المعاناة المالية. فمن الناحيتين الشخصية والسياسية، كان موريس رجلًا كريمًا دافئًا بطبعه. وهذا ما أنتج منظورات مفيدة. كان لديه وعيٌ حادٌّ بأن هناك عدة مشكلات أساسية غير ناتجة عن قلة المال، ولا تستطيع وفرة المال أن تجد حلولًا لها. من هنا، لم يقتنع أبدًا بأن النمو الاقتصادي والمال قادران في حد ذاتهما على أن يكونا دليلًا على التطوّر والتحسّن - لا على المستوى الفردي، ولا في حياة الأمة.

ذهب موريس إلى الجامعة عند بلوغه الثامنة عشرة. لم ينجز هناك قدرًا كبيرًا من العمل الذي كان مطلوبًا منه، لكنه أمضى وقتًا رائعًا. فمنذ يومه الأول تقريبًا، أقام صداقة

استمرت طيلة حياته مع طالب من زملائه اسمه إدوارد بيورن جونز صار في ما بعد واحدًا من أكثر الفنانين نجاحًا في ذلك العصر.

وبعد التخرّج في الجامعة، أمضى موريس وقتًا في دراسة العمارة. إلّا أنه لم يكن حينها شديد الاهتمام بالأعمال التقليدية. كان يرى نفسه فنانًا، أو شاعرًا. وما كان مهتمًّا إلّا بصنع أشياءٍ ترضيه... أشياءٍ قد تكون أيضًا ممتعة لبعض أصدقائه. لم يسعَ إلى بيع لوحاته، ولا إلى الحصول على المال لقاء قصائده. كان أصدقاؤه يدعونه «مزاجيًا»، وذلك لكثرة تقلّب طبعه الذي يغدو بعض الأحيان ناريًا.

رأى في ممثلة شابة لها وجه بالغ الجمال نموذجه النسائي المفضل. كان اسمها جين نوردين، وتزوجا بعد سنة. وصار كل ما يشغل بال موريس بناء بيت الأسرة في بيكسليهيث، في جنوب شرقي لندن، وتأثيث ذلك البيت. أطلق عليه «البيت الأحمر»؛ وكان معظم ما فيه -الكراسي والطاولات والمصابيح وورق الجدران والخزائن والشمعدانات والزجاجيات- من تصميم موريس نفسه، أو من تصميم صديقه الحميم، شريكه في العمارة، فيليب ويب. ثم رسم أصدقاؤه الفنانون لوحات على الجدران.

علّمته تجربته في بناء البيت وتجهيزه أول درس كبير في الاقتصاد. لو طلب كل شيء من شركة صناعية، لكان ذلك أكثر بساطة (ولربما كان أقل تكلفة). لكن موريس لم يكن يحاول العثور على الطريقة الأسرع والأبسط لإنشاء بيت. أراد التوصّل إلى سبيل من شأنه أن يمنحه - ويمنح كل من شارك في المشروع - الحدّ الأقصى من الرضا. وقد أشعل هذا الأمر فيه حماسة لفكرة الصنعة الحرفية العائدة إلى القرون الوسطى. إنها تترك العامل يطوّر مهارته وحساسيته - وتتركه يستمتع بكدّه. ليس ذلك عملًا ميكانيكيًا، وما هو بالعمل الذي يقلّل من شأن الإنسان.

انتبه موريس إلى أن الحرفة تعطينا دليلًا مهمًّا إلى ما نريده حقًّا من عملنا. نريد حقًّا أن نعرف أننا أنجزنا شيئًا حسنًا في يومنا. ونريد أن نعرف أن جهدنا قد أثمر نتائج ملموسة نراها حقًّا ونشعر أنها جديرة بعنائنا. لاحظ موريس أن الناس الذين يحبّون عملهم حقًّا لا يكون لديهم ذلك الاهتمام الشديد بمقدار ما يتقاضون مقابله من مال. (إلّا أن موريس كان مقتنعًا دائمًا بأن الناس يستحقون أن يُدفع لهم بسخاء مقابل عملهم الصادق). الفكرة هي أنك تصير قادرًا تمامًا على القول إنك لا تفعل ذلك من أجل المال وحده.

يمكن أن يكون العمل موضع احترام وإجلال. وقد كانت تلك فكرة متبصّرة أتت في وقتها الصحيح. كان ذلك عصر التحوّل الواسع إلى الصناعة؛ وكان العمال يتدفّقون إلى

المصانع الجديدة على الرغم من فظاعة شروط العمل في تلك المصانع، أكثر الأحيان. كانت المكانة الاجتماعية لمن يعمل بيديه، أي لمن يصنع أشياء مادية، مكانة متدنية. وفي ذلك الزمان، كما هي الحال الآن، كان الجلوس خلف مكتب أمرًا أكثر تقديرًا من الوقوف خلف آلة، أو عند فرن في مصنع.

على أن المشكلة كانت في أن موريس لم يلعب دور العامل والصانع الحرفي في البيت الأحمر؛ فقد كان في الوقت نفسه صاحب العمل، والزبون. يستطيع المتشكّكون، بطبيعة الحال، الإشارة إلى أن موريس أمضى في هذا الأمر وقتًا ممتعًا جدًا، لأنه كان يمارس هواية يحبها.

إلا أن هذا -بالضبط- هو الأمر الذي ما كان موريس راغبًا في فعله. لقد صمّم على تبيان أن مبادئ الصنعة الحرفية والعمل المُرضي (الذي يُرضي العامل) قادرة على أن تصير جوهر العالم الحديث، بل ينبغي أن تصير جوهرًا له. وقد أدرك أن هذا يعني إدخال تلك المبادئ في عالم الأعمال والشركات. ولهذا أقام موريس في سنة 1861 - كان لا يزال في أواسط العشرينيات - شركة لفنون الديكور: «موريس ومارشال وفولكنر وشركاهم»؛ لكنهم كانوا يفضلون الاكتفاء بتسميتها «الشركة». كان من زملائه أيضًا الشاعر اللامع بيورن جونز، والرسام صاحب الشخصية الكاريزمية دانتي غابرييل روزيتي، والمعماري فيليب ويب.

أقام الشركاء مصنعًا لورق الجدران والكراسي والستائر والطاولات. وكانوا في غاية الاعتزاز بأناقة تصاميمهم وبجودة «المُعلّمية الحرَفية» المتجلّية في منتجاتهم كلّها. كانوا مؤمنين بأن على المصانع أن تكون أماكن جذابة؛ وكانوا حريصين على أن يأتي الزبائن -وغيرهم أيضًا للقيام بجولة لديهم حتى يروا بأنفسهم البيئة الصحية البهيجة التي يتم فيها إنتاج تلك السلع.

إلّا أن الشركة لم تلبث أن واجهت مشكلة فيها دروس وعبر كثيرة: إذا صنَّعتَ سلعًا عالية الجودة، ودفعت لعمالك أجورًا عادلة لائقة بعملهم، فإن تكلفة المنتج سوف تزداد. وسوف يكون من الممكن دائمًا أن يخفّض المنافسون الثمن من خلال طرحهم سلعًا أدنى جودة ينتجونها بطرق أقل إنسانية، ويدفعون لقاءها مالًا أقل.

إذا طلبتَ سعرًا مرتفعًا نسبيًا -حتى تضمن كرامة العمل وجودة المواد، وتصنع أشياء تدوم زمنًا طويلًا فإنك تغامر بخسارة زبائنك.

لقد دشّنت المصانع والآلات التي ظهرت في الثورة الصناعية مرحلة الإنتاج بالجملة. انخفضت الأسعار، لكن الجودة تناقصت، وظهر العمل الروتيني المتكرّر،

وسادت ظروف كئيبة قاتلة. قد يبدو انتصار السعر المنخفض أمرًا لا سبيل إلى تفاديه. من المؤكد أن منطق الاقتصاد يُملي فوز السعر الأدنى. أليس الأمر كذلك؟

نتيجة هذا، كان العامل الحاسم في نظر موريس أنه ينبغي أن يكون الزبائن مستعدين لدفع سعر عادل. إذا كانوا مستعدين لذلك، فسوف يلقى العمل التقدير. وإذا لم يكونوا مستعدين، فسوف يكون العمل -بالضرورة، وعلى وجه الإجمال- بائسًا ومهينًا.

خلص موريس إلى أن حجر الأساس في الاقتصاد الجيّد هو تثقيف الزبون. نحن في حاجة جميعًا إلى أن يصير لدينا وضوح أكبر في شأن ما نريده حقًا في حياتنا، وفي شأن السبب الذي يجعلنا نريده، وكذلك في شأن الكمية اللازمة لنا من هذا الشيء أو ذاك (أي كمية الأشياء التي نحن مستعدون لدفع ثمنها).

أصر موريس على أن الدليل المهم إلى الاستهلاك الجيد، أو السليم، هو أن عليك «ألّا تمتلك في بيتك شيئًا لا تعلم له نفعًا، أو لا تجد فيه جمالًا». هذه نقطة حاسمة الأهمية. وهي فكرة ليس فيها أي نوع من الشجب أو الإنكار، ولا هي دعوة إلى نوع من الزهد الكئيب. لا يحاول موريس أن يجعل أي شخص يشعر بالذنب أو بالعار.

بدلًا من السعي إلى الحصول على كميات كبيرة من السلع والخدمات التي يكون استخدامها، أو سحرها، أمرًا سريع الزوال، يتمنّى موريس أن يعتبر الناس مشترياتهم استثمارًا، فلا يشترون إلّا على نحو حصيف. كان يفضل أن يدفع أحدهم ألف باوند في مجموعة أطباق طعام متقنة يدوية الصنع يمكن أن تعيش عشرات السنين وأن تصير ميراثًا عائليًا، بدلًا من أن يشتري كل جيل مجموعته الخاصة به التي لا يلبث أن يرميها بعد أن تصير عتيقة الطراز. بهذه الطريقة، يصير الناس قادرين على الاعتزاز بما اشتروه من أشياء، وعلى الاستمتاع الحقيقي بها. إن في شراء شيء تعرف أنه سيدوم، وأن من الممكن انتقاله إلى الأجيال التالية، إحساسًا حقيقيًا بالرضا والاعتزاز.

في ما يخص موريس نفسه، لم تسِرْ الأعمال سيرًا حسنًا تمامًا على النحو الذي أراده. كان هناك طلب غير قليل من جانب زبائن موسرين. وظلت مجموعات قطع الأثاث وورق الجدران والمنسوجات والمصابيح التي ينتجها مستمرة سنين كثيرة. لكنه لم يفلح في النفاذ إلى الأسواق الكبيرة الواسعة التي أراد النفاذ إليها. لم تكن غايته أن يطرح في السوق مزيدًا من السلع الأنيقة الفاخرة من أجل الأغنياء. وذلك أن الهدف الكبير كان إدخال مواد متينة، حسنة التصميم والإنتاج إلى دائرة الاستهلاك الجماهيري. لقد أراد موريس تغيير تجارب الناس العاديين -لا النخبة- في ميدان الشراء.

كان من آخر إبداعاته قصة طوباوية اسمها «أنباء من لا مكان». وفي هذه القصّة،

يتخيّل كيف يمكن أن ينشأ مجتمع مثالي ويتطوّر. لقد تعلم من الماركسية الكثير: هذا مجتمع فيه روابط اجتماعية كثيرة، ولا تسوده دوافع الربح؛ لكنه يولي جمال الحياة عناية واهتمامًا مماثلَيْن: الغابات الواسعة، والمباني الجميلة، وأنواع الملابس التي يستخدمها الناس، وجودة الأثاث، وسحر الحدائق.

تدهورت صحّة موريس بعد أن تجاوز الستين. ذهب سنة 1896 إلى النرويج في رحلة علاجية. لكن زيارة الفيوردات لم تنفعه فمات نتيجة مضاعفات داء السل بعد أسابيع معدودة من عودته من تلك الرحلة.

يلفت موريس انتباهنا إلى جملة اختبارات ذات أهمية مركزية ينبغي أن يكون الاقتصاد الجيّد قادرًا على اجتيازها.

- ما مقدار استمتاع الناس بالعمل؟
- هل يعيش كل إنسان على مقربة من الغابات والمروج بحيث يستطيع الذهاب إليها سيرًا على الأقدام؟
- هل الطعام الذي يتناوله الناس عادةً طعامًا صحيًّا؟
- كم يُتوقع للسلع الاستهلاكية أن تعيش؟
- هل المدن جميلة (المدن بشكل عام، لا أجزاؤها التي يعيش فيها أصحاب الامتيازات)؟

من الممكن (بسهولة خطيرة) أن يبدو الاقتصاد كأنه مُدار من قبل قوانين معقّدة ومجرّدة لا همَّ لها غير التدفّقات المالية ووفرة النقود. لكن موريس رأى أن الاقتصاد على صلة وثيقة جدًّا بتفضيلاتنا واختياراتنا. ورأى أن ما نختاره ونفضّله قابل للتغيير. قد لا يكون ضروريًا جعل المصانع والمصارف والشركات كلّها ملكية عامة (كما رأى ماركس). وقد لا يكون ضروريًا تقليل تأثير الحكومة على الأسواق (كما يزعم ويلتون فريدمان وغيره). يبين لنا موريس أن المهمّة الحقيقية المتمثّلة في خلق اقتصاد جيد أقرب كثيرًا إلى ما نقرره نحن في بيوتنا.

جون راولز

(John Rawls)

2002 - 1921



يشعر كثيرون منا بأن مجتمعاتنا «غير عادلة» بعض الشيء - بل حتى يمكن أن نراها غير عادلة أبدًا. لكننا نجد صعوبة في شرح إحساسنا بالظلم من السلطات القائمة بطريقة تبدو منطقية، خالية من المرارة والمنطلق الشخصي.

هذا ما يجعلنا في حاجة إلى جونز راولز، الفيلسوف الأمريكي من القرن العشرين الذي يقدم إلينا نموذجًا مجرّبًا من أجل تحديد ما قد يكون أمرًا غير عادل حقًا؛ وكذلك كيف يمكن أن نحشد القوى من أجل وضع الأمور في نصابها.

ولد راولز سنة 1921 في مدينة بالتيمور في ولاية ميريلاند الأمريكية؛ وكانوا يدعونه «جاك». كان له احتكاك بمظالم العالم الحديث منذ نعومة أظافره، وكان له ردٌّ عليها. لقد عرف في طفولته مناطق شديدة الحرمان في ولاية ماين حيث كان كثير من مواطنيه الأميركيين محرومين من الفرص حرمانًا شديدًا؛ وحظي بالمساندة والرعاية اللتين وفّرهما له أبوه المحامي المُحب وأمه الناشطة الاجتماعية. عرف راولز أيضًا شدة المعاناة عندما مات شقيقاه نتيجة عدوى نقلها إليهما من غير قصد منه. وكأن هذا كلّه لم يكن كافيًا، لأنه لم يلبث أن رأى أهوال الحرب العالمية الثانية وما شهدته من انفلات خلال مراحلها الأخيرة في أوروبا. دفعه هذا كلّه إلى خوض غمار العالم الأكاديمي واضعًا نصب عينيه مهمّة شديدة البعد عن أن تكون مهمّة عادية: أراد أن يستخدم قوّة الأفكار من أجل تغيير العالم الظالم الذي عاش فيه.

صار راولز أكاديميًا لامعًا في هارفرد وكورنيل، ووجد نفسه مشدودًا إلى فلاسفة زمانه الأكثر دنيوية من أمثال آيزيا برلين، وهـ. أ. ل. هارت، وستيوارت هامبشاير: كانوا كلّهم يرمون إلى تغيير العالم من خلال أعمالهم الفلسفية؛ وقد صاروا جميعًا أصدقاء له. ثم حظي اسم راولز بالشهرة التي يستحقّها عند صدور كتابه «نظرية في العدالة» في سنة 1971 - إنه الكتاب الذي يجعلنا الآن مستمرين في احترام أفكاره. قرأ الرئيس بيل كلينتون كتابه، وناقشه مناقشة موسعة، ووصف راولز بأنه «أعظم فيلسوف سياسي في القرن العشرين» - دعاه مرات كثيرة إلى تناول العشاء في البيت الأبيض.

على أن النجاح ما كان ذا أثر مفسد على شخصية راولز. لقد كان شخصًا لطيفًا، متواضعًا، يهتم اهتمامًا جادًّا بما يقلق الآخرين ويشغل بالهم على المستويين السياسي والشخصي. وقد كان مشاركًا في العمل الاجتماعي مع الأطفال والشباب المحليين في

مدينة بوسطن حيث عاش. كما تولى رعاية المصالح المالية لأطفال واحد من زملائه مات قبل أن يتقدّم به العمر. كان رجلًا ذا طبع رفيع التهذيب؛ ففي واحدة من جلسات الدكتوراه، وقف راولز الكهل في الشمس لكي يحجب أشعتها المباشرة عن طالبته المتوتّرة بغية السماح لها بالتركيز على الدفاع عن أطروحتها.

فما الذي يريد هذا الرجل الذي كان نموذجًا مثاليًا قولَه للعالم الحديث؟

1 ـ الأمور كما هي الآن غير عادلة على الإطلاق.

تشير الإحصائيات كلّها إلى وجود نقص عدالة شديد في المجتمع. وتقودنا المخططات البيانية المقارِنة لتوقّعات أمد الحياة والدخل إلى عبرة عظيمة واحدة. إلّا أن التعامل الجدّي مع قِلة العدالة هذه في حياتنا اليومية من الممكن أن يكون أمرًا صعبًا، وذلك في ما يتعلق بحياتنا خاصة.

هذا لأن هناك أصواتًا كثيرة جدًا تقول لنا: إننا قادرون على النجاح إن كنا مجدّين في العمل، وإن كنا طموحين. كان راولز مدركًا كيف تسرب «الحلم الأمريكي» وتفشّى في النظام السياسي وفي الأفراد. وكان مدركًا أثره المؤذي الأكّال. من المؤكد أن هناك أشخاصًا كثيرين ممن تنطبق عليهم تلك الحكاية: رؤساء كانوا لا شيء، وروّاد أعمال كانوا يتامى معدمين... تحتفل وسائل الإعلام بهؤلاء الأشخاص وتشيد بهم مسرورة. إذًا، كيف لنا أن نندب حظنا عندما نرى كيف استطاع أولئك الناس الوصول إلى الذروة؟

لم يقبل راولز هذه الصورة أبدًا. صحيح أنه كان على علم بقصص النجاح الاستثنائية، لكنه كان يعرف من الناحية الإحصائية، أن نسبة قصص الثراء بعد الفقر كانت قليلة إلى حد أنها لا تستحق أن يلتفت إليها أصحاب النظريات السياسية. بل إن مواصلة الحديث عن تلك القصص ليس إلّا خدعة سياسية ذكية مصمَّمة لإعفاء الأقوياء من الاضطلاع بالمهمة الضرورية، مهمة إصلاح المجتمع.

فكما يذكّرنا راولز بكل قوة - في الولايات المتحدة الحديثة، وأيضًا في أجزاء كثيرة من أوروبا: إذا ولدت فقيرًا، فإن فرصة بقائك فقيرًا (وفرصة موتك المبكر أيضًا) تكون كبيرة جدًا؛ ويكون عكس ذلك أمرًا قليل الاحتمال جدًا.

لكن... ما الذي نستطيع فعله إزاء هذا؟ لقد كان راولز حذرًا في هذا الأمر. كان مدركًا أن المناقشات التي تتناول ضعف العدالة وما يمكن فعله في هذا الشأن غالبًا ما تغرق في تفاصيل غامضة وكثيرًا ما تنتهي بمشاجرات تافهة. وهذا ما يعني أن السنين تمضي، سنة بعد أخرى، ولا يتم فعل أي شيء.

بحث راولز عن طريقة بسيطة، قوية، قليلة التكلفة، لجعل الناس يرون كيف أن

مجتمعاتهم غير عادلة، ولجعلهم يفكرون في ما يستطيعون فعله إزاء هذه الحقيقة - وذلك بطرق تتجاوز المجادلات وتمس قلوب الناس وعقولهم (هذا لإدراكه أن للعواطف دورًا كبيرًا في السياسة).

2 ـ تخيل أنك لست أنت

إن قسمًا لا يستهان به من سبب عدم تحوّل المجتمعات إلى مجتمعات أكثر عدلًا كامن في أن المستفيدين من ضعف العدالة الراهن ليسوا في حاجة إلى إرهاق عقولهم في التفكير في ما قد تكون عليه الحال لو أنهم وُلدوا في ظل شروط مختلفة. إنهم يقاومون التغيير انطلاقًا من انحياز قَبليّ وأفكار مسبقة متأصلة فيهم... نتيجة عجز مخيلاتهم.

فهم راولز بحدسه أن عليه أولًا أن يكتسب أولئك الناس إلى صفه... وذلك بأن ينجح في إيقاظ المخيلة لديهم وفي الاستفادة من حسّهم الأخلاقي الدفين.

وهكذا ابتكر أعظم تجربة عقلية عرفها التاريخ في ميدان الفكر السياسي، تجربة تستحق اعتبارها صنوًا لأعمال توماس هوبز، وجان جاك روسّو، وإيمانويل كانت.

اسم هذه التجربة «حجاب الجهل». يطلب منا راولز تخيّل أنفسنا في حالة واعية، ذكية، قبل مولدنا، لكن من غير أية معرفة بما ستكون عليه الظروف التي سنولد فيها: «مستقبلنا مختفٍ خلف حجاب الجهل». عندما «نقف عاليًا فوق هذا الكوكب كله»، نكون غير عارفين أيّ والدَين سيكونان لدينا، وأيّ جيران سيكونون من حولنا، وكيف ستكون مدارسنا، وما الذي يستطيع المستشفى المحلي فعله من أجلنا، وكيف سيعاملنا النظام القضائي أو الشرطة، وهكذا دواليك.

لا يطلب منا راولز غير أن نتأمّل ونفكّر في سؤال واحد: إن كنا لا نعرف شيئًا عن المكان الذي سنكون فيه، فما هو المجتمع الذي نشعر بأن دخولنا إليه سيكون آمنًا؟ ما النظام السياسي الذي سيكون الانتماء إليه أمرًا منطقيًا وسليمًا في نظرنا. إنه يطلب منا قبول التحدي الذي يفرضه علينا حجاب الجهل.

حسنًا... بالتأكيد، لن نختار الولايات المتحدة الأميركية. من المؤكّد أن في الولايات المتحدة كثرة كبيرة من «الأوضاع» الاجتماعية - الاقتصادية التي يسعدنا كثيرًا أن نولد في ظلها. هناك مناطق واسعة جدًا في البلاد تتمتّع بمدارس جيدة، وبيئة آمنة، وفرص كبيرة لدخول الجامعات، وفرص للالتحاق السريع بوظائف مرموقة، وعدد من النوادي الريفية الفاخرة... ولكن، لا يحظى أكثر من ثلاثين بالمئة من تلك البلاد الواسعة الجميلة بهذه الفرص والمزايا. إذًا، لا عجب في أن النظام لا يتغير. بكل بساطة، هناك عدد كبير من الناس -ملايين الأشخاص- ممن يستفيدون منه.

لكن تجربة «حجاب الجهل» تصير مفيدة هنا: إنها تجعلنا نكفّ عن التفكير في أولئك الذين كان أداؤهم جيدًا، وتلفت انتباهنا إلى المخاطر الكبيرة، خلف حجاب الجهل، التي يشتمل عليها دخول المجتمع الأميركي «كأن المرء يدخله عن طريق اليانصيب» - فالمرء لا يعرف إن كان سينتهي به الأمر بأن يكون ابنًا لطبيب تقويم أسنان في سكوتسديل في ولاية أريزونا، أو ابنًا لأم سوداء وحيدة في الأحياء البائسة شرق مدينة ديترويت. فهل سيكون أي شخص عاقل يلعب «يانصيب المولد» هذا راغبًا في المقامرة بأن ينتهي به الأمر إلى أن يكون جزءًا من سبعين بالمئة من السكان الذين يحصلون على رعاية طبية منقوصة، وإسكانٍ غير كافٍ، وفرصٍ قليلة في النفاذ إلى مؤسسات قانونية جيدة، فضلًا عن النظام التعليمي الرديء؟ ألن يُصرّ ذلك المقامر العاقل على ضرورة تغيير قواعد اللعبة كلّها من أجل زيادة فرص حصول أي لاعب منفرد على نتائج مقبولة؟

3 - عليك تصحيح ما تعرفه

يقدّم لنا راولز إجابته عن السؤال الذي يطرحه: سوف يكون أي مشارك عاقل في تجربة «حجاب الجهل» راغبًا في مجتمع يوفّر عددًا من الأمور: سوف يرغب في أن تكون المدارس جيّدة جدًا (بما فيها المدارس العامة)، وفي أن تعمل المستشفيات على نحو ممتاز (المستشفيات كلها، حتى المجانية منها)، وفي أن تكون الاستفادة العامة من المؤسسات القانونية عادلة لا شائبة فيها. وسوف يكون راغبًا في توفّر سكن لائق للجميع.

إن حجاب الجهل يرغم المراقبين على الإقرار بأن البلد الذي يرغبون حقًا في أن يولدوا فيه ولادة عشوائية شبيهًا بسويسرا، أو بالدانمارك -المقصود بهذا أن يكون بلدًا يوفر شروطًا جيدة أينما ولد المرء -، بلدًا فيه مدارس ومستشفيات ونظام نقل ونظام سياسي، وتكون مقبولة كلها وعادلة بالنسبة إلى كل فرد، سواء كان في القمّة أو القاع. بكلمات أخرى، أنت تعرف نوع المجتمع الذي تريد أن تعيش فيه، لكنك لم تفكّر مليًا في الأمر قبل الآن.

تسمح لنا تجربة راولز بأن نفكّر في السؤال التالي تفكيرًا موضوعيًا: كيف تكون تفاصيل المجتمع العادل؟ فعند التعامل مع قرارات كبرى في ما يخص توزيع الموارد، ليس علينا -حتى نتجاوز انحيازنا وأفكارنا المسبقة- إلّا أن نطرح على أنفسنا سؤالًا: كيف يكون شعوري تجاه هذا الأمر إذا وقفتُ خلف «حجاب الجهل»؟

تنبثق الإجابة المنصفة على الفور عندما نتأمل في ما نريده حتى نظل في حالة مقبولة، حتى إذا وجدنا أنفسنا في «السيناريو الأسوأ».

4 ـ ما علينا فعله بعد هذا

تتوقّف أمور كثيرة على ما تجده خاطئًا في مجتمعك. وبهذا المعنى، كان راولز شخصًا غير عقائدي - هذا أمر مفيد جدًا أدرك راولز أن «تجربة حجاب الجهل» يمكن أن تطرح مشكلات مختلفة ضمن السياقات المختلفة. في بعض الحالات، قد تحتل معالجة تلوث الهواء موقع الصدارة، وفي مواقع أخرى يمكن أن يحتله إصلاح النظام التعليمي.

عندما تناول راولز الولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين، استطاع أن يرى عددًا من الأمور الواضحة التي ينبغي فعلها: ينبغي أن يتحسّن التعليم تحسّنًا جذريًا؛ وينبغي أن يتمتع الفقراء والأثرياء بفرص متساوية للترشّح في الانتخابات؛ وينبغي جعل نظام الرعاية الصحية جيدًا في كل مستوياته.

يزوّدنا راولز بأداة لنقد مجتمعاتنا الحالية اعتمادًا على تجربة تتّصف بالجمال والبساطة. وسنعرف آخر الأمر أننا استطعنا جعل مجتمعاتنا عادلة عندما نجرؤ على القول -بصدق تام، ومن موقع جهلنا المُتخيّل قبل ولادتنا- إننا غير معترضين أبدًا على أية ظروف قد يكون فيها أهلنا في المستقبل، وعلى أي حيّ من الممكن أن نولد فيه. وأما حقيقة أننا لا نستطيع الآن - إن كنا عاقلين - أن نقبل مُخاطرة هذا التحدي، فهي مؤشر واضح على أن الأمور لا تزال غير عادلة أبدًا... حقيقة تجعلنا ندرك مقدار ما لا يزال علينا إنجازه.

الفلسفة المشرقية

بوذا

(Buddha)

563 ق.م. - 483 ق.م.



إن سيرة بوذا قصةٌ عن مواجهة المعاناة، كما هي البوذية كلّها. لقد ولد بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد؛ وكان ابن ملك ثري في نيبال على سفوح جبال همالايا. كان اسم بوذا الصغير سيدهارتا غوتاما؛ وقد تنبأوا له بأنه سيصير إمبراطورًا على الهند أو رجلًا تقيًا شديد الورع. ولما كان أبوه شديد الرغبة في الاحتمال الأول، فقد أبقى طفله معزولًا في القصر، ووفر له كل رفاهية ممكنة: الجواهر والخدم وبُركٌ فيها أزهار اللوتس، بل حتى نساء جميلات ترقصن له.

عاش غوتاما في هذا النعيم تسعة وعشرين عامًا ظل خلالها محميًا حتى من أبسط مشكلات العالم الذي في الخارج: «ظِلّة بيضاء كانت فوق سريري طيلة الليل والنهار حتى تقيني البرد والحر والأوساخ والندى». ثم صار في الثلاثين من عمره، فخرج من القصر في رحلات قصيرة. أدهشه ما رآه: رأى في أول رحلة رجلًا مريضًا، ثم رجلًا عجوزًا، ثم رجلًا محتضرًا. دُهش عندما اكتشف أن الحالات التي رآها لدى أولئك الأشخاص عاثري الحظ تمثل أجزاء عادية -بل أجزاء لا يمكن تجنّبها- من الشرط البشري الذي سيمسّه، هو أيضًا، في يوم من الأيام. أفزعه هذا وسحره، فانطلق في رحلة رابعة خارج جدران القصر صادف فيها رجلًا تقيًا تعلّم أن يلتمس الحياة الروحية في خضمِّ المعاناة البشرية. صمم غوتاما على العثور على تلك الاستنارة نفسها، فترك زوجته وابنه نائمَيْن وسار خارجًا من القصر، ولم يعد.

حاول غوتاما أن يتعلّم من رجال تقاة آخرين. جوّع نفسه حتى كاد يموت، وابتعد عن الراحة الجسدية والمباهج كلّها مثلما رآهم يفعلون. قد لا يكون مفاجئًا أن هذا كلّه لم يفلح في مواساة شيء من معاناته. ثم تذكّر لحظة مرّت به عندما كان ولدًا صغيرًا: كان جالسًا عند النهر فلاحظ أن الحشرات وبيوضها تُسحق وتموت عند جزّ العشب. عندما رأى هذا، شعر بالعطف على تلك الحشرات الصغيرة.

فكر غوتاما في ذلك العطف الذي أحسّه في طفولته، فأتاه إحساس عميق بالسلام. أكل، وجلس يتأمّل تحت شجرة تين، ثم بلغ آخر الأمر أعلى درجات الاستنارة، «نيرفانا» nirvana التي تعني «اليقظة». لقد صار بوذا، أي «المستيقظ».

ظهر بوذا من خلال إدراك أن المعاناة توحّد الخلائق كلها، من النملات التي تسير مضطربة إلى الكائنات البشرية الفانية. بعد أن أدرك هذا، اكتشف الطريقة المثلى لتناول المعاناة. أولًا،

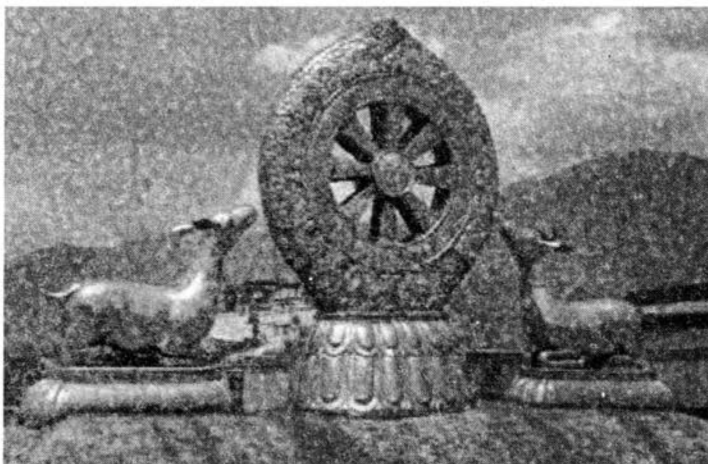
على المرء ألّا يغرق في الرفاهية، وألّا يحرم نفسه حرمانًا تامًّا من الطعام وأسباب الراحة. بدلًا من ذلك، عليه أن يعيش عيشة معتدلة، (دعاها بوذا بـ«السبيل الوسطى»). يسمح هذا بالتركيز على رعاية عطفنا على الآخرين، وعلى التماس الاستنارة. بعد ذلك، وصف بوذا سبيل التعالي على المعاناة، ووضع له اسمًا «الحقائق السامية الأربع».

الحقيقة السامية الأولى هي ذلك الإدراك الذي جعل بوذا ينطلق في رحلته: إن في العالم معاناة وعدم رضا دائمين – «الحياة صعبة، وجيزة، تكتنفها المعاناة من كل جهاتها». الحقيقة السامية الثانية هي أن هذه المعاناة ناتجة عن رغائبنا؛ ومن هنا، فإن التعلُّق هو «جذر المعاناة كلّها». الحقيقة الثالثة هي أننا قادرون على التعالي على معاناتنا عن طريق إزالة كل تعلّق لدينا، أو عن طريق التحكم به. بهذا، يطرح بوذا فكرة بالغة الأهمية مفادها أن علينا أن نغيّر نظرتنا لا ظروفنا. نحن غير سعداء لأننا لم نحصل على زيادة في الراتب، أو على حبيب، أو على عددٍ كافٍ من الأتباع. لكن سبب حزننا هو أننا جشعون، أو مظلمو القلوب، أو مفتقرون إلى الإحساس بالأمان. إذا أعدنا توجيه عقولنا، فنحن قادرون على أن نصير راضين.

الحقيقة الرابعة التي قدّمها بوذا هي أننا قادرون على التعلّم لكي نتجاوز معاناتنا، وذلك من خلال ما أطلق عليه «الممر المثمّن». يشتمل الممر المثمن على سلسلة من أوجه السلوك «الصحيح»، الحكيم. النظرة الصحيحة، والنية الصحيحة، والكلام الصحيح، والفعل الصحيح، والأسرة الصحيحة، والجهد الصحيح، والانتباه الصحيح، والتركيز الصحيح. إن ما يفاجئ المراقب الغربي هنا هو أن فكرة الحكمة عادةٌ نعتادُها، لا مجرّد إدراك عقلي. إن على المرء أن يُدرّبَ دوافعه السامية. فالإدراك الصحيح ليس إلّا جزءًا من أن يصير المرء شخصًا أفضل.

بحثًا عن هذه الأنماط الصحيحة من السلوك والوعي، علّم بوذا الناس أنهم قادرون على التعالي فوق كثير من فردانيتهم السلبية -كبرياؤهم، وقلقهم، ورغائبهم التي تجعلهم حزانى- وسوف يكسبون في المقابل عطفًا على الكائنات الحيّة الأخرى كلّها لأنها تعاني مثلهم. فمن خلال السلوك الصحيح وما نسميه الآن «موقفًا منتبهًا واعيًا»، يصير الناس قادرين على تغيير مشاعرهم وحالاتهم الذهنية السلبية، وعلى قلب الجهلِ حكمةً، والغضب عطفًا، والجشع كرَمًا.

كانت لبوذا أَسفار بعيدة في مناطق شمال الهند وجنوب نيبال؛ وكان يعلّم التأمّل والسلوك الأخلاقي. لم يتكلّم عن الإله، ولا عن الحياة بعد الموت، إلّا قليلًا جدًا. بدلًا من ذلك، كان يقول إن حالة العيش أقدس المسائل كلّها.



استدعاء الفن لخدمة الفلسفة: عجلة جميلة التكوين لها ثماني دعائم نصف قطرية تستخدم عادة رمزًا للبوذية. وتمثّل الدعائم الثماني «الممر المثمّن".

وبعد موت بوذا، جمع أتباعه تعاليمه وأقواله «سوترا» في كتاب أضافوا إليه نصوصًا لإرشاد المريدين إلى التأمل والأخلاق والعيش عيشة «منتبهة». ثم تطوّرت وتكاثرت الأديرة التي نشأت خلال حياة بوذا وانتشرت في الصين وشرق آسيا. ظلت البوذية، بعض الوقت، قليلة الانتشار في الهند نفسها؛ ولم يكن في أرجائها إلّا بعض الجماعات الهادئة من رهبان وراهبات يرتدون ملابس صفراء اللون، يتأمّلون بهدوء وسط الطبيعة. ثم أتى القرن الثالث قبل الميلاد، فتحوّل الملك الهندي أشوكا إلى البوذية بعد أن أصابته الحروب التي خاضها بالاضطراب وقضّت مضجَعه. أرسل رهبانًا وراهبات إلى أماكن بعيدة بغية نشر البوذية.

انتشر التقليد البوذي في آسيا، ثم انتشر في العالم كلّه. انقسم متّبعو بوذا إلى مدرستين كبيرتين: بوذية ثيرافادا التي استقرت في جنوب شرقي آسيا، وبوذية ماهايانا التي سادت في الهند وشمال شرقي آسيا. تُشكّك كلٌّ من المجموعتين أحيانًا بالنصوص المقدّسة التي عند المجموعة الأخرى، وتفضّل عليها نصوصها؛ لكنهما تسيران على المبادئ الرئيسية نفسها التي تناقلتاها عبر ألفي سنة. وفي يومنا هذا، نجد في العالم ما يتراوح من نصف مليار إلى مليار ونصف المليار من البوذيين الذين يتّبعون تعاليم بوذا ويرومون حالة ذهنية أكثر استنارة وعطفًا.

ومما يثير الاهتمام والعجب أن تعاليم بوذا تظلّ مهمّة بصرف النظر عن هويتنا الدينية. فعلى غرار بوذا، يولد كل واحد منا في العالم غير مدرك مقدار ما فيه من معاناة

وغير قادر على أن يستوعب فكرة أن الحظ العاثر والمرض والموت سوف يصيبه أيضًا. ومع تقدّمنا في السن، تصير هذه الحقيقة طاغية على أذهاننا أكثر الأحيان. وقد نحاول تجنّبها والفرار منها. لكن تعاليم بوذا تذكّرنا بأهمية مواجهة المعاناة مواجهة مباشرة. علينا أن نفعل كل ما نستطيع فعله لكي نحرّر أنفسنا من طغيان رغائبنا وأن نرى في المعاناة رابطة تجمعنا بالآخرين فتوقظ فينا رقةً وعطفًا.

لاو تزو

(Lao Tzu)

القرن السادس/الخامس ق.م. - القرن الخامس/الرابع ق.م.



قليلة هي الأشياء المعروفة عن الفيلسوف الصيني لاو تزو (يدعى أحيانًا لاوزي، أو لاوتزي) الذي كان الشخصية الأهم في الداوّية (تكتب أيضًا «الطاوية») التي لا تزال نهجًا روحيًا شائعًا. ويقال إنه كان كاتبًا في بلاط مملكة أسرة زهاو في الصين الوسطى في القرن السادس قبل الميلاد، وإنه كان معاصرًا لكونفوشيوس، لكنه أكبر منه سنًا. من الممكن أن يكون هذا صحيحًا، لكن من الممكن أن يكون أسطورة... تمامًا مثل شخصية هوميروس في الثقافة الأوروبية. لكن من المؤكّد أنه من المستبعد كثيرًا أن تكون أمه قد حملت به (كما جاء في بعض الأساطير) عندما رأت شهابًا، أو أنه ولد كبير السن، وكانت شحمتا أذنيه طويلتين... أو أنه عاش تسعمئة وتسعين سنة.

يقال إن لاو تزو ملّ الحياة في بلاط زهاو الذي كان يزداد فسادًا من الناحية الأخلاقية. ترك البلاط، وامتطى ظهر جاموس قاصدًا الحدود الغربية لبلاد الصين. سافر مرتديًا ملابس الفلاحين، لكن حرس الحدود عرفوه وطلبوا منه تدوين حكمته. وفقًا لما تقوله هذه الأسطورة، صار ما كتبه لاو تزو نصًّا مقدّسًا حمل اسم «تاو تي تشينغ». ويقال إن لاو تزو اجتاز الحدود بعد فراغه من الكتابة، ثم اختفى من التاريخ... لعله صار ناسكًا. أما في الواقع، فمن المرجّح أن يكون «تاو تو تشينغ» تجميعًا لأعمال أشخاص كثيرين على امتداد الزمن. على أن القصص التي تناولها لاو تزو وكتاب «تاو تو تشينّغ» ظلت متناقلة عبر المدارس الفلسفية الصينية المختلفة منذ أكثر من ألفي سنة، وطرأ عليها قدر عجيب من التنميق والزخرف عبر هذا المسار كله.

لا يقلّ عدد أتباع الديانة الداويّة (الطاوية) اليوم عن عشرين مليونًا؛ وقد يبلغ نصف مليار. وهم متوزّعون في أنحاء العالم، في الصين وتايوان خاصة. إنهم يمارسون التأمّل، ويرتّلون نصوصهم المقدسة، ويعبدون جُملة أرباب وربّات في معابد يديرها كهنتهم. كما أن أتباع الداويّة يحجّون إلى خمسة جبال مقدّسة واقعة شرق الهند، فيصلّون في المعابد، ويستمدّون طاقة روحانية من تلك الأماكن المقدّسة التي يعتقدون أن «خالدين» يحكمونها.

والداوية متداخلة تداخلًا عميقًا مع فروع أخرى من الفكر، كالكونفوشيوسية والبوذية. يعتقد كثيرون بأن كونفوشيوس كان واحدًا من تلامذة لاو تزو. ويعتقد البعض بأن لاو تزو -عندما اختفى- ارتحل إلى الهند ونيبال حيث نشر تعاليمه، أو

صار «بوذا». ثم إن أتباع الكونفوشيوسية لا يزالون، إلى يومنا هذا، يحترمون لاو تزو ويعتبرونه فيلسوفًا. وهم يحاولون أيضًا اتباع كثير من تعاليمه.



بوذا وكونفوشيوس ولاو تزو عندما «تذوّقوا الخلّ"

هناك قصة عن القادة الروحيين الآسيويين الكبار الثلاثة (لاو تزو، وكونفوشيوس، وبوذا). وقد طُلب من أولئك الثلاثة تذوّق الخلّ. وجده كونفوشيوس حامضًا، تمامًا مثلما وجد العالم مليئًا بأشخاص منحلّين؛ ووجده بوذا مرًا، تمامًا مثلما وجد العالم مليئًا بالمعاناة. لكن لاو تزو وجد طعمه حلوًا. إن لهذا دلالته لأن نفس لاو تزو نزّاعة إلى رؤية التنافر الظاهر في العالم، واعتبار أن من تحته انسجامًا يقوده شيء اسمه «داو» («تاو»). إن «تاو تو تشينغ» شيء أشبه بالتوراة: إن فيه تعليمات (غامضة أحيانًا، وكثيرًا ما تكون قابلة لتفسيرات كثيرة) عن كيفية عيش حياة جيدة. إنه يناقش الـ«داو»، أو «طريق» العالم، الذي هو أيضًا دربٌ إلى الفضيلة والسعادة والتناغم. ليس الـ«داو» صعبًا بطبيعته، ولا محيّرًا. كتب لاو تزو قائلًا إن «الداو العظيم مستو وسهلٌ جدًا؛ لكن الناس يحبون السير في طرق فرعية». وفي نظر لاو تزو، ليست مشكلة الفضيلة كامنة في أنها صعبة أو غير متّفقة مع الطبيعة، بل هي مشكلة بسيطة متمثّلة في أننا نقاوم السبيل بالغ البساطة الذي يمكن أن يجعلنا راضين كثيرًا.

حتى نتّبع الداو، علينا أن نمضي إلى ما يتجاوز قراءته والتفكير فيه. علينا أن نتعلّم «وو وي» («الانسياب»، أو «الفعل اليسير») الذي هو نوع من القبول المُدرِك المتأنّي لسبيل الداو والعيش في انسجام معه. قد يبدو هذا أمرًا غريبًا بالغ السمو. لكن أكثر تعاليم لاو تزو شديدة البساطة، في حقيقة الأمر.

علينا أولًا أن نخصّص وقتًا أكبر للسكون. يقول لاو تزو: «ينقاد الكون كلّه للعقل الساكن». علينا أن نترك خططنا ومخاوفنا وأفكارنا المعقّدة، حينًا من الزمن، ونكتفي بأن نعيش العالم. فنحن ننفق وقتًا طويلًا جدًا في السير مندفعين من مكان إلى مكان آخر في الحياة. لكن لاو تزو يذكّرنا بأن «الطبيعة لا تتعجل، لكنها تنجز كل شيء». ومن المهم جدًا، تذكّر أن هناك أمورًا -كالحزن، واكتساب الحكمة، وبناء علاقة عاطفية جديدة- لا تحدث إلّا عندما تأخذ ما يلزمها من وقت، تمامًا مثل تبديل الأشجار أوراقها، أو ظهور البراعم على الأغصان.

عندما نكون ساكنين، صبورين، علينا أيضًا أن نكون منفتحين. يقول لاو تزو: «يأتي نفع الإناء من فراغه. أفرغْ نفسك من كل شيء. واترك عقلك يصير ساكنًا». إذا كنا في حالة انشغال شديد، أو كنا منشغلي الأذهان بالقلق أو بالطموح، فإننا نضيّع ألف لحظة من التجربة البشرية التي هي إرث طبيعي لنا. علينا أن نكون مستيقظين على رؤية كيف ينعكس الضوء على مويجات مترقرقة على سطح بركة، وعلى رؤية كيف تصير أشكال الناس عندما يضحكون، وعلى الإحساس بالريح عندما تعبث بشعرنا. إن هذه التجارب تعيد إلينا صلتنا بأجزاء من أنفسنا.

وهذه نقطة مركزية أخرى في كتابات لاو تزو: علينا أن نكون على اتصال بذواتنا الحقيقية. فنحن ننفق وقتًا كثيرًا جدًّا في تفكيرٍ قلِقٍ في من ينبغي أن نكونه، لكن علينا بدلًا من ذلك أن نمنح أنفسنا وقتًا لكي نكون كما نحن بالفعل، في قلوبنا. قد نكتشف في أنفسنا دافعًا كريمًا، أو جانبًا لعوبًا مرحًا نسينا أمره. كثيرًا ما تقف الـ«أنا» فينا معترضة سبيل ذاتنا الحقيقية التي ينبغي العثور عليها بأن نكون متقبّلين للعالم الخارجي بدلًا من تركيزنا على بعض الصور التي في داخلنا، صور انتقادية، مفرطة الطموح. كتب لاو تزو: «عندما أترك ما أنا، أصير ما قد أكونه».

ما أفضل كتاب فلسفي يستطيع المرء أن يبحث عنه؟ إنه ليس كتابًا في نظر لاو تزو (أو ليس مخطوطًا)، بل هو كتاب الطبيعة. إنه العالم الطبيعي، صخوره خاصةً، ومياهه، وحجارته، وأشجاره، وغيومه... تعطينا كلها دروسًا دائمة، بليغة، في الحكمة والسكينة - ليتنا نتذكّر فقط أن ننتبه أكثر قليلًا!

في عين لاو تزو، ينبع أكثر ما هو خاطئ بالنسبة إلينا من فشلنا في العيش «متّفقين مع الطبيعة». حسدنا، وغضبنا، وطموحنا المسعور، وإحساسنا الحانق بالاستحقاق، تنبع كلّها من فشلنا في العيش مثلما تنصحنا الطبيعة أن نعيش. وبطبيعة الحال، فإن للـ«طبيعة» أحوالًا كثيرة، ويستطيع المرء أن يرى فيها كل ما يحب رؤيته، تقريبًا، لأن هذا متوقّف على نظرته. وأما عندما يشير لاو تزو إلى الطبيعة، فهو يعني بعضًا من الأوجه شديدة التميز في العالم الطبيعي. إنه يركّز على جملة حالات يراها فيها، ويرى أن علينا الإكثار من تجسيدها في حياتنا لأن هذا يعيننا على الوصول إلى الصفاء والرضا.

كان لاو تزو يحبّ أن يقارن الفضائل المختلفة بأجزاء من الطبيعة. وقد قال: «أحسن الناس يشبهون الماء لأنه يفيد كل شيء ولا ينافس أحدًا. يظلّ في الأماكن الواطئة التي يرفضها غيره. وهذا ما يجعله شديد الشبه بالطريق («داو»). يمكن أن يذكّرنا كل جزء من أجزاء الطبيعة بخصيصة تنال إعجابنا ويتعيّن علينا أن نرعاها في نفوسنا. قوة الجبال، ومرونة الأشجار، وبهجة الأزهار.

تنصحنا الداويّة بالنظر إلى الأشجار على أنها أمثلة على القدرة الجليلة على الاحتمال. تعذّبها عناصر الطبيعة دائمًا، لكنها مزيج مثالي من المطاوَعة والمرونة؛ وهذا ما يجعلها تستجيب لما يصيبها من غير ما يعرفه البشر عادةً من تصلّب ونزوع دفاعي. هذا ما يجعلها تبقى وتزدهر على نحو لا نعرفه إلّا في أحوال نادرة. الأشجار صورة للصبر أيضًا لأنها تظلّ في أماكنها أيامًا وليالي طويلة من غير شكوى أو تذمّر فتكيّف أنفسها وفق تقلبات الفصول البطيئة - لا يسوء طبعها عند هبوب العواصف، ولا تروم

ترك أماكنها والذهاب في رحلات طائشة. إنها راضية بأن تبقى أصابعها الدقيقة الكثيرة متغلغلة في أرض موحلة مبتعدة عن سوقها أمتارًا كثيرة، وأمتارًا أكثر إلى أعلى أوراقها التي تحمل ماء المطر في أكفّها.

الماء مصدر مفضّل آخر من مصادر الحكمة لدى الداويين، وذلك أن له مظهرًا رقيقًا ناعمًا، لكنه يصير شديد البأس إذا حظي بوقت كافٍ، فيفتّت الصخور ويعيد تشكيلها. وقد يصلح لنا أن نتبنّى بعضًا من صبره وتصميمه الهادئ عندما نتعامل مع بعض أفراد عائلاتنا، أو عندما تواجهنا سياسات مزعجة في مكان عملنا.

لقد قادت الفلسفة الداوية إلى نشوء مدرسة صينية في رسم الطبيعة لا تزال موضع إعجاب كبير في عصرنا لأنها توقظ فينا فضائل العالم الطبيعي.

قد يبدو غريبًا، على مستوى من المستويات، الزعم بأن طبائعنا يمكن أن ترتقي عندما نكون مع شلال، أو جبل، أو شجرة صنوبر، أو عشبة... فهي، في آخر المطاف، ليست أكثر من أشياء ليس لديها تفكير واعٍ. هذا ما يجعلها تبدو لنا غير قادرة على تشجيعنا، ولا على ضبط سلوكنا ومراقبته. وأما إذا عدنا إلى أهم ما في زعم لاو تزو بأن للطبيعة تأثيرات حميدة مفيدة، فإن لتلك الجمادات أثرٌ حقيقي على من هم من حولها. إن في مشاهد الطبيعة قدرة على الإيحاء لنا ببعض الفضائل -توحي لنا الجبال بالجلال والعظمة؛ وتوحي لنا أشجار الصنوبر بالثبات؛ وتوحي لنا الأزهار باللطف والرقة- وبطريقة هيّنةٍ لا نكاد نلحظها، يمكن أن تلهمنا الفضائل.

القول بأن تأمل الطبيعة منبع للصفاء والتبصّر فكرة معروفة جيدًا في النظرية، لكن إغفالها سهل لأننا نعتبرها أمرًا مفروغًا منه فلا نمنحها ما يلزمها من وقت وتفكير.

بل إن رؤوسنا غاصّة بأفكار وجمل كثيرة لا تفيدنا شيئًا: أشياء شقّت طريقها إلى مخيلاتنا وراحت تثير قلقنا ومخاوفنا وتجعل تلاؤمنا أكثر صعوبة علينا. هذه أمثلة عليها: «فلتكن لديك الجرأة على عيش أحلامك»، «لا تساوم أبدًا»، «قاتل إلى أن تفوز»...! من الممكن لهذه العبارات (في أحوال بعينها) أن تكون نوعًا من السمّ الذي تستطيع كلمات لاو تزو -تصحبها مشاهد الطبيعة- أن تكون ترياقًا شافيًا لها.

الطبيعة لا تستعجل
لكنها تنجز كل شيء.
الحياة سلسلة تغيرات تلقائية طبيعية
لا تقاوم تلك التغيرات.
فليس من شأن مقاومتها إلّا أن تأتيك بالحزن.

إن كلمات لاو تزو ترسم منهجًا. كلمات مسالمة، مُطَمئنة، لطيفة. وهذا إطار ذهني كثيرًا ما نجد صعوبة في البقاء عليه مع أنه قادر على أن يفيدنا في مهمات كثيرة في الحياة: جعل الأطفال يذهبون إلى المدرسة، والنظر إلى شعرنا وهو يشيب، وقبول أن منافسَنا يتمتّع بمواهب أعظم من مواهبنا، وإدراك أن زواج المرء لن يكون سهلًا على الدوام...

كن راضيًا بما لديك.

ابتهج بالأمور كما تجدها.

نخطئ إن فهمنا عبارات لاو تزو فهمًا حرفيًا. فأن تبتهج بالأمور كما تحدث (اصطدام سيارة، أو مسوَّدة أولى لم نحسن كتابتها، أو حكم ظالم بالحبس، أو طعنة وحشية...) سيكون أمرًا غبيًّا. لكن ما يقوله لنا مفيد جدًا في حالات بعينها: عندما تكون لطفلك نظرة إلى الحياة مختلفة عن نظرتك، لكن فيها بصيرة غير متوقّعة؛ وعندما لا يدعوك أحد إلى الخروج معه، لكنّك تحظى بفرصة البقاء في البيت وتفحّص أفكارك بغية تغييرها؛ وعندما تكون درّاجتك جيّدة جدًا، لكنها ليست مصنوعة من الألياف الكربونية.

نعلم أن الطبيعة مفيدة لأجسادنا. لكن لاو تزو يذكّرنا أيضًا بأنها مليئة بما يستحق بأن ندعوه حكمة فلسفية: دروس قادرة على ترك أثر في نفوسنا لأنها تصلنا عبر عيوننا وآذاننا، لا عبر عقولنا وحدها.

وبالطبع، هناك مسائل لا بد من التعامل معها عن طريق الفعل؛ وهناك أوقات لا بد فيها من الطموح. على أن عمل لاو تزو مهمّ بالنسبة إلى الداويين وغير الداويين على حد سواء. يصح هذا خاصّة في العالم الحديث الذي شوّشته التكنولوجيا وازداد تركيزه على ما يبدو على تغيرات متواصلة، مفاجئة، حادّة. تظل كلماته تذكرة لنا بأهمية السكون، والانفتاح، والتصالح مع قوى طبيعية التي لا مهرب منها.

كونفوشيوس

(Confucius)

551 ق.م. - 479 ق.م.



قليل جدًا ما نعرفه معرفة أكيدة عن حياة الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (هذا هو النطق الغربي لاسمه الذي يعني «المعلم كونغ») يقال إنه ولد في الصين نحو سنة 551 ق.م.؛ ولعلّه كان واحدًا من تلامذة المعلّم الداوي لاو تزو. تقول الروايات إنه بدأ عمله لدى الحكومة في سن الثانية والثلاثين، حيث شغل مناصب كثيرة من بينها «وزير الجريمة» في عهد الأمير دينغ، في مقاطعة لو. إلّا أن كونفوشيوس فقد عمله عند بلوغه السادسة والخمسين من عمره، وذلك مع سقوط حكم الأمير نتيجة إفراطاته. ترك كونفوشيوس البلاط وأمضى اثني عشر عامًا في ترحال مستمر.

قال كونفوشيوس عن نفسه إنه «ناقل لم يبتكر شيئًا من عنده»؛ وهذا لإيمانه بأنه كان يعلّم الناس السبيل الطبيعي إلى المسلك القويم الذي استمده من معلمين مقدَّسين أقدم عهدًا. وفي وقت من الأوقات -لعله كان القرن الثاني قبل الميلاد- جُمعت أعمال كونفوشيوس ضمن «المختارات» (Lunyu). كانت المختارات كتابًا ضم أقوال كونفوشيوس التي دوَّنها مريدوه. أقواله ليست تعليمات على الدوام، لأن كونفوشيوس لم يكن يحب فرض قواعد صارمة. ففي نظره، يكفي المرء أن يعيش عيشة فاضلة حتى يلهم الآخرين إلى الاقتداء به. ومن الأمثلة على هذا مقطعٌ قصير ورد في «المختارات»:

احترق الإسطبل عندما كان كونفوشيوس في البلاط. سأل عندما عاد: «هل أصيب أي إنسان؟». لم يسأل عن الجياد.

نستطيع عبر هذه الحكاية البسيطة المؤلّفة من ثلاث جمل أن نتأمّل في ما تشير إليه من قيمة للحياة البشرية تعلو قيمة الأشياء والجياد. وهي تجعلنا نتساءل إن كنا سنفعل الأمر نفسه.

إن من الأخلاقيات التي يعظ بها كونفوشيوس مبادئ نعرفها معرفة جيدة - أبرزها نسخته الخاصة من «القاعدة الذهبية» القائلة: «افعل للآخرين ما تريد أن يفعله الآخرون لك». إلّا أن لديه مبادئ أخلاقية أخرى تبدو للأذن الحديثة (الغربية خاصّة) شديدة الغرابة أو عتيقة الطراز. لكن هذا يجعلنا أشد احتياجًا إليها لأنها قادرة على أن تكون ترياقًا للمشكلات التي نواجهها الآن. وها هي بضعة أمثلة عمّا يساعدنا كونفوشيوس في تذكره.

1 ـ الطقوس مهمّة

إن «المختارات» كتاب طويل يبدو سيئ التنظيم ويضم حوادث قصيرة، فضلًا عن أحاديث غريبة بين كونفوشيوس وتلاميذه. ومن بينها هذا الحديث:

أراد تزي كونغ أن يمتنع عن تقديم خروف أضحية بمناسبة بدء اليوم الأول من كل شهر. لكن المعلّم قال: «تزي، أنت تحب الخروف؛ وأنا أحبّ الطقوس».

للوهلة الأولى، يبدو هذا محيِّرًا، إن لم يكن مضحكًا. لكن كونفوشيوس يذكّر تزو -ويذكّرنا أيضًا بأهمية الطقوس.

نحن في العالم الغربي ميالون إلى تجنّب الطقوس وقواعد السلوك واعتبار هذا التجنّب أمرًا حسنًا - نراه دليلًا على الألفة أو على البعد عن التظاهر والادعاء. يفضّل أكثرنا رفع التكلفة، ويحب كثيرًا أن يُقال له «تصرّف كأنك في بيتك» عندما يكون في زيارة صديق. لكن كونفوشيوس يصرّ على أهمية العادات والطقوس. والسبب الذي يجعله يحب الطقوس أكثر من الخروف هو اعتقاده بقيمة «لي»: قواعد السلوك، والتقاليد، والشعائر.

قد يبدو هذا أمرًا عتيقًا، ومحافظًا أيضًا، أول الأمر. لكن الحقيقة أن أكثرنا يتوق إلى طقوس وشعائر بعينها -الوجبة التي كانت أمّنا تعدّها لنا في مرضنا على سبيل المثال-، أو الخروج كل سنة للاحتفال بعيد ميلادنا، أو العهود التي تبادلناها عند زواجنا. ونحن ندرك أن هناك تصرّفات محدّدة، أو متعمّدة، أو مقصودة مسبقًا، تستطيع إثارة مشاعرنا إثارة عميقة. إن تلك الطقوس تجعل نوايانا واضحة وتساعدنا في فهم كيف ينبغي لنا أن نتصرّف. وقد كان من تعاليم كونفوشيوس أن الشخص الذي تجتمع فيه الطقوس (لي) والتعاطف (رِن) اجتماعًا صحيحًا يكون إنسانًا «رفيع المكانة»، إنسانًا فاضلًا ذا قوة أخلاقية.

2 ـ علينا أن نعامل والدَيْنا باحترام

كانت لدى كونفوشيوس أفكار شديدة الصرامة في ما يخص السلوك الواجب إزاء الوالدين. كان مؤمنًا بأن طاعتهما واجبة علينا عندما نكون صغار السن، وبأن رعايتهما واجبة علينا عندما يكبران، وبأن الحداد المديد بعد موتهما، وتقديم الأضاحي لإحياء ذكرهما بعد ذلك واجب علينا أيضًا. لقد قال: «قد يعترض الابن على شيء مما يقوله والداه أو يفعلانه عندما يخدمهما، لكن عليه أن يعترض اعتراضًا لطيفًا. وعندما يرى أنهما لم يقبلا نصيحته، عليه أن يبدي لهما قدرًا أكبر من الاحترام والتوقير، من غير أن يتخلّى عمّا أراده. وإذا عاقباه، فليس له أن ينبس ببنت شفة». بل قال أيضًا إن علينا ألّا نسافر إلى أماكن بعيدة في حياة أبوَينا، وإن علينا أن نتستّر على جرائمهما. هذا ما يسميه «برّ الوالدين» (*xiào*). يبدو هذا أمرًا غريبًا في العصر الحديث؛ فأكثرنا يترك بيت أبويه في سن المراهقة، ثم لا يزورهما إلّا في ما ندر. بل من الممكن أيضًا أن نعتبر أبوينا شخصين

غريبين ابتلانا بهما القدر اعتباطًا. والواقع أن الأبوين قد يكونان شخصين غريبين فيهما نواقص وعيوب بشرية تثير الشفقة؛ ويكونان أيضًا شخصين صعبين، متشدّدي الرأي... ولديهما أيضًا ذوق موسيقي رديء! مع هذا كله، كان كونفوشيوس مدركًا أن الحياة الأخلاقية تبدأ، من نواحٍ كثيرة، من الأسرة نفسها. لا يمكن أن نكون عطوفين، ولا حكماء، ولا معترفين بالفَضل، ولا أصحاب ضمير، إلّا إذا تذكرنا عيد ميلاد أمنا.

3 ـ علينا أن نطيع أصحاب المكانة

المجتمع الحديث شديد الميل إلى المساواة: يعلّمنا أننا ولدنا متساوين جميعًا، وبأن لكل منا فرادته الخاصّة، وبأنه ينبغي أن نكون في آخر المطاف قادرين على قول ما يعجبنا وفعل ما يعجبنا. نرفض الكثير من القواعد الصلبة، التراتبية. لكن كونفوشيوس يقول لمريديه: «دع الحاكم يكون حاكمًا، والتابع تابعًا، والأب أبًا، والابن ابنًا».

من الممكن أن يصدمنا هذا القول؛ لكن من المهم فعلًا إدراك أن هناك أشخاصًا يستحقّون احترامًا وتوقيرًا كبيرَين. علينا أن نتحلّى بالقدر الكافي من التواضع لكي نميّز الناس الذي لهم خبرات أو إنجازات تفوق خبراتنا وإنجازاتنا. علينا أيضًا ألّا نعترض على فعل ما يطلبه أولئك الأشخاص، أو يحتاجون إليه، أو يأمرون به. يشرح كونفوشيوس هذا بقوله: «العلاقة بين الصغار والكبار، كمثل العلاقة بين الريح والعشب. على العشب أن ينحني عندما تهب عليه الريح».

4 ـ قد يكون صقل المعرفة وتنميتها أكثر أهمية من الإبداع

تشدّد الثقافة الحديثة على الإبداع تشديدًا كبيرًا - أفكار فريدة تأتينا فجأة. إلّا أن كونفوشيوس كان مصرًّا على أهمية الحكمة العامة التي تأتي ثمرة سنين من العمل والتأمل الجادّين. لقد أدرج صفتي التعاطف (رِنْ) والتزام الشعائر الصحيحة (لِي) مع ثلاث فضائل أخرى: الإنصاف (يي) والمعرفة (جي) والاستقامة (خِن). وكان يُشار إلى هذه الخصائص كلّها باسم «الفضائل الثابتة الخمس». ومع أن كونفوشيوس كان مؤمنًا بأن الناس أخيار في جوهرهم، فقد رأى أيضًا أن من الواجب تنمية هذه الفضائل ورعايتها على الدوام مثلما نرعى نباتات مزروعة في الحديقة. كان يقول لمريديه:

> في الخامسة عشرة، كان ذهني متّجهًا إلى التعلم. وفي الثلاثين، صرت قويًا. وفي الأربعين، لم تعد لدي أية شكوك. وفي الخمسين، صرت عارفًا أحكام السماء. وفي الستين، صارت أذنِي عضوًا طيّعًا لتلقّي الحقائق. وفي السبعين، صرت قادرًا على اتّباع ما يرغبه قلبي من غير اعتداء على ما هو حق.

كان يتحدّث عن الحكمة والطبع الأخلاقي بوصفهما حصيلة عمل يمتدُّ طوال العمر.

بطبيعة الحال، قد تكون حالة من الإلهام المفاجئ لازمة لنا لكي نبدأ عملًا جديدًا، أو لكي نعيد كتابة مسوّدة ما، أو حتى نعيد اختراع حياتنا. لكن علينا أيضًا أن نبذل مزيدًا من الجهد من أجل تغيير عاداتنا وطباعنا تغييرًا بطيئًا؛ وهذا لأن جوهر ما نحن عليه تحدّده أنماط سلوك مزروعة فينا.

***

أمضى كونفوشيوس سنين طويلة في الترحال، ثم عاد إلى موطنه بعد أن صار في الثامنة والستين من عمره، وكرّس نفسه لتعليم الناس. يقال إنه كان في الثانية والسبعين من عمره عندما مات سنة 479 ق. م. مات من غير أن يستطيع إصلاح الأمير وموظفيه. على أن مريديه لم يلبثوا، بعد موته، أن أقاموا مدارس ومعابد حملت اسمه وانتشرت في أنحاء شرق آسيا، وظلت تتناقل تعاليمه أكثر من ألفي سنة. (لقد حفظوا أيضًا نَسَب ذريته؛ فهناك أكثر من مليوني شخص من الأحياء الآن يزعمون أنهم متحدِّرون منه مباشرة). تعرّض دعاة الكونفوشيوسية للاضطهاد في بعض المناطق خلال حكم أسرة كين (في القرن الثالث ق. م.). ثم أتى حكم أسرة هان (من القرن الثالث ق.م. إلى القرن الثاني م.)، فصارت الكونفوشيوسية فلسفة رسمية لدى الحكومة الصينية، وظلّ لها موقع كبير الأهمية ضمن بيروقراطيتها قرابة ألفي عام. وقد مرّ زمن كانت فيه تعاليمه متّبعة بالترافق مع تعاليم كل من لاو تزو وبوذا، فكانت كلٌّ من الداوية والكونفوشيوسية والبوذية مُعتبرة ممارسات روحية متّفقة تمامًا. ولعل أهم من هذا أن الفكر الكونفوشيوسي كان ذا أثر كبير على الأفكار السياسية المشرقية في ما يخص الأخلاق والطاعة والقيادة الرشيدة.

وفي يومنا هذا، لا يزال ملايين البشر يتبعون تعاليم كونفوشيوس ويعتبرونها منهجهم الديني أو الروحي، كما يلتزمون بالشعائر الكونفوشيوسية في المعابد والبيوت. أطلق الناس على كونفوشيوس ألقابًا رفيعة كثيرة كان من بينها «سيدنا نِيْ المعظّم كثيرًا»، و«المعلّم الراحل فائق الحكمة»، و«قدوة المعلّمين طيلة عشرة آلاف عصر». ولا يزال كونفوشيوس إلى اليوم مرشدًا أخلاقيًا كبير الأهمية.

من الممكن أن نجد الفضائل الكونفوشيوسية غريبة، أو عتيقة الطراز، لكن هذا ما يجعلها كبيرة الأهمية، واجبة الاتّباع. نحن في حاجة إليها لكي تُصحح ما لدينا من إفراطات. إن العالم الحديث غير كونفوشيوسي، كلّه تقريبًا: عالم غير رسمي، مساواتي،

مفعم بالابتكارات. وهذا يعني أننا معرّضون دائمًا لخطر أن نكون متهوّرين، طائشين، عديمي الاحترام، إلّا إذا استفدنا قليلًا مما قاله كونفوشيوس عن المسلك الحسن... وعن الخِرفان.

سِن نو ريكيو

(Sen No Rikyū)

1591 - 1522



يؤلّف الفلاسفة في الغرب كتبًا طويلة غير قصصية يكثرون فيها من استخدام كلمات غير مفهومة؛ وتقتصر مساهمتهم في العالم على المحاضرات واجتماعات اللجان. وأما في الشرق، في تقاليد ثقافة زِن خاصة، فإن الفلاسفة ينظمون القصائد، ويحفرون الأرض، ويحجّون، ويمارسون الرماية، ويكتبون حكَمًا وأقوالًا مأثورة، ويرتّلون... وفي حالة سِن نو ريكيو -الذي كان أكبر مفكّري زِن- بلغ به الأمر تعليم الناس كيف يشربون الشاي بطرق تواسي أرواحهم وتعالجها.

ولد سِن نو ريكيو سنة 1522 في مدينة ساكاي الساحلية الثرية الواقعة على مقربة من مدينة أوساكا الحالية في اليابان. كان أبوه، اسمه تاناكا يوهيوي، صاحب مستودع لتجارة الأسماك. وقد أراد أن يعمل ابنه معه. إلّا أن ريكيو أعرض عن الحياة التجارية ومضى باحثًا عن الحكمة وفهم الذات. سحرته تعاليم بوذية زِن، فتتلمذ على أيدي عدد من المعلمين، ثم عاش عيشة ترحال في أنحاء البلاد مصطحبًا ممتلكات قليلة جدًا. نتذكّره اليوم نتيجة مساهماته في إصلاح طقس الشاي الياباني «تشانوي» *chanoyu*.

كان اليابانيون يشربون الشاي منذ القرن التاسع الميلادي بعد أن أتى التجار والرهبان بهذه العادة من الصين، ويعتبرون الشاي شرابًا صحّيًا، فضلًا عن كونه مهدّئًا وروحانيًا. لكن ريكيو من أقام طقس الشاي على أساس فلسفي أكثر دقة وعمقًا؛ وكانت ثمرة جهوده، العملية والذهنية، أن صار شرب الشاي محاطًا بطقوس كثيرة، وصارت له طرقه المتقنة. هناك أهمية خاصّة لصالات الشاي التي ساهم ريكيو في تصميمها، فصارت جزءًا لا يتجزّأ من تقاليد بوذية زِن، وصارت لها مكانة مركزية في هذه الفلسفة الروحانية لا تقل عن مكانة الشعر والتأمّل.

كانت اليابان في زمانه قد صارت شديدة الاهتمام بصورتها، وصارت شديدة التركيز على المال. وقد دعا ريكيو إلى منظومة قيَم بديلة أطلق عليها «وابي - سابي» كلمة مركبة من «وابي»، أي البساطة، و«سابي»، أي تقدير عدم الكمال -. وعلى امتداد ميادين كثيرة، من العمارة، إلى التصميم الداخلي، إلى الفلسفة، إلى الأدب، أيقظ ريكيو في اليابانيين شغفًا بما هو أصلي، مجرّد من القشور، بما هو متواضع من غير زخرف.

اتّجه تركيزه خاصة إلى طقوس الشاي التي رأى فيها إمكانيات فائقة الأهمية من أجل الدعوة إلى «وابي - سابي». أدخل جملة تعديلات على شعائر طقوس الشاي

وجمالياتها. بدأ بأن أحدث ثورة في المكان الذي يجري طقس الشاي فيه. كان شائعًا بين الأثرياء بناء «بيوت شاي» مسرفة الفخامة في أماكن عامة لها أهميتها حيث يستخدمونها أماكن من أجل اللقاءات الدنيوية واستعراض الثراء والمكانة. لكن ريكيو دعا إلى تقليص «بيت الشاي» إلى مترين مربعين فقط؛ وقال إن من الواجب جعله منتحيًا إلى الحدائق المنعزلة، مع تعمّد جعل الباب منخفضًا حتى يضطر الداخل إليه، حتى إن كان من أشد الناس بأسًا، إلى الانحناء عند مروره منه، فيشعر بأنه مساوٍ للآخرين. كانت الغاية من ذلك كلّه إقامة حاجز فاصلٍ بين بيت الشاي والعالم الخارجي، بل إن الممر المفضي إلى بيت الشاي صار محاطًا بأشجار وصخور بغية المساهمة في خلق تلك الرحلة التي تقطع الصلة بحيّز الأشياء العادية.

عندما تقام طقوس الشاي على الوجه الصحيح، فإن المُراد منها هو تعزيز ما أسماه ريكيو «وا»، أي التناغم والانسجام الذي ينبعث عندما يكتشف المشاركون من جديد صلاتهم بالطبيعة: يجلسون في ذلك الكوخ في الحديقة ويتنشّقون روائح الخشب غير المعالَج والطحالب وأوراق الشاي، ويتمكّنون من الإحساس بالريح وسماع غناء الطيور في الخارج – ويشعرون بأنهم اتّحدوا مع «الحيّز غير البشري». عند ذلك، يمكن أن يأتي إحساس اسمه «كيي»، أي التعاطف المتبادل الذي يكون ثمرة الجلوس مع الآخرين في مكان محصور والقدرة على تبادل الأحاديث معهم متحرّرين من ضغوط العالم الاجتماعي وترتيباته. ينبغي لطقس الشاي الناجح أن يترك لدى المشاركين إحساسًا بـ«جا كو»، أي الطمأنينة الهادئة التي هي واحدةٌ من أكثر المفاهيم أهمية في فلسفة ريكيو اللطيفة المهدّئة. إن ما قدّمه ريكيو من وصف لطقس الشاي ممتد بحيث يشمل الأدوات المستخدمة. قال إن على طقوس الشاي أن تكف عن الاعتماد على الفناجين والأباريق باهظة الثمن، أو على الأواني التقليدية الجميلة. كان يفضل أقداح الشاي المهترئة المصنوعة من الخيزران لأن في قِدَمها جلالًا. ولما كانت فلسفة زِن ترى كل شيء زائلًا، ناقصًا، بعيدًا عن الكمال، فإن الأشياء التي فيها آثار الزمن ومصادفات الحوادث تجسّد، بحسب ريكيو، حكمة متميّزة فريدة؛ بل هي تبثُّ هذه الحكمة في من يستخدمونها.

لقد كان من إنجازات ريكيو إقدامه على عمل هو في الغرب ممارسة روتينية غير متميزة، وإضفاؤه عليه وقارًا ومعنى عميقًا يشبه ما نراه في القداس الكاثوليكي. فكل جانب من جوانب طقس الشاي – من الانتظار الصبور إلى أن يغلي الماء، إلى التحديد الدقيق للكمية المستخدمة من مسحوق أوراق الشاي الأخضر، صار وثيق الارتباط

بمبادئ فلسفة زِن التي تؤكّد على أهمية التواضع، وعلى ضرورة احترام الطبيعة والتعاطف معها، والإحساس بالطابع الزائل للوجود البشري.

لا حدود للأثر الذي يتركه هذا المنهج في الحياة اليومية، فهو يترك مفتوحًا احتمال أن تصير أفعال وعادات يومية كثيرة أكثر ارتقاء بدورها -إذا توفّر القدر الكافي من المخيلة الإبداعية- وتصير مهمّة وعظيمة الأثر في حياتنا. ليست الفكرة هنا أن علينا أن نشارك في طقس الشاي، بل هي وجوب جعل بعض جوانب حياتنا الروحية اليومية أكثر ملموسيةً بأن ندخل فيها موادَ وطقوسًا حسّية بعينها.

يذكّرنا ريكيو بأن هناك انسجامًا كاملًا بين الأفكار الكبيرة عن الحياة وبين الأشياء اليومية الصغيرة... مشروبات بعينها، وفناجين، وآنية، وروائح. فهذه كلّها غير منقطعة عن المواضيع الكبيرة، بل من الممكن لها أن تجعل تلك المواضيع الكبيرة أكثر حياة بالنسبة إلينا. فمهمة الفلسفة ليست مقتصرة على صوغ الأفكار، بل هي ممتدة إلى اكتشاف الآليات التي يمكن أن تكون أكثر ثباتًا وعمقًا في عقولنا.

ماتسو باشو

(Matsuo Bashō)

1694 - 1644



لدينا في الغرب إحساس غامض يقول لنا إن الشعر حسنٌ من أجل «أرواحنا» لأنه يجعلنا أكثر حساسية وحكمة. لكننا لا نعرف دائمًا كيف يتم ذلك. يجد الشعر عناءً في شقّ طريقه إلى داخل حياتنا بأي معنى عملي. وأما في الشرق، فإن هناك شعراء - من بينهم الشاعر ماتسو باشو الذي كان راهبًا بوذيًا - عرفوا تمامًا الأثر الذي أرادوا إحداثه عبر شعرهم: الشعر وسيلة مصنوعة حتى ترشدنا إلى الحكمة والصفاء مثلما تعرّفهما فلسفة زِن البوذية.

ولد ماتسو باشو سنة 1644 في بلدة أوينو في مقاطعة إيغا اليابانية. عمل في طفولته خادمًا لدى نبيل اسمه تودو يوشيتادا علّمه نظم القصائد وفق أسلوب «هايكو». تتألّف قصيدة هايكو، تقليدًا، من ثلاثة أجزاء: صورتان، وجزء أخير يقيم صلة بينهما. تدعى أفضل قصيدة هايكو في الشعر الياباني «البركة القديمة»؛ وقد كتبها باشو نفسه:

البركة القديمة...
ضفدع يقفز فيها
صوت الماء.

إنها بسيطة جدًّا (من حيث الظاهر). وعندما يكون المرء في حالة ذهنية صحيحة معطاء، يجدها بالغة الجمال.

مات يوشيتادا سنة 1666، فترك باشو منزله وتجول سنوات كثيرة قبل أن ينتقل للعيش في مدينة إيدو، حيث اشتهر، ولقيت أشعاره انتشارًا واسعًا. إلّا أن الكآبة حلّت على باشو فصار أكثر ميلًا إلى تجنّب الناس، وظل حتى موته في سنة 1694 يتنقّل بين رحلاته الطويلة على قدميه وبين العيش في كوخ صغير عند أطراف المدينة.

كان باشو شاعرًا استثنائيًا، لكنه لم يكن مؤمنًا بالفكرة الحديثة عن «الفن للفن». كان يتطلّع إلى أن ينقل شعره القارئَ إلى حالة ذهنية خاصّة ترى فيها فلسفة زِن قيمة كبرى. يعكس شعره اثنين من أهم المُثل في فلسفة زِن: «وابي» و«سابي». تعني كلمة وابي عند باشو الرضا بالتقشف والبساطة. وتشير سابي إلى العُزلة الرضيّة. (هاتان هما الحالتان الذهنيتان اللتان تبغي الوصول إليهما طقوس الشاي التي وضعها ريكيو). كانت الطبيعة، أكثر من أي شيء آخر، هي ما يشجّع الوصول إلى وابي وسابي. لهذا السبب، ليس مفاجئًا أن تكون الطبيعة أكثر المواضيع تناولًا في قصائد باشو. فلننظر

إلى هذا المشهد الربيعي الذي لا يطلب من العالم إلّا أقل القليل؛ فلننظر إلى مشهد فيه تقدير لما هو يومي:

شجرة الكرز الأولى
تظهر براعمها
إلى جانب أزهار الدراق

إن في قصائد باشو بساطة على مستوى الموضوع تكاد تكون صادمة. ليس فيها تحليل للسياسة، ولا علاقات حب معقّدة، ولا دراما عائلية. غايتها تذكير القراء بأن ما هو مهمٌّ حقًّا ليس أكثر من أن يكون المرء قادرًا على الرضا برفقة نفسه، وعلى تقدير اللحظة التي هو فيها، والانسجام مع أبسط الأشياء التي تقدّمها الحياة: تغيرات الفصول، وصوت ضحك الجيران آتيًا عبر الشارع، والمفاجآت التي تصادفنا في الشارع. انظروا إلى هذه الجوهرة:

أزهار البنفسج
ما أغلاها
في درب جبلية

عمد باشو أيضًا إلى استخدام مفرداتٍ من الطبيعة لتذكير قرائه بأن الأزهار والطقس وعناصر الطبيعة الأخرى تتغير وتتحرك دائمًا - كحياتنا نفسها. علينا أن ننتبه إلى الزمن وإلى تغير الطقس والمشاهد الطبيعية، وأن نرى فيها نُذُرَ موتنا:

بتلات الورد الصفراء
رعد...
شلّال

من الممكن أن تكون هذه الطبيعة الزائلة للحياة أمرًا يحزن القلوب، لكنها أيضًا ما يجعل كل لحظة كبيرة القيمة.

كان باشو محبًّا للرسم مثلما كان محبًّا للكتابة، ولا يزال كثير من لوحاته موجودًا، ومع كل لوحة قصيدة هايكو مكتوبة إلى جانبها.

وفي الأدب، كان هايكو يرى قيمة كبيرة في «كارمي karumi»، أي الخفّة. كان يحب أن تبدو القصيدة كأن طفلًا كتبها. وأما الادّعاء وكثرة التفنّن، فهو يكرههما كثيرًا. كان يقول لتلاميذه: «القصيدة الجيّدة، كما أرى، قصيدة ترى خفةً في صياغة أبياتها، والوصل بين أجزائها، كأنها جدول ضحل جارٍ على أرض رملية».

وقد كان الهدف النهائي لهذه «الخفة» أن تسمح للقارئ بالإفلات من أعباء الذات

-أي من ظروف المرء وطبائعه- حتى يعيش وحدة مع العالم الذي هو خارجها. وكان باشو مؤمنًا بأن الشعر قادر -في حالته المثلى- على أن يتيح للمرء إحساسًا وجيزًا بأنه مندمج مع عالم الطبيعة. فقد يصير المرء، من خلال اللغة، صخرةً، أو ماء، أو نجمة؛ وهذا ما يقوده إلى حالة عقلية من الاستنارة، («موغا»)، هي «فقدان المرء انتباهه إلى ذاته».

نستطيع رؤية فكرة باشو عن الـ«موغا»، أو «نسيان الذات»، عبر طريقته في دعوته إيانا إلى أن نسكن (تقريبًا) مواضيعه، حتى إن كان الموضوع شيئًا «غير شعري»... سمكة ميتة:

متجر الأسماك
ما أبرد هاتين الشفتين
سمكة مملّحة

في عالم كلّه صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي، وسيرٌ ذاتية منمّقة، يمكن أن تبدو لنا غريبة رغبتنا في أن نفُرَّ من فردانيتنا. فنحن، في واقع الأمر، نحرص كثيرًا على تدريب أنفسنا على البروز والتميّز عن بقية الناس في هذا العالم. يذكّرنا باشو بأن نسيان الذات، «موغا» أمر كبير القيمة لأنه يسمح لنا بالتحرّر من الضغط المتواصل للرغبات والإحساس بالنقص، ذلك الضغط الذي يستوطن حياة البشر جميعًا.

عانى باشو فترات طويلة من الكآبة العميقة. كان يرتحل مسافات طويلة عبر طرق نائية خطيرة في الريف الياباني، ولا يحمل معه أكثر من مستلزمات الكتابة. وكانت في رحلاته ليالٍ غير جميلة أبدًا:

قرصات القمل والبراغيث؛
مستيقظًا طيلة الليل
حصان يبوّل عند أذني

إلا أن «موغا» كان يحرّر باشو -يمكن أيضًا أن يحرِّرنا- مما في ظروف وجود الفرد من لحظات كآبة. يدعونا شعره دائمًا إلى تقدير ما لدينا، وإلى رؤية ضآلة صعوباتنا الشخصية وقلّة أهميتها في خطط الكون التي لا نهاية لاتساعها.

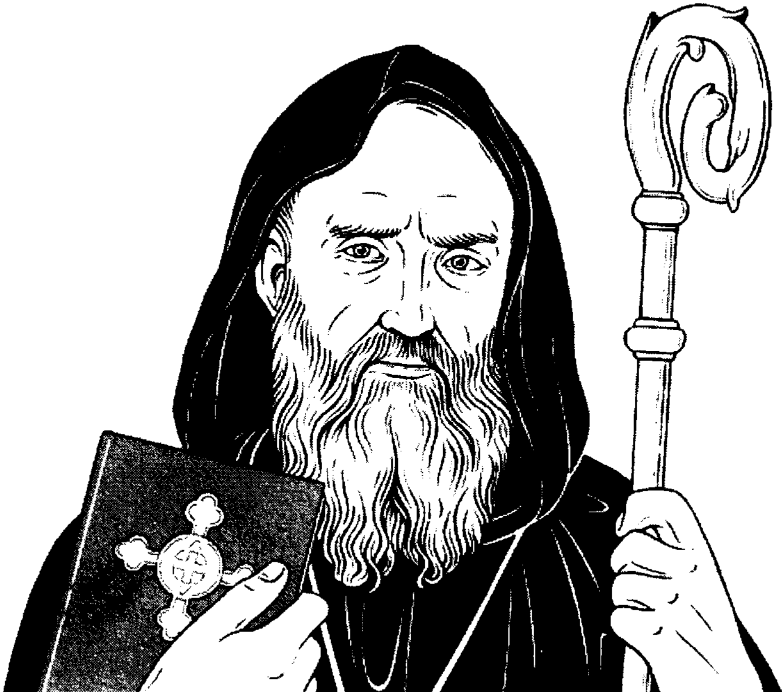
لقد كان شعر باشو أداة ذكيّة من أجل الاستنارة والتجلّي، وذلك من خلال تراكيب الكلمات ذات البساطة المتقنة. قصائده كبيرة القيمة لا لأنها جميلة (مع أنها جميلة حقًا)، بل لقدرتها على أن تكون وسيطًا يصل بنا إلى أكثر حالات الروح أهمية. إنها تذكّر الكاتب والقارئ معًا بأن الرضا معتمدٌ على معرفة كيفية استخلاص المسرَّة من البساطة، ومعرفة كيفية الفرار (ولو لحظات وجيزة فقط) من طغيان كوننا «أنفسنا».

علم الاجتماع

القديس بِنِديكت

(St. Benedict)

543 - 480



إن روحَ الفردانية الشديدة في زماننا ميّالة إلى عدم الرضا عن فكرتين كبيرتين: وجود أي نوع من أنواع القواعد التي تحكم حياتنا اليومية؛ وتجميع الموارد حتى نعيش معًا عيشة جماعية.

لقد صرنا ننظر إلى أنفسنا -كلٌّ واحد منا- على أننا في حاجة إلى اختراع أسلوبنا الفريد في الحياة بحيث لا يحكمه شيء غير غرائزنا وما نحسّ رغبة في فعله في اللحظة المعنية. وأما فكرة العيش الجماعي، فمن الممكن أن تخطر في أذهاننا من حين لآخر (خاصة عندما نتذكّر كم كانت حياتنا الجامعية ممتعة بالمقارنة مع الحياة المرهقة، أو حياة الوحدة، التي لعلنا نعيشها الآن). لكن ما من شيء في الرأسمالية الحديثة يسمح لنا بتخيّل حالة نتوصّل فيها إلى جعل الجماعة، لا «الأنا»، مركزَ كلّ شيء. فكلّ ما هو من حولنا، من الأجهزة المنزلية إلى قروض السكن، إلى الحب الرومانسي، يفرض علينا فكرة الوحدة الاجتماعية المكوّنة من شخص واحد أو من شخصين اثنين. إننا واقعون تحت تأثير إيديولوجيا الحرّية الشخصية التي تعتبر الغايات الخاصّة سبيلًا وحيدًا إلى السعادة - مع أن النتائج قد لا تكون، بالضرورة، مطابقة للآمال. وأما مسرّات كون المرء جزءًا من جماعة فهي، ببساطة، «غير ظاهرة على شاشة الرادار»!

هذه النظرات التي نعتبرها اليوم أمرًا مفروغًا منه، متعارضة تعارضًا شديدًا مع فكرة ازدهرت أزمانًا طويلة في أنحاء كثيرة من العالم، وظل لديها ما نستطيع تعلّمه منها في ما هو متّصل بأمور نتوق إليها توقًا حقيقيًا: إنها فكرة «عيشة الدير». فعيشة الدير تقدّم أطروحة جريئة مفادها أن الناس قادرون حقًا على عيش حياة سعيدة، منتجة، مثمرة، إلى حدٍّ كبير، عندما يكونون معًا ضمن جماعات منظمة، مضبوطة، مكوّنة من عدد من الأصدقاء، وعندما تكون لهذه الجماعات أنظمة واضحة ويكون لديها بعض الطموحات أو الأهداف الكبيرة. حتى إذا لم تعتزم إقامة نوع من دير علماني في أي وقت قريب (فإن عيشة الدير تستحقّ الدراسة لأن من الممكن أن نستخلص منها دروسًا كثيرة عن حدود الفردانية الحديثة).

كان من أوائل الشخصيات المهمّة في التاريخ الحديث في تاريخ «عيشة الدير» -في ردائها الغربي المسيحي- واحدٌ من النبلاء الرومان عاش أواخر القرن الخامس الميلاد، وكان اسمه بنديكت. درس بنديكت الفلسفة في روما عندما كان في العشرينيات. وقد

أمضى زمنًا عاش فيه عيشة الطيش والتهتّك وغياب أي طموح أصيل، مثلما كانت عيشة رفاقه الطلبة الأثرياء... إلى أن أصابته تلك العيشة بالضجر والخجل من نفسه فخرج إلى الجبال باحثًا عن نمط أفضل للعيش. سرعان ما انضمّ إليه أشخاص آخرون، فكان أمرًا طبيعيًا أن يجد السبيل إلى بدء بضعة «مجتمعات» صغيرة. وبعد تلك النقطة، كان من الطبيعي أن يبدأ كتابة «دليل تعليمات» من أجل من التحقوا به. وقد وضع لذلك الدليل عنوانًا بسيطًا شديد الوضوح: «النظام».

خلال حياة بنديكت، أتاه مئات الأشخاص ممن أرادوا العيش في جماعات تحكمها مبادئه. وعلى امتداد أكثر من ألف سنة، جرى إنشاء مؤسسات كبيرة جدًا حملت اسمه ولعبت دورًا مركزيًا في الحضارة الأوروبية.

كان بنديكت مسيحيًا عميق الإيمان. لكننا لسنا مضطرين إلى مشاركته معتقداته الدينية حتى ندرك أن توصياته قامت على شيء أساسي في الطبيعة البشرية. والواقع أن أفكاره المتبصّرة في الجماعات البشرية قابلة للفصل عن البيئة الدينية التي نشأت فيها.

1 ـ منافع الأنظمة

كانت أنظمة العيش التي وضعها بنديكت جميلة من حيث دقّتها وتفصيلها. وكانت نقطة انطلاقه نظرة متشائمة إلى الطبيعة البشرية. كان لديه إدراك حادّ لمدى قابلية حياتنا لأن تضل سبيلها، بطرق كبيرة وصغيرة، عندما نفعل كل ما يخطر في أذهاننا.

تشتمل أنظمته على تعليمات في:

1) الأكل

القاعدة 39: فليمتنع الجميع، عدا المرضى، ومن هم في حالة ضعف شديد، عن أكل ذوات الأربع.

كان بنديكت منشغل البال كثيرًا بأنواع الطعام التي تجعل المرء واهنًا، بطيئًا، قليل العزم. وقد أوصى بتناول وجبات طعام متواضعة، لكنها مغذّية، مرتين في اليوم. (كان مسموحًا تناول كأس من النبيذ بين حين وآخر).

أوصى بالامتناع عن لحوم الأغنام والأبقار؛ لكن أكل كميات صغيرة من لحوم الدجاج والأسماك كان أمرًا مثاليًا. وكان لدى بنديكت من الحكمة ما جعله يدرك أن كون المرء من أهل الثقافة والفكر متّفق تمامًا مع إعمالِه التفكير في ما يتعين عليه أكله - بحثَ عن أنواع الطعام القادرة على تغذية العقول وتنميتها. ورأى أن على الجميع أن يجلسوا معًا إلى طاولات طعام طويلة؛ لكنه انتبه أيضًا إلى أن الجلوس إلى الطعام يفتح بابًا للثرثرة الكسول التي لا هدف لها؛ وهذا ما جعله ينصح بأن يصغي من يأكلون

إلى شخص يقرأ عليهم كتابًا جذّابًا مهمًا وهم يتناولون الدجاج بالليمون مع الكوسا والفاصولياء. وإذا أراد الواحد منهم شيئًا، فعليه أن يرفع يده.

2) الصمت

كان بنديكت مدركًا منافع الصمت. عندما تكون لديك مهمة كبيرة، فإن التركيز هو المفتاح إلى إنجازها. وكان عارفًا بالألهيات كلّها: ما أسهل أن يكون المرء راغبًا في معرفة آخر التطورات؛ وكم يمكن أن يُدمن الناس نمائم المدينة... هذا ما جعله يشترط أن تقام جماعاته في أماكن نائية، قريبة من الجبال غالبًا، وأن تكون جدران المباني ثخينة، وباحاتها هادئة، وأماكن النوم فيها شديدة الوداعة.

3) الشعر والملبس

كما هي الحال في زماننا، كانت أنواع الملابس الكثيرة أيام بنديكت موضع اهتمام كبير، فضلًا عن كونها بابًا مهمًا من أبواب الإنفاق. كان بنديكت نفسه رجلًا وسيمًا، لكنه حرص كثيرًا على وضع حد لمدى تفكيره، أو تفكير غيره، في ما يلبسه كل يوم. هذا ما جعله يوصي بأن يرتدي كل شخص ممن يعيشون في جماعاته الملابس نفسها: ملابس بسيطة، لكنها عملية وغير باهظة الثمن. ينبغي أن تكون أيضًا سهلة الغسل. وفوق هذا، يتعيّن على الجميع أن يقصّوا شعرهم على نمط واحد - شعر قصير جدًّا جدًّا.

4) التوازن

القاعدة 35: فليخدم الإخوة بعضهم بعضًا. لا يجوز إعفاء أحد من أعمال المطبخ إلّا إن كان مريضًا.

إن كنت تركّز كثيرًا على الأفكار والنشاطات العقلية، فمن الممكن أن يكون مفيدًا لك حقًّا أن تقوم بقليل من النشاط الجسدي كل يوم. هذا ما كان بنديكت مدركًا له. ومن المفيد جدًا أن يكون ذلك شيئًا متكرِّرًا مهدِّئًا للنفس من قبيل كنس الأرض، أو إزالة الأعشاب الضارة من حقل الخس. ومن الممكن أيضًا أن تتولّى إعداد الطعام من وقت لآخر كلّما أتى دورك، وأن تغسل الأواني -الجميع يفعل هذا-. لكن أكثر الأيام ستكون أدوار أشخاص آخرين، مما يعني أنك تظل فيها حرًّا ومن غير إحساس بالذنب.

5) النوم المبكر

يقول بنديكت إن عليك أن تنام باكرًا، وأن تستيقظ باكرًا جدًا. النظام الثابت المتكرّر أمرًا بالغ الأهمية. لا يجوز أن تذهب فجأة في الخوض في حديث يبدأ الساعة الحادية عشرة ليلًا، ثم تجد نفسك غارقًا في ذلك الحديث وقد حلّ منتصف الليل؛ ثم تتقلّب في فراشك عاجزًا عن النوم حتى تصير الساعة الواحدة صباحًا. عوّد نفسك على الاسترخاء

المقصود، وركّز أفكارك، واجعل عقلك يستعد لليوم التالي (يجري في رؤوسنا قدر لا يستهان به من التفكير وقت نومنا).

6) لا إدمان على الجنس

كان بنديكت يعرف أن الجنس يفرض نفسه على الإنسان. لكن لا معنى للتفكير من غير انقطاع في أشخاص عراة عندما تكون لديك أشياء مهمّة حقًا ينبغي عليك إنجازها. لم يكن كارهًا للجنس؛ بل إنه عاش أوقاتًا ممتعة عندما كان طالبًا. لكنه كان مدركًا أن الحياة قصيرة جدًا، وأن فيها الكثير مما يجب إنجازه. هذا ما جعله يوصي بأن تكون ملابس الجميع محتشمة في جماعة مثالية، مع تفادي كل ما من شأنه تشجيع المشاعر الجنسية. ببساطة، يُلحق الجنس فوضى كبيرة بأية محاولة للتركيز.

7) الفن والعمارة

يرى المرء في أماكن استراتيجية كثيرة في مباني بنديكت أعمالًا فنية جميلة، أو مثيرة للمشاعر، تذكّره بفكرة مهمّة أو تساعده على أن يكون في حالة مزاجية مناسبة. لم يكن بنديكت يعتبر الفن والعمارة الجيدين نوعَين من أنواع الرفاهية: إنهما دعامتان مهمّتان لحياتنا الداخلية. لقد أدرك أن من الممكن لنا أن نستمدّ فكرةً عما ينبغي أن نكون عليه في دواخل أنفسنا عن طريق النظر إلى الأعمال الفنية على الجدران وتلقّي الجو الذي تبثه. هذا ما جعل الأديرة البنديكتية تستفيد من أفضل المعماريين والفنانين، من بالاديو وفيرونيزي، إلى جون باوسن في زماننا هذا. إنْ كان الناس يريدون العيش معًا، فمن المعقول أن يصنعوا لهم مسكنًا ينعش الروح ويشيع السكينة فيها.

ليست الفكرة من هذا كله أن علينا أن نتبنى الأنظمة نفسها التي وضعها بنديكت؛ لكن الحقيقة أنه يجعلنا نرى شيئًا أكثر عمومية: قدرة الأنظمة على مساعدتنا في العيش على نحو حسن.

هناك فترات في الحياة (وفي التاريخ أيضًا) يبدو فيها أن *الفوز بالحرّية* هو المفتاح إلى زمن رائع. ففي نظر طفل في الرابعة من عمره اعتاد أن يقال له دائمًا متى يستيقظ من النوم، ومتى يستحمّ، ومتى ينبغي إطفاء المصابيح، يكون شيئًا طبيعيًا افتراض أن من شأن بلوغه عمرًا كافيًا لأن يقرر بنفسه سيكون أمرًا رائعًا. لكن الأنظمة التي تقول لنا كيف ينبغي أن نعيش -والسلطات التي تجعلنا نلتزم بذلك- تصير أكثر أهمية بعد ذلك. بل إننا نصير أيضًا حكماء عندما ينشأ لدينا إدراك أكثر إلحاحًا للمشكلات التي تكون الأنظمة الحكيمة حلولًا لها، أي عندما ندرك مقدار ما لدينا من مَيل إلى التشتّت، والإسراف في اللهو، وضعف الإرادة... والمجادلة آخر الليل. عند تلك النقطة، يصير

ممكنًا إدراك أن الأنظمة - بعيدًا عن كونها تدخّلًا في ذواتنا الأصلية الحسنة - هي الكوابح الحقيقية التي تحفظ أفضل ما لدينا من إمكانيات وقدرات. إنها تجعلنا أكثر إخلاصًا إزاء من نريد أن نكونهم، وذلك إذا ما قورنت بنظام يسمح لنا بفعل أي شيء.

2 ـ محاسن العيش الجَمعي

أقام بنديكت ديرَهُ الأول في مونتي كاسينو الواقعة على مقربة من منتصف الطريق بين روما ونابولي. لا يزال هذا الدير قائمًا حتى يومنا هذا. (كان لا بد من إعادة بنائه بعد تعرّضه لقصف قوات الحلفاء سنة 1944).

لم يكن اختيار بنديكت ذلك الموقع الشامخ -الذي يكاد يكون منيعًا محض مصادفة. فالغاية من الذهاب إلى الدير هي تجنّب كل ما من شأنه إلهاء المرء وإبعاد ذهنه عما هو مهمّ حقًا. قد لا نتفق مع بنديكت في تحديد ما هو مهم، لكننا نشاطره تمامًا ذلك القلق العميق الذي كان لديه: كيف السبيل إلى التركيز الناجع على ما نحن راغبون فعلًا في إنجازه من غير أن يكون من حولنا ما يلهينا طيلة الوقت؟

أدرك بنديكت أن من الصعب على مخلوقات مثلنا أن تتأمل عميقًا في طبيعة الرب، وأن تدرس نقاط ضعفها، وأن تفسر معاني بعض الفقرات الغامضة في الكتاب المقدس، عندما تشدّها غرائزها الطبيعية إلى الإفراط في الأكل، وإلى الجنس، وإلى حك مؤخّراتها، وإلى السكر والنميمة.

بوحي من أفكار بنديكت، أدخلت الأديرة سلسلة تطويرات مدهشة في ميدان دراساتٍ «تجنب الألهيات». قال بنديكت إن على المرء أن يعيش بعيدًا عن المدن والبلدات حتى يتفادى تشتت انتباهه. ينبغي أن تكون العمارة ضخمة، وأن تكون مهيبة، لكي تذكّرنا بأهمية ما نفعله فيها. وعلى المرء أن يعيش في تلك الأماكن، لا أن يذهب إليها ثم يعود إلى بيته كل يوم. ينبغي أن تكون الجدران مرتفعة، وأن تكون ثخينة. ولا يستحسن أن يكون هناك أبواب كثيرة أو نوافذ كبيرة مطلة على المشاهد الطبيعية في العالم الخارجي. إن الجدران المنيعة، والصوامع، وكون المرء بعيدًا أميالًا كثيرة عن أقرب حانة محلية، أمورٌ مفيدة في مقاومة التلهّي وتشتّت الذهن.

إن الحالة المثالية للعيش في الدير هي أن العيش الجمعي يسمح للناس بأن ينجزوا أكثر مما يمكن إنجازه من خلال الجهد الفردي.

قد لا تبدو مغرية لنا بعض الجوانب في تصوّر بنديكت عن تلك العيشة، كالفصل بين الجنسين مثلًا. لكننا لا نزال في حاجة إلى عدد من المنافع الذي يوفّرها ذلك النمط من العيش.

وهذا ما نستطيع رؤيته قائمًا في سوق الإسكان. إن مشروع «الهلال الملكي» في مدينة باث مثال على التعاون في السكن والبناء. يعيش الآن في ذلك المكان نحو مئتي شخص يسكن أكثرهم في شقق ذات حجم متواضع. فمن خلال تجميع مساكنهم، يتشارك أولئك الناس واحدًا من أعظم الإنشاءات المدينية في العالم كلّه. لو عاشوا منفردين، لكان على كل واحد أن يتعامل مع اشتراك الهاتف، وخدمة الإنترنت، وفواتير الكهرباء، والضرائب المحلية، وإصلاحات المياه والتمديدات الصحية. لكن الممكن جدًا إدارة هذه الشؤون من أجل السكان جميعًا من خلال شخص واحد يقوم بهذه المهمة - ينتج عن هذا وفر هائل من الإزعاجات والمنغّصات. نكسب كلنا الكثير من خلال التخلي عن شيء من فردانيتنا التي نبالغ في الإعلاء من شأنها على الرغم من أنها تتعبنا كثيرًا.

كثيرًا ما كانت الأديرة تقوم في مراكز أعمال مزدهرة وتتولّى صناعات مهمة في زمانها: الزراعة، والتنقيب، والمدارس، والمستشفيات، وكذلك النسخ الأولى من الفنادق.

نتخيّل أننا نفهم فكرة التعاون في الأعمال. إلّا أننا لا ننظر، من الناحية الفعلية، إلّا إلى مجموعة خيارات بالغة المحدودية. لا نزال نفترض أن شركة متوسطة الحجم فيها مئة وسبعة وخمسون شخصًا لا تتطلّب أكثر من أن يرتحل أولئك جميعًا كل يوم مجتازين طرقًا تكاد تكون متطابقة، ثم يوقفون سياراتهم هناك. وفي المساء، ينفق الجميع أموالهم -فرديًا على الإيجار، والطعام، والأثاث، والذهاب إلى البار.

إن في العالم مشروعات كبيرة كثيرة يمكن تنفيذها على نحو أكثر نجاعة انطلاقًا من الدير: شركة كبرى للتصميم الغرافيكي، أو مؤسسة للتكنولوجيا الحيوية، أو شركة إنتاج تلفزيوني.

خلاصة

من الممكن أن تكون الحياة الجمعية أكثر متعة وأقل إجهادًا من حياة الأسرة الصغيرة بكل ما فيها من ضغوط وخيبات. نحن مستمرّون في تخيل أن السعادة كامنة في عثور كل شخص على «شخصه» الآخر الخاصّ (ثم نهاجمه لأنه ليس كاملًا بالقدر الكافي)، أو أنها كامنة في أن نصير شيئًا استثنائيًا... بدلًا من أن انضمامنا إلى أشخاص آخرين، عاديين جدًا، لصنع شيء فائق حقًا. إذا انضممنا إلى فريق، فسوف تكون حالنا أحسن كثيرًا. وستتمكّن من القيام بالأشياء على نطاق أكبر، وإنجازها بسهولة أشد... وفي أحيان كثيرة، ستكون أذهاننا أفضل تركيزًا. ولهذا، يظل بنديكت مفكّرًا مفيدًا لنا، ويظل قادرًا على إثارة الإلهام في نفوسنا.

ألكسيس دي توكفيل

(Alexis De Tocqueville)

1859 - 1805



تحقّقت الديمقراطية عبر صراع طويل، بطولي، شاقٍّ إلى حدٍّ قد يجعلنا نشعر بالحرج -بل بالعار أيضًا عندما نجد أن أملنا فيها قد خاب بعضِ الشيء. نعلم أن الناس قدّموا تضحيات هائلة عند لحظات تاريخية مفصلية حتى نتمكّن، من حين لآخر، من اختيار واحد من أسماء المرشّحين على ورقة الاقتراع. فعلى امتداد أجيال، وفي أجزاء كبيرة من العالم، كانت الديمقراطية أملًا سرّيًا يتوق إليه الناس. وأما اليوم، فمن الممكن أن تمر بنا فترات من الشعور بالانزعاج والضجر من سياسيينا المنتخبين انتخابًا ديمقراطيًا. يخيب رجاؤنا في الأحزاب، وينشأ لدينا شك في أن الانتخابات قادرة على أن تغيّر شيئًا. وعلى الرغم من هذا، فإن الامتناع عن مناصرة الديمقراطية، أو الوقوف ضدّها صراحة، ليس بالموقف الممكن أيضًا. نظهر كأننا ملتزمون بالديمقراطية التزامًا تامًا، لكننا غاضبون ومحبَطون منها في كل وقت.

ولعل أفضل من يعيننا على فهم بعض هذه المشاعر، وعلى فهم الديمقراطية الحديثة عامة، هو الأرستقراطي الفرنسي ألكسيس دو توكيفيل الذي عاش في القرن التاسع عشر وسافر في أرجاء أميركا أوائل ثلاثينيات ذلك القرن دارسًا الثقافة السياسية في أول ديمقراطية عرفها العالم، ثم جمع أفكاره في واحد من أعظم كتب الفلسفة السياسية، «الديمقراطية في أميركا». صدر هذا الكتاب في فرنسا سنة 1835. كانت الديمقراطية في نظر دي توكفيل خيارًا سياسيًا جديدًا شديد الخطورة. لقد ولد الرجل في سنة 1805 عندما كان نابليون دكتاتورًا شعبويًا يحكم نصف القارة الأوروبية. عادت أسرة بوربون إلى الحكم بعد هزيمة نابليون في واترلو؛ وعلى الرغم من وجود الانتخابات في فرنسا، فقد كانت نسبة من يحق لهم الاقتراع محدودة جدًا. على أن دي توكفيل كان، ببصيرته النافذة، مقتنعًا بأن الديمقراطية سوف تكون الفكرة الكبرى في مستقبل العالم كله. لكنه أراد معرفة ما ستكونه تلك الديمقراطية. ما الذي يحدث عندما تبدأ المجتمعات، التي كانت تحكمها نُخب أرستقراطية صغيرة تتوارث الثروة والسلطة، باختيارَ قادتها في انتخابات يستطيع الإدلاء بصوته فيها جزء كبير جدًا من السكان الراشدين؟

هذا ما جعل دي توكفيل يذهب إلى أميركا: أراد رؤية ما سيكونه المستقبل. وقد ذهب إليها بفضل منحة من الحكومة الفرنسية التي كلّفته بدراسة نظام السجون الأميركي وإعداد تقرير عن ذلك حتى تتعلّم منه بعض الدروس. لكن دي توكفيل ما

كان مهتمًا بالسجون. وقد عبّر في رسالة إلى واحد من أصدقائه عن أن السبب الحقيقي الذي جعله يسافر كان دراسة الذهنيات والقيم الأخلاقية الأميركية، والآليات السياسية والاقتصادية. حلَّ في نيويورك في شهر أيار من سنة 1831؛ وكان معه صديقه القاضي غوستاف دو بومون. ثم انطلق في رحلة طويلة في أرجاء الأمة استمرت حتى شهر شباط سنة 1832.

مضى دي توكفيل وبومون إلى الغرب حتى بلغا ميتشغان التي كانت في ذلك الوقت منطقة حدودية. وهناك شاهدا الامتداد الواسع للطبيعة في الغرب الأوسط الأميركي. انحدرا جنوبًا حتى نيو أورليانز، لكنهما أمضيا معظم الوقت في بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا. التقيا الجميع: رؤساء، ومحامين، وصيارفة، وإسكافيين، وحلّاقين... بل إنهما صافحا آخر الباقين على قيد الحياة ممن وقّعوا إعلان الاستقلال. كان رجلًا يدعى تشارلز كارول.

غريبة هي الملاحظات التي سجّلها دي توكفيل عن أميركا؛ بل إن فيها الكثير مما يثير الضحك؛ وفيها أيضًا ملاحظات لاذعة كثيرة.

1 - عن نيويورك:

في نظر شخص فرنسي، يبدو مظهر المدينة غريبًا، غير مستساغ كثيرًا. لا يرى المرء فيها قبةً، ولا برج أجراس، ولا صروحًا عظيمة؛ فتكون نتيجة ذلك كلّه انطباعًا دائمًا بأنه في ضاحية من الضواحي.

2 - عن الاعتزاز الوطني:

أستبعد قدرة أي كان على أن يستخلص من الأميركيين أدنى معلومة غير إيجابية عن بلادهم التي يتشدّق أكثرهم بكل شيء فيها من غير تمييز، بل بقدر من الوقاحة المنفّرة للغريب... يمكن القول عامة إن في تكوينهم قدرٌ كبير من تفاهة المدن الصغيرة... لم أصادف بعد رجلًا متميزًا حقًا.

3 - عن روح الطبقة الوسطى:

يظهر في هذه البلاد أكبر تطوّر مكتمل خارجي للطبقة الوسطى؛ بل إن المجتمع كلّه يبدو وكأنه انقلب إلى طبقة وسطى واحدة. والظاهر أن ما من أحد هنا لديه ما لدى الطبقات العليا في أوروبا من دماثة التهذيب وأناقة الطباع... يفاجأ المرء دائمًا بشيء من الأشياء السوقية، وبمسلك رفع الكلفة الذي يثير النفور...

4 - عن النظرة إلى سكان أميركا الأصليين:

في وسط هذا المجتمع الأميركي الذي تلعب فيه الشرطة دورًا مهمًا ويكثر فيه

الولع بالعِظات الأخلاقية والميل إلى فعل الخير، يسود انعدام شامل للعقل مع أنانية باردة عندما يتعلّق الأمر بسكان البلاد الأصليين.

لا يسمح الأميركيون في الولايات المتحدة لكلابهم باصطياد الهنود مثلما يفعل الإسبان في المكسيك؛ لكن المرء يلمس -في قرارة نفوسهم- المشاعر نفسها التي ليس فيها شيء من الإحساس بالشفقة، تلك المشاعر التي تحرّك العرق الأوروبي في هذا المكان وفي كل مكان آخر. يقولون لأنفسهم كل يوم، هذا المكان لنا. العرق الهندي محكوم عليه بالفناء التام الذي لا يستطيع المرء الحيلولة دونه، وليس من المستحسن أن يتأخر كثيرًا. لم تُعدُّهم السماء لأن يكونوا متمدنين؛ ومن الضروري أن يموتوا. ثم إنني غير راغب في أن تكون لي مساهمة في هذا الأمر. لن أقدم على فعل أي شيء ضدهم: سيقتصر جهدي على توفير كل ما من شأنه أن يعجّل خرابهم. وعندما يحين الوقت، سآخذ أراضيهم من غير أن أحمل وزرَ موتهم.

تجد الأميركي راضيًا بهذا المنطق، مقتنعًا به. وتجده يذهب إلى الكنيسة حيث يسمع القس يكرر كل يوم إن البشر إخوة جميعًا، وإن الصانع الأزلي الذي صنعهم كلّهم على صورته أوجب عليهم أن يساعد كلٌّ منهم أخاه.

5 - إلّا أن دي توكفيل لم يكن، هو نفسه، شديد الحرص على سكان أميركا الأصليين:

تذكّرت كثيرًا م. شاتوبريان، وتذكّرت كوبر، وكنت أتوقّع أن أجد الأميركيين الأصليين متوحّشين. لكن توقّعت رؤية متوحشين أضفت الطبيعة على وجوههم سمات فضائل الكبرياء التي تأتي بها الحرية. توقّعت أن أجد عِرقًا من البشر مختلفًا قليلًا عن الأوروبيين، وأن أرى أجسادًا تطوّرت بفعل مشقات الصيد والحرب، أجسادًا لا ترى ما يضيرها في أن يراها الناس عارية.

فانظروا كم كان عجبي عندما رأيت الصورة التي أعقبت تلك التوقعات. كان الهنود الذين رأيتهم ذلك المساء قصار القامة؛ وأطرافهم، بقدر ما يستطيع المرء رؤيته منها تحت ملابسهم، نحيلة هزيلة العضلات. لم تكن جلودهم حمراء مثلما يظن الناس عادة، بل برونزية داكنة حتى ليحسبهم المرء أول الأمر شديدي الشبه بالزنوج. شعرهم الأسود قاس، منسدل على رقابهم، بل يبلغ الأكتاف أحيانًا. ثم إن أفواههم، عامة، كبيرة كبرًا لا تناسب فيه. وعلى وجوههم تعبير من الخِسّة يوحي بحب الأذيّة.

رأيت في قسَمات وجوههم قدر كبير من الملمح الأوروبي؛ على أن المرء يستطيع

القول إنهم يشبهون أوروبيين آتين من أدنى طبقات الرعاع في مدننا الأوروبية الكبرى. ملامح وجوههم ناطقة بانحطاط عميق لا تستطيع إنتاجه إلّا فترات طويلة من إساءة استخدام المنافع التي يسمح بها التمدن... لكنهم يظلّون متوحّشين.

إلّا أنه وجد الكثير مما أعجبه في أميركا: جمال النساء، والطعام الصحّي البسيط، والصراحة الحيوية في الأحاديث، والفنادق المريحة. وفوق هذا كلّه، أحب دي توكفيل البريّة في أميركا:

> من المستحيل أن يتخيّل المرء شيئًا أكثر جمالًا من شمال نهر هدسون. عرض مجرى النهر العظيم، والغنى الجميل في الضفة الشمالية وفي الجبال شديدة الانحدار المحاذية لحوافه الشرقية... ذلك كله يجعله واحدًا من أجمل المناظر في العالم أجمع.... أحسد كل يوم الأوروبيين الأوائل الذين اكتشفوا أول مرة، قبل مئتي سنة، مصب نهر هدسون وأبحروا في مجراه عندما كانت غابات لا حصر لها ممتدة على ضفتيه، وما كان يُرى شيء غير دخان المتوحشين...

عند وصول دي توكفيل إلى نيويورك، كان يدخل البلاد الديمقراطية الكبيرة، الآمنة إلى حد معقول، الوحيدة في العالم كلّه. وقد اعتبر نفسه شخصًا يقوم بدراسة مفيدة غنية التلاوين: ما العقابيل الاجتماعية للديمقراطية؟ وما الذي ينبغي على المرء توقّعه في مجتمع ديمقراطي؟

كان دي توكفيل منتبهًا انتباهًا خاصًا إلى الجوانب الإشكالية في الديمقراطية، تلك الجوانب التي يمكن أن تكون قاتمة. وعلى نحو خاصّ، فاجأته خمس قضايا مفاجأة كبيرة:

1 - الديمقراطية تأتي بالنزعة المادية

في المجتمع الذي عرفه دي توكفيل في طفولته، لم يكن جني المال يبدو واحدًا من الأمور التي تشغل ذهن أكثر الناس. فعلى وجه التقريب، ما كانت للفقراء (كانوا أكثرية عظمى) أية فرصة في الوصول إلى الثراء. لذا، مع اهتمامهم بالحصول على قوت يومهم، لم يكن المال، أي الثروة، جزءًا من طموحاتهم في ما يخص نظرتهم إلى أنفسهم: ببساطة، لا فرصة أمامهم. وأما من الناحية الأخرى، فقد كانت الطبقة العليا ضئيلة العدد من الأرستقراطيين مالكي الأراضي في غير حاجة إلى السعي لجني المال - كانوا يرون أن العمل من أجل المال أمر شائن، ومثله ممارسة صنعة أو تجارة. نتيجة هذا، ولسببين مختلفين أشد الاختلاف، ما كان المال مقياسًا للحكم على الحياة.

لكنّ الأميركيين الذين التقاهم دي توكفيل كانوا مقتنعين جميعًا بأن اكتساب الثراء

ممكن من خلال الجد في العمل، وبأن الوصول إلى تلك الغاية أمر صائب تمامًا وجدير بكل إعجاب. من هنا، ما كان لديهم أي قدر من الريبة إزاء الأغنياء، بل حكم أخلاقي ضد الفقراء، واحترام غامر للقدرة على جني المال. ببساطة تامّة، بدت الثروة كأنها الإنجاز الوحيد الذي يراه الأميركيين جديرًا بالاحترام. فعلى سبيل المثال، لاحظ دي توكفيل أن الكتاب الذي لم يدرّ مالًا في أميركا -لأنه لم يبع كثيرًا لا يمكن أن يكون كتابًا جيدًا. وهذا لأن المال مقياس لكل ما هو جيد. ثم إن كل ما يحقّق ربحًا ينبغي أن يكون محط إعجاب من كل ناحية. كانت تلك نظرة مسطحة جامدة جعلت دي توكفيل يرى مزايا النظام الأوروبي الأكثر رهافة (نسبيًا)، الذي فيه طبقات متعددة، حيث من الممكن أن يرى الناس في واحد منهم (في يوم سعده) شخصًا جيدًا، وإن يكن فقيرًا. أو يراه في يوم آخر شخصًا فقيرًا، لكنه سوقي أيضًا.

لقد خلقت الديمقراطية والرأسمالية طريقة، فيها شيء من المساواة، يُقيّم بها الإنسان غيره؛ على أنها طريقة مسطحة وجائرة أيضًا.

2 ـ الديمقراطية تولِّد الحسد والإحساس بالعار

في تجواله في الولايات المتحدة الأميركية، فطن دي توكفيل إلى شرٍّ غير متوقّع يستوطن أرواح مواطني تلك الجمهورية الجديدة. يمتلك الأميركيون الكثير، لكن هذه الوفرة لم تمنعهم من الرغبة في المزيد، ومن المعاناة كلما رأى أحدهم شخصًا غيره عنده ما لم يمتلكه بعد. ففي فصل من كتاب «الديمقراطية في أميركا» حمل عنوان «أسباب قلة اطمئنان أرواح الأميركيين وسط ازدهارهم»، يبسط دي توكفيل تحليلًا لا يزال حيًا إلى الآن للعلاقة بين التوقّعات المرتفعة وقلة الرضا، وبين الحسد والمساواة:

> عند إلغاء مزيتَيّ الثروة والمولد، وعندما يصير مسار في الحياة متاح للجميع، ويصير ممكنًا لقدرات واحدٍ من الناس أن تضعه في قمة واحد من تلك المسارات، تبدو الآفاق سهلة من غير حدود، وتبدو مفتوحة أمام طموحه، فلا يتأخر عن إقناع نفسه بأنه ليس مولودًا لكي ينتهي إلى مآلات وضيعة. غير أن هذه فكرة خاطئة إلى حد كبير، وهي فكرة تصحّحها التجارب اليومية. فالمساواة نفسها التي تسمح لكل مواطن بأن يرعى في نفسه هذه الآمال الكبيرة، تجعل المواطنين جميعًا أقل قدرة على تحقيق آمالهم... إلى هذه الأسباب ينبغي أن تُعزى الكآبة الغريبة التي تستوطن نفوس أهل البلاد الديمقراطية في أوقات كثيرة على الرغم مما يتمتّعون به من وفرة؛ ويطبِق عليهم أحيانًا تقزّز من الحياة وسط كل ما يعيشونه من يُسر وهدوء. يشكون في فرنسا تكاثر عدد المنتحرين، وأما الانتحار

في أميركا فهو نادر. على أن الجنون فيها -على ما يقال- أوسع انتشارًا منه في أي مكان آخر.

نتيجة معرفة دي توكفيل حدود المجتمعات الأرستقراطية، ما كانت لديه أية رغبة في الدعوة للعودة إلى الشروط التي كانت قائمة قبل 1776، أو 1789. كان مدركًا أن سكان الغرب الحديث يتمتّعون بمستوى معيشة يفوق كثيرًا ما كان لدى الطبقات الدنيا في أوروبا العصور الوسطى. مع هذا، كان يرى أن تلك الطبقات المحرومة كانت مستفيدة أيضًا من راحة البال التي فقدها لاحقوهم من غير عودة:

أيام كانت سلطة التاج، تساندها الأرستقراطية، تحكم أمم أوروبا من غير عناء، كانت لدى المجتمع مزايا مختلفة كثيرة، على الرغم من بؤسه، صار الآن نادرًا أن يقدّرها الناس أو أن يفهموها... فالبشر الذين لم يحملوا أبدًا فكرة شرط اجتماعي مختلف عما هم فيه، وما كانت لديهم أبدًا أية آمال في مضاهاة سادتهم، كانوا يتلقّون عطاياهم من غير مناقشة حقوقهم. يلتصق المجتمع بالسادة ويتعلّق بهم عندما يكونون منصفين، رحيمين؛ ويخضع من غير مقاومة أو إحساس بالمذلّة لما يفرضونه عليه فرضًا أو يأخذونه منه غصبًا مثلما يخضع لتصاريف إرادة الرب التي لا مهرب منها. ثم إن عادات ذلك الزمان وأحواله أوجدت نوعًا من قانون في خضم العنف، وجعلت للظلم حدودًا من نوع ما. فلما كان النبيل غير مرتاب أبدًا في أن أحدًا يمكن أن يحاول تجريده من مزاياه التي يراها مشروعة، كان القنّ يرى أن وضاعة شأنه ليست إلّا نتيجة لنظام الطبيعة عصي التغيير. لهذا، فقد كان سهلًا تواجد حسن نوايا بين الطبقتين اللتين ميّز القدَرُ بينهما تمييزًا كبيرًا. كان في المجتمع يومها بؤس وانعدام مساواة؛ لكن أرواح الطبقتين لم يصبها من ذلك أي سوء.

على أن المجتمعات الديمقراطية حطّمت كل عائق أمام التطلّعات الواسعة. صار كل فرد من أفراد الجماعة يرى نفسه مساويًا للآخرين من الناحية النظرية، حتى عندما تعوزه الوسائل الضرورية للوصول إلى المساواة المادية. كتب دي توكفيل، «لم أرَ في أميركا أبدًا أي مواطن بلغ به الفقر حدًّا يمنعه من إلقاء نظرة أمل وحسد صوب مباهج حياة الأثرياء». صار المواطنون الفقراء يرون الأثرياء عن قرب؛ وصاروا أيضًا واثقين من أنهم قادرون على أن يحذوا حذوهم في يوم من الأيام. وهم ليسوا مخطئين في هذا الظن دائمًا. تمكّن بعض من كان منبتهم متواضعًا من جمع الثروة. إلّا أن الاستثناءات لا تصنع قاعدة. لا تزال في أميركا طبقة دنيا. كل ما في الأمر هو أن الفقراء الأميركيين،

خلافًا لفقراء المجتمعات الأرستقراطية، يعتبرون أنّ ظروفهم القائمة ليست إلّا خذلانًا لتطلعاتهم.

كانت التصوّرات المختلفة عن الفقر التي حملها أفراد المجتمعات الأرستقراطية والديمقراطية جليّة، في نظر دي توكفيل، في مواقف الخدم من سادتهم. ففي المجتمعات الأرستقراطية، عادة ما يقْبل الخدم مصيرهم عن طيب خاطر. ومن الممكن أن تكون لديهم، بحسب كلمات دي توكفيل، «أفكار سامية، وقدر كبير من العزة واحترام الذات». وأما في المجتمعات الديمقراطية، فإن المناخ الذي يفرضه من غير هوادة كلٌّ من الصحافة والرأي العام، يوحي للخدم بأنهم قادرون على بلوغ ذرى المجتمع، وبأن من الممكن أن يصيروا صناعيين، أو قضاة، أو علماء، أو رؤساء. ومع أن هذا الإحساس بالفرص التي لا حدود لها قادر في البداية على تشجيع قدر من التفاؤل والبهجة السطحيين -لدى الخدم في مقتبل العمر خاصة- ومع أنه يجعل أكثرهم يبحثون عن فرصة لتحقيق تلك الآمال، فإن الزمن يمضي، ويفشل أكثر الناس في النهوض بأنفسهم، فتسوء طباعهم -كما يرى دي توكفيل- وتستولي عليهم المرارة وتخنق أرواحهم فيكرهون أنفسهم وسادتهم كرهًا شديدًا.

كان النظام التراتبي الصلب الذي ساد كل مجتمع غربي تقريبًا حتى القرن الثامن عشر وأنكر كل أمل في تغير المجتمع، إلّا في حالات نادرة، نظامًا غير عادل من ألف ناحية وناحية؛ إلّا أنه أتاح لمن هم في أسفل السلّم حرية واحدة غير قليلة الشأن: حرية عدم اعتبار إنجازات أشخاص كثيرين في المجتمع نقاطًا مرجعية تصح المقارنة بها، فمن شأن ذلك أن يجعل المرء يرى نفسه منقوص المكانة والأهمية إلى حد عنيف.

3 ـ طغيان الأكثرية

من المألوف لنا أن نعتبر الديمقراطية نقيضًا للطغيان. وذلك لأنه ينبغي، في الديمقراطية، ألّا يعود في مقدور زمرة من الناس أن تتسيّد على الجميع عنوة؛ وعلى القادة أن يحكموا استنادًا إلى رضا المحكومين. لكن دي توكفيل رأى، أن الديمقراطية قادرة على خلق نوع من الطغيان خاصّ بها: إنه طغيان الأكثرية. فمن حيث المبدأ، من الممكن أن تكون جماعة الأكثرية بالغة الشدة على جماعات الأقليات، معادية لها. لم يكن تفكير دي توكفيل متّجهًا إلى الاضطهاد السياسي الصريح وحده، بل إلى طغيان أقل دراماتيكية، لكنه يظلّ حقيقيًا... نوع من الطغيان يبدأ فيه اعتبار كون جماعة من الناس «في وضع الأقلية» في مقابل الإيديولوجيات السائدة، أمرًا غير مقبول، أو شاذًّا... أو حتى خطيرًا.

رأى دي توكفيل أن الثقافة الديمقراطية يسهل عليها أن ينتهي بها الأمر إلى شيطنة أي تأكيد على الاختلاف، وذلك خاصّة من حيث زعم التفوّق الثقافي أو السموّ العقلي، مما يمكن أن يعتبر عدوانًا على الأكثرية - وذلك على الرغم من أن مواقف «الأقلية» أو وجهات نظرها يمكن أن تكون لها وجاهة حقيقية. ففي طغيان الأكثرية، يسهل أن يضيق المجتمع ذرعًا بالفضائل أو الطموحات المتميّزة من أي نوع كانت. وهذا لأن لدى المجتمع الديمقراطي غريزة تسوويّة عدوانية تعتبر أن من قبيل الفضائل المدنية أن يتم «قصّ» كل من يبدو أعلى من الآخرين لإعادته إلى «الحجم الصحيح».

رأى دي توكفيل أن هذا جزء من الثمن الطبيعي الذي يمكن توقّع دفعه لقاء العيش في مجتمع ديمقراطي.

4 - الديمقراطية تجعلنا نعادي السلطة

رأى دي توكفيل في الديمقراطية تشجيعًا لأفكار قوية في ما يخص المساواة، وذلك إلى درجة يمكن أن تصير مثبّطة وضارّة. رأى أن الديمقراطية تشجّع «في قلب الإنسان جنوحًا جائعًا إلى المساواة يخلق لدى الضعفاء رغبة في إنزال الأقوياء إلى سويتهم».

في أيامنا هذه، قد يبدو لنا هذا الاتجاه في التفكير وحشيًا لأننا نعتبر -بالغريزة- أن المساواة مرغوبة. لكن ما أقلق دي توكفيل كان ما رآه في الولايات المتحدة من أن أشخاصًا من غير أية مزايا، لا من حيث تعليمهم، ولا من حيث مهاراتهم أو خبراتهم أو مواهبهم، يمكن أن يرفضوا قبول ما دعاه دي توكفيل «من هم أعلى منهم بالطبيعة» بحسب تعبيره. وقد ذهب إلى أنّ ما يدفعهم إلى هذا الموقف ليس إلّا عدم استعدادهم للانحناء أمام أي نوع من أنواع السلطة أو المرجعية. فهم يرفضون التفكير في أن أحدًا يمكن أن يكون أفضل منهم لمجرّد أنه درس طويلًا فصار طبيبًا، أو لأنه انكبَّ على القانون عشرين سنة، أو لأن له بضعة كتب جيدة. إن من شأن التمنّع الصحّي، الداعي إلى الإعجاب، عن قبول الآخرين قبولًا قدَريًا أن يشجّع على رفض شديد الضرر لقبول أي نوع من أنواع الخضوع أمام أي شخص كائنًا من كان. إلّا أن المنطق البسيط للأمور يقضي -كما رأى دي توكفيل- بأن هناك بشرًا أكثر حكمة أو ذكاء أو لطفًا أو نضجًا من غيرهم؛ ولهذه الأسباب الوجيهة تحديدًا، ينبغي الإصغاء إليهم بانتباه خاص. إن في الديمقراطية انحيازًا قاتلًا، كما يرى دي توكفيل، إلى ضِعة الشأن وعدم التميز.

5 - إن في الديمقراطية تقويضًا لحرية العقل

من البديهي لنا افتراض أن الديمقراطية تشجّع المواطنين على أن يكونوا منفتحي

التفكير. أليس مؤكّدًا أن الديمقراطية تشجّع المناقشة وتسمح بحل الاختلافات عن طريق التصويت بدلًا من حلّها حلًّا عنيفًا؟ نحن نعتبر سعة العقل وانفتاحه ثمرة للعيش في مكان تجد فيه آراءٌ كثيرة فرصةً للتعبير عن أنفسها.

إلّا أن دي توكفيل يخرج باستنتاج نقيض لهذه الفكرة: قليلة هي الأماكن التي يمكن للمرء فيها «أن يجد فيها قدرًا أقل من استقلالية التفكير، ومن حرية المناقشة، مما هو موجود في أميركا».

كان الأميركيون واثقين من عدالة نظامهم وصحَّته، «فتخلّوا عن حرية العقل ووضعوا ثقتهم في الصحف وفي ما يدعونه حسًّا سليمًا». لقد أخلى التشكّك الأوروبي في الرأي العام السبيل أمام إيمان ساذج بحكمة الجمهور.

وبما أن هذا مجتمع تجاري، فإن لدى الناس انتباهًا شديدًا إلى ضرورة تحاشي الخروج كثيرًا عن صف جيرانهم (الذين يمكن أن يكونوا زبائنهم أيضًا). من الأفضل للمرء أن يكرّر عبارات مألوفة بدلًا من التعبير عن آراء أصيلة - يصح هذا خاصة عندما يكون لديه شيء جديد يريد بيعه.

***

عمل دي توكفيل في السياسة بعد عودته إلى فرنسا. ومع أن فرنسا كانت قد صارت بلدًا ديمقراطيًا من الناحية الاسمية، إلّا أن قيودًا شديدة كانت مفروضة على حق الاقتراع - كان التصويت متاحًا لأقل من خمسة بالمئة من البالغين الذكور. صار دي توكفيل نائبًا في البرلمان؛ وشغل منصبًا وزاريًا بضعة شهور لم تكن «باهرة جدًا»، فقد كان وزيرًا للشؤون الخارجية. إلّا أن لويس نابليون الذي انتخب رئيسًا في سنة 1851 لم يلبث أن أعلن نفسه إمبراطورًا ومزّق الدستور. كان دي توكفيل في أواسط الأربعينيات من عمره، فترك ميدان السياسة وعاش عيشة هادئة في عزبة أهله.

عانى نوبات السل زمنًا طويلًا، ثم مات سنة 1859 وكان عمره ثلاثة وخمسين عامًا.

***

على الرغم من قول دي توكفيل كثرةً من الأشياء القاتمة تمامًا في ما يخص الديمقراطية، إلّا أنه لم يكن ضدها. فهو لا يحاول أن يقول لنا إن علينا ألّا نكون في مجتمعات ديمقراطية. على العكس تمامًا، كان دي توكفيل مقتنعًا اقتناعًا عميقًا بأن الديمقراطية سوف تحلّ محلّ كلّ شكل آخر من أشكال التنظيم السياسي. إلّا أنه أراد منا أن نكون واقعيين في شأن ما سوف يعنيه هذا. سوف تكون الديمقراطيات حسنة جدًا في بعض الأمور، وفظيعة حقًا في أمور أخرى.

من خلال إلقائه الضوء على عيوب ملازِمةٍ للديمقراطية، كان يلفت نظرنا إلى أن العيش في مجتمع ديمقراطي سوف يكون، من بعض النواحي المهمّة، أمرًا مزعجًا ومخيّبًا إلى حد كبير. إنه يعلّمنا درس الفلسفة الرواقية القائل إن هناك آلامًا لا بد من توقّعها؛ وهي آلام من المحتمل كثيرًا أن ترافق التقدّم السياسي. إنه يعلمنا درسًا واقعيًا بعيدًا عن أية صفة محلية: بطبيعة الحال، ستكون في كل من السياسة والمجتمع الديمقراطيين أمور سيئة جدًا، فلا تسمحوا لهذا بأن يدهشكم أو يصدّكم؛ ولا تكن لديكم توقعات غير صحيحة.

إن الأمل وقودٌ سرّيٌ للغضب والإحباط (هذا لأن من المتفق عليه أن الأمور يمكن أن تأتي مختلفة جدًا عما نتوقعه). فمن خلال إخبارنا -بهدوء وفهم- أن في الديمقراطية عيوبًا كبرى، يحاول دي توكفيل أن يخلق لدينا تفاؤلًا استراتيجيًا. أمر طبيعي أن تكون السياسة بشعة جدًّا من بعض النواحي المهمّة. لكن هذا ليس لأننا نفعل شيئًا خاطئًا جدًّا! إنه الثمن الذي ندفعه (الذي ينبغي أن نكون مستعدين لدفعه) عندما نعطي الناس جميعًا سلطة لا حدود لها.

ماكس فيبر

(Max Weber)

1920 - 1864



ماكس فيبر واحد من أربعة فلاسفة هم الأقدر على أن يشرحوا لنا النظام الاقتصادي العجيب الذي نعيش فيه وندعوه رأسمالية (الثلاثة الآخرون هم: إميل دوركهايم، وكارل ماكس، وآدم سميث).

ولد ماكس فيبر في ألمانيا سنة 1864، وكبُر وهو يرى بلاده تهتزّ نتيجة التغيرات الدراماتيكية التي أطلقتها الثورة الصناعية: تنمو المدن نموًا انفجاريًا، وتنشأ شركات كبيرة جدًّا، وتتشكّل نخبة إدارية جديدة تحل محل الطبقة الأرستقراطية القديمة. كان والد فيبر ناجحًا في كلٍّ من الأعمال والسياسة؛ وقد حقّق في هذا العهد ثروة كبيرة، فأورث ابنه مالًا أتاح له الاستقلالية اللازمة لكي يصير كاتبًا. وأما والدته فكانت شخصية منعزلة كئيبة الطبع تلزم بيتها أكثر الوقت، فضلًا عن تمسّكها بنسخة من الإيمان المسيحي متّسمة بالتقى الشديد والتزمّت الجنسي.

صار فيبر أكاديميًا ناجحًا في سن مبكرة. وفي لقاء عائلي جرى عندما كان في أواسط الثلاثينيات، نشبت مشادّة كبيرة بينه وبين والده عندما احتجّ الابن على أسلوبه في تعامله مع أمّه. مات والد فيبر بعد ذلك بفترة قصيرة، فظن ابنه أنه كان سببًا في موته من غير أن يقصد ذلك. ألقى به هذا الظنّ في حالة من القلق والاكتئاب الشديدين. اضطر فيبر إلى ترك عمله الجامعي وظل مستلقيًا أكثر وقته على الأريكة في صمت تام. استمر ذلك سنتين.

اتضح له أن زوجته ماريان غير مفيدة له، مثل أمّه. ظل زواجهما خاليًا من الجنس، زاخرًا بشكاوى عُصابية من الجانبين. بدأ مسار فيبر في اتجاه التعافي الذهني بعد علاقة عاطفية مُحرِّرَة مع طالبة متحرّرة جنسيًا عمرها تسعة عشر عامًا. كان اسمها إلزه فون إيرختهوفن (وكانت أختها فريدا المماثلة لها من حيث الطباع زوجة الروائي د. هـ. لورنس). لقد عاش ماكس فيبر حياة من ذلك النوع الذي وُلِد معاصرُه فرويد من أجل دراسته.

ظل فيبر مجهولًا إلى حد كبير طيلة حياته. لكن شهرته شهدت اتساعًا سريعًا جدًا بعد ذلك - هذا لأنه كان أول من طرح عددًا من الأفكار المفتاحية في فهم آليات عمل الرأسمالية ومستقبلها.

1 ـ لماذا وُجدت الرأسمالية؟

قد تبدو الرأسمالية لنا أمرًا عاديًا، أو أمرًا لا سبيل إلى تجنّبه - لكنها ليست كذلك، بالطبع! لم تظهر الرأسمالية إلّا منذ فترة قريبة نسبيًا، وذلك بالمعنى التاريخي؛ ولم

تنجح في إرساء جهودها إلّا في عدد من البلدان. النظرة الشائعة هي أن الرأسمالية أتت نتيجة تطور التكنولوجيا (اختراع المحرّك البخاري خاصّة).

لكن ماكس فيبر ذهب إلى أنَّ منظومةً من الأفكار هي ما جعل ظهور الرأسمالية ممكنًا، لا المكتشفات العلمية - كان يعني بهذا أفكارًا دينية على وجه الخصوص.

الدين هو ما جعل الرأسمالية تظهر. لكنه ليس أي دين، بل نوعٌ بعينه من المسيحية غير الكاثوليكية ازدهر في شمال أوروبا حيث ظهرت الرأسمالية واستمرّت ناشطة نشاطًا متميزًا. كانت البروتستانتية صانعةَ الرأسمالية، وخاصة المذهب الكالفيني الذي ابتدأه جون كالفن في جنيف، وابتدأه في إنكلترا مريدوه الذين حملوا اسم «البيوريتانيون».

في كتابه الكبير «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» الصادر سنة 1905، يبسط فيبر عددًا من الأسباب التي حملته على الاعتقاد بأن المسيحية البروتستانتية كانت عاملًا حاسم الأهمية في نشوء الرأسمالية:

1) تجعلك البروتستانتية في حالة دائمة من الإحساس بالذنب:

إن أمور الكاثوليك سهلة نسبيًا، بحسب رأي فيبر. فالمؤمن الذي يقع في ضلالةٍ قادرٌ دائمًا على التخفف من خطيئته عبر شَعيرةِ الاعتراف حيث «يُطهّره» القساوسة فيستعيد حظوته في عين الرّب. لكن البروتستانتية لا تتيح هذا النوع من التطهّر لأن الرّب وحده من يستطيع الغفران، ولأنه لن يفصح عن مقاصده إلى أن يأتي يوم الحساب. وإلى ذلك الوقت -كما قال فيبر - يظل البروتستانتيون متروكين مع إحساس شديد بالقلق، إلى جانب رغبةٍ ناجمة عن إحساسهم بالذنب تلازمهم طيلة الحياة: رغبةٌ في إثبات فضيلتهم أمام ربّ شديد العقاب، يرى كل شيء لكنه يظل صامتًا.

2) الرّب يحب الجدَّ في العمل:

يرى فيبر أن الإحساس البروتستانتي بالذنب انقلب إلى تمسك وسْواسي بالعمل الجاد. لا سبيل إلى محو خطايا آدم إلّا بالكدح المستمرّ. فالاسترخاء والراحة والذهاب إلى الصيد -هذا ما كان الأرستقراطيون الكاثوليك يحبون كثيرًا أن يفعلوه- سعيٌ إلى اكتساب غضب السماء. ليس من المصادفة في شيء أن تكون أيام العطلة والمهرجانات أقل عددًا بكثير، في البروتستانتية. لا يحب الرّبّ وقت الاستراحة. والمال ليس موجودًا من أجل تبديده على الولائم المقامة احتفالًا بـ«هنا» و«الآن». وظيفة المال دائمًا هي أن يُستثمر من أجل الغد؛ ولا وظيفة أخرى له.

3) العمل مقدّسٌ كلّه:

تقتصر النظرة الكاثوليكية إلى العمل المقدّس على نشاطات يمارسها رجال الدين.

لكن البروتستانت أعلنوا وجوب العمل باسم الرب، مهما يكن نوع العمل... حتى إن كان المرء يعمل خبّازًا أو محاسبًا. وهذا ما بث حماسة وطاقة أخلاقية جديدتين في فروع الحياة المهنيّة كلّها. ما عاد المال مجرّد سبيل إلى كسب العيش، بل هو الآن جزء من واجب ديني متّصل بإثبات المرء إيمانَه أمام الرّب. صار على الموظّف أن يباشر عمله في المكتب بكل جدّية وورع، كأنه راهب.

4) الأهمّية للجماعة لا للعائلة:

كانت العائلة كلّ شيء في البلدان الكاثوليكية (ولا تزال كذلك في حالات كثيرة). إن كانت لدى المرء وظيفة، فعادة ما يمنحها لواحد من أقاربه؛ وهو يساعد أعمامه الكسالى، ويحتال قليلًا على السلطات المركزية من أجل تحقيق مكاسب عائلية من غير قدر كبير من وخز الضمير. لكن نظرة البروتستانت إلى العائلة كانت أقل من ذلك تحبيذًا. من الممكن أن تكون العائلة جنّةً من وجهة نظر الدوافع الذاتية الأنانية التي هي مخالفة لوصايا يسوع القائلة إن على المسيحي أن يكون مهتمًا بأسرة المؤمنين كلّها، لا بأفراد عائلته وحدهم. وفي أعين البروتستانت الأوائل، كان على الفرد أن يوجّه طاقاته البريئة من الأنانية صوب الجماعة كلّها، أي صوب الحيّز العام الذي يستحقُّ كلُّ فرد فيه الإنصاف والكرامة. وأما تمسّك المرء بعائلته في مواجهته مطالب الجماعة الواسعة ومصالحها، فهو ليس إلّا خطيئة. لقد حان وقت التخلي عن الاهتمامات الذاتية الضيقة و«الولاء للعشيرة».

5) لا وجود للمعجزات:

أدارت البروتستانتية ظهرها إلى المعجزات. وما كانت ترى أن الرب «يتحكّم بالمفاتيح» بصورة يومية من خلف ستار. لا يمكن أن تكون للأدعية استجابة مباشرة. ولا تتدخّل القوة الربّانية بهذه الطرق الطفولية العجيبة. أطلق فيبر على هذا «إزالة السّحر عن العالم». بدلًا من ذلك كلّه، ينصبُّ تركيز الفلسفة البروتستانتية على أفعال الإنسان: عالمنا اليومي تحكُمه حقائق ومنطق وقوانين علمية نستطيع اكتشافها. من هنا، لا يأتي الرخاء هبةً من الرّب عبر سبُل غامضة، وليس الفوز به عبر الأدعية والتضرّع مستطاعًا. لا يمكن أن يأتي الرخاء إلّا نتيجة التفكير المنهجي، والفعل الصادق، والعمل بجد وفهم على امتداد سنين كثيرة.

لقد خلقت هذه العوامل الخمسة معًا، في نظر فيبر، المكونات المحفّزة الحاسمة لنجاح الرأسمالية. وفي تحليله هذا، يعارض فيبر كارل ماركس معارضة مباشرة لأن ماركس طرح نظرة مادية إلى الرأسمالية (قال إن التكنولوجيا هي التي خلقت النظام

الاجتماعي الرأسمالي الجديد)، في حين يدفع فيبر الآن بنظرة مثالية (يقول إن منظومة من الأفكار أدّت، في واقع الأمر، إلى خلق الرأسمالية ومنح التكنولوجيا الجديدة والأوضاع المالية الجديدة قوة الدفع الضرورية).

يدور الجدل بين فيبر وماركس من حول دور الدين. لقد رأى ماركس أن الدين «أفيون الشعوب» أي المخدّر الذي يبثّ قبولًا سلبيًا بفظائع الرأسمالية. إلّا أن فيبر قلب هذا الرأي رأسًا على عقب، فالدين عنده هو سبب الرأسمالية، وهو سنَدها الأول. لا يتحمّل الناس الرأسمالية بسبب من الدين، بل يصيرون رأسماليين نتيجة دينهم.

2 - كيف يمكن أن تنشأ الرأسمالية وتتطوّر في العالم كلّه.

إن في العالم الآن قرابة خمسة وثلاثين بلدًا فيها رأسمالية متطوّرة. ولعل الرأسمالية أكثر نجاحًا في ألمانيا التي كانت الميدان الأول لدراسة فيبر. لكن هناك أيضًا مئة وواحدًا وستين بلدًا لا تزال الرأسمالية فيها غير ناجحة تمامًا.

هذا منبع لقدر كبير من الحيرة والكرَب. ففي كل سنة، يجري نقل مليارات الدولارات من العالم الغني إلى العالم الفقير بغية إنفاقها على أدوية الملاريا، وألواح الطاقة الشمسية، ومنح مشاريع الري، وتعليم النساء.

لكن تحليل فيبر يقول لنا إن هذه التدخّلات المادية لن تنجح أبدًا لأن المشكلة ليست مادية، في حقيقة الأمر. ينبغي البدء على مستوى الأفكار. فما ينبغي على البنك الدولي وصندوق النقد الدولي تقديمه إلى أفريقيا جنوب الصحراء ليس مالًا ولا تكنولوجيا، بل أفكارٌ.

في التحليل الفيبري، تعجز بعض البلدان عن إنجاح الرأسمالية لأنه ليس فيها قدر كافٍ من الإحساس بالقلق والذنب؛ فهي مفرطة الإيمان بالمعجزات؛ وهي تفضّل الاحتفال والإنفاق اليوم على الاستثمار من أجل الغد؛ ويشعر أفرادها بأن السرقة من الجماعة بغية إثراء العائلة أمر مقبول مما يجعلهم يؤْثِرون «العشيرة» على الأمة.

لم يقل فيبر إن اعتناق البروتستانتية هو السبيل الوحيد إلى أن يصير البلد رأسماليًا ناجحًا. لكن ما فعلتْه البروتستانتية هو أنها كانت أول من استطاع جعل أفكارٍ بعينها تؤتي ثمارها؛ وتلك أفكارٌ قادرة الآن على العيش خارج إطار الإيديولوجيا الدينية.

لو كان فيبر موجودًا اليوم لنصح الراغبين في نشر الرأسمالية بالتركيز على المُعادِل الحالي للدين: الثقافة. وذلك أن المواقف ووجهات النظر التي تكونُ في أمّة من الأمم، وكذلك آمال تلك الأمّة وإحساسها بمعنى الحياة، هو ما ينتج اقتصادًا مزدهرًا أو متعثّرًا. من هنا، لا ينبغي لطريق إصلاح الاقتصاد الاعتماد على المساعدات المادية، بل على

المساعدات الثقافية. فالسؤال ذو الأهمية الحاسمة في أي اقتصاد ليس سؤالًا عن نسبة التضخّم، بل عمّا يعرضه التلفزيون هذا المساء.

3 - لماذا لا تسير الرأسمالية سيرًا حسنًا في جمهورية الكونغو الديمقراطية (أفقر بلد في العالم)؟

السبب هو -هذا ما يقوله لنا فيبر- أن هذه الأمة عاثرة الحظ لديها عقلية غير صحيحة... عقلية بعيدة كل البعد عن العقلية الألمانية. إنهم مؤمنون بالعشائر، ولديهم تأثّر كبير بما هو سحري، ولا يعتقدون بأن الرّب نفسه يأمرهم بأن يكونوا ميكانيكيين أو حلاقين صادقين في عملهم...

فكرة فيبر هي أن الوصول إلى تجذُّر الرأسمالية في البلدان النامية -بحيث تحقّق منافع الإنتاجية المتعاظمة والثراء المتزايد- لا بد له من النظر في تغيير العقليات الموجودة وإرساء شيء يشبه نسخة مطوّرة من الآراء والمواقف التي كانت في البروتستانتية الكالفينية.

ظهرت هذه الآراء في التنمية العالمية عبر كتابين لماكس فيبر، تناولا دينين، رأى أنهما قليلا المواتاة لتطوّر الرأسمالية إلى أقصى حدٍّ، «دين الهند» و«دين الصين». ففي نظر فيبر، يعطي نظام الطبقات المغلقة في الهندوسية الفردَ موقعًا لا يستطيع الخلاص منه؛ وهذا ما يجعل أي مسعى رأسمالي مستدام أمرًا عقيمًا. إن اعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح «سامسارا» يجعلهم يرون أن ما من شيء مهمٍّ يمكن أن يتغير إلّا في حياة لاحقة. وفي الوقت عينه، تقلّل الإيديولوجيا العشائرية الهندوسية من شأن المسؤولية الفردية، وتشجع على محاباة الأقارب بدلًا من «إعطاء كلِّ ذي حق حقه». إن لهذه الأفكار عواقب اقتصادية؛ وهي السبب -كما يمكن أن يقول فيبر اليوم- في وجود مستشفيات عامّة في جنيف وإيرفورت، وقلّة تلك المستشفيات في مدينتي تشيناي وفارانايسي الهنديتين.

لاحظ فيبر أن في الصين أيضًا عوامل غير مواتية على غرار تلك الموجودة في الهند. فالديانة الكونفوشيوسية تعطي الدين اهتمامًا زائدًا كثيرًا. لا يشعر أحد بالقدرة على إعادة التفكير في طريقة فعل أي أمر من الأمور. كما أن شدة الولاء للبيروقراطية تشجّع على بقاء المجتمع ساكنًا... في حين أن روح ريادة الأعمال لا تنشأ إلا من مزيج مثمر من الأمل والقلق.

4 - كيف السبيل إلى تغيير العالم؟

كان فيبر يكتب في زمن ثوري. وكان من حوله بشر كثيرون يحاولون تغيير الأشياء:

شيوعيون، واشتراكيون، وفوضيون، وقوميون، وانفصاليون. وهو بدوره، أراد أن تتغيّر الأمور؛ لكنه رأى أن على المرء أن يفهم أولًا كيف تُدار السلطة السياسية في العالم.

لقد رأى أن البشرية مرّت في تاريخها بثلاثة أنماط متمايزة من السلطة. كانت المجتمعات الأقدم عهدًا تعمل وفق ما أسماه «السلطة التقليدية». وتلك هي الحالة التي كان الملوك يعتمدون فيها على جاذبية الفولكلوري والمقدّس لتبرير إمساكهم بالسلطة. كانت في تلك المجتمعات عطالة عميقة جدًا نادرًا ما تسمح بأي قدر من المبادرة.

ثم حلّ محلّ تلك المجتمعات عصر «السلطة الكاريزمية» حيث يستطيع شخص ذو صفات بطولية -نابليون من أشهر الأمثلة- أن يصل إلى السلطة معتمدًا على جاذبيته الشخصية فيغير كل شيء من حوله باستخدام الحماسة وقوة الإرادة.

لكن فيبر يصرّ على أننا تجاوزنا تلك الفترة من التاريخ تجاوزًا تامًّا وصرنا في عصر ثالث هو عصر «السلطة البيروقراطية». تكون السلطة كامنة هنا لدى بيروقراطياتٍ أشبهُ بالمتاهة يقف المواطن العادي في حيرة تامّة أمام طرائق عملها. ليس واضحًا للمواطن ما يفعله أولئك الموظّفون في لقاءاتهم، وعلى مكاتبهم. تُحرز البيروقراطية سلطتها عن طريق المعرفة: فالبيروقراطيون وحدهم يعرفون كيف تجري الأمور، في حين لا بد لأيّ دخيل من سنوات طويلة حتى يفهم ذلك (مثلًا، كيف يتم وضع سياسة الإسكان أو تقرير المنهاج الدراسي). من الأسهل أن يقلع المرء عن المحاولة... وهذا مناسب للسلطات القائمة.

إن لتسيّدِ البيروقراطية تبعاتٍ كبرى بالنسبة إلى كل من يحاول تغيير أمة من الأمم. كثيرًا ما تكون هناك رغبة مفهومة، لكنها مضلّلة، في تصور أن تغيير القائد أمرٌ كافٍ، وذلك نتيجة تخيلِهِ نوعًا من «أبٍ خارق» يقرّر شخصيًا مجرى كل أمر من الأمور. وأما الواقع، فإن إزاحة القائد لا يكونُ لها أبدًا أيّ أثر يقترب من الآمال. (على سبيل المثال، لم يُفضِ حلول أوباما محل بوش إلى التغييرات كلّها التي توقّعها كثيرون من الناس؛ لكن هذَا ما كان أمرًا يمكن أن يثير دهشة فيبر).

أدرك فيبر أنه لا يمكن إحداث أي تغيير اجتماعي مهم عن طريق الكاريزما وحدها. من الممكن أن يشعر الناس بأن التغيير السياسي ينبغي أن يكون مدفوعًا بخطابات نارية، ومسيرات، وانفجارات غضب، وأعمال كبيرة ومثيرة من قبيل نشر كتاب ثوري يحقق مبيعات كبيرة جدًا. لكن فيبر متشائم إزاء هذه الآمال كلها لأنها غير منسجمة مع واقع كيفية اشتغال العالم الحديث. السبيل الوحيد للتغلب على القوة الكامنة بين يدي البيروقراطية هي المعرفة والتنظيم المنهجي.

يدعونا فيبر إلى رؤية أن التغيير ليس مستحيلًا بقدر ما هو بطيء ومعقّد. إذا كان لنا أن ندفع بالأمور إلى التحسّن، فإن القسم الأكبر من هذا الهدف يتحقّق عن طريق عمليات غير مثيرة أبدًا في ظاهرها. يحدث التغيير من خلال التنقيب المتأنّي في المعلومات والإحصاءات، ومن خلال الخلاصات المتراكمة بصبر المقدّمة إلى الوزراء، والشهادات المقدّمة إلى اجتماعات اللجان، والدراسات المدقّقة في أجزاء الموازنات.

خلاصة

كان فيبر شخصًا شديد الحذر من الناحية الشخصية، لكنه مصدرٌ مفاجئ للمعلومات في ما يخصّ كيفية تغيير الأمور. فهو يخبرنا كيف تعمل السلطة الآن، ويذكّرنا بأن الأفكار قد تكون أهم كثيرًا من الأدوات، أو من المال، عندما نريد إحداث تغيير في الأمم. هذه أطروحة ذات أهمية كبيرة جدًا. نعرف الآن أن الكثير الكثير مما ننسبه إلى قوى خارجية كبيرة غير مشخّصة (هذا ما يجعلنا نشعر بأنها خارج أية قدرة لنا على التحكّم بها) ليس في واقع الأمر إلّا شيئًا معتمدًا على ما هو لصيقٌ بنا إلى أقصى حد، بل لعله الشيء الأكثر قابلية لإعادة التشكيل: إنه الأفكار التي في رؤوسنا.

إميل دوركهايم

(Émile Durkheim)

1917 - 1858



إميل دوركهايم، أقدر الفلاسفة على مساعدتنا في فهم سبب أن الرأسمالية تجعلنا أكثر غنًى، لكننا أكثر بؤسًا في أحيانٍ كثيرة؛ بل إنها تدفع الناس -في حالات كثيرة- إلى الانتحار.

ولد دوركهايم في سنة 1858 في مدينة فرنسية صغيرة قريبة من الحدود الألمانية اسمها إيبنال. كانت عائلته من اليهود المتمسكين بالدين. ومع أن دوركهايم نفسه لم يكن مؤمنًا بالرّب، فقد كان على الدوام مفتونًا بالدين، متفهّمًا له. كان طالبًا ذكيًا درس في مدرسة «إيكول نورمال سوبيريور» في باريس، وسافر إلى ألمانيا حينًا من الزمن، ثم تولى منصبًا جامعيًا في بوردو. تزوّج وأنجب طفلين: ماري وأندريه. وقبل بلوغه سن الأربعين، جرى تعيينه في منصب أكاديمي مرموق: صار أستاذًا في جامعة السوربون. صار صاحب مكانة وامتياز، لكن عقله ظل عقلًا غير تقليدي؛ وظلّ ذا فضول يصعب إشباعه. مات بسكتة دماغية سنة 1917.

عاش دوركهايم زمن تحول فرنسا الواسع السريع من مجتمع زراعي تقليدي إلى حدٍّ كبيرٍ إلى اقتصاد صناعي مديني. كان يرى أن بلده يغدو أكثر ثراء، وأن الرأسمالية ذات إنتاجية استثنائية، وأنها أيضًا تحرّر الناس (من بعض النواحي). لكن ما كان صادمًا له على وجه الخصوص، وصار مركز حياته العملية كلها، هو التكاليف النفسية للرأسمالية. لعل النظام الاقتصادي قد خلق طبقة وسطى جديدة كل الجدة، لكنه كان يفعل لعقول الناس شيئًا شديد الغرابة. إنه يدفعهم -بالمعنى الحَرفي تمامًا إلى الانتحار بأعداد متزايدة دائمًا.

كانت تلك هي الفكرة المتبصّرة الكبيرة التي تبدَّت في أهم أعمال دوركهايم، «الانتحار»، الذي صدر في سنة 1897. سجّل هذا الكتاب كشفًا مأساويًا كبير الأهمية: تتصاعد نسب الانتحار تصاعدًا سريعًا عندما يصير البلد صناعيًا وتسوده الرأسمالية الاستهلاكية. لاحظ دوركهايم أن نسبة الانتحار في بريطانيا في زمانه بلغت ضعفي نسبة الانتحار في إيطاليا؛ وأما في الدانمارك التي كانت أكثر تقدّمًا وغنى، فقد بلغت نسبة الانتحار أربعة أضعاف النسبة البريطانية. فضلًا عن هذا، كانت نسب الانتحار لدى المتعلّمين أعلى كثيرًا منها في صفوف غير المتعلمين؛ وكانت عند البروتستانت أعلى كثيرًا مما هي في البلاد الكاثوليكية؛ ثم إنها أعلى كثيرًا عند الطبقات الوسطى بالمقارنة مع الفقراء.

أراد دوركهايم من تركيزه على الانتحار أن يلقي ضوءًا على أمر أكثر عمومية هو مستوى التعاسة والقنوط في المجتمع بشكل عام. لم يكن الانتحار إلّا القمّة المخيفة لجبل الجليد، أي للمعاناة الذهنية التي تخلقها الرأسمالية.

حاول دوركهايم خلال عمله كلّه تفسير ما يجعل الناس في المجتمعات الحديثة تعساء إلى هذا الحد على الرغم من تمتّعهم بفرص أوسع وبقدرة أكبر في الحصول على السلع بكميات ما كان أسلافُهم يحلمون بها. وقد أبرز خمسة عوامل فائقة الأهمية:

1 ـ النزعة الفردية

في المجتمعات التقليدية، تكون هويات الناس على ارتباط وثيق بانتمائهم إلى عشيرة أو طبقة. فمواقفهم ومعتقداتهم وعملهم ومكانتهم كلّها تابعة تلقائيًا لحقائق مولدهم. الخيارات المتاحة قليلة: قد يكون الشّخص خبّازًا لوثريًا متزوّجًا من واحدة من أقربائه المباشرين، وذلك حتى من غير أن يتّخذ في تلك الأمور كلّها أي قرار يصل إليه بنفسه. إنه يجلس في المكان الذي أعدّته له عائلته والنسيج الاجتماعي الذي هو موجود فيه.

وأما في ظل الرأسمالية، فقد صار الفرد الآن - لا العشيرة، والمجتمع، ولا الأمة - هو من يختار كل شيء: العمل الذي يكون فيه، والدين الذي يعتنقه، وكيف يتزوّج... إن هذه «النزعة الفردية» ترغمنا على أن نكون صانعي أقدارنا. ويصير المجرى الذي تتخذه حياتنا انعكاسًا لما عندنا من خصائص ومهارات ومثابرة.

إن اتخذت الأمور وجهة حسنة، فنحن أصحاب الفضل. وأما إذا اتخذت وجهة سيئة، فإن الأمر يصير أكثر قسوة من أي وقت مضى لأن ما من أحد غيرنا نستطيع لومه. علينا أن نتحمل المسؤولية كاملة. لم يعد الأمر متعلّقًا بالحظ، أو بقلّة الحظ: لقد اخترنا، وفشلنا! تُطلق الرأسمالية نزوعًا إلى عدم الإقرار بأي دور للحظ في حياتنا. ويصير فشلُ المرء حكمًا مخيفًا يصدره بنفسه على نفسه. هذا هو عبء الحياة الذي يُميّز الرأسمالية الحديثة.

2 ـ الآمال المفرطة

ترفع الرأسمالية سوية آمالنا. ويستطيع أي كان أن يصير هو «الزعيم» إن بذل الجهد الكافي. ينبغي على كل إنسان أن يضع لنفسه هدفًا كبيرًا. تقول الرأسمالية إنك لم تعد مربوطًا بالماضي، وإنك حر في إعادة صنع حياتك. وتُطلق الإعلانات شرارة الطموح لأنها تُرينا رفاهية لا حدود لها نستطيع جعلها ملكًا لنا في أقرب الآجال (إذا لعبنا أوراقنا كما ينبغي). تتنامى الفرص، وتصير عظيمة... مثلما تتنامى احتمالات الخيبة.

يتنامى الحسد ويصير على أشدّه. ينشأ في نفس المرء عدم رضا عميق إزاء ما يحصل عليه، لا لأنه سيّئ من الناحية الموضوعية، بل نتيجة أفكاره المعذِّبة عن كل ما هو قريب من متناول اليد (لكنه ليس في متناولها تمامًا). كان ما تشيعُه الرأسمالية من حماسة مفرطة غير نقدية مصدرَ غضب خاص عند دوركهايم؛ ففي رأيه تجدُ المجتمعات الحديثة صعوبة كبيرة في الإقرار بأن الحياة كثيرًا ما تكون مؤلمة، وكثيرًا ما تكون حزينة... بكل بساطة. لقد جُعلت ميولنا إلى الأسف والأسى تبدو كأنها علامات على فشلنا، وليس كما ينبغي لها أن تكون: استجاباتٌ منطقية لحقائق الشرط البشري التي ترهقنا.

3 ـ لدينا قدر زائد من الحرية

كان من بين أسباب الشكوى من المجتمعات التقليدية -عبّر الأدب الرومانسي تعبيرًا قويًا عن ذلك- أن الناس في حاجة إلى مزيد من «الحرية». وكان الأشخاص المتمرّدون يشتكون كثرة المعايير الاجتماعية: يُملي عليك المجتمع ما ترتديه، وما ينبغي عليك أن تفعله في أمسيات يوم الأحد، والقدر الجائز للمرأة أن تظهره من ذراعيها...

تابعت الرأسمالية مساعي المتمردين الرومانسيين السابقة عليها، فهدمت المعايير الاجتماعية من غير هوادة. صارت الدول أكثر تعقيدًا، وأكثرت تنوّعًا وابتعادًا عن الصفة الشخصية. وما عادت بين الناس أشياء مشتركة كثيرة مثلما كان من قبل. وكفّت عن العمل تلك المعايير والقواعد التي كانت تستبطن عقول الناس في ما مضى.

ما نوع المسار المهني الذي ينبغي عليك اتخاذه؟ وأين ينبغي أن تذهب؟ وما نوع العطلة التي ينبغي أن تذهب إليها؟ وكيف يفترض بالزواج أن يكون؟ وكيف تربّي أطفالك؟... في ظل الرأسمالية، صارت الإجابات الجمعيّة ضعيفةً، وصارت أقلّ تحديدًا. وظهر قدر كبير من الثقة في عبارة: «ما تراه مناسبًا لك». يبدو هذا أمرًا لطيفًا؛ لكنه يعني أيضًا أن المجتمع ما عاد مباليًا كثيرًا بما تفعله، وما عاد يشعر بالثقة في أن لديه إجابات وجيهة عن الأسئلة الكبرى في حياتك.

نُحب أن نفكّر في لحظات ثقتنا الكبيرة بأنفسنا في أننا مؤهّلون تمامًا لمهمة إعادة اختراع حياتنا، أو لفعل كل شيء انطلاقًا من ذاتنا. لكن دوركهايم أدرك أننا، في واقع الأمر، كثيرًا ما نكون أكثر إرهاقًا وانشغالًا وحيرة من أن نكون قادرين على ذلك... وأدرك أنّ ما من شيء نستطيع اللجوء إليه.

4 ـ موقفه من الإلحاد

لم يكن دوركهايم شخصًا مؤمنًا؛ لكن ما أثار قلقه هو أن الدّين لم يصِرْ غير قادر

على إقناع الناس إلّا في لحظةِ نشوء حاجة كبيرة إلى أن تتولى جوانبُه المتعلقة بالحياة الجمعية إصلاح النسيج الاجتماعي المتهتك. وعلى الرغم مما في الدين من مشاكل حقيقية، بحسب دوركهايم، فقد كان لديه تقدير كبير للحسّ الجمعي الذي يوفّره التديّن: «منح الدين الناس تصورًا عن عالم أعلى من هذه الأرض يكون فيه كل شيء على أحسن وجه. وقد جعل هذا المنظورُ مظاهرَ انعدام المساواة أقل وضوحًا، وحال دون شعور الناس بأنهم مظلومون».

كان كارل ماكس يمقت الدّين لاعتقاده بأنه يجعل الناس مستعدّين كثيرًا لقبول اللامساواة. لقد اعتبره «أفيونًا» مخدرًا للألم ويوهن الإرادة. إلّا أن هذا الانتقاد الموجّه إلى الدين كان قائمًا على قناعة مفادها أن صنع عالم تسوده المساواة لن يكون أمرًا شديد الصعوبة، مما يعني أن من الممكن الاستغناء عن ذلك المخدر من غير أية مشكلة.

تبنّى دوركهايم وجهة نظر أكثر تشاؤمًا تقول إن استئصال قلّة المساواة سيكون أمرًا شديد الصعوبة (بل لعله يكون مهمّة مستحيلة)؛ وهذا يعني أن علينا أن نتعلم -بشكل من الأشكال- كيف نتعايش معها. هذا ما قاده إلى إبداء حماسة أكثر دفئًا إزاء أية أفكار قادرة على تخفيف وقع الضربات النفسية التي يوجّهها الواقع إلينا.

رأى دوركهايم أيضًا أن الدّين خلق روابط عميقة بين الناس. يعبد الملك والفلاحون الرّب نفسه، ويصلّون في المعابد نفسها، ويستخدمون في صلاتهم الكلمات نفسها. وفي المسيحية، يتلقّون «الأسرار المقدّسة» نفسها التي يتلقاها ملوكُهم. وما كان للثروة والمكانة والسلطة قيمة روحية مباشرة.

ليس لدى الرأسمالية ما تستعيض به عن هذا. ومن الواضح أن العلم لا يتيح الفرص نفسها لنشوء تجارب وخبرات مشتركة ذات قوة كافية. من الممكن جدًا أن يكون «الجدول الدوري للعناصر» أمرًا بالغ الجمال، وأن يكون أعجوبة من أعاجيب الروعة العقلية - لكنه غير قادر على شدّ المجتمع وحشده معًا من حوله.

كان دوركهايم مفتونًا على نحو خاص بالشعائر الدينية المتقنة التي تستلزم مشاركة الناس وتخلق لديهم حسًا قويًا بالانتماء. قد تعبد قبيلة من القبائل طوطمها؛ وقد يمر الذكور بعملية معقدة من مراسم الدخول إلى عالم الرجال البالغين. لكن المأساة -في نظر دوركهايم- متمثّلة في أننا تخلّينا عن الدين عند تلك اللحظة عينها التي صرنا فيها محتاجين كثيرًا إلى ما فيه من أبعادٍ مواسيةٍ جمعيّة، ولم نجد شيئًا نُحِلُّه محله.

5 ـ إضعاف الأمّة والعائلة

في بعض لحظات القرن التاسع عشر، بدا وكأن فكرة الأمة قد تكتسب قوّة وشدّة

بالغتين، بحيث تعوّض حسّ الانتماء والولاء المشترك الذي كان الدين يوفّره. ومن المعلوم أن لحظات بطولية قد ظهرت، ففي الحرب ضد نابليون، على سبيل المثال، نشأت لدى البروسيين «عبادة» أرض الآباء فجمعتهم كلّهم معًا. لكن دوركهايم أدرك أن الحماسة التي تسود الأمة وقت الحرب سرعان ما تعجز وقت السلم عن ترجمة نفسها إلى شيء كبير الأثر.

وعلى غرار ذلك، من الممكن أن تبدو العائلة قادرة على توفير حسّ الانتماء الذي نحن في حاجة إليه، لكن دوركهايم كان غير مقنع بهذا. صحيح أننا نستثمر كثيرًا في عائلاتنا؛ إلّا أنها ليست ثابتة بالقدرالذي نرجوه. ثم إنها لا توفر معبرًا إلى جماعة أكثر اتساعًا.

وعلى نحو متزايد، كفّت «العائلة»، بمعناها التقليدي الموسعّ عن الوجود. اختُصر الأمر إلى شخصين يتّفقان على العيش معًا في بيت واحد، وعلى رعاية طفل أو طفلين، حينًا من الزمن. ثم لا يقبل الأطفال العمل مع والديهم بعد أن يكبروا، ولا يتوقّعون وجود تقاطع كبير بين دائرتهم الاجتماعية ومعارف أهلهم وأصدقائهم، ولا يشعرون بأن «شرف الأهل» بين أيديهم.

ليس إحساسنا الفضفاض بالعائلة، الذي هو الأكثر اتسامًا بالفردية، أمرًا سيئًا بالضرورة. فهو لا يعني أكثر من أنه لم يعد في موقع مناسب لأن ينهض بمهمّة إعطائنا إحساسًا أوسع بالانتماء، أي بمهمة إعطائنا شعورًا بأننا جزء من كلٍّ أكبر منا وأعلى قيمة من ذواتنا.

خلاصة

كان دوركهايم مُعلّمًا في تشخيص عللنا. فهو يرينا أن المجتمعات الحديثة ترتّب على الأفراد ضغوطًا هائلة، لكنها تتركهم محرومين حرمانًا خطيرًا من أيّ سلوانٍ جمعيٍّ أو إرشادٍ يتمتّع بصفة مرجعية.

لا يشعر دوركهايم بأنه قادر على العثور على إجابات عن المسائل التي حدّدها؛ لكنه يعرف أن على الرأسمالية أن تكتشف تلك الإجابات، أو تنهار. نحن الآن ورثة دوركهايم – ولا تزال أمامنا المهمة التي ألقاها على كاهلنا: ابتكار طرق انتماء جديدة بغية تخفيف الضغط الواقع على الفرد، وذلك حتى نعثر على التوازن الصحيح بين الحرية والتضامن، وحتى نولّد إيديولوجيات تسمح لنا بألّا نأخذ فشلنا على محمل شخصي كثيرًا وبألّا ينتهي الأمر نهاية مأساوية ببعض الأحيان.

مارغريت ميد

(Margaret Mead)

1978 ـ 1901



عندما نستخدم كلمة «حديث» لوصف أمر من الأمور، فعادة ما تكون هذه الصفة إيجابية. نحن نقدِّر كثيرًا -بل إننا نبالغ في ذلك أحيانًا المعجزات التي أتى بها العلم الحديث، ومنافع التكنولوجيا الحديثة، بل حتى تفوّق الآراء الحديثة. فماذا لو كنا قد تركنا خلفنا بعض الحقائق المهمّة عن أنفسنا في غمرة استعجالنا صوب مستقبل جديد دائم التحسّن؟ كانت مارغريت ميد واحدة من الشخصيات التي قدمت إلينا أفضل مساعدة في استكشاف هذه المشكلة؛ ولعلها أوسع الأنثروبولوجيين شهرة في القرن العشرين.

ولدت مارغريت ميد في سنة 1901؛ وكانت الكبرى بين خمسة أطفال. كان والدها أستاذًا جامعيًا في المالية، وأمها عالمة اجتماع تدرّس المهاجرين الإيطاليين. ولما كانت أسرة مارغريت تغيّر مكان سكناها كثيرًا، إبّان طفولتها، فقد كانت تذهب إلى المدارس العادية أحيانًا، وتتعلّم في البيت أحيانًا أخرى. عرفتْ أيضًا عددًا من الديانات المختلفة (بسبب تعدّد ديانات أفراد أسرتها)؛ ثم انتهى بها الأمر أخيرًا إلى اختيار الكنيسة الأسقفية (Episcopalian). ولعل تعدّد المعتقدات التي كانت على احتكاك بها، وكذلك ارتيادها مدارس كثيرة، كان له دورٌ في قرارها بأن تدرس الطرق المختلفة في تفكير الناس وتفاعلهم.

درستْ ميد علم النفس في جامعة ديباو، ثم في كلية بارنارد (كان أمرًا غير معتاد كثيرًا وجود نساء في الدراسات العليا)؛ ثم بدأت برنامج الدكتوراه في جامعة كولومبيا في ميدان الأنثروبولوجيا الذي كان جديدًا إلى حدٍّ ما. وكان الأستاذ المشرف عليها، فرانز دويّز، مؤسسَ ذلك التخصّص في الولايات المتحدة. وعلى العكس من الأنثروبولوجيين السابقين الذين تصوروا أن الحضارة تتقدّم في مسار خطّي من «البربرية» إلى «التوحش» إلى «الحضارة»، ذهب دويّز إلى القول بأن العالم زاخر بثقافات منفصلة لكل منها منظوراتها وأفكارها ونواقصها الخاصّة بها. فالعالم الغربي الحديث ليس ذروة الإنجازات البشرية، بل هو واحد من الأمثلة على ما يستطيع بني البشر تحقيقه.

اقترحَ دويّز أن تسافر مارغريت إلى ساموّا التي هي مجموعة جزر بركانية صغيرة استوائية واقعة وسط المحيط الهادي، وذلك لكي تتّخذها ميدانًا لعملها. كان الشطر

الشرقي من ساموّا في ذلك الوقت تحت حكم أميركا، في حينٍ كان شطرها الغربي تحت حكم نيوزيلندا، وكان سكانها يتحولون إلى المسيحية تحولًا بطيئًا. حسِبَ دويّز أن من شأن هذه الرحلة أن تساعد ميد في دراسة «الحضارة البدائية» التي لم يشوّشها بعد نسبيًا العالم المتقدّم تكنولوجيًا، وذلك لكي تبيّن أن لأولئك البشر أفكارهم الخاصّة بهم وثقافتهم المتطوّرة كثيرًا. كانت اهتمامات دويّز منسجمة مع ما لدى ميد من رغبة في دراسة الجماعات البشرية البدائية لاعتقادها بأن تلك الثقافات المعزولة قادرة على لعب دور «مختبرات» من شأنها أن تساهم في الكشف عن المعايير الثقافية الأكثر فائدة وصحّية. كانت مؤمنة أيضًا بأن من الضروري جدًّا فعل ذلك في أسرع وقت لخشيتها من أن الثقافات البدائية معرّضة لزوال سريع، ومن أنها سوف تضيع إلى الأبد.

اعتبارًا من سنة 1925، وحتى بداية الحرب العالمية الثانية، سافرت ميد إلى ساموّا ثم إلى جزر أخرى في النواحي الجنوبية من المحيط الهادي. عاشت بين السكان الأصليين هناك مثلما يعيش الباحث الأنثروبولوجي، وسجّلت أنماط حياتهم. اشتملت الجماعات التي درستها هناك على صيادي أسماك، ومزارعين، وعدد قليل من المتعلّمين. تعلّمت كيف تحمل الأطفال وتتجوّل بهم وهم متعلّقون برقبتها، وكيف ترتدي الملابس المحلية. ما كانت لديها وسيلة للتسجيل غير آلة التصوير الثابتة، فكان أكثر اعتمادها على الذاكرة وعلى الملاحظات المكتوبة باليد - وبطبيعة الحال، ساعدتها قدراتها على تعلّم اللغات المحلية سريعًا فصارت محبوبة لدى السكان الأصليين. وفي واحدة من الجزر، سكنت ميد الشرفة الأمامية في مدخل متجر الأدوية التابع للبحرية (كان ذلك المكان يوفّر لها خصوصية أكثر ما توفّره لها بيوت السكان الأصليين). صار يأتيها زائرون في كلِ ساعة من ساعات الليل والنهار... يأتون أكثر الأحيان من أجل الحديث معها فقط. تعلّمت أن تصير أجنبية لا يرى السكان الأصليون صعوبة في الكلام معها عن شؤونهم من غير حرج.

كشف عمل ميد نقطة ضعف تُميّز المجتمع الحديث: ضعفٌ متصل بالحياة الجنسية. عاشت ميد نفسها حياة غير تقليدية، وكان لها أزواج كثر متعاقبون، أو عدة أزواج معًا، فضلًا عن حبيبة حاضرة دائمًا - كانت أنثروبولوجية شهيرة أخرى اسمها روث بنديكت. كانت ميد ترى أن من الممكن للإنسان أن «يحب أشخاصًا متعدّدين، وأن للعواطف المعبَّر عنها مكانُها في أنماط مختلفة من العلاقات». ولعل حقيقة أن حياة ميد نفسها اشتملت على المثلية الجنسية وتعدّد الأزواج هي ما جعلها تشدّد على أن الثقافات الأخرى كانت تبيح تلك الأمور بسهولة ويسر. كما شدّدت أيضًا على أن هذه الأنماط السلوكية تسمح بوجود علاقة صحيحة بالحب والجنس.

وصفت ميد الحياة الجنسية لدى السكان الأصليين في كتابها الذي صدر سنة 1928 بعنوان «بلوغ سن النضج في ساموّا»، فقالت إن ثقافة ساموّا أكثر انفتاحًا ويسرًا في ما يتعلّق بالجنس. كان ذلك أول كتاب لها وأشهر مشروع بحثي أنجزته، فقد درست فيه فتيات أصغر منها سنًا بسنوات قليلة فقط: مراهقاتٌ على طريق تحوّلهن إلى نساء ناضجات. أرادت أن تعرف إن كان ما تمرّ به المراهقات هناك مختلفًا كثيرًا عما تمرّ به المراهقات في أميركا؛ وإن كان الأمر كذلك، فهل يمكن تعلُّم شيء من تجاربهنّ؟ وفوق ذلك كلّه، أرادت اختبار ما إذا كان «تغيير المجتمعات ممكنًا من خلال تغيير أسلوب تنشئة الأطفال». ما وجدته ميد هو أن الأطفال الصغار هناك يعرفون كل شيء عن العادة السرّية، ويتعلّمون عن طريق الملاحظة المباشرة ما يتعلّق بالجِماع وغيره من الأفعال الجنسية، لكنهم لا يرون في تلك الأمور شيئًا فضائحيًا، أو شيئًا يستدعي التعليق إلّا بقدر ما تستدعيه حوادث عاديةٌ أخرى من قبيل الموت أو الولادة. كانت المِثلية الجنسية حالة عارضة، لكنها بدورها ليست مدعاة للإحساس بالخجل. كما اكتشفت أن توجهات الناس الجنسية تشهد تقلبات طبيعية خلال حياتهم، لكن المجتمع لا يُعرّفهم من خلالها.

لم يكن كثير من الاختلافات التي وجدتها ميد مجرّد مصادفات غريبة، بل ممارسات متكرّرة في أماكن كثيرة. كان الطلاق أيضًا أمرًا شائعًا، لكنه ليس مما يستدعي الخجل - بكل بساطة يقولون إن العلاقة قد «ماتت». وكان حب أكثر من شخص واحد أمرًا مقبولًا لا يرى فيه الناس حالة غير طبيعة أو غير مقبولة. قد تؤدّي الخيانة الزوجية إلى الطلاق، لكن ليس بالضرورة. تصف ميد كيف يمكن في ثقافة ساموّا أن ينال عشيقُ (أو عشيقة)، زوج أو زوجة، الغفران والعفو من جانب الطرف «المُتضرّر»:

> يذهب إلى بيت الرجل الذي أساء إليه؛ ويذهب معه رجال أسرته جميعًا... يجلس هؤلاء أمام البيت، ويبسطون فوق رؤوسهم حُصْرًا جميلة... ينحنون مظهرين أشدّ التواضع والأسف... ومع اقتراب المساء يخرج [الزوج المخدوع] ويقول لهم: «ادخلوا. يكفي هذا. ادخلوا البيت، واشربوا الكافا: كلوا الطعام الذي سأضعه أمامكم. وسوف نُلقي مشكلاتنا في البحر».

رأت ميد أن الحياة الجنسية الشخصية أسهل كثيرًا في ثقافة ساموّا، لأن في تلك الثقافة فهم للجنس وكل ما فيه من صعوبات وتعقيدات على أنه جزء من دورة الحياة الطبيعية، ولأن ثقافتهم قد طوّرت استجابات مفيدة لمعالجة هذه الصعوبات. وعلى سبيل المثال، اكتشفت أن هذه المعايير تجعل ما تواجهه فتيات ساموّا في فترة المراهقة

أقل صعوبة مما تواجهه فتيات أميركا؛ وهذا نتيجة قلّة المسؤوليات الواقعة على فتيات ساموّا، ونتيجة قلّة الضغط الممارَس عليهنّ لحملهنّ على الالتزام بنوع بعينه من الحياة الجنسية. لا ضغوط عليهنّ للامتناع عن الجنس، ولا لبلوغ «نقاط علام» بعينها، كأن يكون للفتاة صديق، أو كأن تتزوّج. يعني انقلاب الآية في أميركا أن تعرُّضَ المراهقات الأميركيات لضغوط كبيرة أمرٌ ناتج عن طبيعة كون المرء أميركيًا، لا عن المرور بسن المراهقة في حدّ ذاته.

تتطرّق ميد هنا إلى نقد عميق لثقافتنا. لقد رأت حياة الأميركيين في زمانها، حيث يترعرع الناس محرومين من أية معرفة بالولادة والحب والموت، ثم «يستعجل خطواتهم مجتمعٌ لا يترك المراهقين يسيرون وفق إيقاعهم الخاص بهم، بل يحبسهم في أسرة صغيرة هشّة لا مهرب لهم منها، ولا يجدون فيها إلّا قدرًا قليلًا من الأمان». على الرغم من التغيّرات الكبيرة التي شهدتها أميركا والمجتمع الغربي، تظلّ أفكار ميد صالحة من نواحٍ كثيرة. لا يزال مراهقونا معرّضين للضغوط حتى يتقيدوا بأنماط بعينها من السلوك الجِنسي والاجتماعي؛ وهذه الضغوط، إلى جانب ضغوط أخرى نعيشها زمنًا طويلًا بعد نضجنا، تجعل حياتنا أكثر صعوبة وأكثر خواء مما يمكن أن تكونه من غير وجودها. لا تسمح لنا حياتنا الحديثة بأن نكون أحرارًا في الحب والجنس، وبأن نكون متعدّدي الجوانب ومنفتحين على التغيير، مثلما تسمح ثقافات أخرى بذلك.

كشفت ميد أيضًا أن السلوك البشري في ما يتعلق بنوع الجنس (Gender) فيه تنوّع كبيرًا من ثقافة لأخرى؛ وهو تنوّع أكبر كثيرًا مما كان الأميركيون في زمانها قادرين على تخيّله. فعلى سبيل المثال، كان الأميركيون يعتبرون الرجال، منتجين، عاقلين، أكثر ميلًا إلى العدوانية؛ في حين يعتبرون النساء أكثر مسالمة ونزوعًا إلى الأمور الصغيرة، وأكثر ميلًا إلى الحنان والرعاية. لكن ميد درست في كتابها «الجنس والطباع في ثلاثة مجتمعات بدائية» (1953) مجموعة قبائل في بابوا/ غينيا الجديدة، فتوصّلت إلى نتائج متباينة تباينًا جذريًا. سجلت أن الرجال والنساء في قبيلة أرابيش مسالمون وميّالون إلى الحب والرعاية، في حين أن الرجال والنساء في قبيلة موندوغومور أشدّ قسوة وعدوانية. ولعل ما يفاجئنا هنا وصف ميد لأهل منطقة تسامبري حيث وجدتِ النساء مهيمنات، ووجدت أن عدوانيتهن تفوق كثيرًا عدوانية الرجال، في حين كان الرجال في حاجة إلى الاعتماد على نسائهن وإلى قدر من المساندة المعنوية. باختصار، تتوصّل ميد إلى أن ما من واحد من هذه الطباع يمثّل الطبيعة البشرية: هي كلّها ليست أكثر من احتمالات تُعلّمها الثقافة المحلّية وتشجّع عليها، أو تُعرِض عنها.

وبطبيعة الحال، كانت النتيجة الباهرة التي توصّلت إليها ميد هي أن الثقافة تحدّد شخصية الفرد إلى حدٍّ أكبر كثيرًا مما كان الناس يظنّون. فليس الجنس هو ما يجعل المرأة تهتم بشعرها أو تصغي إلى مشاعر الآخرين، ولا «العِرق» هو الذي يجعل شعوبًا بعينها أكثر ميلًا إلى مهاجمة جيرانها. إنها المعايير والتوقّعات الاجتماعية التي تتطوّر تطوّرًا بطيئًا عبر القرون فتضع أسُس التركيبة النفسية لكل فرد. تُذكّر ميد قراءَها: «علينا إدراك أن الإمكانيات نفسها موجودة من تحت التصنيفات السطحية للبشر من حيث الجنس والعرق، وأنها إمكانات تتكرّر جيلًا بعد جيل إلى أن تذوي آخر الأمر لأن المجتمع لا يفسح لها مجالًا».

وفي الثقافة الأميركية الحديثة أيضًا، لا مكان لبعض تلك الإمكانيات - فمن هذه الناحية، ليس هذا المجتمع أكثر نجاحًا من أية ثقافة بدائية؛ فقد نفكّر مثلًا في أن الرجال يحبون كرة القدم لأنهم الجنس الأكثر ميلًا إلى الحرب والمواجهة؛ لكن الحقيقة هي أنهم أكثر ميلًا إلى الحرب والمواجهة لأنهم الجنس الذي اعتاد الحرب والمواجهة (نتيجة أسباب اعتباطية، أو نتيجة اتفاق). وعلى نحو مماثل، قد نظنّ أن النساء ترعين الأطفال لأنهنّ ميالات إلى الرعاية بطبيعتهنّ؛ وأما في الواقع، فإنهنّ موَجَّهات إلى هذا الميل إلى الرعاية لأن المجتمع وضع مهمّة تنشئة الأطفال على كاهلهنّ. عندما نتبنّى هذه التوقّعات، ننسى ما نسيته ثقافات أخرى من إمكانيات بشرية في ما يخصّ الرقة والخشونة.

في نقدها هذا، تسير ميد ضمن نسق طويل من المفكّرين الذين أدركوا أن الحضارة المدنية الحديثة، بكل ما فيها من تطوّر تكنولوجي ونمو سريع، قد تترك خلفها بعضًا من جوانب التجربة البشرية - فإما أن تجهلها، أو تسيء فهمها، أو تقلِّل من أهميتها. بهذا المعنى، تشبه ميد فيلسوف جنيف، جان جاك روسّو (1712 - 1778)، الذي وصف البشر بأنهم في الأصل كائنات ذات طبيعة أشد اختلافًا وأشد ميلًا إلى العزلة. فقد رأى روسّو أن الطبيعة البشرية قد تقلّبت بفعل المجتمع مع تطوّر المدنية - وغالبًا ما كانت تقلّباتها تغيّرًا إلى ما هو أسوأ. هذا الإنشاء الصُّنعي للنظام الاجتماعي (من خلال العنف والقمع، أكثر الأحيان) يحُدّ من الإمكانيات البشرية، بحسب روسّو.

تقول ميد بدورها إننا -حتى في وقتنا هذا- نفترض مخطئين أن «الاتفاقات»، التي تحدّث عنها روسّو اتفاقات غير طبيعية. وبفعلنا هذا، نخطئ رؤية احتمالات أكثر اتساعًا، سواء من ناحية تصرّفنا من حيث نحن أفراد، أو من ناحية إعادة تنظيم مجتمعاتنا. وهي ترى أن إقدامنا على دراسة ثقافاتنا - الثقافات البدائية خاصّة لأنها تطوّرت بمعزل عن

ثقافتنا الغربية - يجعلنا قادرين على استكشاف إمكانياتنا المحتملة استكشافًا أفضل. فقد نصير قادرين، مثلًا، على اختيار متى نكون محبّين ومتى نكون عدوانيين، ومتى نطالب بهذا المعيار أو ذاك من معايير السلوك الجنسي؛ وقد نتعلّم كيف نلبّي حاجاتنا المختلفة بطريقة واعية جديرة بالاحترام.

كانت ميد شديدة الاقتناع بأن التفكير في المعايير الثقافية أمر مهم لأن الناس في حاجة إلى أن ترشدهم ثقافتُهم إلى عيش حياة عاطفية وانفعالية أكثر صحّية. لقد تخيّلت أن لدى كل ثقافة شيئًا فريدًا تستطيع أن تساهم به، كما في الأسطورة التي قالت إن القبائل قد طُردت من برج بابل وأعطيت كل منها لغتها الفريدة الخاصة بها: «اختار كل شعب بدائي منظومة من منظومات المواهب البشرية، ومنظومة من منظومات القيم الإنسانية، وصاغ لنفسه فنًا ودينًا وتنظيمًا اجتماعيًا، فشكل هذا كله مساهمته الفريدة في تاريخ الروح البشرية». ليس جمال هذه الاختلافات نابعًا من أن الناس الذين درستهم ميد كانت أمورهم منظّمة أفضل من أمور الأميركيين (كانت بعض الأحيان شديدة الانتقاد للناس الذين درستهم)، بل إن هؤلاء وأولئك قادرون على أن يتعلّموا، كلٌّ من الآخر: «قد يجعلنا هذا نعي أنفسنا من جديد وعيًا نشطًا، وننتقد أنفسنا، فنلتفت إلى رؤية ذواتنا من جديد. وقد نصوغ ما نقدمه إلى أطفالنا من تربية وتعليم صياغة جديدة مختلفة».

والواقع أن ميد تعلّمت الكثير من مواضيع دراساتها الأنثروبولوجية. ومن الأمثلة على ذلك أنها ربّت ابنتها، ماري كاثرين باتيسون، اعتمادًا على بعض ما رأته لدى الشعوب البدائية التي عملت معها. وقد اتفقت مع طبيب جديد هو د. بنيامين سبوك لكي يكون طبيب طفلتها؛ وذلك جزئيًا لأنه كان يشجع اعتماد طرق غير تقليدية، من بينها الإرضاع الوالدي عند الطلب؛ وهذا ما تعلّمته ميد من خلال أبحاثها (صار الإرضاع الوالدي الآن أسلوبًا شائعًا في الغرب، ويعود جزء من الفضل في ذلك إلى الدكتور سبوك).

ما عاد السفر إلى جنوب المحيط الهادئ ممكنًا خلال الحرب العالمية الثانية، فبدأت ميد تدرس ثقافات أكثر «تعقيدًا» كانت من بينها ثقافة مجتمعها نفسه. طُلب منها أيضًا أن تتّجه إلى أبحاث على صلة بالحرب، وذلك أولًا من خلال دراسة كيفية المحافظة على الروح المعنوية أثناء الحرب، ثم دراسة التعقيدات الاجتماعية المرتبطة بتوزيع الأغذية، بل إنها ألّفت كتابًا عن الشخصية القومية الأميركية أسمته «احرص على بقاء البارود جافًا» (1942). وبعون من زوجها غريغوري باتيسون، أسست ميد «معهد الدراسات العابرة للثقافات» بغية التمكن من المضي في دراسة الثقافات الأخرى.

استمرت ميد في عملها مع الجيش الأميركي بعد الحرب، فدرست استجابة الشعب

الروسي للسلطة بغية محاولة توقُّع ما قد يقوم به السوفييت إبّان الحرب الباردة. واصلت شهرتها اتساعها، وكثرت أسفارها التي تلقي فيها المحاضرات وتُعلّم في الجامعات. وعلى امتداد خمسين عامًا -من 1928 حتى موتها في سنة 1978- عملت مع «المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي» في نيويورك بصفة مشرفة على مشاريع المتحف. ألفت عشرين كتابًا، وصارت زميلة في الأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم، وحازت ثماني وعشرين شهادة فخرية. وبعد موتها، نالت «الميدالية الرئاسية للحرية».

ناصرت ميد قضايا سياسية كثيرة، وكافحت ضد الفقر والعنصرية، وأيّدت حقوق النساء. ألّفت كتابًا بينت فيه أن الفروق الكثيرة بين «الأعراق» من حيث الذكاء، تلك الفروق التي كان يقيسها علماء النفس، ناتجةٌ عن المعرفة الثقافية وما تواضَعَ عليه الناس. وكانت تشجّع قراءها ومستمعيها على التفكير في المشكلات الاجتماعية انطلاقًا من أنها مشكلات مشروطة ثقافيًا، أي إنها مسائل يمكن التغلب عليها من خلال جهود وأفكار جديدة. وقد نُقل عنها قول شهير (من المحتمل أن يكون لها): «لا تشُكّوا أبدًا في أن مجموعة صغيرة من أشخاص ملتزمين تستطيع تغيير العالم. والواقع أن ذلك هو الأمر الوحيد الذي أفلح في تغييره حتى يومنا هذا».

ساعد عمل ميد الملتزم أجيالًا من الأميركيين، ومن الناس في كل مكان، في رؤية إمكانيات أكثر اتساعًا أمام القيم الحديثة. وقد اقترحتْ أن ننظر إلى الطبيعة البشرية لا بما هي حقيقة وحيدة شاملة، بل بما هي مشهد دائم التغيّر علينا أن نرتحل عبره حتى نصير أكثر حكمة. وهي تقول: «مثلما يكون من يرتحل بعيدًا عن موطنه أكثر حكمة ممن لم يخرج من باب بيته، فإن معرفة كل منا بثقافة الآخر كفيلة بصقل قدرتنا على النظر إلى ثقافتنا الخاصّة بمزيد من التمعّن والثبات، وعلى تقديرها بمزيد من الحب». عندما نفعل هذا، نصير قادرين على الكشف عن إمكانات بشرية لم تتطوّر بعد، فنساندها بعد أن نسيناها في غمرة اندفاعنا إلى «الحداثة».

تيودور أدورنو

(Theodor Adorno)

1969 - 1903



ولد تيودور فيزنغروند أدورنو في فرانكفورت سنة 1903 لأسرة ثرية مثقّفة. كان أبوه تاجر نبيذ من أصل يهودي، لكنه ترك اليهودية واعتنق المسيحية البروتستانتية عندما التحق بالجامعة. لقد كان ابنه تيودور (دعاه أصدقاؤه المقرّبون تيدي) في يفاعته عازف بيانو لامعًا جدًّا. وإلى أن صار في العشرينيات من عمره، كانت نيته متّجهة إلى أن يصير مؤلّفًا موسيقيًا؛ لكن الأمر انتهى به إلى دراسة الفلسفة. وفي سنة 1934، مُنع من التعليم في ألمانيا لأنه من أصل يهودي. هذا ما جعله ينتقل إلى أكسفورد، ثم إلى نيويورك، ومن بعدها إلى لوس أنجلوس. سحرته الثقافة الاستهلاكية في كاليفورنيا، وأثارت نفوره أيضًا - كانت له أفكار ذات عمق غير مألوف في ما يخصّ استديوات تسمير البشرة والأماكن التي يذهب إليها الناس للتسوّق أو مشاهدة الأفلام من غير النزول من سياراتهم. عاد إلى ألمانيا الغربية بعد انتهاء الحرب، ومات فيها سنة 1969 عن عمر بلغ خمسة وستين عامًا.

كان أدورنو مقتنعًا بأن على أهل الفكر والثقافة أن يتحدوا معًا لتغيير المجتمع؛ وقد كان على صلة وثيقة بمؤسسة رائدة هي «معهد البحوث الاجتماعية» الذي كان صديقه فيليكس ويل مؤسّسه ومموله (كان والد فيليكس تاجرًا حقّق نجاحًا ضخمًا). كان هدف المعهد تطوير فهم نفسي للمشكلات التي تطرحها الرأسمالية الحديثة. إلّا أن تركيزه ما كان متّجهًا إلى المظاهر الاقتصادية القاسية في الحياة بقدر ما انصبَّ على ثقافة الرأسمالية وتركيبتها الذهنية. لفت أدورنو الانتباه إلى طرق مهمّة ثلاث تؤدي الرأسمالية من خلالها إلى إفسادنا، وإلى تدهورنا:

1 - صار وقت الفراغ سامًّا

على الرغم من عدم إهمال أدورنو مسائل من قبيل تشريعات العمل وإعادة النظر في النظام الضريبي، فقد كان مقتنعًا بأن القسط الأكبر من تركيز الفلاسفة التقدّميين ينبغي أن يكون متّجهًا إلى دراسة كيف تفكّر وتشعر الطبقة العاملة والطبقة الوسطى في البلاد المتقدمة - وبشكل خاص، كيفية إمضائها الأمسيات وأيام العطلة الأسبوعية.

كان لأدورنو رأي شديد الطموح في شأن كيفية قضاء وقت الفراغ. «ليس وقتًا من أجل الاسترخاء وإبعاد كل شيء عن ذهن المرء!». قال أدورنو إن هناك غاية عظيمة ينبغي لوقت الفراغ أن يخدمها: إن الوقت الحرّ... والنشاطات الثقافية التي نستطيع أن نهتم بها في هذا الوقت... هو فرصتنا الأهم لتطوير أنفسنا وجعل عقولنا أكثر اتّساعًا،

وهو الوقت الذي نستطيع فيه البحث عن أفضل ما فينا من طبائع واكتساب أدوات جديدة نغيّر بها مجتمعنا. إنه وقت نستطيع فيه مشاهدة أفلام بعينها من شأنها أن تساعدنا في الفهم بقدر أكبر من الوضوح، أو نستطيع فيه أن نقرأ كتب التاريخ والفلسفة القادرة على منحنا رؤى وأفكارًا جديدة في السياسة، أو الإصغاء إلى موسيقى من نوع يكسبنا جرأة على إصلاح أنفسنا وحياتنا الجمْعية.

لكن أدورنو تحسّر لأن وقت الفراغ في العالم الحديث قد وقع في أيدي آلة التسلية الخبيثة فائقة القدرة، تلك المنظومة عميقة الخبث والأذى التي يدعوها «صناعة الثقافة». يحتل هذا المفهوم لديه المكانة نفسها التي يحتلها الدين عند كارل ماركس. فقد رأى أدورنو أن ما في عصرنا الحديث من سينما وتلفزيون ومجلات ووسائل تواصل اجتماعي مصمّمة كلُّها بحيث تبقينا مشتتي الأذهان، عاجزين عن فهم أنفسنا، مفتقرين إلى إرادة تغيير واقعنا السياسي. إن هذا نوعٌ جديد من مخدّر خطير إلى حدٍّ كارثي مطروح على الجمهور.

والأخبارُ واحد من الأمثلة على ذلك؛ فهي تزوّدنا -من حيث الظاهر- بآخر المستجدات في كل ما هو مهمّ. لكن أدورنو يرى أن وظيفتها كامنة في تغذيتنا بمزيج من الهراء والقصص السياسية التي لا تترك أي احتمال لأن نفهم هذا السجن المفتوح الذي نحن موجودون فيه. يزعم الصحافيون، وهم راضون عن أنفسهم كل الرضا، أنهم يعطوننا «الحقائق»؛ لكنهم -هم أنفسهم- أكثر انشغالًا، وأكثر خوفًا من رؤسائهم، وأكثر طيشًا من أن يقدروا على أن يقدّموا لنا هذا الإكسير الشافي. وأما الأفلام، فهي تثير فينا مخاوف ورغبات لا علاقة لها أبدًا بالتحديات الحقيقية التي تواجهنا. فقد نمضي ساعتين من حياتنا في متابعة مغامرات غزوٍ تقوم به كائنات من كوكب آخر في حين تظلّ المصائب الحقيقية التي في عالمنا مهمَلة لا يلتفت أحد إليها. وتعرض المتاحف أعمالًا فنية من غير أن تترك تلك الأعمال تخاطب حاجات الجمهور وتطلعاته. نتجوّل في أروقتها ونعجب صامتين بما يسمّونه «أعمالًا فنّية كبرى»، لكننا نظلّ غير واثقين، في دخائل أنفسنا، من المعنى الحقيقي لهذه الأعمال ومن السبب الذي يحملنا على الاهتمام بها. تحب صناعة الثقافة إبقاءنا على هذه الحال: مشوَّشي الانتباه، مطواعين، مرتبكين، خائفين. وأما الموسيقى والأغاني، فهي تركّز تركيزًا شديدًا على مشاعر تدور كلّها حول فكرة الحب الرومانسي وتقترح علينا مفهومًا أنانيًا مفاده أن السعادة لا يمكن أن تأتي إلّا عندما نلتقي شخصًا متميزًا جدًّا، وذلك بدلًا من أن توقظنا على مباهج المجتمع الذي من حولنا وعلى تعاطف إنساني أوسع اشتمالًا.

كان أدورنو متشدّدًا جدًّا إزاء المُخرَجات الثقافية في زمانه نتيجة إيمانه بالإمكانيات الكبيرة التي تحملها الثقافة. ليس الغرض من الثقافة هو أن تعيننا على تزجية الوقت، أو على إثارة إعجاب جيراننا، أو أن تخدّرنا وتجعلنا نعيش سرورًا وابتهاجًا لحظيين. إنها أداة علاجية قادرة على مواساتنا وفتح بصائرنا، وعلى تغيير مجتمعاتنا. ولا عجب في أن أدورنو كان يصف والت ديزني وصفًا متبصّرًا بأنه أخطر رجل في أميركا.

2 ـ لا تبيعُنا الرأسمالية الأشياء التي نحن في حاجة حقيقية إليها

نتيجة الاتساع الهائل لنطاق السلع الاستهلاكية المتوفّرة في الرأسمالية الحديثة، يكون طبيعيًا افتراضنا أن كل ما يمكن أن نرغب فيه متوفّر. المشكلة الحقيقية التي نفكر فيها -إن كانت هناك مشكلة- هي أن نستطيع دفع ثمنه.

لكن أدورنو أشار إلى أن الصناعة الرأسمالية تحجب عنا حاجاتنا الحقيقية بكل عناية حتى ينتهي بنا الأمر إلى نسيان ما نحن راغبون فيه حقًا، وإلى التحوّل إلى رغبات تصنعها الشركات لنا من غير أي اهتمام برخائنا وحسن حالنا. ومع أننا نظن أنفسنا موجودين في عالم من الوفرة، فإن ما ينبغي أن نتوق إليه حقًا -الرقّة والتفهّم والتبصّر والصفاء- قليل التوفّر جدًا ومفصول عن الاقتصاد فصلًا تامًا.

بدلًا من هذا، تقوم أداة التلاعب الجماهيري في المجتمع الرأسمالي - صناعة الإعلان - باستغلال الأمور التي نتوق إليها ونحتاج إليها بالفعل لكي تبيعنا سلعًا لا ينتُج عنها إلّا أن نصير أكثر فقرًا وأكثر استنزافًا من الناحية النفسية. يعرض علينا إعلانٌ مجموعةً من الأصدقاء يسيرون معًا على شاطئ البحر ويتحدّثون بكل مودّة، أو أسرة خارجة في نزهة يضحك أفرادها كلّهم معًا. تفعل الإعلانات هذا لمعرفتها بأننا توّاقون إلى معاشرة الناس والتواصل معهم. إلّا أن صناعة الإعلان غير مهتمة بتحقيق هذه الرغبات؛ فهي تفضل أن تُبقينا في وحدتنا لكي نواصل الاستهلاك. وهكذا يصل الإعلان إلى نهايته فنجد أنه يدعونا إلى شراء ويسكي معتّق خمسة وعشرين عامًا، أو سيارة قوية إلى حد لا نستطيع معه قيادتها بأقصى سرعتها على أي طريق في العالم.

3 ـ هناك أجِنّةٌ فاشية في كل مكان

كان أدورنو يكتب في فجر عصر الاستبيانات النفسية. وكانت تلك الاستبيانات واسعة الاستخدام في الولايات المتحدة الأميركية حيث استُخدمت لقياس ميول الناس وسلوكهم التجاري.

أثارت فكرة الاستبيانات حماسة أدورنو، فانكبَّ مع واحد من زملائه على تصميم

استبيان من نوع مختلف: استبيان مصمَّم لرصد الفاشيين... لا لرصد فرص بيع مسحوق غسيل جديد.

كان ذلك الاستبيان يطلب من المشاركين تقدير سوية موافقتهم على عبارات من قبيل:

- طاعة السلطة واحترامها أهم الفضائل التي ينبغي أن يتعلمها الأولاد.
- يصعب كثيرًا على شخص وضيع الأصل زريّ الملبَس أن ينسجم مع أشخاص محترمين.
- إن قلّ كلام الناس وكثر عملهم، فسوف يكون الجميع أحسن حالًا.
- عندما يكون لدى الإنسان مشكلة أو أمر مقلق، فمن الأفضل له ألّا يفكر فيه، بل عليه أن يشغل نفسه بما يجعله أكثر ابتهاجًا.

بعد عدد كبير من هذه الاستبيانات، نشأت لدى أدورنو ثقة بأنه قادر على رصد الفاشيين الكامنين في الجيل الجديد. بالنظر إلى المصائب التي عاشتها ألمانيا قبل وقت قصير من ذلك، لا يفاجئنا أن ينصبَّ هذا القدر من اهتمام أدورنو على استبيانه الذي كان يدعوه «مقياس - ف»[1]. إلّا أن هناك درسًا أوسع تطبيقًا، بل أوسع بكثير، يمكن استخلاصه من هذه التجربة. إنه الحاجة إلى تغيير السياسة لا عن طريق التشريعات وإثارة اهتمام الناس فحسب، بل أيضًا عن طريق علم النفس. فعلم النفس سابق على السياسة. قبل زمن طويل من أن يصير شخص من الأشخاص عنصريًا أو كارهًا للمثليين أو سلطويًا شموليًا، فإن من المرجَّح - هذا ما يقترحه أدورنو بطريقته البارعة - أن تكون فيه جوانب من الهشاشة النفسية وقلّة النضج تقعُ على عاتق المجتمع جملةً مهمةُ التصدّي لها ومعالجتها.

بدلًا من ترك المشكلات تتعفّن زمنًا طويلًا لا يبقى بعده من سبيل للتعامل معها غير سبيل القوة (القوة المطبَّقة من خلال الشرطة أو الجيش)، فإن علينا تعلُّم كيفية معالجة الجانب النفسي في الجنون اليومي، وذلك منذ لحظاته الأولى. أرسل أدورنو وفريقه استبيان «مقياس - ف» إلى كل مدرسة في ألمانيا الغربية. لقد كان على فرويد أن يصل إلى هتلر قبل أن يصل إليه الجيش الأحمر والجنرال باتون[2]. ليست المعالجة النفسية تسلية نادرة خاصّة تلجأ إليها الطبقة الوسطى؛ ففي نظر أدورنو ينبغي أن تتخذ المعالجة النفسية موقعها في طليعة التحول الاجتماعي التقدمي.

---

(1) ف = فاشية.

(2) جورج باتون: قائد القوات الأميركية في فرنسا وألمانيا أواخر الحرب العالمية الثانية.

خلاصة

أدرك أدورنو إدراكًا غير معتاد أبدًا أن العقبة الأولى في وجه التقدّم الاجتماعي عقبة ثقافية ونفسية، لا سياسية أو اقتصادية بالمعنى الضيق للتعبير. فالواقع أن لدينا مالًا وموارد ووقتًا ومهارات لكي نضمن أن ينام كل إنسان في بيت جذّاب، وأن نكفَّ عن تخريب كوكبنا، وأن يحصل كل شخص على عمل مُرضٍ ويشعر بمساندة المجتمع له. وأما سبب استمرار معاناتنا، وسبب استمرار كل منا فيٍ أذيّة الآخر، فهو ناتج -أولًا وقبل كل شيء- عن حقيقة أن عقولنا مريضة. هذه هي الفكرة المُحرِّضة دائمًا التي يقدّمها عمل تيودور أدورنو الممتع، الغاضب بطريقته الهادئة.

ريتشل كارسون

(Rachel Carson)

1907 - 1964



ما من شيء طبيعي جدًا في الاهتمام بالطبيعة وحفظها. فقد كان الدافع المعتاد عند البشر -أكثر الأحيان- هو قهر العالم الطبيعي وترويضه: إزالة الغابات، واصطياد الحيوانات، وتجفيف المستنقعات، واستخراج أكثر ما يمكن استخراجه من المعادن التي في باطن الأرض. وعلى امتداد زمن طويل جدًّا، كان هذا كله يبدو أمرًا حميدًا، بل بطوليًا. وكان كل ما يفعله الإنسان يبدو ضئيل الأثر بالمقارنة مع الغزارة والوفرة المتبدّيَيْن في العالم. لكننا صرنا، منذ عهد قريب جدًا، قادرين -بمجموعنا- على الإضرار بكوكبنا واستنزاف موارده.

ثم إننا لا نتعلّم الاهتمام بالطبيعة ورعايتها إلّا إذا توفّر لنا من يوجّه مشاعرنا إلى ذلك: من يشير لنا إلى جمال الفراشة وتعقيدها، وإلى نقاء البحر وقوّته الهائلة، وإلى جلال شجرة السنديان واقتصاديتها.

وقد كانت ريتشل كارسون ذلك الشخص -بالنسبة إلى جيل كامل- وذلك في البلد الذي يسبّب الآن أكبر قدر عرفه البشر من تخريب الطبيعة وتلويثها. كانت عالمة، كاتبة، علّمت مواطنيها الأميركيين، بمفردها تقريبًا، احترام الطبيعة، وإدراك أن ما يفعلونه يدمّرها بمعدلات أسرع مما عرفته أية حضارة سابقة. علّمتهم أنهم سيقعون في مشكلة شديدة الصعوبة إذا لم يغيروا عاداتهم المتغطرسة في أقرب فرصة ممكنة.

للوهلة الأولى، يبدو عمل كارسون إنذارًا بسيطًا مُلحًّا بمخاطر التكنولوجيات الزراعية الحديثة (المواد السامة خاصّة)؛ إلّا أن كتاباتها بعيدة كل البعد عن كونها جدلًا خطابيًا في مواجهة تدهور البيئة. لقد فهمت كارسون ما لم يفهمه إلّا عدد قليل جدًّا من أنصار البيئة، قبلها وبعدها، وهو أن قضيتها لا يمكن أن تكتسب دفعًا في مجتمع استهلاكي ديمقراطي إلّا إذا استطاعت جعل قرّائها ومستمعيها يحبّون الطبيعة. لم يكن كافيًا جعلهم يشعرون بالذنب إزاء ما يفعله بعالمنا جشعُهم ونزوعهم إلى الاستهلاك؛ فقد كان عليها أن تجعلهم يقعون في حب البحار والغابات والبراري حتى تكون هناك فرصة لأن تتولّد لديهم رغبة في تغيير أنماط سلوكهم.

ألّفت كارسون في نهاية حياتها كتابًا خصّصته للأطفال وزيَّنته بصور جميلة من الطبيعة. وضعت لكتابها عنوانًا هو «حبُّ الدهشة»، وحاولت توجيه أهالي الأطفال إلى تعليم أبنائهم وبناتهم كيف يشعرون منذ بدايات أعمارهم بالقرب من الأرض ومن خلائقها العجيبة:

عالم الطفل عالم جميل، جديد، يانع، كلّه دهشة وإثارة. ومن سوء حظنا أنّ هذه النظرة الصافية، هذا الإحساس الغريزي الصادق بما يحرّك في النفس إحساسًا بالجمال والخشوع، لا يلبث أن يخفت، بل يضيع أحيانًا، قبل أن نبلغ سن النضج. لو كانت لي سُلطة على الجنيّة الطيبة التي نعتقد أنها ترعى الأطفال في صغرهم، لطلبت منهم أن تهدي كل طفل في العالم إحساسًا بالدهشة والعَجب يكون عصيًّا على الزوال ويدوم طوال العمر؛ فهو ترياق لا يخيب للوقاية من الضجر ومن ضياع ذلك السحر في السنوات التالية، ومن الانشغال الذهني العقيم بأشياء مصطنَعَة، ومن اغترابنا عن منابع قوتنا.

ولدت ريتشل لويس كارسون ونشأت في أسرة صغيرة في ولاية بنسيلفانيا حيث تعلّمت محبّة الحيوانات والطبيعة منذ نعومة أظفارها. وفي زمنٍ لم يكن مألوفًا فيه وصول المرأة إلى مراحل التعليم العليا، ذهبت ريتشل إلى جامعة تشاثام ودرست مزيجًا متميزًا من اللغة الإنكليزية والبيولوجيا. ثم بدأت دراسة الدكتوراه في جامعة جون هوبكنز حيث أمضت زمنًا في دراسات مُضنية غير مثمرة تناولت الأفاعي والسناجب، ثم نشرت أطروحة ماجستير عن أنظمة الإطراح عند الأسماك. إلّا أنها اضطرت إلى هجران هذا الموضوع (وترك التعليم العالي كلّه) حتى تعيل أسرتها التي واجهت مصائب كبيرة - في تعاقب سريع، مات أبوها، ثم أختها، ثم ابنة أختها.

كان ذلك في زمن «الركود الكبير» عندما عمدت جهات حكومية كثيرة في الولايات المتحدة إلى خلق وظائف جديدة -كان بعضها غريبًا جدًا بغية تخفيف أزمة البطالة. وبالمصادفة وحدها، حصلت كارسون على وظيفة لكتابة مواد إذاعية لصالح المكتب الأميركي لمصائد الأسماك. دعيت تلك السلسلة الإذاعية «رومانس تحت الماء»، وكانت مصمَّمة بهدف تثقيف الجمهور الأميركي في ما يخصّ الأحياء البحرية وكيفية عمل المكتب نفسه. سرعان ما اكتشفت كارسون أن لديها براعة استثنائية في جعل الحديث عن حياة الحيوانات المائية جذابًا لعامة الجمهور. كتبت عن السرطانات والحلزونات البحرية وعن الحيّات المائية، وعن أسماك المياه الدافئة في المحيط الأطلسي، وعن الأسماك الأنبوبية والأسماك المسطحة... نجح ما أنتجته في استقطاب اهتمام جمهورها. وقد كتبت بطريقتها المتواضعة: «إنْ كان في كتابي عن البحر أيُّ قدر من الشِّعر، فهذا ليس لأنني أردت ذلك، بل لأن ما من أحد قادر على كتابة كلام صادق عن البحر من غير أن يكون كلامه شِعرًا».

إن في البحر شعرًا، بكل تأكيد... لكن عبقريتها جعلتها تعرف كيف تعبّر عنه:

من عرف المحيط؟ بحواسنا المرتبطة باليابسة، لا أعرف ولا تعرفون شيئًا عن الزبد وعن اندفاع المدّ الذي يداهم سرطانًا مختبئًا تحت عشبة بحرية في حفرته، أو عن وقع الأمواج البطيئة الطويلة وسط المحيط حيث تتجول أسراب الأسماك فتفترس وتُفتَرس، وتشقّ الدلافين الأمواج خارجة لكي تتنفس الهواء. وما نحن بقادرين على معرفة تقلّبات الحياة على قاع المحيط... هناك، تتهادى جماعات من أسماك صغيرة جدًا وتسبح في ضوء الغسق كأنها مطر فضيّ من شهب متساقطة، وتضّجع ثعابين البحر منتظرة بين الصخور. بل إن الإنسان لا يكاد يملك ما يسمح له بالنزول تلك الأميال الستة إلى أعماق الهاوية السحيقة التي يسودها صمت مطبق وبرد دائم وظلام أبديّ.

بعد ذلك، أنجزت كارسون ثلاثة كتب عن البحر. كان واحدٌ منها خاصّةً تأمّلات شعرية (تحت ريح البحر، 1941)، وآخر اسمه (البحر الذي من حولنا، 1951)، تحدّث عن هجرة الكائنات البحرية وتبدّلاتها الفصلية؛ وآخر تناول الأنظمة البيئية الشاطئية ومرونتها وأهمّيتها (حافة البحر، 1955). كانت لديها موهبة تشجيع القراء على التخلي عن وجهات نظرهم البشرية المعتادة المتّسمة بقصر النظر لكي يتعلّموا التفكير في الوجود من منظور الأسماك البحرية الملوّنة، أو منظور أسماك المحيط الضخمة. كانت مدركة أن الحقائق العلمية ليست كافية من أجل تحريك جمهور استولى على اهتمامه كلِّه التلفزيون التجاري والوظائف ذات المتطلّبات العالية؛ وأدركت أنه لا بد من موهبة كاتب عظيم للمساعدة في إنقاذ الكوكب.

لقد أرادت تشجيع الناس على التماهي مع الأرض وكل ما فيها: حتى يتعلّم البشر اعتبار أنفسهم جزءًا من شيء جميلٍ هشٍّ لا سبيل إلى سبر غوره، بدلًا من أن يكونوا سادة عليه ويدمّروا «موارده». بلغتْ موهبتها الذروة في كتابها الحماسي المؤثّر ذي الأسلوب الرشيق، «ربيع صامت» (1962).

صحيح أن الموضوع الأساسي في هذا الكتاب غيرُ واعدٍ إذا نظر إليه المرء من خارجه: مبيدات الحشرات! لكنه كان كتابًا لن يلبث أن يبيع عشرين مليون نسخة ويغيّر مجرى التاريخ كله.

كانت الحكومة الاتحادية الأميركية قد بدأت، أواخر الخمسينيات، حملة إنتاج واسعة للمبيدات الكيميائية التي طوّرتها مختبرات يموّلها الجيش. وكان من أكثر هذه المبيدات شهرة مادة اسمها ديكلوروديفنليتريكلوروإيثان (دي دي تي). لقد صمّم هذا المبيد في الأصل بغية التخلّص من البعوضة الناقلة لمرض الملاريا في عدد من جزر

المحيط الهادي، وذلك خلال الحرب العالمية الثانية. كان «دي دي تي» شديد الأثر؛ وكان الظاهر أيضًا أنه شديد النفع إلى حد جعل مخترعه بول هيرمان مولر يفوز بجائزة نوبل.

لكن ما تبين بعد ذلك هو أن هذه المادة تمثّل تدخلًا مرعبًا في الطبيعة. فشيئًا بعد شيء، اتضح أن «دي دي تي» لا يكتفي بقتل الحشرات الناقلة للملاريا، بل ينتهي الأمر به أيضًا -بعد شهور من استخدامه- إلى قتل أنواع الحشرات جميعًا. وفوق هذا فهو ينحلّ في ماء المطر ويجري إلى الجداول ومكامن المياه الجوفية فيقتل الأسماك والحيوانات البرّية، كالخلد والثعلب والأرنب وأنواع أخرى كثيرة.

وكان استخدام هذا المبيد قادرًا على تلويث إمدادات العالم الغذائية، فضلًا عن ميله إلى تشكيل تجمعات مُسرطِنة في النُّسج الدهنية لدى البشر.

أثار الكتاب موجة غضب. ومع أن كارسون كانت كاتبة معروفة، فقد هاجمت الصحف والمجلات الحجج التي طرحتها. كما أن العلماء الذين ساعدوا في تطوير «دي دي تي»، والشركات التي عملوا فيها، عارضوا غاضبين كلامها عن مخاطر هذا المبيد. نشرت عدة شركات -من بينها شركة مونسانتو- مقالات ضد الكتاب، وأطلقت شائعات وضيعةً كاذبةً عن صاحبته. قال المدير التنفيذي لإحدى الشركات غاضبًا: «إن كان للإنسان أن يتبع مخلصًا نصائح السيدة كارسون، فسوف نعود إلى عصر الظلام، وسوف ترث الأرض من جديد الحشرات والأمراض والديدان». كما كتب عزرا كرافت بنسون، الذي كان وزيرًا للزراعة في الولايات المتحدة، مخاطبًا الرئيس أيزنهاور: بما أن كارسون ذات مظهر جذّاب، لكنها غير متزوّجة، «فمن المحتمل أن تكون شيوعية». (الواقع أنها كانت، ببساطة، شديدة الانشغال بكتابة النصوص العلمية أو أنها -وهذا محتمل أيضًا على علاقة عاطفية مع واحدة من صديقاتها المقرّبات).

على الرغم من مساعي الشركات وحلفائها من السياسيين، فقد شقّ كتاب «ربيع صامت» طريقه. كانت كارسون قد توقّعت الانتقادات التي ستوجّهها الصناعة الكيميائية إلى عملها، فأعدّت كتابها بحيث بدا كأنه مرافعة قضائية، إذ ذيّلته بخمس وخمسين صفحة من الهوامش بحيث تبرهن على وجهة نظرها. كانت إثباتاتها حصينة في مواجهة أي هجوم.

كان عنوان كتاب «ربيع صامت» يوحي بصورة مخيفة لعالم من غير غناء الطيور، أو لعالم يكاد يكون خاليًا من أي شكل من أشكال الحياة الطبيعية. افتتحت كتابها بتصوير بلدة أميركية صغيرة لا اسم لها: بلدة غنية بالسلع الاستهلاكية والأدوات المفيدة

والمتاجر التي تبيع مواد غذائية رخيصة الأثمان، لكنها من غير بلابل وجنادب وقبّرات وسناجب. لن يلبث العالم الذي يجري تحويله بما يناسب البشر -يناسبهم من حيث الظاهر- أن يصير عالمًا غير صالح للبشر أبدًا.

كانت كارسون تحثّنا على ترك الطبيعة وشأنها: عندما نتركها بحيث تستخدم وسائلها الخاصّة بها، فهي قادرة على مكافحة أيّة زيادة غير طبيعية في أعداد الحشرات. وأما إذا تدخّل الإنسان، فسوف تصير الحشرات غير المرغوب فيها مقاومة للسموم جميعًا، فلا تلبث أن تتكاثر تكاثرًا سريعًا جدًّا؛ وذلك لأن الحشرات التي تفترس تلك الحشرات الضارة وتضبطُ أعدادها سوف تموت أيضًا من غير أن نقصد قتلها.

خلُصت كارسون إلى القول إن العلماء (والإنسان الحديث عامة) لديهم قدر من السذاجة الفلسفية يجعلهم يفترضون أن الطبيعة قوة علينا أن نضبطها وفق مشيئتنا، وليست كيانًا معقّدًا عنيفًا هائل الحجم له ما لا نستطيع توقّعه من ردّات فعل على أفعال البشر. وقد رأت أن على بني البشر أن يفكّروا تفكيرًا أكثر إبداعًا في كيفية الوقاية من ضرر الحشرات: عن طريق تعقيمها مثلًا - أي منع تكاثرها - أو عن طريق استخدام «الطعوم» الكيميائية نفسها التي تستخدمها الحشرات للإيقاع بحشرات أخرى واصطيادها، أو عن طريق استخدام صوت مضبوط على تردّدات بعينها قادرة على إتلاف اليرقات. تلتفتُ الكاتبة أيضًا إلى مسألة أكثر اتساعًا هي مسألة البشر وبيئتهم، فتذكّر القراء بأن التعامل مع الطبيعة يتطلّب دائمًا احترامًا وتقديرًا لها، وخشوعًا أمامها، وفهمًا لحقيقة أنها قوةٌ أكبر كثيرًا من أن يستطيع البشر السيطرة عليها وفهمها فهمًا كاملًا.

بأسلوبها الشعريّ، ودفاعها عما هو بدائي وعن حبّها للطبيعة، كانت كارسون وريثة ديفيد هنري ثورو على امتداد جيل علمي كامل. فعلى غرار ثورو، كان العنصر المحرّك في عمل كارسون إحساسًا بالمسؤولية تجاه البحار والأرض والسماوات. وعلى غرار ثورو، رأت كارسون فيها كلها حكمةً وثروة نفسية. عندما يتعلّم البشر كيف يعيشون حالة انسجام وثيق مع دورات الطبيعة، ومع العمليات المرهفة الدقيقة الجارية فيها، ومع بساطتها نفسها، يصيرون قادرين على الوصول إلى حكمةٍ تغذّي عقولَهم ونفوسَهم وتقيهم الشرور النفسية الماثلة في الحياة الحديثة.

ماتت كارسون نتيجة سرطان الثدي، وذلك بعد فترة وجيزة من صدور كتابها «ربيع صامت». إلّا أن عملها ظل باقيًا. سرعان ما صار للكتاب أثر حاسم على الحركة البيئية الوليدة. ولم يقف الأمر عند المنع الصارم لاستخدام «دي دي تي»، ثم إلى حظره حظرًا تامًّا (في الولايات المتحدة الأميركية، وفي العالم كلّه). بل إن آراء كارسون في الطبيعة

صارت أيضًا جزءًا من وعينا الآن. فنحن الآن قادرون -أكثر الفضل في هذا عائد إليها- على النظر إلى أنفسنا على أننا جزء من نظام بيئيٍّ أكبر منا، نظامٍ تمثّل نشاطاتُنا خطرًا عليه مما يوجب تعاملنا معه بأقصى حدٍّ من التّواضع والرفق.

لقد بيّنت كارسون أن ما قد يبدو لنا مسألة تقنية غامضة لا يفهمها إلّا أهلها (التخلّص من الحشرات الضارة في حقول الذُّرة في الغرب الأوسط الأميركي) هو قضية فلسفية وأخلاقية في آخر المطاف. إن العناية الحسنة بالأرض تفرض علينا -في جوهر الأمر- أن نفهم كلًا من قوتنا العلمية وغبائنا الأخلاقي الغريزي وعمى مخيلتنا.

وفي كتابها الموجَّه للأطفال «حب الدهشة»، الذي صدر بعد موتها، هزّت كارسون الصورة المتعالية للعلماء وكلّمتنا بعبارات شديدة البساطة لكنها بالغة الأثر عن محبة الأرض، عن محبة هذه السفينة الكبيرة التي تحملنا جميعًا:

> دثّرتُ ابن أختي الصغير روجر ببطانية، وخرجت به في ليلة خريفية عاصفة فنزلت إلى شاطئ البحر في تلك الظلمة المطيرة. وهناك، في ذلك الليل الذي لا نستطيع فيه رؤية مكاننا، كانت أمواج كبيرة تزأر متقدّمة منا، أشكالها البيضاء لا تكاد تُرىٰ وهي تهدر وتزعق وترمينا بحفنات كبيرة من الزبَد. ضحكنا معًا بفرحة صافية - هو، الطفل الصغير الذي يرى المحيط الهائج أول مرة، وأنا التي تجمَّع ملحُ البحر فيها محبةً رافقتها طيلة عمرها. لكني أظن بأن إحساسنا كان واحدًا بتلك الاستجابة التي يقشعرّ لها جلد المرء أمام المحيط الهادر الواسع في الليلة الهوجاء التي من حولنا.

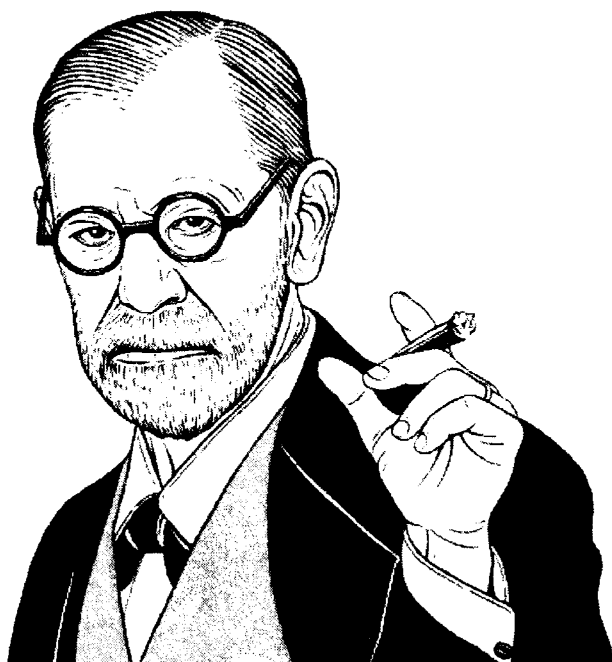
لعلّ هذه أكثر أفكارها جذرية على الإطلاق: إن الحب، لا الإحساس بالذنب، هو المفتاح إلى تغيير علاقة الإنسان بالطبيعة.

العلاج النفسي

سيغموند فرويد

(Sigmund Freud)

1939 ـ 1856



كان سيغموند فرويد يصف نفسه بأنه شخص مصاب بعُصاب وسْواسي. ومع أنه أبو علم النفس الحديث الذي أخبرنا الكثير عن حياتنا الداخلية، فقد كان هو نفسه هشًّا وضعيفًا إلى حدٍّ مؤثّر.

ولد سيغموند شلومو فرويد لأسرة يهودية من الطبقة الوسطى؛ وكانت ولادته في جمهورية التشيك الحالية، سنة 1856. كانت أمه تدعوه «سيغي الذهبي»[1]، وكان يحبها حبًا عميقًا. لكنه كان يكره أباه كرهًا لا يقل عن ذلك عمقًا. فلعله هدّد «سيغي الصغير» بأن يقص قضيبه إذا لم يكفّ عن مسّه بيده!

لم تعرف حياته المهنية نجاحًا فوريًا. فقد كان طالبًا في كلية الطب، وقامت بتشريح مئات من ذكور ثعبان البحر في محاولة فاشلة لتحديد موضع أعضائها التناسلية؛ ثم لم يُفلح في نشر شيء في هذا المجال. انصبَّ اهتمامه بعد ذلك على دواء مخدّر جديد مثير، وهلّل كثيرًا لخصائصه المدهشة. ولسوء حظه، اتضح أن الكوكايين مادة خطيرة تسبّب إدمانًا، فكان على فرويد أن يكفَّ عن الدعوة إلى استخدامه في الطب.

مرّت بضع سنين، فبدأ أخيرًا وضع الخطوط العامة لعلم سيجعله شهيرًا آخر الأمر: الطب النفسي الحديث الذي دعاه «التحليل النفسي». كان كتابه «تفسير الأحلام» الصادر سنة 1900 مَعلِمًا كبير الأهمية، ثم تلت كتابه الأول كتب كثيرة كان أهمها: «سيكولوجيا الحياة اليومية» (1901)؛ و«حالتا 'ليتل هانز' و'رات مان'» (1909)؛ و«ما فوق مبدأ اللذة» (1920)؛ و«قلق في الحضارة» (1930).

على الرغم من نجاحه طبيبًا ومؤلّفًا وخبيرًا نفسيًا، فقد كان غير سعيد أكثر الأحيان. كان مدمنًا على العمل، وقد أسرّ لواحد من أصدقائه: «لا أستطيع تخيّل كيف تكون الحياة مريحة من غير عمل»؛ كما كتب خلال مرحلة شاقة من عمله البحثي: «أنا هو المريض الذي يُشغِل ذهني أكثر من أي شخص آخر...».

كان ممكنًا أن يغار من زملائه غيرة شديدة. غاب عن الوعي مرة عندما استمع إلى كلمة ألقاها كارل يونغ، ومنع معظم طلابه حتى من رؤية ألفريد آدلر. كان مقتنعًا بأنه سيموت بين الحادية والستين والثانية والستين، وكان لديه رُهاب تجاه هذين العددين. أصابه الذّعر مرة عندما نزل في فندق في أثينا ووجد أن رقم غرفته كان 31، أي نصف

(1) سيغي (Sigi): تصغير سيغموند.

62. كان يهدّئ نفسه بسيجارِه الذي يحبّه كثيرًا؛ لكن هذا الأمر كان يجعله منتبهًا إلى نفسه انتباهًا شديدًا لأنه ظنّه بديلًا عن عادة الاستنماء التي كانت لديه.

على أن أحزانه ومخاوفه الخاصّة كانت، في حقيقة الأمر، جزءًا من مساهمته الكبرى: استكشافه تلك التعاسة الغريبة التي تستوطن عقل الإنسان. تُرينا أعماله أن الجزء العقلاني الواعي من عقولنا هو، بحسب كلماته، «ليس سيدًا، حتى في بيته». فنحن محكومون بقوى متضاربة يقع أكثرها خارج نطاق إدراكنا الواعي. علينا أن نهتم بفرويد -مهما بدا في بعض نظرياته غريبًا، أو مزعجًا، أو مضحكًا لأنه يقدّم لنا شرحًا ينير أذهاننا إلى حدٍّ مدهش عن السبب الذي يجعل كون المرء إنسانًا أمرًا شديد الصعوبة في واقع الأمر.

1 - اللذّة مقابل الواقع

طرح فرويد أول الأمر نظرية عن هذا التضارب الداخلي، وذلك في مقالة حملت عنوان «صياغات في مبدأي عمل العقل». نشر هذه المقالة سنة 1911، ووصف فيها «مبدأ اللذّة» الذي يدفعنا إلى الأمور الممتعة، كالجنس، والحلوى، ويبعدنا عن الأمور التي لا لذّة فيها، كالعمل الشاق والأشخاص الذين يزعجوننا. إن هذه الغريزة تحكُم بداية حياتنا منفردةً. فعندما نكون أطفالًا صغارًا، يكون سلوكنا منطلِقًا -إلى هذا الحد أو ذاك- من مبدأ اللذّة. ومع نموّنا، يواصل لا وعينا فعل الأمر نفسه لأن «اللاوعي طفوليٌّ دائمًا».

يقول فرويد إن المشكلة كامنة في أننا لا نستطيع الاكتفاء باتّباع مبدأ اللذّة لأن من شأنه أن يجعلنا نقوم بأشياء جنونية، وذلك من قبيل مضاجعة بعض أفراد أسرتنا، وسرقة مال الآخرين، وقتل من يسببون لنا ضيقًا أو إزعاجًا. علينا أن نأخذ في اعتبارنا ما دعاه فرويد «مبدأ الواقع».

في الحالة المثالية، نتكيّف مع مقتضيات مبدأ الواقع بطريقة بنّاءة، مفيدة: «نتخلّى عن لذّة عابرة غير مضمونة النتائج؛ لكننا لا نتخلّى عنها إلّا لكي نكسب سبيلًا جديدًا إلى لذّة مضمونة في وقت لاحق». هذا هو المبدأ الذي يقف خلف قسم كبير من الدين والتربية والعلم: نتعلّم كيف نضبط أنفسنا ونؤجّل اللذّات قصيرة الأمد بغية الحصول على لذّة أكبر على المدى البعيد (عادة ما تكون هذه اللذّة أكثر قبولًا من الناحية الاجتماعية). لكن فرويد لاحظ أن أكثرنا، في الممارسة العملية، يجد صعوبة كبيرة في هذا الأمر. وقد كان مقتنعًا بأن هناك أنواعًا حسنة وأنواعًا سيئة من التكيّف. دعا الطرق السيئة بـ«العُصاب». ففي حالة العُصاب، نقوم بتحييد الدافع إلى اللذّة -أو بقمعه- لكن

هذا يكون مقابل تكلفة، نصيرُ غير سعداء من غير أن نستطيع فهم أعراض الشدّة النفسية التي تصيبنا.

فلنأخذ مثالًا على ذلك: قد نجد صعوبة في كبت انجذابنا إلى أشخاص غير شركائنا. لكن عيش هذا الصراع بشكل مباشر طيلة الوقت أمر مؤلم كثيرًا. وهذا ما يجعلنا نقمع ذلك الدافع. وبدلًا منه، نعيش أوهام غيرةٍ في ما يخص الشريك، ونصير مقتنعين بأنه يخوننا. هذا ظهور للقلق الحقيقي الذي أصابنا. ومن شأن هذا القلق أن يطفئ شيئًا من إحساسنا بالذنب لأن عيننا قد «شردت بعيدًا»، لكنه قد يؤدّي أيضًا إلى إثارة جنون الشريك. إنه تكيّف مع تحديات نواجهها -لكن من الواضح أنه ليس تكيّفًا جيدًا تمامًا، في حقيقة الأمر. رأى فرويد أن الحياة مليئة بهذه الأنواع من العصاب التي تأتينا نتيجة التضارب بين الـ«هُو» في داخلنا الذي يقوده مبدأ اللذّة، وال- «أنا» الذي يقرر منطقيًا ما يتعين علينا فعله إزاء دوافع ال- «هو». وفي بعض الأحيان، يكون العُصاب ناتجًا عن صراع بين الأنا والأنا العليا التي هي جانبنا الأخلاقي.

بُغية فهم هذه الآليات، يكون علينا عادة أن نعود بتفكيرنا إلى ذلك الوقت من حياتنا الذي تولّد فيه كثير مما لدينا من عُصابات.

2 ـ الطفولة

الطفولة هي المرحلة التي نتعلّم فيها أشكالًا مختلفة من التكيف مع الواقع... تكيّفات حسنة، أو (غالبًا) تكيّفات سيئة. عندما يكون المرء رضيعًا، يكون كلّه رغباتٌ فجّة لا تعبأ بشيء. ومع نموّه يصير هذا الطفل «متمدّنًا»، أي إنه يبدأ التكيّف مع الواقع الاجتماعي. وأما إذا لم يتكيّف كما ينبغي له، فسوف يبدأ ظهور المشكلات.

في أول تاريخنا النفسي، يأتي ما دعاه فرويد المرحلة الفموية، حيث نتعامل مع الأكل. نحن نولد راغبين في الرضاعة من الثدي كلما أحببنا ذلك. لكننا نواجه الفطام بعد حين من الزمن. وهذا أمر شديد الصعوبة علينا. إذا لم يكن أهلنا حذرين (وأسوأ من ذلك أن يكونوا ساديين بعض الشيء)، فقد تصيبنا أنواع كثيرة من العُصاب: إنكارُ ذاتٍ ضمنيّ، أو استخدامُ الطعام لتهدئة أنفسنا، أو كرهُ الثدي. وأهم من ذلك كلّه، أننا نجد صعوبة في الاستقلال. إذا جعلتنا أمُّنا ننتظر طويلًا، فإننا نصير مفرطي التطلّب وتصيبنا الدهشة عندما لا يوفّر العالم الخارجي كل ما نرغب فيه. أو... من الممكن أن نتعلّم ألّا نركَن أبدًا إلى الاعتماد على الآخرين.

ثم تأتي «المرحلة الشّرجية» (معروفة أيضًا باسم «مرحلة التدريب على استخدام النونيّة») حيث نواجه تحديات التغوُّط. يقولُ لنا أهلنا ما ينبغي فعله، ومتى ينبغي فعله

-يقولون لنا كيف نكون «أطفالًا جيدين». نبدأ في هذه المرحلة تعلُّم اختبار حدود السلطة. فقد نعمد مثلًا إلى الامتناع عن التغوّط بدافع من العصيان. في هذه الحالة، نصير معاندين، ويصير لدينا «احتباس شرجي» عندما نكبر. قد نميل أيضًا إلى النفور من إنفاق المال. وفي الحالة المعاكسة، أي إذا كان أهلنا مفرطي التسامح، فقد نصير أكثر ميلًا إلى اختبار السلطة وتحدّيها، وإلى تعدّي حدود الأشخاص الآخرين. لا يقتصر هذا على كونِنا «مسبّبي فوضى» في صغرنا، بل يصل أيضًا إلى كوننا مبذّرين، أو غير مراعين للآخرين عندما نكبر.

يقول فرويد إن السبيل الذي تتّخذه ردات أفعال أهلنا مهمٌّ كثيرًا. إذا وبّخونا وجعلونا نشعر بالعار عندما نفشل في الامتثال، فقد تنشأ لدينا أشكال مختلفة من القلق والمخاوف. إلّا أنه لا بد لنا من تعلّم أنّ هناك حدودًا، وإلى أنّ هناك سلوكًا مقبولًا وسلوكًا غير مقبول من الناحية الاجتماعية. باختصار، فإن «مرحلة التدريب على استخدام النونية»، هي لحظة عيش التضارب بين نزوعنا إلى البحث عن اللذّة وبين ما يطالبنا به أبوانا. علينا أن نتكيّف مع هذه المطالب تكيّفًا ملائمًا، وإلّا وقعنا في مشكلات خطيرة.

ثم تأتي «المرحلة القضيبية» (تستمر هذه المرحلة حتى سن السادسة تقريبًا) حيث نواجه مشكلات التوق إلى الأعضاء الجنسية، وكذلك الرغبات الجنسية المستحيلة التي ظهرت حديثًا. لقد سبّب فرويد صدمة لدى معاصريه من خلال إصراره على أن الأطفال الصغار كائنات جنسية: عندهم مشاعر جنسية، ويحدث عندهم انتصاب، ويستمْنون، ويحبّون أن يدعكوا أنفسهم بالأشياء وبالأشخاص (حتى في عصرنا الحالي، تجعل هذه الفكرة الناس يشعرون بشيء من عدم الارتياح). كان يُقال للأطفال في زمن فرويد أن يكفّوا عن فعل هذه الأمور؛ وكان ذلك يقال بطريقة عنيفة. والآن، نقول لهم الأمر نفسَه، لكن بطريقة أخرى. إلّا أن الأمر يظلّ كما هو: لا نستطيع السماح بظهور الدافع الجنسي في الطفولة. وبالنسبة إلى الطفل، فهذا يعني قمعًا صارمًا لجزء بالغ القوة من ذاته الفتية.

بل إن هذا الأمر أكثر تعقيدًا مما سبق لأن الأطفال يوجّهون دوافعهم الجنسية صوب أهلهم. لقد وصف فرويد ما دعاه «عقدة أوديب» (الشخصية المأساوية في الأسطورة الإغريقية)، التي تجعلنا جميعًا، بشكل لا واعٍ، ميّالين إلى «الوقوع في حب أحد الوالدين، وكره الآخر».

يبدأ الأمر على النحو التالي: نكون أطفالًا؛ ويكون أكثرنا شديد التعلّق بأمّه.

والحقيقة أن فرويد يقول إن الصبيان الصغار يقومون تلقائيًا بتوجيه دوافعهم الجنسية البدئية صوب الأم. إلّا أن أمنّا ستكون لديها حياة أخرى مهما بلغ مقدار حبّها لنا. من المحتمل أن تكون لها علاقة عاطفية (مع أبينا، على الأرجح)؛ وإن لم تكن لها علاقة، فإن لديها عددًا من الأولويات الأخرى التي تجعلنا نشعر بالخوف وبالهجران عندما نكون أطفالًا. هذا ما يجعل ذواتَنا الصغيرة تشعر بالغيرة والغضب - تشعر أيضًا بالعار والذنب نتيجة ذلك الغضب. إن الطفل الذكر الصغير يشعر خاصّة بالكراهية تجاه الشخص الذي يأخذ أمه منه، ويخشى أيضًا أن يقتله ذلك الشخص. إن هذه العقدة كلها -الآن، صار معنى الكلمة واضحًا تؤدّي إلى قدر هائل من القلق لدى الطفل الذي لا يزال صغيرًا. (يرى فرويد أن الأمر لا يكون أكثر سهولة على الطفلات الصغيرات - كل ما في الأمر أن العقدة تكون مختلفة لديهنّ اختلافًا طفيفًا عما سبق).

ثم تأتي مشكلة سِفاح القُربى الفعلي. لا يجوز للبالغين أن يمارسوا الجنس مع الأطفال؛ فهذا سِفاح خاضع لحظر شديد الجدية يعتمد المجتمع عليه. ويُنتظر منا أيضًا ألّا نمارس الجنس مع أشخاص من أقاربنا المباشرين. على الرغم من زعمنا جميعًا أننا نجد هذا الأمر مفزعًا - وكأن سفاح القربى آخر ما يمكن أن يخطر في أذهاننا - إلّا أن فرويد يذكّرنا بأن ما من شيء يصير موضوعَ حظر إلّا إذا كانت هناك كمية لا يستهان بها من الناس الذين ينزِعون كثيرًا إلى كسر هذا الحظر في لا وعيهم. هذا ما يفسر تلك الهستيريا كلّها في ما يخص سفاح القربى وممارسة الجنس مع الأطفال - إنها فكرة قابعة في مكان ما... عميقًا داخل عقولنا.

بُغية الحيلولة دون وجود الجنس داخل الأسرة، لا بد من فطام الطفل عن الرغبة في ممارسة الجنس مع أمه، وفطام الطفلة عن ممارسة الجنس مع أبيها. لكن على الأب والأم أيضًا أن يكونا رفيقين بالأطفال وألّا يجعلانهم يشعرون بالذنب في ما يتعلّق بالجنس. على أنّ هناك أمورًا كثيرة يمكن أن تجري على غير ما ينبغي.

يعيش أكثرنا نوعًا من التشوّش الجنسي في ما يتعلّق بوالدينا، ثم يظلّ هذا التشوش مرتبطًا بأفكارنا عن الحب بعد أن نكبر. يمنحُنا كلٌّ من أمنا وأبينا الحب، لكنهما يمزجانه بأنواع كثيرة من السلوك المقلق. إلّا أننا نحبهما، ونعتمد عليهما، ونبقى أوفياء لهما ولأنماط سلوكهما الهدّامة أيضًا. لذا، على سبيل المثال، إذا كانت أمنا تُظهرُ لنا برودًا وتوجّه إلينا ملاحظات مهينة، فسوف نظل في صفها على الرغم من ذلك، بل من الممكن أن نجدها لطيفة جدًا. نتيجة هذا، فمن المحتمل أن نصير ميالين دائمًا إلى اعتبار الحب والبرودة أمرين مترابطين.

3 ـ النضج

في الحالة المثالية، ينبغي أن نكون قادرين على ممارسة الجنس الجسدي من غير أية مشكلة. وعلى المدى الطويل، ندغم الحب والجنس معًا فيجتمعان في شخص نجده لطيفًا. لكن هذا نادر الحدوث، بالطبع.

عادة ما نجد أنفسنا عاجزين عن إدغام الحب والجنس: لدينا إحساس بأن الجنس غير منتمٍ إلى المشاعر الرقيقة. يقول فرويد: «يبدي رجل من هذا النوع حماسة عاطفية تجاه امرأة يحترمها احترامًا عميقًا لكنها لا تستثيره إلى نشاطات جنسية. ولا يكون ذلك الرجل نشطًا جنسيًا إلّا مع نساء أخريات لا 'يحبهنّ'، بل يستصغرهنّ، بل حتى يحتقرهنّ».

ليس ظهور العُصاب مقتصرًا على الأفراد. فالمجتمع كلّه يجعلنا عصابيين. يقول فرويد في كتاب «قلق في الحضارة» (1930) إن قدرًا من القمع والضعف النفسي لا بد منه، بكل بساطة، لأنه ثمن العيش في مجتمع. وذلك أن المجتمع مصرّ على تنظيم الجنس، ويفرض حظرًا على سفاح القربى، ويفرض علينا إرجاء رغباتنا الآنية، ويطالبنا بطاعة السلطة بأن يكون العمل مصدرًا وحيدًا للمال. وأما أن تكون هناك حضارة لا قمع فيها، فهذا تناقض.

4 ـ التحليل

حاول فرويد ابتكار علاج للعُصاب: التحليل النفسي. لكن ما عرضَه كان محدودًا منذ البداية. كان يرى ضرورة عدم تجاوز المريض سن الخمسين، وإلّا فإن عقله سيصير زائد التصلّب. وقد كان التحليل النفسي باهظ التكلفة، خاصة لأن فرويد قال إن على المريض أن يأتي أربع مرات كل أسبوع. وفوق هذا، كان فرويد متشائمًا تمامًا في ما يتعلّق بالنتيجة: رأى أن أحسن ما يستطيع فعله هو تحويل التعاسة الهستيرية إلى بؤس يومي. على الرغم من هذا فقد كان يرى أن الناس قادرون، مع قدر قليل من التحليل النفسي، على اكتشاف عُصاباتهم والتلاؤم مع مشكلات الواقع وصعوباته تلاؤمًا أفضل.

وفي ما يلي عدد من الأمور التي حاول فرويد «تحليلها» في جلساته:

1) الأحلام

رأى فرويد أن النوم فرصة لنا لكي نسترخي ونرتاح من صعوبات الوعي، وخاصة لكي نعيش ما دعاه «تحقيق الرغبات». قد لا يبدو الأمر واضحًا للوهلة الأولى. فقد نظنّ، مثلًا، أننا حلمنا برسوبنا في الصف الأول لمجرد أننا نواجه ضغطًا في العمل.

لكن فرويد يقول لنا إننا نرى هذا النوع من الأحلام لأن جزءًا من عقلنا يتمنّى لو أننا رسبنا في الصف الأول حتى لا نكون مضطرين إلى تحمل مسؤوليات سن النضج كلّها، وحتى لا يكون لدينا عمل نذهب إليه وأسرة نعيلها. وبطبيعة الحال، نحن نرى أيضًا أحلامًا أكثر إرضاء لرغائبنا التي ندركها بحدسنا فقط، وذلك من قبيل مضاجعة زميلة ساحرة في العمل (أو زميل) لم ندرك في يقظتنا أنها تعجبنا.

وعندما نستيقظ يكون علينا أن نعود إلى العالم وإلى ما تُمليه علينا الأنا العليا من أخلاقيات - وهذا ما يجعلنا عادةً نطمس أحلامنا. إنه السبب الذي يجعلنا ننسى سريعًا تلك الأحلام المثيرة حقًا التي كانت في نومنا.

2) زلات اللسان

كان فرويد مولعًا بملاحظة كيف يستخدم مرضاه الكلمات. وكان يرى أن هناك دلالة خاصة لأن يزلّ لسان المريض، (ندعو الآن هذه الأغلاط الكاشفة «زلات لسان فرويدية»). فعلى سبيل المثال، كتب فرويد عن رجل طلب من زوجته (لم يكن يحبها كثيرًا) أن تأتي وتنضم إليه في أميركا بعد أن هاجر إليها. أراد الرجل أن يقترح عليها السفر في السفينة «موريتانيا» لكنه كتب، في الواقع، قائلًا لها أن تأتي على متن السفينة «لوسيتانا» - لكن السفينة «لوسيتانا» كانت قد غرقت على مقربة من سواحل إيرلندا بعد أن أصابها طوربيد أطلقته غواصة ألمانية في الحرب العالمية الأولى فقُتل من فيها جميعًا.



عيادة فرويد في لندن؛ وفيها أريكة لكي يجلس عليها المريض، أو يستلقي، خلال جلسة التحليل النفسي.

3) النُّكات

رأى فرويد أن الفُكاهة آلية نفسية من آليات البقاء. وقد شرح هذا في مقالته الصادرة سنة 1905 بعنوان «النكات وعلاقتها باللاوعي»: «تجعل النكات من الممكن إرضاء غريزة من الغرائز –سواء كانت غريزة شهوانية أو غريزة كراهية– في مواجهة عقبة تعترض سبيلها». يمكن القول اختصارًا إن النكات –مثلُها مثل الأحلام– تسمح لنا بتجاوز السلطة وإرضاء رغباتنا.

***

وصلت النازية إلى الحكم في ألمانيا سنة 1933؛ وقد قال فرويد لواحد من أصدقائه: «يا لهذا التقدّم الذي حققته البشرية، لو كنا في العصور الوسطى لأحرقوني. وأما الآن فهم قانعون بإحراق كتبي». حتى فرويد نفسه لم يستطع رؤية ما سيواجهه العالم بسبب النازية. ساعده عدد من أصدقائه الذين كانوا ضمن دوائر النخبة الألمانية، وكذلك بعض المسؤولين النازيين المتعاطفين، على الفرار مع أسرته إلى لندن حيث عاش بقية عمره إلى أن مات بسرطان الفك سنة 1939.

اقتفى محلّلون آخرون خطوات فرويد فطوَّروا أساليب جديدة في التحليل النفسي إلى أن بلغ الأمر ميدان علم النفس الحديث الواسع المتنوّع. إن في المعالجة النفسية الحديثة اختلافات كبيرة عما كان لدى فرويد؛ لكن الأمر كله بدأ من فرضيته القائمة على اكتشاف الأجزاء المظلمة الصعبة في حياتنا الداخلية وتقويمها – تقويمًا بطيئًا – تحت إشراف شخص لطيف مدرَّب يصغي إلينا.

قد نظن أننا تجاوزناه، أو أنه كان سخيفًا قليل الأهمية. وهناك ما قد يغري المرء بالقول إنه اختلق كل شيء اختلاقًا، وإن الحياة ليست صعبة بالقدر الذي صوّره. لكننا نستيقظ ذات صباح فنجد غضبًا إزاء شريكنا (أو شريكتنا) قد أفعم قلوبنا. أو نجد أنفسنا في قلق شديد ونحن ذاهبون بالقطار إلى عملنا، فنتذكّر من جديد كم أن ما في عقولنا صعب، وخَدّاع، وفرويديّ! مع هذا، نظل قادرين على رفض ما أتى به، بطبيعة الحال. إلّا أن فرويد يقول لنا: «لن يستطيع أبدًا أن يفتح الباب من يزدري المفتاح ويترفّع عنه».

آنّا فرويد

(Anna Freud)

1982 ـ 1895



إن السلوك «الدفاعي» موجود في جذر قدر كبير من المشكلات التي نعانيها مع أنفسنا ومع الآخرين. يقودنا هذا إلى توجيه اللوم توجيهًا غير صحيح، ويجعل وقع الانتقادات المنطقية في أذهاننا أشبه بهجمات قاسية، فيجعلنا نلجأ إلى التهكم والسخرية بحيث يكون ذلك بديلًا عن الصدق.

كانت المحللة النفسية آنّا فرويد، ابنة سيغموند فرويد، أفضل من أرشدنا إلى أصول السلوك الدفاعي. كانت آنّا أصغر أفراد الأسرة التي ضمت ستة أطفال. ولدت في فيينا سنة 1895 عندما كانت نظريات والدها الراديكالية عن الجنس والعقل قد بدأت تجعله شهيرًا على امتداد أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر. كانوا يعتبرون آنّا طفلة «عادية» جدًّا؛ وقد واجهت مشقّة في المدرسة حيث اكتسبت لقبها المزعج... «الشيطان الأسود». لكنها صارت معلّمة مدرسة، ثم محلّلة نفسية، ثم رائدة المعالجة النفسية للأطفال.

وفي سنة 1934 نشرت كتابها «الأنا والآليات الدفاعية»، فكان العمل الذي أرسى -أول مرة- الفكرة الأساس القائلة بأننا نحاول غريزيًا أن نحمي «أنانا» (أي الصورة المقبولة لما نحن عليه) مستخدمين جملة متنوّعة من الوسائل الدفاعية. والآلية الدفاعية أسلوبٌ في الاستجابة يُراد منه تجنيبنا الألم. لكن المشكلة هي أننا عندما نداقع عن أنفسنا بالمعنى الآني، فإننا نلحق ضررًا، على المدى البعيد، بفرصِنا في التعامل مع الواقع فنلحق الضرر بتطورنا ونضجنا نتيجة ذلك.

ألقت آنا فرويد ضوءًا على عشرة أنماط رئيسية من الآليات الدفاعية.

1 ـ الإنكار (Denial)

نحن لا نعترف بأن هناك مشكلة؛ بل نفكّر على النحو التالي: «إنني مستمتع بأن أشرب كثيرًا؛ وفي مرات كثيرة، يصيبني صداع مزعج في اليوم التالي. لكنني لا أعتبر نفسي ممن يفرطون في تناول الشراب». أو: «إنني أنفق قدرًا كبيرًا من المال. لكني لا أنفق أكثر مما ينفقه غيري. لا أستطيع القول إنني شخص غير مسؤول من الناحية المالية». وإذا حاول أشخاص آخرون (أقارب أو أصدقاء أو شريك أو شريكة) جعلنا نُقرّ بأن لدينا مشكلة، فإننا نجنح إلى ردة فعل شديدة السوء.

إن آلية البقاء الفورية -الدافع الغريزي الذي يجعل المرء يشعر، على المدى القريب،

بأنه على ما يرام- هي رفض الاعتراف بوجود مشكلة، وذلك لأن الاعتراف بوجودها يعني أن علينا أن نقوم إزاءها بأمور صعبة كثيرة. إلّا أن هذا الإنكار يعترض سبيل قدرتنا على تدبُّر المشكلة على المدى البعيد.

وفي بعض الأحيان، لا يجعلنا الإنكار وحده نشعر بأمانٍ كافٍ. يعمد المرء إلى خلق «أدلّة» تساند إنكاره. قد يقول صبي عمره تسع سنين (يحب كثيرًا أن تعانقه أمه بعض الأحيان، لكنه يتردّد في الاعتراف لنفسه بهذا الأمر) إن أمه سيئة معه، أو إنها تضايقه. وبهذا، فهو «يُثبت» لنفسه أنه ليس في حاجة إليها؛ و«يُثبت» أن إحساسه بالوحدة وبالرغبة في البكاء لا يمكن أن يكون ناتجًا عن حاجته إليها.

ليس الإنكار كذبًا قصديًّا. فهذه الآلية الدفاعية تشبه ستارًا دخانيًا يجعل من الصعب كثيرًا علينا أن نرى ما هو جارٍ في حياتنا.

2 ـ الإسقاط (Projection)

يشتمل الإسقاط على الاعتراف بوجود مشاعر سلبية. لكن، وبدلًا من رؤية أن تلك المشاعر هي مشاعر قائمة لدى المرء نفسه، يجري إسقاطها على شخص آخر (أو إعطاؤها إلى شخص آخر). قد يبدو هذا غريبًا، وقد يبدو معقدًا؛ لكنه يحدث كثيرًا.

يأتيك إشعار من رئيسك في العمل يقول فيه إنه يريد رؤيتك شخصيًا لأمر مهم. يكون أول ما تتخيله هو أن مديرك يريد طردك من العمل، وتتخيّل كيف سيشرح لك أنهم عرفوا عنك معلومات سيئة جدًا. تظهر في رأسك صورة ذلك الشخص وهو يسير باردًا، مصمّمًا، شديد الغضب. وعندما تذهب إلى الاجتماع، يعطيك رئيسك بضعة إرشادات مفيدة في ما يتعلّق بعقدٍ جديدٍ مهم تعتزم الشركة إبرامه. هذا يعني أن تلك المشاعر كلّها -الذّعر، والبرودة، والغضب الحارق- كانت آتيةً منك، في واقع الأمر. أنت من قام بإسقاطها على رئيسك في العمل. وكأنك «أعطيت» شخصًا آخر تلك المشاعر السلبية التي لا تريد الاعتراف بها أمام نفسك.

أو... تشعر كأن زوجتك (أو زوجك) ستكون شديدة الانتقاد لك إذا لم تَجنِ هذا العام مالًا أكثر مما جنيت في العام الماضي. يقلقك هذا كثيرًا؛ وتتخيّل العبارات الجارحة التي ستسمعها منها، والنظرات اللائمة. لكن هذه المشاعر غير موجودة لدى زوجتك! بل من الممكن أيضًا أن تكون متعاطفة معك، متفهّمة تمامًا (على الرغم من أنه... صحيح، بالطبع، سيكون أمرًا جميلًا إذا ازداد دخلك هذه السنة). إن تلك الفكرة القاسية، المريرة، ليست فكرة زوجتك. الفكرة عندك أنت - ولنقل مثلًا إنك أتيت بها من عند أمك. لكنك الآن تُسقطها على أول من تجده أمامك.



آنّا فرويد تمشي مع أبيها سيغموند، 1913

من هنا... يعني هذا أنك تهرب من شعورك بالانزعاج الشديد من نفسك (إحساس غير مريح على الإطلاق) إلى الشعور بأن هناك من يقسو عليك (إحساس أخف وقعًا، بعض الشيء). وهذا لأن لديك- في رأسك، على الأقل- زوجةً ملحاحًا لا يمكن إرضاؤها أبدًا. وبدلًا من مواجهة السؤال الصعب المؤلم، السؤال عما يجعلك غير قادر على جني المزيد من المال -أو، لماذا لا تكون راضيًا بما تجنيه بالفعل؟- فإنك تخلق مشكلة مختلفة: إنها زوجتك «المزعجة».

3 ـ انقلاب المرء ضد نفسه (Turning against the self)

نلجأ إلى الآليات الدفاعية بغية حماية أنفسنا من المعاناة النفسية. من هنا، يبدو أن ثمة مفارقة في القول (هذا ما تصر عليه أنا فرويد) إن إيذاء النفس -أي غضب المرء على نفسه، أو كرهه لها- يمكن أن يكون أسلوبًا دفاعيًا. المسألة هنا متعلّقة بما نجده أشد إثارة للذعر. فمن الممكن أن تكون هناك أشياء كثيرة تخيفنا بأشد مما يخيفنا كرهنا لأنفسنا.

إن من الممكن تعقّب الآليات الدفاعية رجوعًا إلى زمن الطفولة. فمن الممكن تمامًا أن يحاول طفلٌ تعرّض للهجران من قبل أحد أبويه، أو آذاه أحد أبويه، اللجوءَ إلى فكرة أقل بشاعة من أي بديل آخر، وإن تكن فكرة كئيبة: «لا بد أنني (هذا شعور الطفل) سيئ ولا قيمة لي. إنني شخص فظيع؛ وهذا ما يجعل أبي يتصرّف معي على هذا النحو». ثم تصل الفكرة نفسها إلى: «حقًا، لا تزال لديّ أمي الطيبة». هذا مؤلم؛ لكنه قد يكون أقل كارثية من الحقيقة نفسها: إن الطفل موجود فعلًا بين يدي شخص غير مهتم بأمره.

4 ـ التصعيد (Sublimation)

يشتمل التصعيد على إعادة توجيه الأفكار أو المشاعر غير المقبولة وصبّها في قنوات «أعلى»، أو في قنوات بنّاءةٍ أكثر، في الحالة المثلى.

يحوّل موسيقيون ومغنّون كثر تجاربَ الحياة السلبية -إدمان المخدرات، وأمراض اجتماعية، ومشكلات عائلية، وأمور من هذا القبيل- إلى معزوفات وأغانٍ باهرة تحظى بشعبية كبيرة وتشحن أشخاصًا كثيرين بالطاقة وتخلق في نفوسهم أملًا وإلهامًا. كما أن الرسام فنست فان كوخ الذي واجه مصاعب كثيرة نتيجة إدمانه على المُسكرات - اشتهر عنه أنه قطع أذنه نتيجة ذلك - كان قادرًا على نقل مشكلاته وتصعيدها إلى عمله الفني، فأنتج لوحات خالدة.

يزوّدنا الفن بأكثر الأمثلة وضوحًا على احتمال أكثر شيوعًا. إن دافعًا عدوانيًا يحمل المرء على القول للجميع ما ينبغي عليهم فعله، وعلى فرض إرادته عليهم من غير رادع، يمكن تصعيده لكي يصير تصميمًا لدى ذلك الشخص على جعل عمله دقيقًا، بالغ الأثر. ومن الممكن أيضًا إعادة توجيه دوافع فاشيّة بحيث تصير تطلعًا إلى الانسجام والنظام يكون نافعًا للمجتمع.

5 ـ النُّكوص (Regression)

في حالات غير قليلة، تبدو لنا الطفولة زمنًا آمنًا، على الأقل، عندما نستعيدها في

أذهاننا بعد تجاوزها. وذلك أن الطفل يكون محميًا من المسؤوليات. لا يكون منتظرًا منه أن يفهم الأمور، ويتخذ القرارات الصعبة، ولا أن يكون منطقيًا ومنسجمًا أو بارعًا في توضيح الأمور.

وفي حالة النكوص -بصفته آلية دفاعية- يصير المرء طفوليًا بالطريقة نفسها. فعلى سبيل المثال، من الممكن أن يلجأ إلى التردّد طويلًا بدلًا من أن يتّخذ قرارًا ويتحمّل مسؤولية عواقبه.

ومن الملامح الجوهرية للنكوص قناعةٌ بأن المشكلات هي -دائمًا نتيجة أغلاط الآخرين. هذه عودة استراتيجية إلى اعتقاد الطفل بأن والديه يحكُمان العالم كلّه ويستطيعان فعل أي شيء؛ فإذا اتّخذ أمرٌ من الأمور وجهةً سيئة، فهما قادران على تصحيحه، بل عليهما أن يصححاه. وأما الشخص الوحيد الذي لا يمكن لومه أبدًا، فهو الطفل، أي الشخص الناكِص إلى الطفولة.

تكون نوبةُ غضب شديد سمةً مميزة للآلية الدفاعية النكوصية. فبدلًا من محاولة التوصل إلى حلٍّ مناسبٍ للمشكلة، يسعى المرء، وفق منطق الطفل، إلى حل المشكلة بأن يكون منزعجًا. في عالم الكبار، يمكن أن يبدو هذا جنونًا. لكن الأطفال الصغار يطلبون العون عن طريق بكائهم وزعيقهم وتلويحهم بقبضات أيديهم. هذا أقصى ما يستطيعون فعله. من هنا، فإن المعنى الحقيقي لنوبة الغضب هو: لا أستطيع أن أكون مسؤولًا عن هذا الوضع. عليكم مساعدتي لأنني لست إلّا طفلًا صغيرًا.

6 ـ التسويغ/ التبرير (Rationalisation)

تبدو هذه الآلية الدفاعية كأنها تأتي بعُذر ذكي تبرر به أفعالنا (أو تبرر به ما يحدث لنا). لكنها مصممة بعناية على نحو يجعلنا نصل إلى النتيجة التي نشعر بأننا في حاجة إليها: نحن بريئون، لطيفون، جديرون بالاحترام.

يشتمل أهم نوع من أنواع التبرير التقليلَ من الأشياء التي لا نمتلكها، لكننا نتمنى في سرّنا أن تكون لدينا. إذا تقدم صاحب الآلية الدفاعية التبريرية إلى وظيفة لكنهم رفضوا طلبه، فهو يقول: لقد كانت تلك شركة مُضجرة، أو: لم أكن راغبًا في تلك الوظيفة أصلًا! قد تكون لدى هذا الشخص رغبة كبيرة في تلك الوظيفة؛ لكن من الممكن أن يكون إقراره بهذا أمام نفسه أمرًا يعذّبه ويجعله يشعر بإهانة كبيرة. من هنا، يصل إلى مشاعر أكثر قبولًا لديه عن طريق خلقِ قصة خيالية تبدو معقولة ومنطقية: «الحقيقة أن تلك الوظيفة لم تكن جيّدة جدًا. أدركُ الآن هذا الأمر لأنني فكرت فيه تفكيرًا جدّيًا». لكن تقييم خصائص تلك الوظيفة ليس هو ما يجعل المرء يصل إلى هذه النتيجة؛ فما

يوصله إليها هو حاجته النفسية الملحّة إلى حماية إحساسه الذاتي بقيمته.

7 ـ التذاكي (Intellectualisation)

التذاكي آلية دفاعية تشبه الآلية السابقة. وهي منطوية على تجاهل أمر مؤلم جدًّا، مهم جدًا، من خلال بدء حوار مقنع جدًا داخل رأس المرء، لكنه يتناول أمرًا مختلفًا كل الاختلاف. فالإحساس الجارح بالفقد، أو الذنب، أو الخذلان، أو الغضب، نتيجة انتهاء علاقة عاطفية يمكن أن يتم تحييده عن طريق التفكير في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المتأخّر، أو في الخطة الحكومية الرامية إلى رفع معدلات الفائدة. هناك مثقفون كثيرون لا يفكرون كثيرًا فحسب، بل إن لديهم أيضًا هذه الحالة من «التذاكي»؛ فهم يضمنون بهذا أن يستطيع القارئ إبقاء مجموعة من المشكلات التي تخصّه بعيدة عن ذهنه.

8 ـ صوغ ردة الفعل/التسامي (Reaction formation)

يشتمل التسامي على فعل ما يعاكس مشاعرنا الأولية التي نراها غير مقبولة. من الممكن أن ندعو هذه الآلية الدفاعية «التعويض المُفرِط».

من الممكن، مثلًا، أن ينضمَّ شخص لديه ميل قوي إلى ممارسة الجنس مع المراهقين إلى جماعة دينية تركّز تركيزًا خاصًّا على امتناع صغار السن عن ممارسة الجنس. كثيرًا ما تظهر لدينا هذه الآلية الدفاعية في سن الطفولة. فعندما يصيبنا الحرج لأننا منجذبون إلى زميل أو زميلة في صفنا المدرسي، يمكن أن نصير وضيعين أو عدوانيين تجاه ذلك الشخص بدلًا من الإقرار بانجذابنا إليه.

9 ـ الإحلال (Displacement)

الإحلال هو إعادة توجيه رغبة (عدوانية عادةً) إلى متلقٍّ بديل. وبشكل عام، تكون تلك الرغبة العدوانية متّجهة إلى شخص يزعجنا ويبدو لنا أنه يشكل خطرًا علينا، فنستجيب لذلك بأن نوجّه تلك المشاعر نفسها صوب شخص، أو شيء آخر، يسهل إلقاء اللوم عليه.

ومن الأمثلة الكلاسيكية على هذا شعورُ شخصٍ من الأشخاص بأن رئيسه في العمل يمثل خطرًا عليه، فيعود إلى البيت ويصرخ على زوجته.

10 ـ التخيُّل (Fantasy)

التخيُّل آلية هروبيةٌ أخرى. وهي تتفادى المشكلات عن طريق تخيُّل أنها لم تعد موجودة، أو عن طريق فصل المرء نفسه عن الواقع.

يظهر التخيّل في مجموعة من مواقف الحياة اليومية... من أحلام اليقظة، إلى قراءة الأعمال الأدبية، إلى مشاهدة الأفلام الإباحية. فنحن نستخدم هذه اللحظات لكي ننقل أنفسنا من العالم الخطير إلى مكان آخر نجد فيه شيئًا من الراحة. بعد يوم سيئ في العمل -على سبيل المثال- قد يغرق المرء في متابعة فيلم من أفلام الآكشن، أو الإصغاء إلى موسيقى صاخبة، أو تصفّح واحد من المواقع الإباحية. إن هذه النشاطات تسمح لنا بالهروب من مشكلاتنا الحقيقية، أو مما يثير قلقنا. تعتمد صناعة السياحة والسفر على حاجتنا إلى التخيّل اعتمادًا كبيرًا.

***

في شهر آذار سنة 1938، أي بعد سنتين من الفراغ من تأليف كتاب «الآليات الدفاعية»، انتقلت آنّا مع أسرتها إلى لندن فرارًا من الاحتلال النازي لفيينا. وبعد انتهاء الحرب، بدأت إقامة دورات في المعالجة النفسية للأطفال في مركز يضم حضانة وعيادة في هامستد، وذلك بالتعاون مع صديقتها كيت فريدلايندر المتخصّصة في جنوح اليافعين.

ماتت آنّا سنة 1982. وقد وُضع رمادها إلى جانب رماد أبويها في محرقة «غولدرز غرين» شمال لندن. وُضع ذلك الرماد في جرة إغريقية عتيقة ضمت أيضًا رماد شريكتها وزميلتها طيلة عمرها، دوروثي تيفاني بيرلنغهام.

خلاصة

كان منطلق آنّا فرويد موقفًا متّسمًا بالتسامح والكرم الشديدين مع الآليات النفسية الدفاعية: نحن نلجأ إلى تلك الآليات لأننا نشعر بخطر كبير، فهي أسلوبنا الغريزي في إبعاد الخطر عن أنفسنا وفي الحد من ألمِنا النفسي.

تواصل آنّا فرويد تذكيرنا بأن دفاعاتنا النفسية ليست سلوكًا قصديًا. هي ليست خيارات واعية نُقْدِمُ عليها عامدين. نحن لا ندرك ما نفعله. ونحن لا نرى أنفسنا نتخذ هذا المسلك الدفاعي. لا نرى أننا نعمد إلى الإنكار أو إلى التبرير. فالوصول إلى الحقيقة ليس وظيفة الآلية الدفاعية. وظيفتها هي درء الكرب النفسي.

تُعلّمنا آنّا فرويد درسًا في التواضع. وذلك لأنها تكشف عن احتمال كبير جدًا لأن تكون الآليات الدفاعية ذات دور قوي متميز في حياة المرء - لكن من غير أن يكون الأمر ظاهرًا له على هذه الصورة. هذه فكرة تجعلنا نشعر بتواضع شأننا... فكرةٌ ينبغي أن تبعث في نفوسنا مزيدًا من الإحساس بالعرفان إزاء أولئك الراضين بأن يعيشوا حياتهم على مقربة منا.

ميلاني كلين

(Melanie Klein)

1960 - 1882



كانت ميلاني كلين محلّلة نفسية يهودية من فيينا، شديدة الإبداع والأصالة، اكتشفت أعمال فرويد عندما كانت في السادسة والعشرين من عمرها، فكرست حياتها لإغناء عمله وإضافة تلاوين دقيقة عليه بطريقتها الساحرة المحيّرة. ولعل ذكراها باقية اليوم نتيجة نظرية منطقية جدًا، وإن بدا اسمها غير معقول، طرحتها في كتابها «التحليل النفسي للأطفال» (1932): نظرية عن «الثدي الجيّد» و«الثدي السيئ».

حقّق فرويد شهرته من خلال لفت انتباهنا إلى أن لدينا رغبات كثيرة تبدو غير مقبولة أبدًا عند النظر إليها بشكلها الفجّ الذي لا يستره شيء. فمن تحت السطح الخارجي المتمدّن، في عقولنا اللاواعية، نحن مدفوعون بما يدعوه مخترع التحليل النفسي «مبدأ اللذة» الذي يجعلنا راغبين في مجموعة دائمة التغير من الأشياء المفاجئة، الصادمة، المفتقرة إلى أية ضوابط (من منظور الحياة اليومية). نودّ أن نقتل أعداءنا، وأن نشوّههم ونخصيهم، ونحب أن نكون أقوى من على وجه الأرض، وأن نمارس الجنس مع أجزاء غير معتادة من أجساد الرجال والنساء والأطفال، وأن نعاشر أفراد عائلاتنا، وأن نكون خالدين.

هذه رغبات خطيرة، غريبة، متفجّرة، لا بد للعقل المنطقي، أو الـ«أنا»، من إزاحتها جانبًا إن أردنا متابعة السير في هذا العالم. لكن هذه العملية يمكن أن تتم بطريقة جيدة أو غير جيدة؛ فالأمر معتمد على مقدار خروج عقولنا الواعية من نزوات الطفولة وتقلّباتها. وفي أسوأ الأحوال، عندما نحاول إخماد هذه المطالب اللاواعية المستحيلة، نقع في عُصابات وموانع ذاتية شديدة تحمينا من رغائبنا، لكن التكلفة تكون مرتفعة: نصيرُ في حياتنا اليومية أقل إبداعًا وأكثر تعويقًا. فعلى سبيل المثال، من الممكن أن نصير غير قادرين على الخروج مس البيت (يكون في جزء من نفوسنا ذلك الخوف من إمكانية إقدامنا على محاولة قتل شخص من الأشخاص)؛ وقد نصير عاجزين جنسيًا (لأننا خائفون في أعماقنا من أن تعاقبنا شخصيةٌ أبوية لأن لدينا قدرة جنسية)؛ أو يمكن أن نفشل في كل ما نفعله (لكي نضمن ألّا نُنافسَ أخًا -أو أختًا نحسُده سرًّا، لكننا نخشى جانبه). هذه هي العُصابات التي ظهر التحليل النفسي لكي يساعدنا في فهمها وحلّحلتها بصبر وتروٍّ، وذلك حتى نتمكن آخر الأمر من الوصول إلى تلاؤمات مع الواقع تكون أكثر مرونة وأقل كبتًا.

اكتشفت ميلاني كلين التحليل النفسي سنة 1914، فلم يلبث ما فيه من طموح وحكمة أن استولى عليها. كانت امرأة متميّزة الذكاء؛ وقد حرمها أبوها من رغبتها في أن تصير طبيبة، ثم دفعتها أسرتها إلى زواج من غير حب ربطها برجل جلف كريه لم تجد ميلاني شيئًا مشتركًا بينها وبينه. ضاقت ذرعًا بذلك الزواج، وصارت محبطة من الناحية الجنسية، وساءت حالتها الذهنية. ثم أنقذها التحليل النفسي. تركت زوجها، وقرأت كل ما استطاعت قراءته، وتابعت المحاضرات، وبدأت تنشر بحوثًا تكتبها بنفسها. ثم لم تلبث أن افترقت عن فرويد في ميدان لم يحظَ باهتمام معظم المحللين النفسيين الآخرين: التحليل النفسي للأطفال. كان فرويد في شكٍّ من إمكانية التحليل النفسي للأطفال لأن أذهانهم -بحسب رأيه- لا تزال ناقصة التشكّل إلى حد لا يسمح بتكوين صورة عن لا وعيهم. إلّا أن ميلاني كلين ذهبت إلى القول بأن المحلل النفسي قادر على إلقاء نظرة مفيدة على عالم الطفل الداخلي من خلال دراسة طريقة تعامله مع الألعاب في حضوره، أو في حضورها. هذا ما جعلها تزوّد عيادتها بخيول صغيرة وقاطرات ودمى تمثل أشخاصًا، ثم جعلت ملاحظاتها عن كيفية لعب الأطفال بتلك الألعاب نقطة المركز في عملها العيادي. برهنت على قدراتها في ميدان التحليل النفسي للأطفال، في برلين أولًا، ثم في لندن التي استقرّت فيها منذ 1926 وظلّت فيها حتى نهاية حياتها (صارت نجمة في أوساط مجموعة بلومزبيري[1]، وكانت لها صداقة متميزة مع فيرجينيا وليونارد وولف).

أرادت كلين من عملها مع الأطفال أن تفهم كيف يرتقي الطفل من مرحلة الدوافع البدائية الباحثة عن اللذّة في الطفولة المبكرة إلى أساليب تكيّف أكثر نضجًا في المرحلة اللاحقة من حياته - أرادت خاصة أن تعرف ما يمكن أن يحدث من خلل أثناء هذه المسيرة بحيث يُنتج التكيّفات العُصابية لدى الكبار.

فوجئت، أولًا وقبل كل شيء، بصعوبة وضع الطفل الصغير (تقول المحللة النفسية جوليا كريستيفا إن كلين وصفت أيام الوليد الأولى ولياليه بأن فيها «رعب لوحات هيرونيموس بوخ»).

يكون الطفل ضعيفًا، واقعًا وقوعًا مطلقًا تحت رحمة الكبار، غير قادر على فهم ما يجري من حوله، ولا يستطيع إدراك أن من حوله هم -بحسب وصف كلين- بشرٌ في واقع الأمر... بشرٌ لهم واقعهم الآخر وآراؤهم المختلفة. وخلال الأسابيع الأولى، لا

---

(1) مجموعة بلومزبيري (Bloomsbury group): رابطة مثقفين ومفكّرين وكتّاب نشأت في إنكلترا في النصف الأول من القرن العشرين.

تكون الأم «أُمًا» لطفلها، بل هي -هنا نصل إلى ذروة هذا الأمر- ليست أكثر من ثديين يظهران ويختفيان على نحو عشوائي مؤلم لا يستطيع الطفل توقّعه. ففي ما يتعلّق بهذه الأم، تكون تجربة الطفل الوليد كلّها لحظاتٌ من ألم شديد تعقبها، لأسباب لا يستطيع فهمها، لحظات من لذة تُماثل في شدّتها لحظات الألم التي سبقتها. عندما يظهر الثدي، ويتدفّق منه الحليب، يحلّ على الرضيع رضا وسكينةٌ حقيقيان: يكون مفعمًا بمشاعر الرّغد والحبور والحنان والعرفان (مشاعر تظلّ، بعد النضج، شديدة الارتباط بحالة الحب... الحالة التي يواصل فيها الثديان لعب دور بارز لدى كثير من الناس). وأما عندما يكون الثدي مرغوبًا فيه، لكنه غير موجود -لسبب من الأسباب- فإن ذعرًا لا نهائيًا يحل على الطفل: يشعر بأنه سيموت جوعًا، وبأنه حانق، مذعور، حاقد.

رأت كلين أن هذا يقود الوليد إلى تبنّي آلية دفاعية بدائية ضد ما قد يكون، من غير وجودها، ألمًا لا يستطيع أن يطيقه. إنه «يشطر» أمه إلى ثديين مختلفين كثيرًا: «ثدي جيّد» و«ثدي سيئ». يصير الثدي السيئ محل كره شديد، ويكون الطفل راغبًا في عضّ هذا الشيء الذي يسبب له خيبة شديدة، وفي جرحه وتدميره. لكنه يتعلّق بالثدي الجيد ويُجلّه بشدّة لا تقل عن شدة كرهه الثدي السيئ.

يُشفى هذا «الانشطار» مع الزمن، عند النمو الصحي للطفل. يستوعب الطفل، استيعابًا متدرجًا، أنه لا وجود -في الحقيقة- لثدي جيد بالكامل، ولا لثدي سيئ بالكامل... فكلاهما مُنتم إلى أمٍّ هي مزيج محيّر من الإيجابي والسلبي: هي منبع اللذة، ومنبع الإحباط؛ منبع الفَرحة، ومنبع المعاناة. يكتشف الطفل (لأننا نتكلّم الآن على طفل صار عمره نحو أربعة شهور) الفكرة المفتاحية في تحليل كلين النفسي: مفهوم المشاعر المختلِطة، أو المشاعر ذات الوجهين. ترى نظرية كلين أن قدرة المرء على أن تكون له مشاعر مختلطة تجاه شخص من الأشخاص تمثل إنجازًا نفسيًا هائلًا، وتكون الدليل الأول على سلوكه الطريق المفضية إلى نضج حقيقي.

لكن هذا ليس محتومًا، ولا مضمونًا؛ فالوصول إلى المنطقة الرمادية أمر صعب. ولا يستطيع الطفل، إلّا ببطء شديد، الوصول إلى التمييز الحاسم بين النيّة والأثر؛ أي بين ما قد تريده أمه له، وما قد يشعر به بين يديها بصرف النظر عن نواياها. فمع أن ما من أم عاقلة يمكن أن ترغب في إحباط طفلها أو إثارة ذعره، فإن من الممكن -على الرغم من ذلك- أن يصاب الطفل بجرح بليغ يجعله غير واثق بأمه. تنتمي هذه الإدراكات النفسية المعقّدة إلى ما تدعوه كلين «الحالة المُكئِبة»، أي لحظة الصحو والحزن عندما يستوعب الطفل الذي يكبر (يستوعب في لا وعيه) فكرة أن الواقع أكثر تعقيدًا وأقل

سلامة من الناحية الأخلاقية مما تخيّله قبل ذلك: لا سبيل لديه إلى لوم الأم (أو الناس الآخرين عامةً) لومًا تامًا على كل نكسة يحسّها؛ فما من شيء تقريبًا يمكن أن يكون نقيًا كله أو شريرًا كله. الأمور مُحيّرة؛ وهي مزيج من الخير والشر يُحرّض عقل الطفل على التفكير... يجد الطفل صعوبة في تقبّل هذا الأمر الذي يفسّر - في نظر كلين - تلك النظرة الجادّة البعيدة التي تلوح أحيانًا في أعين الأطفال أثناء أحلام يقظتهم. في تلك اللحظات، تبدو هذه الكائنات الصغيرة حكيمة وجادة على نحو غريب؛ وتبدو كأنها غارقة عميقًا داخل ذواتها... كأنها قد بدأت فهم معضلة الغموض الأخلاقي.

والأمر المؤسف، بحسب كلين، أن «الحالة المُكتئبة» حالةٌ لا يصل إليها الناس جميعًا لأن بعضهم يظل في حالة الانشطار البدائي الذي أعطته كلين اسمًا مخيفًا بعض الشيء هو «حالة من الفصام/ البارانويا». فعلى امتداد سنين طويلة، بل حتى بعد دخول مرحلة النضج، يظل أولئك الأشخاص المبتلون بالبقاء في تلك الحالة يجدون أنفسهم غير قادرين على أن يطيقو أدنى قدر من الازدواجية، أو من المشاعر المختلطة: يكون هؤلاء الأشخاص توّاقون إلى المحافظة على إحساسهم ببراءتهم، فيجدون أن عليهم أن يحبّوا، أو يكرهوا... إما هذا، وإما ذاك. ولا بد لهم من البحث عن شخص يجعلونه مثالًا، أو يجعلونه كبش فداء. وفي علاقاتهم العاطفية، يكونون ميالين إلى الوقوع العنيف في الحب، ثم تأتي لحظة لا مهرب منها يُخيّب الحبيب فيها أملهم، فيتحوّل موقفهم تحولًا مفاجئًا، ويصيرون غير قادرين أبدًا على الاستمرار في حبه. ومن المرجح أن ينتقل أولئك الأشخاص عاثرو الحظ من «مرشَّح» للحب إلى «مرشح» آخر لأنهم يبحثون دائمًا عن حالة من الرضا التام لا تلبث أن تتحطّم -مرّة بعد مرّة- نتيجة غلطة لم يقصد الحبيب ارتكابها.

لسنا مضطرين إلى الاقتناع بحَرفية نظرية كلين لكي نرى أن فيها قيمة بالنسبة إلينا من حيث كونها رؤية لمرحلة النضج: رؤية غير مألوفة، لكنها مفيدة. إن ذلك الدافع إلى اختزال الناس إلى ما يستطيعون فعله من أجلنا (إعطاءنا الحليب، أو جعلنا نكسب المال، أو إسعادنا دائمًا) بدلًا من رؤيتهم كما هم في ذواتهم (بشر متعدّدو الجوانب غالبًا ما يجدون، هم أنفسهم، صعوبة في المحافظة على توازنهم) ميلٌ نستطيع ملاحظته في الحياة العاطفية عامّةً. نتعلّم، بعون من كلين، أن القبول بالطبيعة ثنائية الجانب للعلاقات العاطفية أمرٌ مُنتمٍ إلى مسألة النضج (النضج مهمة لا نفرغ منها أبدًا) - ومن الممكن جدًا أن يثير هذا القبول في نفوسنا قدرًا من الحزن، بل قدرٌ من الاكتئاب الذي يستمر بعض الوقت.

دونالد وينيكوت

(Donald Winnicott)

1971 - 1896



كيف نبني عالمًا أفضل؟ هناك أمور ملحّة كثيرة، معروفة جيدًا، يمكن البدء بها: الملاريا - انبعاثات غازات ثاني أكسيد الكربون - التهرب الضريبي - تجارة المخدرات - تآكل التربة - تلوّث المياه...

يستحق دونالد وينيكوت مكانه في التاريخ لقاء البساطة المفاجئة في مقاربته. لقد طرح فكرة أن سعادة بني البشر وإحساسهم بالرضا في المستقبل ليسا معتمدين كثيرًا -في آخر المطاف- على المسائل السياسية الخارجية، بل على شيء أقرب كثيرًا: كيفية تنشئة الأهل أطفالهم. وهذا لأن أمراض البشرية، بحسب رأيه، ناتجة عن فشل في توفير الرعاية الوالدية. فالفاشية، واحتقار المرأة، والغضب، والجنوح، وإدمان الكحول... ليست كلها إلّا أعراضًا لطفولة غير سليمة لا بد أن يدفع ثمنها البشر جميعًا. فمن المهد يبدأ طريقنا إلى مجتمع أفضل.

كان دونالد وينيكوت تربويًا إنكليزيًا عرف منذ فترة مبكرة من حياته المهنية حماسةً إزاء ميدان التحليل النفسي الذي كان حديث العهد في ذلك الوقت. لقد حلّله نفسيًا جيمس ستراتشي الذي ترجم أعمال فرويد إلى الإنكليزية وصار أول طبيب في بريطانيا يمارس التحليل النفسي للأطفال. وقد كان استشاري طب الأطفال في مستشفى «بادينغتون غرين» للأطفال في لندن، ولعب دورًا حاسمًا في التعليم العام المتعلّق برعاية الأطفال، وقدّم نحو خمسين حديثًا إذاعيًا عبر إذاعة بي بي سي، وألقى في أنحاء البلاد محاضرات كثيرة، وأنتج خمسة عشر كتابًا كان أكثرها مبيعًا «البيت هو نقطة البداية».

لا بد أن الأمر قد بدا غريبًا جدًا -سنة 1954- عندما كان المرء يفتح الراديو على إذاعة بي بي سي في وقت ذروة المتابعة فيسمع شخصًا له صوت لطيف عاقل يجادل بطريقته القاطعة ضد فكرة أن الأطفال الرضّع يبكون «بغية لفت الانتباه إليهم»، أو ضد فكرة إرسال أطفال في السابعة من العمر إلى المدارس الداخلية حتى «تشتد أعوادهم».

وكان هناك أيضًا قدر من الغرابة في أن دونالد وينيكوت شخص إنكليزي، وهذا بالنظر إلى أن بلاده معروفة جدًا -في ذلك الوقت والآن- بالافتقار إلى الرقّة، وبمقاومة تفكير المرء الداخلي في ذاته (ومعروف عنها كذلك ولَعها بالسخرية والتهكّم والبرودة). وكما أشار وينيكوت: «لا يريد الإنكليزي أن ينزعج، ولا أن يذكّره أحد بأن هناك مآسيَ

شخصية في كل مكان من حوله، وبأنه ليس سعيدًا في قرارة نفسه. باختصار، يرفض الإنكليزي إخراجه من حالته الرَّضيّة».

على الرغم من هذا كلّه، كان ذلك النوع من التحليل النفسي الذي قدمه وينيكوت -إذا نظرنا إليه عن كثب- نوعًا إنكليزيًا على نحو خاص. لقد كتب نصوصًا براغماتية سهلة المتناول عبّر فيها عن أعمق الأفكار بلغة سهلة غير منمّقة. ما كان في كتاباته شيء من التجريد الألماني، أو الاستعصاء على الفهم. لقد أراد مساعدة الناس في أن يكونوا، بحسب صياغته الشهيرة، «آباء وأمهات، جيدين إلى حد مقبول»، لا كاملين ولا لامعين (مثلما قد تتمناهم أمم أخرى)، بل جيدون فحسب. وهذا لأنه اعتمد، إلى حد كبير، على الطبع الواقعي، المتواضع، الهادئ، الذي هو موضع فخر خاص للعقل الإنكليزي.

أعلن عن مشروعه على النحو التالي عبر مقالة من مقالاته الأولى:

> أجد مفيدًا تقسيم عالم البشر إلى طبقتين اثنتين. هناك من لم يعرفوا أي خذلان عندما كانوا أطفالًا رُضّع فصاروا مرشّحين للتمتع بالحياة وبالعيش. وهناك أيضًا طبقة أخرى مكوَّنة من أولئك الذين عانوا تجارب مريرة من النوع الذي يكون ناتجًا عن خذلان البيئة المحيطة؛ ولا بد أن يحملوا معهم، طيلة حياتهم، ذكريات الحالة التي عاشوها، فيستعيدونها في لحظات الكوارث. إنهم مرشّحون لحياة عاصفة، متوتّرة، بل قد يكونون أيضًا مرشحين للمرض.

هذه الفئة الثانية هي التي أراد إنقاذها وتفادي ظهورها في الجيل التالي، فما الذي ينبغي فعله -في نظره- من أجل تشجيع الآباء والأمهات «الجيدين إلى الحد الكافي»؟ طرح وينيكوت عددًا من الاقتراحات:

1 ـ تذكّر أن طفلك ضعيفٌ وهشٌّ جدًّا

يبدأ وينيكوت بالتأكيد أمام مستمعيه على مدى هشاشة الطفل الصغير من الناحية النفسية. إنه لا يفهم نفسه، ولا يعرف أين هو؛ وهو يكافح حتى يبقى حيًا من غير أن يكون لديه سبيل إلى معرفة متى تأتيه الوجبة التالية. هو غير قادر على التواصل مع نفسه، ولا مع الآخرين. إنه كتلة من دوافع متضاربة، غير متمايزة، لا شخصية لها. وهو ليس شخصًا بعد. من هنا، تكون الشهور الأولى صراعًا شديدًا. لا يغيب هذا أبدًا عن نظر وينيكوت في أعماله كلّها، وهو ما يجعله دائم الإصرار على أن مهمة «التكيّف» واقعة على كاهل من هم محيطون بالطفل الوليد؛ فعليهم أن يتكيّفوا حتى يكون كل ما يفعلون ترجمة لحاجات الطفل، لا فرضًا لمطالب ليس الطفل مستعدًّا لها بعد.

يكون الطفل الذي بكّروا في جعله يتكيّف مع العالم، أو الطفل الذي فرضوا عليه

متطلّبات غير مناسبة له، أول المرشحين لظهور مشكلات عقلية؛ فالحالة الصحية الجيدة نتيجة للبيئة القادرة على إبداء استجابات ملائمة للطفل بحيث تحميه من عناصر الواقع إلى أن يصير ذلك المخلوق الصغير مستعدًا للتعامل معها.

وفي بعض الحالات غير السليمة، يمكن أن تعمد أم مكتئبة إلى إرغام طفلها الرضيع، في وقت مبكر كثيرًا على أن يكون «مبتهجًا» لأنها ليست كذلك. لكن من يكون طفلًا لوالدين غير مستقرين، غاضبين كثيرًا، يمكن أن يخاف التعبير عن أيٍّ من مشاعره القاتمة. كما أن طفلًا لوالدين لديهما ميل زائد إلى التطفّل عليه و«اقتحامه» دائمًا يمكن أن يُحرَم من تطوّر قدرته على أن يكون وحده.

2 ـ دع الطفل يغضب

أدرك وينيكوت ما يمكن أن يكون لدى طفل معافى من عنف وكره. وقد قال محذِّرًا في معرض الإشارة إلى ما قد يحدث إذا نسي الوالدان إطعام الطفل: «إذا خذلته، فلا بد أن يكون إحساسه بذلك وكأن الوحوش المفترسة موشكة على التهامه».

لكن، وعلى الرغم من أن الرضيع قد يكون أحيانًا راغبًا في القتل والتدمير، فإن من الضروري أن يسمح الوالدان لثورة الغضب بأن تستهلك نفسها، ولا يجوز أبدًا أن يشعرا بالخطر، أو أن يكونا «مفرطي التمسّك بالأخلاق» إزاء هذا السلوك «السيئ»:

> إذا بكى الطفل في نوبة من نوبات غضبه وأحسّ كأنه قد دمّر كلَّ شيء وكل شخص، لكن الناس الذين من حوله ظلوا هادئين من غير أن يزعجهم ذلك، فسوف تؤدّي هذه التجربة إلى تعزيز كبير لقدرة الطفل على رؤية أن ما يحسّه حقيقيًا ليس حقيقيًا بالضرورة، وأن الخيال والحقيقة الواقعية -كلاهما مهم- مختلف أحدهما عن الآخر.

فسر وينيكوت المشاعر العنيفة إزاء الوالدين بأنها جانب طبيعي من جوانب عملية النضج: «حتى يترعرع الطفل بحيث يكون قادرًا على اكتشاف أعمق نواحي طبيعته، فلا بد من وجود شخص يستطيع عصيانه، بل يستطيع كرهه أحيانًا... وذلك من غير أن يكون هناك خطر من خراب العلاقة كلّها». هذا ما يجعل وينيكوت يُقدّر من تكون مراهقتهم صعبة ويدافع عنهم وعن صراخهم في وجوه أهلهم ومحاولتهم، أحيانًا، سرقة بعض المال من محافظهم. فهذا دليل على أنهم تلقّوا حبًا وافرًا جعلهم يجرؤون على عصيان عالم الكبار وتحدّيه:

> إن كانت لدى طفل طبيعي ثقة في أبيه وأمه، فسوف يبذل كل جهد يستطيعه. سوف يمر بمرحلة يجرِّب فيها قدرته على التخريب والتدمير والترويع والإتلاف

والإهدار والاحتلال والاستيلاء على ما ليس له. إن لكل فعل من الأفعال التي تؤدّي بالناس إلى المحاكم (أو إلى المصحّات العقلية أحيانًا) مكافئًا طبيعيًا في فترة الرضاعة والطفولة المبكرة... إذا استطاع البيت أن يتحمّل كل ما يفعله الطفل لتخريبه فسوف تهدأ الأمور وتستقرّ في آخر المطاف. (يعتمد وينيكوت نبرة مشجّعة جدًا، معظم الأحيان).

3 ـ احرص على ألّا يكون امتثال طفلك مفرطًا

يفرح الآباء والأمهات عندما يلتزم أطفالهم الصغار بالقواعد التي يضعونها لهم. يُدعى هؤلاء الأطفال أطفالًا جيدين. لكن وينيكوت كان شديد الخوف من أولئك الأطفال «الجيدين». كانت رؤيته إلى الطفولة أكثر ميلًا إلى الفوضى. الأمر المهمّ في السنوات الأولى من العمر هو أن يكون الطفل قادرًا على التعبير الحر عن كثير من المشاعر «السيّئة» من غير أن تكون لذلك تبعات، ومن غير أن يخشى عقوبة.

لكن من الممكن أن يكون بعض الأهالي غير قادرين على تحمل قدر كبير من السلوك السيئ فيطالبون أطفالهم بالامتثال للقواعد أبكر مما ينبغي وبصرامة أشد مما ينبغي. هذا ما يؤدّي، بحسب تعبير وينيكوت، إلى ظهور «ذات زائفة» - شخص ممتثل في ظاهره، لكنه يكبت غرائزه الحيوية ولا يستطيع إقامة توازن سليم بين جانبيه الاجتماعي والتدميري، وذلك لأنه لم يحظ بفرصة كاملة لاستكشاف الأنانية والكره. لا يستطيع الطفل توليد «ذاته الحقيقية» من غير تربية سليمة فيها قدر كافٍ من الرعاية.

يرى وينيكوت أن البالغين غير القادرين على أن يكونوا مبدعين، أولئك الذين يكونون «ميتين» قليلًا في دواخلهم هم، بشكل شبه دائم، أطفالُ أشخاص لم يتمكّنوا من تحمّل العصيان بل جعلوا أبناءهم وبناتهم «جيدين» قبل الأوان، فقتلواً فيهم قدرتهم على أن يكونوا جيدين حقًا وكريمين حقًا ولطيفين حقًا (هذا لأن الشخصية الممتثلة ليست، في حقيقة الأمر، إلا نسخة مزيفة من الذات المسؤولة الكريمة).

4 ـ دع طفلك يَكون ذاتَه

إن من شأن كلّ قصورٍ في البيئة المحيطة أن يرغم الطفل على التلاؤم قبل الأوان. فعلى سبيل المثال، إذا كان الوالدان فوضويَّيْن كثيرًا، فسرعان ما يبدأ الطفل محاولة التفكير في تجاوز هذا الوضع. تتعرّض قدراته المنطقية إلى تحريض زائد (قد يحاول، في وقت لاحق، أن يصير من أهل الفكر!).

وإذا كان أحد الوالدين مكتئبًا، فقد يرغم الطفل، من غير أن يشعر بذلك، على أن

يكون زائد الابتهاج - إنه لا يعطيه وقتًا كافيًا لمعالجة مشاعر الكآبة الخاصّة به. لقد رأى وينيكوت المخاطر المُحدِقة بطفل مضطرّ إلى «الانتباه إلى حالة أمه المزاجية ومراعاتها».

كان لدى وينيكوت نفورٌ خاص من الأشخاص الذين لا يتوقّفون عن هز الطفل الرضيع، صعودًا ونزولًا، محاولين جعله «يضحك». فهذا السلوك ليس أكثر من طريقتهم الخاصّة في إزاحة الحزن عن أنفسهم من خلال فرض الضحك على طفل صغير قد يكون ذهنه في تلك اللحظة متّجهًا إلى شيء مختلف تمامًا.

يرى وينيكوت أن أول شرط من شروط الرعاية الوالدية السليمة هو - بكل بساطة أن يكون المرء قادرًا على «الخروج من نفسه» بعض الوقت بغية فهم ومشاركة مشاعر وحاجات شخص صغير، غامض، جميل، ضعيف، ينبغي الاعتراف له بفرادته، وبأنه شخص مختلف، واحترام ذلك من كل النواحي.

5 ـ عليك أن تدرك خطورة المهمّة التي اخترت القيام بها

عرف وينيكوت آباء وأمهات كثيرين تصيبهم أعمالهم بإرهاق شديد. وكان يحاول مساندتهم وتشجيعهم عن طريق تذكيرهم بالأهمية القصوى لما يقومون به. لقد كانوا -بطريقتهم- مهمين للبلاد مثلما يكون رئيس الحكومة وأعضاؤها مهمّين لها:

> أنت من يُرسي أساس صحة الكائن البشري خلال الأسابيع والأشهر الأولى من حياة طفلك. ولعل هذه الفكرة تعينك قليلًا عندما تشعر بشيء من الغرابة جرّاء توقّفك المؤقت عن الاهتمام بأمور العالم.... هذا ليس مفاجئًا. أنت مُنكبٌّ على وضع أسس الصحة العقلية للجيل التالي.

لقد دعا وينيكوت مهمّة الوالدين: «الأساس الحقيقي الوحيد للمجتمع، والمصنع الوحيد للميول الديمقراطية في النظام الاجتماعي للبلاد».

سوف تظهر أخطاء، بطبيعة الحال. تخرج الأمور عن سواء السبيل في مرحلة الطفولة. وهنا يأتي دور المحلّلين النفسيين. ففي نظر وينيكوت، يقوم المحلّل النفسي في سنوات لاحقة بدور «والدٍ بديل» أو «والدة بديلة»، فيكون شخصًا وسيطًا «جيدًا إلى حد معقول يتّخذ موقع والدة طفل صغير». إن للتحليل النفسي الجيد عناصر مشتركة مع ما يكون في سنوات العمر الأولى. فهنا أيضًا، يتعيّن على المحلّل أن يصغي جيدًا من غير إرغام المريض على أن «يتحسّن» في وقت أبكر مما ينبغي. ولا يجوز له أن يستخدم القوة في وضع الدواء في فم الصغير، بل عليه أن يوفّر مكانًا آمنًا يستطيع المرء فيه أن يُعيد خلق عناصر الطفولة التي لم تكتمل، أو التي اضطرب مسارها، وأن يتمرّن عليها. إن التحليل النفسي فرصة لملء الثغرات الباقية.

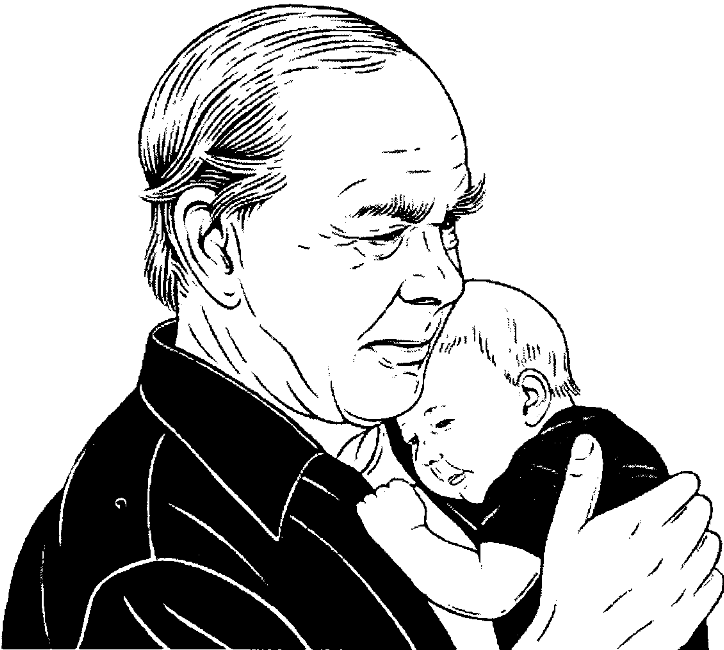
في وصفاته لما ينبغي على الأهل فعله من أجل أطفالهم، كان وينيكوت يشير، في الواقع، إلى تعبير لا نذكره ذكرًا مباشرًا إلّا في أحوال نادرة: إنه الحب! كثيرًا ما نتخيل أن الحب «رابطة» حَدْسية سحرية مع شخص آخر. لكننا نخرج من كتابات وينيكوت بصورة مختلفة كل الاختلاف. فالحب هو استسلام الـ«أنا»، وهو وضع المرء جانبًا حاجاته وتصوّراته الخاصّة من أجل الإصغاء اللصيق المنتبه إلى ما يقوله شخص آخر مع احترام غموضه ومع التزام بعدم الاستياء مما يقوله، وبعدم الانتقام منه عندما يظهر أمر «سيئ»، وذلك مثلما يحدث دائمًا عندما يكون المرء قريبًا من شخص من الأشخاص، طفلًا أو بالغًا.

منذ موت وينيكوت، تحسّن وضعنا قليلًا من حيث الرعاية الوالدية. لكنه لم يتحسن إلّا قليلًا فقط. لعلنا صرنا نمضي وقتًا أطول مع أطفالنا، وصرنا مدركين نظريًا أنهم مهمّون كثيرًا. لكن من الممكن القول إننا لا نزال نفشل في الأمر الذي ركّز عليه وينيكوت كثيرًا: التلاؤم والتكيّف. ولا نزال نفشل كثيرًا في كبت حاجاتنا وإسكات متطلّباتنا عندما نكون مع طفل. لا زلنا نتعلّم كيف نحب أطفالنا - لو كان وينيكوت موجودًا لقال إن هذا هو السبب الذي يجعل العالم لا يزال ممتلئًا بأشخاص مجروحين، بأشخاص «ناجحين» ومحترمين من الخارج، لكنهم «ليسوا حقيقيين» تمامًا من الداخل، بأشخاص يُحمّلون الآخرين آثار جراحهم. لا تزال أمامنا مسافة طويلة قبل أن نصير «جيدين» إلى حد كافٍ. وهذه مهمة لا تقل أهميتها أبدًا -يصر وينيكوت على هذا- عن أهمية شفاء الملاريا أو إبطاء الاحترار العالمي.

جون بولبي

(John Bowlby)

1990 ـ 1907



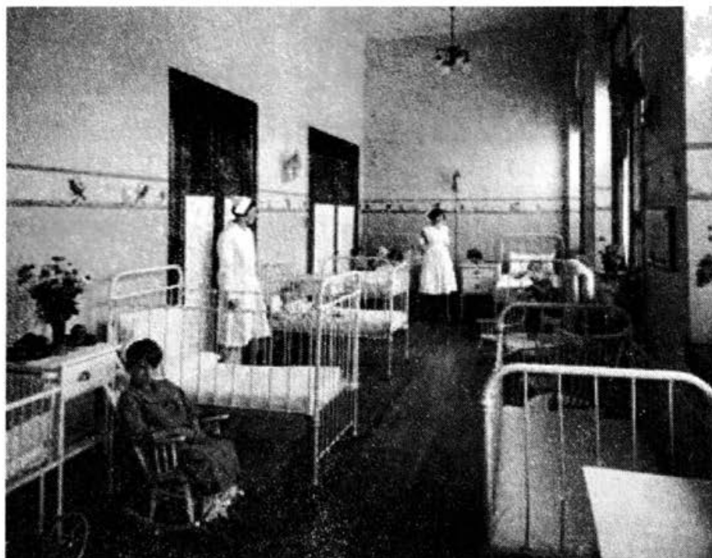
إن من أعمق تطلّعاتنا، وأكثرها طبيعية، أن نتوق إلى علاقات عاطفية مستقرّة تحقّق لنا الرضا والإشباع: فالعلاقة الناجحة المزدهرة جيدة للطرفين. لا تبدو المطالبة بهذا أمرًا مبالغًا فيه؛ فهناك بشر كثيرون يبحثون عن الأمر نفسه تقريبًا. لكن الحقيقة المؤلمة هي أن نسبة كبيرة جدًا من العلاقات العاطفية تعيش مراحل صعبة كثيرة متلاحقة، أو نزاعات بائسة تبدو غير قابلة للحلّ. هذا ما يجعل العلاقات العاطفية تبدو كأنها صراع، لا مساندة متبادلة. هذا واحد من الأسئلة الكبرى: لماذا يصعب علينا كثيرًا الحصول على العلاقات البنّاءة السعيدة التي نتمناها كلنا؟

وجهة نظر التحليل النفسي - هي وجهة نظر غير مُستوعَبة تمامًا بعد - هي أن التحديات التي تواجهها العلاقات العاطفية لا تبدأ على العشاء في مطعم جميل أو في مقهى كلية جامعية. الواقع أنها تبدأ عندما نكون أطفالًا. ما من مرحلة من أعمارنا أكثر أهمية من طفولتنا. فالطفولة الجيدة هي أساس الحياة السعيدة، والطفولة السيئة تجعلنا نعيش بؤسًا دائمًا. وقد تمثّلت مساهمة المحلل النفسي الكبير جون بولبي في تتبّع التوترات والنزاعات التي تظهر بيننا وبين شركائنا في علاقاتنا العاطفية رجوعًا إلى تجربتنا الأولى أيام الرعاية الأمومية.

يعود جزء من سلامة أفكاره إلى حقيقة أنه اعتمد اعتمادًا عميقًا صادقًا على تجاربه الذاتية حتى يصوغ تلك الأفكار. ولد إدوارد جون موستين بولبي سنة 1907، وكانت طفولته تجسيدًا لنمط الطفولة البريطانية الشائع لدى الطبقة العليا في المجتمع. كان أبوه طبيبًا ناجحًا واسع الشهرة؛ وقد حمل رتبة فارس، وكانت له علاقات مع الأسرة الملكية. لم يكن بولبي الصغير يرى أباه وأمه إلّا نادرًا؛ وكانت ترعاه مربية لطيفة اسمها ميني. لكن ميني كانت موظفة هناك؛ وقد صرفوها من العمل عندما بلغ عمر جون أربع سنوات. لم تكن هذه قسوة متعمّدة من جانب والديه اللذين لم يدركا أبدًا (مثلهما في هذا مثل بقية الناس في ذلك الوقت) كم سيكون هذا الفراق جارحًا للطفل. وفي سن السابعة، أرسلوه إلى مدرسة داخلية -تمشيًا مع تقاليد طبقته- أي إلى مكان مُجرّد من الدفء الأمومي تجريدًا عنيفًا.

صار بولبي طالبًا لامعًا في كلية الطب، وصار باحثًا خصب المخيلة. صنع في سنة 1952 فيلمًا اسمه «ابن سنتين يذهب إلى المستشفى». عرض الفيلم المعاناة التي يمر

بها الأطفال عندما يجري فصلهم عن ذويهم نتيجة الأنظمة المؤسّساتية. في أجنحة المستشفى، كان ممنوعًا على الأمهات أن يحتضنّ أطفالهنّ المرضى خوفًا من انتقال الجراثيم. وكانت مواعيد الزيارة مقيدة كثيرًا، كأنها عقوبة.



كانت أجنحة المستشفيات في بريطانيا تحرم الأطفال من التواصل مع أمهاتهم

عمل بولبي استشاريًا لدى منظمة الصحة العالمية في خمسينيات القرن العشرين، وحرر تقريرًا بعنوان «الرعاية الأمومية والصحة العقلية». هاجم في هذا التقرير الفرضيات السائدة (بما فيها نظريات كانت أمه شديدة الإصرار عليها)، وقال إن اللطف والرقة لا يفسدان الطفل. كما شدّد على أهمية نشوء علاقة بين الطفل وأمه تكون حميمة وممتعة للطرفين. أطلق هذا الرأي موجة إصلاحية: جرى تعديل قواعد الزيارات في مؤسسات صحية كثيرة إجراء، بيروقراطي جاف كان من شأنه إنهاء ما لا يحصى من أمسيات الحزن الصامت وليالي العذاب.

يستحضر بولبي الرعاية المُحِبّة التي يحتاجها صبي صغير: «الاحتضان، واللعب، وحميمية الرضاعة التي يتعلم منها الطفل أن جسد أمه يوفّر له راحة، وطقوس الاستحمام واللبس التي يتعلم مما فيها من رقة واعتزاز تبديهما أمه لأطرافه الصغيرة... يتعلّم منها أن له قيمة...». نتعلّم من هذه التجارب جوهر فكرة الثقة: الصعوبات قابلة للحلّ، والأخطاء والزلّات ليست أكثر من أخطاء وزلّات يمكن تصحيحها، وأننا نستحق استحقاقًا طبيعيًا أن نتلقى معاملة دافئة واهتمامًا بنا من غير أن نكون مضطرين إلى فعل

أي شيء حتى نحصل على هذا، بل حتى من غير أن نضطر إلى توسّله والمطالبة به. «يبدو لي أن رعاية الأم ضرورية من أجل النمو السليم للشخصية مثلما هو فيتامين «د» ضروري لنمو العظام نموًا سليمًا».

تكون الأم المثالية (والأب المثالي) موجودة عندما يحتاجها الطفل. وهي تجيد الإصغاء إلى ما يقوله. كما تساعده على تبيّن ما يشعر به. وهي ليست أمًّا تحوم حول الطفل قلقة وتحاول أن تتحكم حتى بأصغر الأشياء. يخلق الوالدان المثاليان إحساسًا بأن المشكلات والأخطار والصعوبات ليست مما ينبغي تجنّبه دائمًا: إنهما قادران على التلاؤم معها، وعلى حلّها أو التغلّب عليها بمهارة. أولئك هم الأهل الذين يجعلون الطفل يشعر بالأمان من غير أن يقتصر ذلك الشعور على لحظات بعينها. وهذا ما يسمح للطفل بأن يظل متسلّحًا بهذا الأمان عندما يواجه مهمات الحياة: يصير شخصًا آمنًا، مما يعني أنه أقل حاجة إلى مصدر خارجي للثقة والاطمئنان، وأقل تأثرًا بالفشل، وأقل حاجة إلى أن تؤكّد له علاماتُ المكانة قيمتَه الذاتية... هذا لأنه يحمل معه إحساسًا مضمونًا، منطقيًا، مستقرًا بحقيقته.

لكن الواقع هو أننا لا نحصل -أكثر الأحيان- على الرعاية الأمومية اللازمة لنا. يرتكب الأبوان ما لا نهاية له من هفوات وأغلاط من غير أن يتعمدا خذلان الطفل. إنهما غير مُتّسقَين: يكونان متاحين إلى أقصى حد، بعض اللحظات، ويكونان سعيدين باللعب وبفعل أشياء كثيرة؛ ثم يصيران فجأة منشغلين، صارمَيْن، بعيدَيْن. أو يمكن أن يكونا لطيفَيْن، حميمَيْن - لكن من الممكن أن يصيرا غاضبَيْن أو متجهّمَيْن. يكونان هنا، ثم يختفيان. قد يكونان منشغلين طيلة الوقت تقريبًا، أو قد يكونان منشغلي الذهن كثيرًا بشؤون العمل والحياة الاجتماعية. إن لديهما مخاوفهما، وقلقهما، ومشكلاتهما التي قد تمنعهما من توفير الانتباه السخي والاهتمام الحكيم اللذين لا بد من توفرهما للطفل.

نشر بولبي سنة 1959 كتابًا بعنوان «قلق البعد» تحدّث فيه عما يحدث عندما لا تتوفّر للطفل رعاية أمومية كافية. لقد وصف سلوك أطفال راقبهم بعد أن انفصلوا عن أهلهم. مرّ أولئك الأطفال بثلاث مراحل: الاحتجاج، واليأس، والانفصال. تبدأ المرحلة الأولى بلحظة ذهاب الأب، أو الأم؛ وتستمر من بضع ساعات إلى أسبوع كامل. يحتجّ الأطفال بالبكاء والتقلب من جهة لأخرى وتكون ردود أفعالهم وكأن من الممكن ألّا تعود أمهاتهم أبدًا.

إذا تكرر كثيرًا مرور الطفل بهذه الحالة، فإنه يكون توّاقًا إلى الاهتمام والحب من

جانب والديه، لكنه يحمل شعورًا دائمًا بأن أي شيء جيد يمكن أن يختفي في أية لحظة. يصير في حاجة إلى قدر كبير من الأشياء التي تطمئِنه، وينزعج إذا لم يحصل عليها. يصير كثير التقلب: ينتعش، ثم يصيبه اليأس، ثم يمتلئ أملًا من جديد. هذا هو النموذج الذي يدعوه بولبي حالة «الارتباط القلق».

لكن من الممكن أن تكون درجة الانفصال عن الأبوين أكبر من ذلك. ومن الممكن أن يشعر الطفل بعجز شديد يجعله منفصلًا تمامًا: يدخل الطفل عالمه الخاص. يقول بولبي إن الطفل «يتجنّب الارتباط»: هذا يعني أنه يرى في الرقّة والقُرب استغلالًا عاطفيًا خطيرًا ينبغي تجنّبه. قد تكون الحقيقة أنه راغبٌ رغبة شديدة في أن يعانقه والداه ويلاطفاه، لكن هذه الأشياء تبدو له غدّارة كثيرًا.

تركَّزَ تفكير بولبي على ما يحدث للطفل إن كانت هناك صعوبات كثيرة جدًا تعترض سبيل تشكل الارتباط الآمن. وذلك أن عواقب عدم نشوء هذا الارتباط لا تكون مقتصرة على سن بعينها، الثامنة، أو الثانية عشرة، أو السابعة عشرة، بل هي تلازم الطفل طيلة حياته. فالنموذج الذي يتطور لدينا في الطفولة يفعل فعله في حياتنا بعد أن نكبر.

تغذّي تجاربُنا المبكرة نمط الارتباط الذي ينشأ لدينا: إنها تحدّد طريقة كل فرد في الوجود مع الآخرين. وهي تحدد أيضًا كيفية إحساسنا بما يُزمع الآخرون فعله، وتحدّد كيفية تعبيرنا عن حاجاتنا، وتحدّد أيضًا توقّعاتنا لوجهة سير الأمور. إنها «نَصٌّ مُقررٌ مسبقًا» تجري كتابته عبر علاقاتنا العاطفية بعد أن نكبر - يحدث هذا عادة من غير حتى أن نلاحظ حدوثه. يبدو كل شيء واضحًا، مألوفًا (حتى عندما يكون غير مريح). إننا نحمل هذا الأمر معنا، وننتقل به من شريك إلى شريك.

انسجامًا مع آراء بولبي في كيفية ارتباط الأطفال بأهلهم، هناك ثلاثة أنواع أساسية من الارتباط تظهر بعد أن نكبر.

1 - **الارتباط الآمن**: هو الحالة المثالية (الحالة النادرة). إذا ظهرت مشكلة، فإنك تعمل على حلّها. لا يصيبك ضعفُ الشريك بالذّعر. أنت قادر على استيعابه لأنك قادر على العناية بنفسك عندما تضطر إلى ذلك. فإذا كان الشريك محبَطًا قليلًا، أو مرتبكًا، أو حتى مزعجًا، فإنك لا تجد حاجة إلى إبداء ردة فعل عنيفة من جانبك. وحتى إذا لم يستطع الشريك أن يكون لطيفًا معك، فأنت تظلّ قادرًا على الاهتمام بنفسك وعلى استخدام ما يبقى لديك من طاقة في تلبية قسم من احتياجات الشريك. أنت تحاول تفسير كل شيء لصالحه عندما تحاول أن تفهم سلوكه. وأنت تدرك أيضًا أن من المحتمل أن يكون الشريك منشغل الذهن إذا

رأيت أنه لم يبد أي اهتمام بقَصَّة شعرك الجديدة، أو برأيك في أخبار اليوم... لعله أمضى وقتًا صعبًا في العمل، ولعل هذا ما يجعله غير مهتم بما جرى لك في يومك! يعني هذا أن تكون تفسيراتُك متعاونةً مع الشريك، وأن تكون كريمة تجاهه... عادة ما تكون أيضًا أكثر دقة. في حالة الارتباط الآمن، أنت بطيء الغضب، سريع الصفح والنسيان.

2 - **الارتباط القلق**: يتّسم هذا النوع من الارتباط بالإفراط في التعلّق بالشريك. مثلًا، الاتصال به لمجرد التأكّد من مكان وجوده ومتابعة ما يفعله. أنت في حاجة إلى التثبّت الدائم من أنه لم يتركك... أو لم يترك البلاد! يشتمل الارتباط القلق على قدر كبير من الغضب لأن المخاطر تبدو مرتفعة جدًا. زلّة لسان صغيرة، أو كلمة متسرعة، أو سهوٌ صغير... يمكن لأيٍّ من هذا أن يبدو في نظر الشخص القلق كثيرًا أشبه بخطر داهم كبير. وهو يبدو له كأنه إعلان عن انفصال وشيك، وعن نهاية العلاقة كلها. سرعان ما يصير الأشخاص الذين لديهم ارتباط قلق كثيري التطلُّب، ميّالين إلى القَسر، شديدي التركيز على حاجاتهم، لا على حاجات الشريك.

3 - **الارتباط التجنّبي**: يعني الارتباط التجنّبي أنك تُفضّل الانسحاب والابتعاد على أن تغضب من الطرف الآخر، أو على أن تُقرَّ بأنك في حاجة إليه. وعند وجود مشكلة، تظل صامتًا ولا تقول شيئًا. تخبرك غريزتك بأنك لا تحب الطرف الآخر الذي آذاك. كثيرًا ما يكون أحد الزوجين مُتجنّبًا، ويكون الآخر قلقًا. هذا اجتماع خطير. لا يكاد الطرف التجنُّبي يمنح شريكه القلِق أية مساندة. ولا يكف الطرف القلِق عن «غزو» الخصوصية الحسّاسة لدى الشريك التجنّبي.

يرشدنا بولبي إلى عدد من الأساليب السخية -البنّاءة أيضًا في فهم ما يفعله شركاؤنا عندما يحزنوننا أو يخيبون أملنا. وفي حقيقة الأمر، لا يكاد يوجد شخص قلق بالكامل، أو تجنّبي بالكامل. يكون لدى الشريك بعضٌ من هذا أو ذاك، بعض الوقت. وبعد أن نبّهنا بولبي إلى هذا الأمر، صرنا قادرين على رؤية أن البرودة واللامبالاة الظاهرين على الشريك ليسا ناتجَيْن عن مقتهِ إيّانا، بل عن حقيقة أنه تعرّض منذ وقت طويل إلى أذى كبير نتيجة علاقة حميمة. إنه يحمي نفسه لأنه خائف. وهو يستحقّ منا العطف والتفهّم، لا قتلَ شخصيته.

ثم إن هذا يفتح إمكانات معرفة الذات التي هي قادرة على مساعدة المرء في إصلاح سلوكه (وإن قليلًا). لعلّي أرهق نفسي كثيرًا بالعمل لأنني غير قادر على الثقة بأي شيء،

ولأنني شعرت -منذ زمن بعيد- بأن العمل يمكن أن يساعدني في ضمان استمرار حبّ والديَّ لي، ذلك الحب الذي كنت أراه سريع الزوال، غير موثوق تمامًا.

***

مات بولبي في شهر أيلول من سنة 1990، وكان في أوائل الثمانينيات. لقد مات في بيته الذي على جزيرة سكاي. إن في نظرياته كلّها أمل قوي، متواضع، لكنه حقيقي جدًا. استغرقت أفكار بولبي عن أهمية الرابطة المبكرة بين الأم والطفل زمنًا طويلًا حتى لقيت اعترافًا وتأييدًا واسعَيْن. لكن ذلك حدث آخر الأمر. لم تكن هناك أية لحظة دراماتيكية ثورية بعينها، بل شهدت آراء آلاف كثيرة من الناس تغيرات صغيرة متتالية: فكرة كانت تبدو لهم غبية، ثم بدأت تكسب شيئًا من اهتمامهم. كانت تلك الثورة الصغيرة تجري على موائد العشاء، وعند بوابات المدارس، وفي لقاءات في أماكن غير متوقّعة، وفي تحليلات التكلفة/ المنفعة المتأنية التي يجريها موظفون عموميون. هذه عملية ارتقاء اجتماعي يقُلُّ فيها الأبطال الواضحون، ويكثُر فيها المشاركون الذين لا يعرفون أبدًا حجم مساهمتهم على وجه التحديد: نتيجة هذا كله، صارت الطفلة الموشكة على إجراء عملية جراحية مفزعة تجد نفسها محاطة بالرقّة والحب، وتجد أبويها نائمين في سرير إلى جوار سريرها.

فكم طال الزمن قبل أن تؤخذ هذه الحاجة على محمل الجد - وكم هو مؤثر أن يكون وراء ذلك هذا الرجل تحديدًا الذي كان من المحتمل أن تؤدّي خلفيته العائلية، وطفولته، وتعليمه، إلى إغلاق الباب أمام هذه الأفكار المليئة عطفًا وتفهمًا.

تُبيّن الدراسات أن سكان المملكة المتحدة:

- 56 بالمئة منهم لديهم ارتباط آمن؛
- 24 بالمئة منهم لديهم ارتباط تجنّبي؛
- 20 بالمئة منهم لديهم ارتباط قلق.

الفن والعمارة

أندريا بالاديو

(Andrea Palladio)

1580 ـ 1508



في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، يُمضي الشخص العادي نحو أربعة وثمانين بالمئة من حياته في أماكن مغلقة: أي، داخل «العمارة». ويمضي معظم القسم الباقي من حياته على مقربة من المباني، حتى إذا كان انتباهه غير متّجه إليها كثيرًا. وعلى الرغم من هذا الاحتكاك الشديد بالعمارة، فإننا لسنا طموحين كثيرًا -على وجه العموم، وكثقافة بأسرها- بما تبدو عليه أشكال تلك المباني. نحن مَيّالون إلى افتراض أن المباني التي نعيش فيها ومن حولها ليست -أكثر الأحيان- شيئًا خاصًّا، وأن ما من شيء نستطيع فعله في هذا الصدد. صرنا نتخيل أن المباني العظيمة منجزات فريدة، وأنها إبداعات باهظة التكلفة من صنع معماريين عباقرة. قد يسافر المرء في العطلة لكي يرى عمارة عظيمة، لكنه لا يكاد يتوقّع أن تصير تلك العمارة التي يذهب لزيارتها شيئًا مألوفًا في منطقة عيشه. تعتبر فيتشنزا الواقعة على مسافة خمسة وعشرين ميلًا من مدينة فينيسيا الساحلية واحدة من أهم المواقع السياحية المعمارية في العالم؛ وذلك لسبب وحيد: إن في هذه المدينة، ومِن حولها، عددًا كبيرًا من أعمال أندريا بالاديو.

ولد أندريا بالاديو أواخر شهر تشرين الثاني سنة 1508؛ وكانت ولادته في مدينة بادوفا. كان بنّاء متمرنًا، ثم صار نقّاشًا على الحجارة. كان اسمه الحقيقي أندريا دي بيترو ديلا بندولا (أي، أندريا ابن بيترو الذي يقود زورق جندول). لم يبدأ تصميم المباني بنفسه إلّا بعد أن قارب عمره ثلاثين عامًا. وقد اقترح عليه معلّمه الملهم الأول اسمًا ذا وقع رنّان... بالاديو.

وعلى امتداد أربعين عامًا تلت ذلك، صمّم بالاديو قرابة أربعين فيلا، وبيتين مدينيَّين، وبضع كنائس. ليس هذا بالعدد الكبير نظرًا لكمية المباني التي أقيمت في ذلك الزمان. وخلال القسم الأكبر من حياته العملية، عاش مزيجًا من النجاحات والإخفاقات المهنية، لكنه برز آخر الأمر فصار المعماري الأول في فينيسيا بعد أن تجاوز عمره ستين عامًا، لعل فينيسيا كانت أغنى مدن العالم في ذلك الوقت، وأقواها. كان بالاديو أبًا متفانيًا، لكن أول ولدين له ماتا في مقتبل العمر كانا يعملان معه. وأما بالاديو نفسه، فقد مات في صيف سنة 1580؛ وكان في الحادية والسبعين.

كانت آراء بالاديو في العمارة نقيضًا شبه تام للآراء السائدة في أيامنا هذه. ومن الممكن تلخيص موقفه في فكرتين مركزيتين اثنتين. الأولى هي أن للعمارة غاية واضحة، ألا وهي مساعدتنا في أن نكون بشرًا أفضل. والفكرة الثانية هي أن هناك

قواعد لأي بناء جيد. كان بالاديو مقتنعًا بأن العمارة العظيمة صَنعة بقدر ما هي فن: ليست بالضرورة صنعةً باهظة التكلفة؛ كما أنها من أجل الاستخدام اليومي... من أجل الحظائر، والمزارع، والمكاتب، لا من أجل مشاريع فاخرة متألقة تظهر من وقت لآخر.

1 ـ غاية العمارة

نحن مَيّالون إلى عدم طرح هذا السؤال فمن السهل أن يبدو سؤالًا ساذجًا أو مدّعيًا. فإما أن تعرف الإجابة أصلًا، أو أن يكون هناك شخص موشك على الاندفاع في إلقاء محاضرة طويلة معقّدة.

رأى بالاديو أن للعمارة غاية مهمة - غاية تتجاوز توفير أرض وجدران وسقف. كان رأيه أن علينا أن نبني حتى نُشجّع حالةً عقلية حسنة، لدينا ولدى الآخرين. وعلى وجه الخصوص، رأى أن العمارة قادرة على مساعدتنا في حيازة ثلاث فضائل نفسية: الهدوء، والتناغم، والجلال.

1) الهدوء

يختصر بالاديو تفاصيل المكان؛ ويصير كل ما في الغرفة من عناصر متركّزًا، متوازنًا، متناظرًا. وهو لا يستخدم إلّا أشكالًا هندسية بسيطة. على وجه العموم، تكون الجدران بسيطة، حيادية. ولا يُراد وجود أثاث كثير. صفاء المكان مُصمّم بحيث يشيع الهدوء في نفوسنا؛ وهو لا يحاول مفاجأتنا، ولا إثارتنا. هذه عناصر تدعونا إلى التركيز، وتجعل أذهاننا أقل تشتتًا.

2) التناغم

كان بالاديو شديد الحرص على جعل كل عنصر من العناصر في المبنى منسجمًا مع بقية العناصر انسجامًا تامًا.

ينبغي أن يظهر المبنى الممتاز جسدًا كاملًا متكاملًا يتفق العضو منه مع رفيقه، ويتفق كل عضو مع الكلّ بحيث يبدو وجوده ضروريًا ضرورة مطلقة.

تصميم النافذة مرتبط بتصميم الباب؛ وكل فتحة متّسقة مع كل فتحة أخرى؛ ولكل غرفة شكل نظيف، بسيط؛ والأبواب مصطفة معًا دائمًا.

إن المباني ذات الانسجام القوي مؤثرة في النفوس لأنها تخالف المَيل الطبيعي في الحياة إلى جعل الأشياء مختلطة، مشوّشة، متنافسة. ولهذه المباني أثر يعاكس قلقنا الناجم عن أن أمورًا كثيرة من تلك التي تُهمّنا لا تكون منسجمة معًا: العمل، والحياة البيتية، والجنس، والحب، والرغبة، والواجب... إنها في قتال دائم في ما بينها. لكن المبنى يخلق بيئة نجد أنفسنا فيها ننعم بإحساس محدود -لكنه حقيقي- بأن كل شيء مهم صار في حالة انسجام.

3) الجلال

كان من بين طموحات عمارة بالاديو إسباغ مزيد من الجلال على أجزاء من الحياة كان الناس ينظرون إليها -من غير وجه حق- على أنها من غير قيمة. ففي نظره، هي أشياء محرومة من المكانة التي تستحقّها فعلًا.

في «فيلا باربارو» -بيتُ مزرعة في الريف على مسافة أربعين ميلًا إلى الشمال من مدينة فينيسيا- نجد أن مخازن الغلال والإسطبلات لا تقل روعة عن بيت المالك الذي لا يتميّز بأية ضخامة خاصّة. فبدلًا من جعل مباني العمل هذه مخفيّة، أو وضعها في مكان بعيد، نجدها مقدَّمةً بصفتها أجزاء مهمة لها احترامها.

لم يحاول بالاديو إخفاء الواقع الاستعمالي للمزرعة، بل إن تصميمه كان إظهارًا لجلالها الأصيل (مع أنه جلال لا يقدِّره الناس عامّة حقّ قدره).

ليس بالاديو متملّقًا لنا عندما يوجّه العمارة صوب هذه الأجواء النفسية. وهو لا يدّعي أن مبانيه تعكس ما نحن عليه عادة. لقد عرف تمام المعرفة أن الناس يميلون -كما هم الآن- إلى التهيج والغضب؛ وقد أدرك أن الجلال قِناعٌ لا يدوم؛ وعرف أن القنوط يصيب البشر. لم يكن يحاول التعبير عن الطبيعة البشرية المعتادة. كان مؤمنًا -هذا منسجم مع التقاليد الكلاسيكية القديمة- بأن على المباني أن تحاول التعويض عن نواحي ضعفنا: تشجيعنا على أن نكون رابطي الجأش، متوازنين، متعقّلين أكثر مما نفلح في تحقيقه خلال مجرى حياتنا اليومية. نحن في حاجة إلى المباني الواثقة، المنسجمة، الهادئة، لأننا -على وجه التحديد- لسنا كذلك على نحو يمكن الاطمئنان إليه. ففي الحالة المثلى، تجسّد العمارة أفضل ما في نفوسنا. المبنى المثالي أشبه بالإنسان المثالي.

كان لدى بالاديو تشاؤم كلاسيكي إزاء قدرتنا على البقاء على الأفكار؛ فالعقل نزّاع إلى النسيان: ما أسهل أن يضيع اتصالنا بطبيعتنا الأفضل! إن من المحتمل كثيرًا أن ننسى -تحت ضغوط حياتنا- ما هو مهمّ بالنسبة إلينا. مهمة العمارة هي تزويدنا بالبيئة التي تُذكّرنا دائمًا بمن نريد أن نكونهم... وتشجيعنا على أن نكونهم.

2 ـ القواعد

نحن نقبل -بطبيعة الحال- أن هناك قواعد كثيرة مفيدة لنا: قواعد سلامة الطيران، وقواعد مهنة المحاسبة، وقواعد لعب الورق. لكن لدينا ريبة إزاء الفكرة التي تقول إن القواعد قد تكون مهمة في أي شيء مما يعتبر ثقافيًا، أو حميمًا، أو إبداعيًا: فكرة أنه يمكن وجود قواعد نافعة للحديث بين الناس، وللفن، وللعلاقات، وللعمارة أيضًا. فنحن ننحو إلى اعتبار القواعد أمرًا ثانويًا مفتقرًا إلى الأصالة. لكن بالاديو -على

غرار أرسطو- كان يرى أن هناك مشاريع إبداعية كثيرة (من قبيل كتابة المسرحيات التراجيدية، أو إجراء أحاديث مع الآخرين، أو رعاية الصداقات وتطويرها) ينبغي أن تُفهم على أنها مهارات، أو على أنها صنعة متقنة. هذه أمور يمكن تعلّمها. فبحسب نظرة المذهب الكلاسيكي، لا تكون النتائج الحسنة في هذه الميادين متوقّفة -ببساطة- على الحظ، أو على المصادفات الحسنة، ثم إن القواعد تلتقطُ ما يتعيّن علينا فعله حتى نؤدي تلك الأمور على نحو حسن.

نشر بالاديو «كتب العمارة الخمسة» سنة 1570. هذا مثال مبكر، شديد التميز، على الجنس الأدبي الذي نسميه «كيف تفعل...». يقدّم عمل بالاديو توجيهات في كيفية البناء. ففيها دليل عملي إلى حفر الأساسات، وكيفية الحكم على جودة الملاط، فضلًا عن طرق مجرّبة كثيرة لبناء الجدران ومد الأرضيات.

وقد طور بالاديو أيضًا قواعد التناسب، وذلك استنادًا إلى نسب رياضية بسيطة. من المعروف تمامًا أن الفيلسوف الإغريقي فيثاغورس اكتشف أن وترين مشدودين، طول أحدهما نصف طول الآخر، يعطيان صوتين متناغمين عندما يهتزان في وقت واحد. لقد اكتشف أن هناك مبدأ رياضيًا بسيطًا يحكم تلك الخصيصة الممتعة للصوت. ثم أتى بالاديو، وآخرون، فطوّروا مكافئًا بصريًا لما اكتشفه فيثاغورس.

الأمر ذو الأهمية الحاسمة ليس أن نكون محاطين بأشياء فاخرة. فمن غير تلك الأشياء، تظل فتحة النافذة ذات مظهر جميل لأنها متناسبة في ذاتها، لا لأن زخرفتها تضفي عليها تناغمًا. يعني هذا أن مبنى لا يقل جمالًا عن مبنى آخر فاخر أو باهظ التكلفة يمكن بناؤه بتكلفة أقل (كانت التكلفة موضع اهتمام دائم لدى بالاديو) لأن نِسَبَه نفسها جميلة بصرف النظر عما إذا كان مصنوعًا من رخام أو قرميد أو إسمنت أو خشب.

يمضي بالاديو بعد ذلك إلى إيراد جملة واسعة من القواعد البسيطة الكفيلة بجعل المبنى جذّاب المظهر: ينبغي أن تكون المباني متناظرة؛ أي إنه ينبغي وجود ثلاث فتحات نوافذ أو خمس أو سبع، في واجهة المبنى - لا يجوز أن يكون عددها زوجيًا. وينبغي أن تكون الغرف ذات أشكال هندسية بسيطة؛ طول الغرفة ثلاث أخماس عرضها، وارتفاعها ثلاثة أخماس عرضها.

كان بالاديو يعتبر نفسه صاحب صنعة. وكان ملتزمًا مجموعة قواعد يستطيع غيره أن يستخدمها مثلما استخدمها. كان يعمل بالتضاد مع فكرة أن العمارة تستلزم عبقرية خاصة. المثال الذي تجسّده كتب النماذج المعمارية هو أن المباني ذات الجمال البصري المتميز يمكن أن تُتخذ معيارًا لغيرها؛ وهذا ما حدث في لندن (تحت تأثير بالاديو إلى حد كبير) وفي مدن كثيرة أخرى خلال القرن الثامن عشر.



فيلا باربارو فيرنيتو - إيطاليا 1560

إن في «كتب العمارة الخمسة» اهتمامًا مركزيًا متمثّلًا في تثقيف الزبون المحتمل الذي هو «مُستهلِك العمارة»، وذلك أننا لا نكون واثقين، أكثر الأحيان، من السبب الذي يجعلنا نحب المباني، أو لا نحبها. قد تكون لنا ردات أفعال إيجابية جدًا، أو سلبية جدًا. وقد نقول إن هذا البناء عظيم، أو إنه بناء فظيع. وأما إذا ألحّ علينا أحدهم طالبًا تفسيرنا فكثيرًا ما نجد أنفسنا في وضع صعب. نجد صعبًا علينا تحديد ما يجعل هذا البناء جذابًا، وما يجعل مبنى غيره منفّرًا. وقد نقع في إغراء القول إن هذه مسألة شخصية بحت، وإن الذوق المعماري أمر ذاتي تمامًا. نقول هذا انطلاقًا من نوايا حسنة. لكن هذا أمر سيئ لأنه يصب في مصلحة شركات البناء التي ليس لديها أي اهتمام بالجمال... ولأنه يجعل الشركات في مأمن من أن يوبّخها أحد جرّاء ما تفعله.

خلاصة

لقد تردّد صدى أفكار بالاديو عبر العصور. لكن الأبنية لا تكون، بالضرورة، «بالاديونية» أصيلة حقًّا لمجرّد أن فيها أعمدة أو لأنها تحاول محاكاة المعابد القديمة. تصير الأبنية بالاديونية عندما تكون مُكرّسة للهدوء والتناغم والجلال اعتمادًا على قواعد يمكن (بل ينبغي) أن نعود إلى استخدامها على نطاق واسع. عندها، ستكون ترشيدًا للطموح الذي كان بالاديو من أهم أنصاره ودُعاته: ينبغي أن يكون شيئًا طبيعيًا في المباني أن تجعلنا نرى صورة مغرية عن أنفسنا عندما تكون في أعلى درجات هدوئها وجلالها.

يوهانس فيرمير

(Johannes Vermeer)

1675 ـ 1632



نحن نعيشُ في عالم كلّه فتنة زائفة. والحقيقة أن المشكلة غير كامنة في السحر نفسه، بل في الأشياء التي نقبل قبولًا جمعيًا بأن نعتبرها ساحرة، أو فاتنة. لا يمكن الاهتداء إلى التقدم عن طريق اجتثاث فكرة السحر كلها من حياتنا. ما علينا فعله بدلًا من ذلك هو توجيه إعجابنا وحماستنا توجيهًا أكثر حكمة: أن نديرهما صوب الأشياء التي تستحق المكانة استحقاقًا أصيلًا.

إن توجيه المصباح الكاشف للسحر أفضلَ وِجهاته هو من بين الأمور ذات الأهمية العميقة التي يستطيع الفنانون فعلها لنا، بل لعله أهم ما يستطيعون فعله. فالفنانون هم القادرون على تحديد الأشياء التي ننزعُ إلى المرور بها مرورًا سريعًا مع أنها، في الحالة المثلى، أشياء ينبغي أن نهتمّ بها اهتمامًا عظيمًا. ومن خلال إظهارهم لأعيننا هذه الأشياء برقّة وجمال وحرفة وخبرة، نصيرُ بدَوْرنا قادرين على رؤية قيمتها الحقيقية.



يوهانس فيرمير، الخادمة، 1657

عندما رسم فيرمير لوحته الشهيرة «الخادمة» في أواخر العقد السادس من القرن السابع عشر، ما كان أحد يرى في الخادمات -ولا في الخبز أو الحليب- ما يثير اهتمامًا خاصًا. لم يبحث فيرمير عن «موديل» تحظى بقدر كبير من الإعجاب، بل راح يمضي وقته في النظر بكل انتباه إلى مشهد كان -مصادفةً- يحبه، مع أن أكثر الناس في ذلك الوقت كانوا يعتبرونه مشهدًا مضجرًا لا يستحق التفكير فيه لحظة واحدة.

لقد رأى فيرمير في الخادمة التي تسكب الحليب شيئًا قال له إحساسُه إنه يستحق إعجابًا وتأملًا متمعِّنًا. رأى أن هناك شيئًا مهمًا حقًا يحدث أمامه. لكن ذلك المشهد كان شديد التواضع بحسب المقاييس الدنيوية لأن الغرفة بعيدة عن الأناقة والجمال. لكن عناية المرأة بما تفعله كانت جميلةً حقًا. لقد كان فيرمير متأثرًا بفكرة أن احتياجاتنا الحقيقية يمكن أن تكون في غاية البساطة. فالخبز والحليب طعامٌ مُرضٍ حقًا. والنور الآتي من النافذة جميل، والجدار ذو اللون الأبيض كلُّه يمكن أن يكون مَتعة للنظر.

يعيد فيرمير توزيع السحر من خلال إعلاء مكانة الأشياء التي يصورها. إنه يحاول جعلنا نشعر مثلما يشعر. إن لوحة الخادمة نوع من الدعاية (أو يمكن القول إنها إعلان) للمباهج البيتية البسيطة.

ولد فيرمير سنة 1632 في مدينة دلفت الجميلة حيث أصاب أبوه نجاحًا متواضعًا في تجارة الأعمال الفنية وإدارة نُزُلٍ هناك. لزم فيرمير ذلك المكان معظم حياته. ثم لم يبتعد أبدًا عن دلفت بعد زواجه (تزوّج في الحادية والعشرين). بل إنه كان قليلًا ما يخرج من بيته البهيج. أنجب من زوجته كاتارينا عشرة أطفال (حملت بأطفال آخرين لم يَسلموا)؛ وقد أنجز لوحات كثيرة في غرف الطابق العلوي في بيته. كان فيرمير رسامًا بطيئًا؛ والحقيقة أنه لم يكن رسامًا فقط. لقد تابع عمل أبيه في إدارة النُّزُل وتجارة الأعمال الفنية، ثم صار على رأس «طائفة» الرسامين في المدينة. إذا استخدمنا التعابير المعاصرة، نستطيع القول إن حياته العملية لم تكن ناجحة كثيرًا. لم يحقّق أية شهرة متميزة خلال حياته؛ ولم يجْنِ مالًا كثيرًا.

كان فيرمير شخصًا يمكن اعتباره نموذجًا من البشر صار مهمًا في تلك الأيام: الفرد المنتمي إلى الطبقة الوسطى. فخلال مراهقته، صارت هولندا (أو «المقاطعات السبع») دولة مستقلة: كانت أول «جمهورية برجوازية» في العالم. وعلى النقيض من الأمم الأرستقراطية شبه الإقطاعية التي من حولها، أعطت هولندا المجد والسلطة السياسية لأناس ليسوا من قمة المجتمع: تجار، وإداريون، وحرَفيون موسِرون، ورواد أعمال. وفي العالم كله، كانت هي البلد الوحيد الذي يمكن اعتباره بلدًا حديثًا.



يوهانس فيرمير، الفتاة ذات القرط اللؤلؤي، 1665

إن من الأفكار العظيمة في المسيحية (التي صارت أخيرًا قابلة للفصل عن اللاهوت المحيط بها) فكرة أن الحياة الداخلية لكل إنسان مهمة، حتى عندما لا يبدو ذلك الإنسان مثيرًا لأي اهتمام من حيث ظاهره. إن هناك قيمة كبيرة لأفكار خيّاطٍ متدرّب؛ ومشاعره (من وجهة النظر الروحية) ليست بأقل من أهمية ما لدى جنرال أو إمبراطور.

رسم فيرمير لوحة «الفتاة ذات القرط اللؤلؤي» انطلاقًا من الفكرة نفسها. هي لست شخصًا شهيرًا أو مهمًا في أعين العالم. وهي ليست ثرية. قد يكون القرط الذي في أذنها جميلًا، لكنه ليس إلّا حلية شديدة البساطة وفق معايير العالم المُترَف. ولعله ليس لديها شيء قيّم غيره. لكنها ليست في حاجة إلى عدالة... لم يسحقها العالم ولم يعاملها معاملة سيئة. إنها إنسانة عادية (ما من كلمة أفضل لوصفها). لكنها، في ذاتها، ليست عادية على الإطلاق (مثلها مثل أي شخص آخر): إنها هي نفسها... على نحو فريد، غامض، عميق.

لقد صارت اللوحة التي هي أفضل ما يوجِز فلسفة فيرمير، «الشارع الصغير»، واحدة من أشهر الأعمال الفنية في العالم. احتلت مكانها في متحف «ريفزميوزَم» العظيم في أمستردام؛ وهي مؤمّنٌ عليها بنصف مليون يورو، فضلًا عن كونها موضوعًا لمقالات متعمّقة لا حصر لها.

لكن هذه اللوحة (على نحو غريب، وواضح جدًا) غير منسجمة مع هذه المكانة. هذا لأنها تريد أن ترينا -فوق أي شيء آخر- أن العاديّ يمكن أن يكون خاصًا ومميزًا جدًا. تقول اللوحة إن العناية ببيت بسيط، لكنه جميل، وتنظيف الفناء، ومراقبة الدجاجات، ورتق الملابس... وأداء هذه الأشياء كلّها بصدق ومن غير يأس أو قنوط هو واجب الحياة الحقيقي.

هذه لوحة «ضد البطولة»: سلاح في مواجهة صور السحر الزائف. وهي ترفض التسليم بأن السحر الحقيقي معتمد على مآثر جريئة مدهشة، أو على إحراز مكانة رفيعة في المجتمع. إنها برهان على أن أداء أمور متواضعة، وأمور متوقَّعة من كل واحد منا، أمر كافٍ. تطالِبك هذه اللوحة بأن تكون مثلها، ولو قليلًا: أن تتبنى مواقفها، تلك المواقف التي تحبّها، وتصدّقها في حياتك.

إن كان للمجتمع الجيد، المحترم، وثيقة تأسيسية، فمن الممكن أن تكون هذه اللوحة الصغيرة وثيقة له. إنها مساهمة مركزية في فهم معنى السعادة في العالم.

لم يعش فيرمير طويلًا. مات سنة 1675 وهو في أوائل الأربعينيات.



يوهانس فيرمير، مشهد لمدينة دلفت، 1660 - 1661

إلّا أن فيرمير ينقل إلينا فكرة راجحة إلى حد هائل؛ فكرة ذات أهمية حاسمة. إن أكثر ما له أهمية في حياتنا ليس مثيرًا، ولا عاجلًا، ولا دراماتيكيًا، ولا خاصًا. ينقضي القسم الأكبر من الحياة في التعامل مع أشياء روتينية، عادية، قليلة الشأن، متواضعة... بل هي بليدة بعض الشيء، إن أردنا الصدق. إن على ثقافتنا أن تُركّز على جعلنا نقدّر ما هو يومي، متوسط، معتاد.

لم يختر فيرمير يومًا خاصًا عندما رسم المدينة التي عاش فيها: السماء ليست مدلهمّة كثيرًا، ولا هي مشمسة كثيرًا، لا شيء يحدث. ولا يظهر في اللوحة واحد من المشاهير. لكنها لوحة خاصّة جدًا، من كل ناحية فيها... هذا ما يُعلمّنا فيرمير إدراكه.



يوهانس فيرمير، الشارع الصغير، 1658

كاسبر دافيد فريدريش

(Caspar David Friedrich)

1840 - 1774



إن من بين الأشياء غير المنتظرة التي يستطيع الفن أن يعلمنا إياها تعليمَنا كيف نعاني. وهو قادر على فعل ذلك بأن يثير في أنفسنا أحاسيس قاتمة، مكتئبة، أو أحاسيس ألم من شأنها كلّها أن تطبّع المعاناة التي لعلنا نعيشها في عزلة وحيرة، وأن تضفي عليها جلَالًا. فالأعمال الفنّية من هذا النوع -بعظمتها وبالبراعة التقنية التي فيها- تكشف لنا أن الأسى جزءٌ من «الشرط البشري».

ولد الرسام صاحب الحزن الرفيع، كاسبر دافيد فريدريش في غريفسوالد سنة 1774 في مدينة تجارية عتيقة في أقصى شمال ألمانيا، على ساحل بحر البلطيق. كانت تلك المدينة مكانًا جميلًا بطريقتها الشمالية العنيفة. أحب الرسام في طفولته أبراج المدينة وقبابها التي كانت تلوح من فوق ذرى أشجارها في ضباب الصباحات الصيفية المبكرة جدًا.

كان أبوه حرَفيًا متواضع الشأن؛ وكان مقتصدًا في كلامه وعاطفته. ماتت أمه المحبوبة عندما كان طفلًا صغيرًا. وفي سن الثالثة عشرة، شاهد شقيقه الأصغر، يوهان كريستوفر، يسقط في فتحة في في الجليد ويغرق في البحيرة.

نشأ صَموتًا، متحفّظًا، متوتّرًا، خجولًا. تمرّن على الرسم منذ سن مبكرة، لكن سنوات طويلة من الفقر والمشقة انقضت قبل بدء ظهور أسلوبه الفني المتميز. كان الذوق السائد في تلك الحقبة يميل إلى تفضيل المشاهد الطبيعية الكلاسيكية المشمسة. وكان صيفُ إيطاليا موضوعًا مثاليًا للرسم. لكن فريدريش كان مشدودًا إلى جوانب في الطبيعة يراها الناس -حتى ذلك الوقتّ- غير مقبولة ولا مثيرة للاهتمام: الصباحات الباردة الرطبة؛ والليالي الصقيعية قرب البحر؛ وساعة الضياء الشاحب قُبيل شروق الشمس؛ والحقول الفائضة ماءً أواخر الربيع.

كان أول عمل ناضج لفريدريش -أي أول لوحة كبيرة بدأت نظرته إلى الحياة تتضح من خلالها- لوحة صدمت معاصريه. فبدلًا من المشاهد التقليدية، مشاهد الملائكة والقديسين الباكين، صوَّر فريدريش مشهد صَلبِ المسيح كأنه جارٍ على قمة جُرف جبلي ومن ورائه أشجار التنّوب الألماني وأشعَة الشمس تخترق الغيوم في خلفية الصورة.

أدرك فريدريش في ذلك الوقت أن الطبيعة قادرة على التعبير عن كثير من أحوال

المزاج الحزين... قدرةٌ كان الناس، قبل ذلك، يربطونها بالتصوير الأدبي الحَرفيّ لقصة المسيح. ومع مُضي الوقت، تخلى فريدريش تمامًا عن الإشارة المباشرة إلى المسيح، لكنه أبقى على جو المأساة والأسى المرتبطين بحياته وموته. وقد وجد أن الأشجار كلّها، والجبال كلّها، والضباب، والجروف الوعرة، وبزوغ القمر، وهدأة الماء في الليل، والأرض المعشبة، والضباب، قادرةٌ على إيصال رسائل كثيرة مماثلة تتحدّث عن الأمل والحب والمعاناة والانعتاق وكل ما اعتاد اللاهوتيون المسيحيون أن يجدوه في الكتاب المقدس. يظلّ فريدريش رسّامًا ذا قيمة فريدة تُناسب الذين ما عادوا مؤمنين لكنهم ظلّوا على اتصال بالمشاعر التي تصاحب الإيمان.

تزوج كاسبر دافيد فريدريش سنة 1818 كريستيان كارولين بومر التي كانت في الخامسة والعشرين؛ وكان قد بلغ الرابعة والأربعين. أنجبا ثلاثة أطفال: بنتان هما إيما وأغنايس أدريد، وصبي واحد، غوستاف أدولف. على وجه الإجمال، كانت علاقة الزوجين تبدو حسنة. تَظهر كارولين في عدد كبير من لوحاته، لكنها وحدها دائمًا. كان فريدريش مولعًا برسم الرجال والنساء منفردين وكأن أكثر ما فينا أهمية لا يظهر على السطح إلّا عندما نكون بعيدين عن ضجيج المدنية. ما كان لفريدريش إلا حفنة من أصدقاء؛ وما كان يخرج من مرسمه ذي الأثاث البسيط إلّا في ما ندر.



كاسبر دافيد فريدريش، امرأة أمام شروق الشمس، 1818 - 1820



كاسبر دافيد فريدريش، بحر الجليد، 1824

فبدلًا من أن تكون العزلة أمرًا يتجنّبه المرء (مستعينًا بالعمل أو الشرب أو الخيالات الجنسية)، توحي حياة فريدريش بأن العزلة حالة تجعلنا على اتصال بأعمق ما فينا من احتمالات ومقدّرات.

كان مؤمنًا أيضًا بأن خشونة الطبيعة قادرة على وضع أحزان الشرط البشري ضمن منظور يواسي الإنسان ويمنحه خلاصًا.

فكما يمكن أن يكون البشر قساة، يمكن للقدر أن يكون من غير رحمة؛ إلّا أن تأمل تَصادمِ مجموعة من قطع الجليد الضخمة الطافية، ذلك التصادم الذي لا يقف في وجهه شيء، قادرٌ على إخراجنا من أنفسنا والتعالي بنا فوق حَسَدٍ أو جرحٍ أو خيبةٍ تعذّبنا، فيتضاءل إحساسُنا بالظلم الشخصي.

إن أعمالًا من قبيل «بزوغ القمر فوق البحر» قادرة على جعلنا ندرك قلة أهميتنا، وعلى أن تبث فينا إحساسًا بصِغَرِ الكوارث التي تصيب الإنسان إن هي قورنت بسُبُلِ الأبدية... أعمال تتركنا أكثر استعدادًا للانحناء أمام المآسي غير المفهومة التي تشتمل عليها حياة كل إنسان. وانطلاقًا من هذه النقطة، يجري تحييد المنغصات المعتادة،

والأمور التي تثير القلق. فبدلًا من محاولة تدارك ما قد يصيبنا من صَغارٍ عن طريق إصرارنا على أهميتنا المنتقَصة، نستطيع محاولة استيعاب ضآلتنا التي تكاد تجعلنا لا شيء، وتقدير تلك الضآلة، بعونٍ من عمل فني عظيم.



كاسبر دافيد فريدريش، بزوغ القمر فوق البحر، 1822

يستخدم فريدريش هنا تشكيلة صخور وعرة شديدة الوضوح، ومساحة من شاطئ البحر، وأفقًا مضيئًا، وسُحبًا بعيدة، وسماء شاحبة، فيضعنا في حالة من الأسى الذي يُطهّر النفس. قد نتخيّل أنفسنا سائرين قبيل الفجر بعد ليلة جافانا النوم فيها، على رأس بحري قاحل، بعيدًا عن الرفقة البشرية، وحدنا مع قوى الطبيعة الأساسية. تكون الجزر الصخرية الصغيرة مأساوية وناتئة مثلما هي التشكيلات الصخرية الكبيرة التي خلفها. لن يلبث مرور الزمن الطويل، البطيء، أن يبليها في يوم من الأيام... هي أيضًا ستبلى. الجزء الأول من السماء خاوٍ، لا شكل له، عدمٌ فضّي نقيّ، لكن من فوقه سحُبًا تلتقط بطونُها الضوءَ وتمرّره بأسلوبها الزائل الذي لا غاية له... بأسلوبها غير المبالي بكل ما يشغل أذهاننا.

لا نجد في اللوحة إشارة مباشرة إلى علاقاتنا، أو إلى مِحن حياتنا اليومية وتوتراتها.

على أن وظيفتها هي أن تمنحنا سبيلًا إلى حالة ذهنية نكون فيها مدركين حقًا مدى ضخامة الزمان والمكان، ومدى قلة أهمية وضعنا ضمن الصورة العامة للأشياء. عملٌ قاتم، متجهّم، حزين بعض الشيء. هو هادئ، لكنه غير باعث على اليأس. وفي تلك الحالة الذهنية - هي حالة روحية إن أردنا التعبير بطريقة أكثر رومانسية- نجد أنفسنا أفضل استعدادًا، كثيرًا ما يكون الأمر هكذا في لوحات فريدريش، للتعامل مع الأسى الشديد، العسير، الذي نعرف أنه آتٍ في مستقبل أيامنا.

على غرار فنانين كثر، لم يعرف فريدريش نجاحًا كبيرًا. كان موضع إعجاب؛ وكان يشتري لوحاته عددٌ محدودٌ من أشخاص جادّين (كان من بين أصدقائه اثنان من رسّامي تلك الحقبة الذين كانوا مصدر بهجة، كريستينغ وداهل). مات فريدريش سنة 1840 عندما كان في أواسط الستينيات؛ مات شبه منسيّ.

لم يكن عارفًا أن أعماله ستلقى إعجابًا كبيرًا في مستقبل بعيد -ليس هذا لأنها تثير في نفوسنا البهجة- بل لأنها تعرف، على وجه التحديد: كيف تعبّر عن الأجزاء الحزينة لدينا جميعًا، وكيف تضعها في إطار مختلف.

هنري ماتيس

(Henri Matisse)

1954 - 1869



يعتري النخبة الثقافية توترٌ عندما تقف أمام فنٍّ حلوٍ بهيج. يقلقهم احتمال أن تكون تلك الأعمال الفرحة، الجميلة، إنكارًا لمدى سوء حالِ العالم ولمقدار المعاناة في حياة كل إنسان تقريبًا.

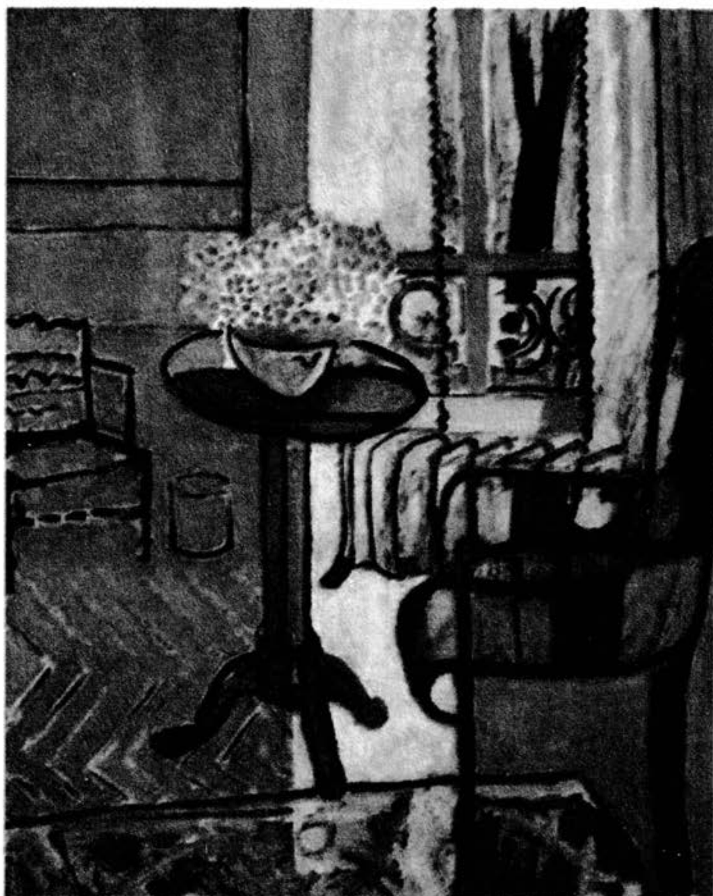
انظرْ إلى صورة فيها زوارق مُبحرة في مياه البحر المتوسط من خلفها أشجار النخيل ونساء في ملابس جميلة جالسات على أريكة. هل نسي الفنان أن العالم طافح بالفساد والحرب وقلة المساواة؟ مخيفٌ أن نكون غارقين كثيرًا في استمتاعنا بالأوقات الجميلة إلى حد يجعلنا ننسى الأمور السيئة فلا نجشّم أنفسنا عناء أي شيء إزاءها.

لكن هذه المخاوف عادة ما تكون في غير محلها. فبعيدًا عن النظرة المبالِغة في العاطفية والتفاؤل، نحن نعاني أكثر الوقت قدرًا مفرطًا من الكآبة. بل إننا زائدو الانتباه إلى ما في العالم من مشكلات ومن ظلم. مشكلتنا الحقيقية هي إحساسنا المرهِق بالضعف وقلة الحيلة في مواجهة تلك الشرور. هذا لأننا نشعر بأنها تطغى علينا وتنتزع منا كل أمل فننكمش على أنفسنا.

البهجة إنجاز؛ والأمل أمرٌ يستحق الحفاوة والاحتفال. إن كان التفاؤل مهمًا، فهو كذلك لأن نتائج كثيرة تتحدّد من خلال مقدار ما نعتبره هدفًا لنا. هذا مُكوِّن مهم من مكوِّنات النجاح. وهذا ردٌّ على رأي نُخبوي مفادُه أن البراعة والمقدرة من أهم شروط الحياة الحسنة. لكننا نرى في حالات كثيرة أن الفارق بين النجاح والفشل يمكن أن يتحدّد بشيء لا يتجاوز إحساس المرء بما هو ممكن، ولا يتجاوز مقدار الطاقة التي يستطيع توجيهها لإقناع الآخرين بما يستحقه. قد لا يكون المرء محكومًا عليه بالفشل لقلة الموهبة، بل لانعدام الأمل.

نادرًا ما تكون المشكلات في زماننا ناتجة عن أشخاص يبالغون في نظرتهم المشرقة إلى الأمور. وبما أن هناك ما يلفت انتباهنا دائمًا إلى مشكلات العالمِ كلها، فنحن في حاجة إلى أدوات قادرة على مساعدتنا في المحافظة على نظرة أكثر أملًا.

كان هنري ماتيس نفسه يعرف الكثير الكثير عن المآسي والمعاناة (هذا ما يخلق لدينا ثقة بلوحاته الساحرة المليئة أملًا)؛ إلّا أن معرفته تلك هي ما يجعله أكثر انفتاحًا على نقائضها. ففي رأيه، المشكلة الحقيقية هي أن الظلمة والبؤس قادران على أن يطغيا علينا فنصير في حاجة إلى بذل جُهد قصديٍّ لتذكير أنفسنا بالأشياء البهيجة التي تبث فينا أملًا.



هنري ماتيس، النافذة، 1916

ولد ماتيس سنة 1869 لأسرة موسرة نسبيًا. كان أبوه تاجر حبوب وأدوات. وما كان متوقّعًا له أن يصير فنانًا. كان أبوه شديد الحرص على أن يكون له عمل آمن، محترم، يُدرّ قدرًا طيبًا من المال - أراد أن يكون ابنه محاميًا! ولما صار ماتيس في العشرينيات، كان شديد التوق إلى ترك عمله في مكتبٍ قانوني، لكنّ أباه عارض ذلك معارضة شديدة. على أنه لم يلبث أن لانَ آخر الأمر ووافق على ذهاب ماتيس للدراسة - لكن شريطة أن يحافظ على أسلوب شديد التقليدية والمحافظة.

حتى يرسم ماتيس لوحات حسيّة، ومنيرة، فرحة، كان عليه أن يواجه أباه، وأن يقبل بالفقر (عندما قُطعت عنه كل مساندة عائلية)، وأن يشتمه أساتذته والمشرفون عليه ويوسعونه تحقيرًا.

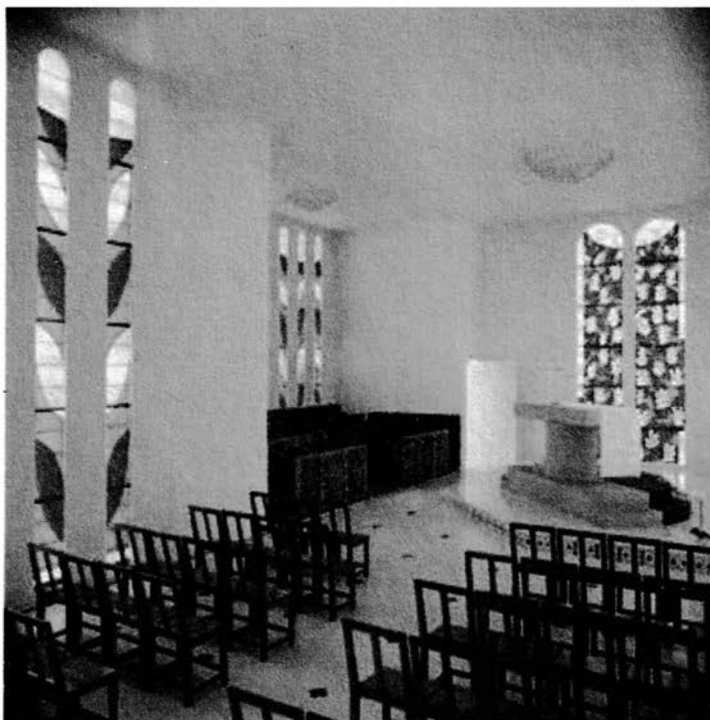


هنري ماتيس، الراقصة والزينات، 1942

بدأ النجاح يلوح لماتيس في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى. صارت الدوائر الفنية المغامرة تعرفه أكثر من ذي قبل. لكن العالم كلّه بدأ يتهاوى لحظة بدا لماتيس أن النجاح صار حليفه. رسم لوحة «النافذة» في السنة التي شهدت معركة «سوم».

ليس معنى هذا أن ماتيس ما كان مهتمًا بخنادق الحرب التي لا تبعد عن باريس أكثر من مسيرة يوم واحد. بل إن ذلك عزّز إحساسه بجمال جذع شجرة يلوح عبر فتحة الستارة، أو بهجَته بتشكيل ألواح الأرضية، وبالسحر والنضارة الغامرة في زهور في إناء في غرفة في المدينة... غرفة أنيقة من غير بهرجة. كان هذا كأن ماتيس يُذكّر نفسه (ويذكّرنا) بأن هذه الأشياء لا تزال موجودة، لم يطلها الخراب. هذا ليس عمل شخص لا مبالٍ. إنه ناتج عن إقرار بمدى سهولة أن يحيق اليأس بالإنسان فيشلّه. ملمَحُ الأوراق الخضراء عبر النافذة قادر على أن يقول لنا كلامًا لطيفًا -حتى في يومنا هذا- عندما ينوء كاهلنا تحت وطأة إحساسنا بأثقال الحياة.

أصابه بعد ذلك مزيد من الجروح الشخصية. أصابه سرطان الأمعاء. وتورط في نزاع قضائي طويل مع زوجته التي تركته، فكان نزاعًا سبّب له ألمًا كبيرًا.



هنري ماتيس، شجرة الحياة في كنيسة روزاري، فينيسيا

في سنة 1942، عندما كانت باريس قد سقطت وكان الجيش الألماني السادس مندفعًا صوب حقول النفط الجنوبية في روسيا، رسم ماتيس عدة لوحات لراقصات ذوات سيقان خلابة جالسات على كنبات كبيرة وثيرة.

كانت اللوحات الأكثر تأثيرًا من جملة أعماله البهيجة المفعمة أملًا من إنتاج الفترة الأخيرة من حياته، أي في حدود سنة 1950 بعد أن بلغ الثمانينيات. كان مُقعَدًا منذ سنين؛ وكان طريح الفراش أكثر الوقت، ولا يستطيع إلّا في حالات قليلة أن يتجوّل على كرسي ذي عجلات. كان مدركًا أنه موشك على الموت.

يبدو اللونان الأزرق الداكن والأصفر -وكذلك الرسم البسيط للزجاج الملون- كأنهما متوهّجان بفرحة الوجود. لكن ماتيس لم يكن يعبّر بهذا عن بهجة عاشها في الآونة الأخيرة. لقد كان الرسام العظيم، الضعيف، الذي يعاني، يحاول بهذا التصوير أن يدرأ خوفه من الظلمة والقنوط؛ وكان يُذكّرنا -من خلال عبقريته- بأن ما من شيء أكثر جدية من أن نعرف كيف نعيش الأمل.

إدوارد هوبر

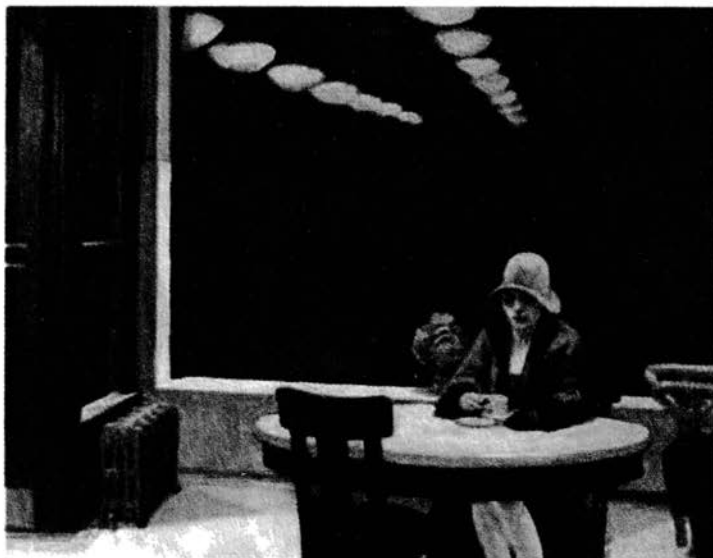
(Edward Hopper)

1967 ـ 1882



كان إدوارد هوبر رسّامًا أنتج لوحات كئيبة المظهر، لكنها لا تجعلنا نشعر بالكآبة. بل إن لوحاته تعيننا على إدراك الوحدة التي كثيرًا ما تكون كامنة في قلب الحزن، وتساعدنا في تقبّل تلك الوحدة.

نرى في لوحته «أوتومات» امرأة جالسة وحدها تشرب القهوة. الوقت متأخر؛ وإذا احتكمنا إلى معطفها وقبعتها، فإن الطقس بارد في الخارج. تبدو الغرفة كبيرة، خالية، ساطعة الإنارة. ديكور الغرفة من النوع العملي؛ ويبدو على المرأة قدر من الانتباه، وأثر من الرهبة. لعلّها لم تعتد الجلوس وحيدة في مكان عام. يبدو أن في الأمر شيئًا ليس على ما يرام. تدعو هذه المرأة من ينظر إلى اللوحة إلى تخيّل قصص عنها: قصص خذلان أو فقد. لعلها تحاول منع ارتعاش يدها التي ترفع فنجان القهوة إلى شفتيها. قد تكون الساعة الحادية عشرة ليلًا في شهر شباط في مدينة ضخمة مظلمة من مدن شمال أميركا.



إدوارد هوبر، أوتومات، 1927

«أوتومات» لوحةٌ عن الحزن - لكنها ليست لوحة حزينة. قد يكون في الأشخاص الذين يجلسون في المطاعم وحيدين في الليل شيء مغرٍ، بل حتى ساحر. غياب الطابع البيتي، وهذه المصابيح الساطعة، والأثاث الغُفل من الهوية... يتيح ذلك كلّه ارتياحًا

مما يمكن أن يكون أسباب راحة زائفة في المنزل. وقد يكون تعبيرُ المرء عن حزنه هنا أكثر سهولة منه في غرفة معيشة دافئة بما فيها من لوحات وورق جدران.

كثيرًا ما يبدو لنا أن «المنزل» قد خذل شخصيات هوبر... أمرٌ حدث هناك فأرغمهم على الخروج في الليل، على الخروج إلى الطريق، إلى المطاعم العاملة على مدار الساعة، وإلى غرف الانتظار في محطات القطارات، وإلى الفنادق التي على الطرق، فهذه كلها ملاذات لمن أخفقوا -لأسباب وجيهة- في العثور على أماكن لهم في العالم العادي، عالم الجماعات البشرية والعلاقات العاطفية.

إن قدرة هوبر على تصوير الوحدة آتية من أنه شخص ألِفَ الوحدة وعاشها كثيرًا. لقد ولد سنة 1882 في بلدة في ولاية نيويورك اشتهرت ببناء السفن اسمها ناياك العليا. عاش طفولة مريحة من تلك التي يعيشها أبناء الطبقة الوسطى. فقد كان أبوه تاجرًا. إلّا أن هوبر كان يشعر بالغرابة في أحيان كثيرة. كان يشعر وكأنه شخص دخيل.

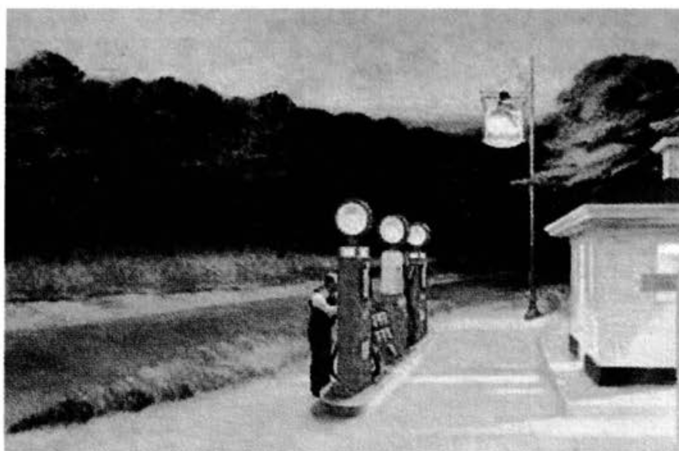
كان توّاقًا إلى أن يصير فنانًا، لكن والديه أصرّا على أن يدرس التجارة حتى يظل ميسور الحال. على أن ذلك لم يعجبه، فسافر إلى باريس عدة مرات -هربًا متظاهرًا بأنه يريد دراسة الفن الفرنسي. وأما في الواقع، فلم يكن هوبر يجد صلة تربطه بالصالونات الفنية. تشرّب شيئًا من المدرسة الانطباعية، لكنه كان ينسى اسم بيكاسو. كان يفضّل البقاء في الخارج، والنظر إلى الأطفال يلعبون في حدائق اللوكسمبورغ، ويصغي إلى الموسيقى في التويلري، ويرتحل في قارب في نهر السين، صعودًا ونزولًا.

بلغ هوبر الحادية والثلاثين في سنة 1913، فاستقر في منطقة غرينويتش فيلدج في مدينة نيويورك حيث ظل مقيمًا بقية حياته. اكتشف هناك كم يمكن أن تكون حياة المدينة مزدحمة، لكنها حياة وحدة أيضًا. كان عدد سكان المدن الأميركية يشهد زيادة سريعة جدًا، لكنها كانت مدنًا يسكنها غرباء عابرون، كلٌّ منهم مُغرّب عن الآخر. كان هوبر يركب «قطار 1» وينظر إلى «لمحات مظلمة من داخل مكاتب يمر بها القطار بأسرع مما يسمح بأن يظلّ لها انطباع حيٌّ نضِر في عقلي». في كل غرفة منها تجري مأساة منفصلة... غرفة هي جزيرة منسية، غير ملحوظة، في بحر من البشر.

مع أن هوبر ظل يرسم في نيويورك أكثر من عشر سنين، فإن لوحاته لم تحقّق مبيعات جيّدة حقًا. كثيرًا ما كان يجد مشقّة في العثور على ما يثير الإلهام في نفسه. ثم صار في أوائل الأربعينيات من عمره فالتقى رسّامة اجتماعية جميلة اسمها جوزفين. بدأ إدوارد وجوزفين يخرجان في رحلات لكي يرسما البحر. ثم صارا يذهبان إلى المسرح والسينما. تزوجا آخر الأمر؛ ولم يعد هوبر وحيدًا مثلما كان.

وبطبيعة الحال -هذا ما يكتشفه أكثرنا في علاقاتهم العاطفية- لم يضع زواج هوبر نهاية دائمة لإحساسه بالعزلة والرهبة. ظل يشعر بالوحدة أحيانًا. كما أن الحياة الجنسية لهوبر وزوجته لم تسِر على ما يرام. كان يبدو عليها أنها تفضّل رفقة قطتها.

اكتشف هوبر أن جزءًا أساسيًا من نفوسنا يظل وحيدًا دائمًا حتى عندما يحبنا الآخرون كثيرًا. هذا الإدراك هو ما يجعل لوحاته جذابة إلى هذا الحد. والواقع أن الفن تصير له أكبر قدرة على المعالجة عندما يتناول الوحدة. يواسينا الفن ويطمئننا إلى أن الغربة والأسى أمران عاديان فلا نجد ما يجعلنا نخجل، ولا نجد غرابة كبيرة عندما نعيش هذه المشاعر. يسمح الفن الذي فيه حزن ووحدة بأن نرى -نحن الناظرين إليه- صدى خيباتنا وأسانا، فيزول عنا جزء من إحساسنا بأننا مظلومون شخصيًا.



إدوارد هوبر، GAS، 1940

يساعدنا فن هوبر في ملاحظة مشهد الوحدة في حياتنا نفسها. فمن الآثار الجانبية للاحتكاك بأي فنان عظيم أننا نبدأ ملاحظة أشياء في العالم كان ذلك الفنان منتبهًا إليها. وفي أيامنا هذه، صار لدينا حسٌّ بما قد يدعوه المرء «هوبريًا»: إنها خصّيصة لا نجدها في الأماكن التي عرفها هوبر نفسه في أميركا الشمالية فحسب، بل نصادفها أيضًا في أي مكان في العالم المتقدّم حيث توجد فنادق على الطرقات ومحطّات خدمة ومطاعم ومطارات ومواقف باصات ومحلات سوبرماركت تعمل طيلة الليل.

ما أسهل أن تستحضر محطات خدمة السيارات لوحة هوبر الشهيرة «Gas» التي رسمها بعد لوحة «أوتومات» بثلاث عشرة سنة. نرى في هذه اللوحة محطة وقود منعزلة في الظلمة الوشيكة. عزلتها مؤثرة، مستفزة. الظلمة التي تنتشر كأنها ضباب آتٍ من

الناحية اليمنى للمظلّة تبدو نقيض أمان المحطة نفسها. وعلى خلفية الليل والأشجار البرّية، في هذا الموقع الأخير للبشرية، يبدو الإحساس بصلة القرب أقرب منالًا منه في نهار المدينة.

أحب هوبر تلك الحالة المزاجية التي تجعل المرء يفكّر في ذاته، الحالة التي تأتينا مرات كثيرة عندما نكون مسافرين. أحب رسم الجوّ داخل عربات القطار نصف الفارغة وهي ماضية في الطريق، الجو الذي يتيح لنا أن نقف خارج أنفسنا المعتادة وأن ننظر إلى حياتنا بطريقة لا نحسنها عندما نكون في شروط أكثر استقرارًا. نعرف كلنا ذلك الجو الذي في لوحة هوبر «المقصورة C، العربة 293»؛ لكن من المحتمل أننا لم نستطع التقاطه جيدًا ورؤيته مثلما نستطيع عندما يضعه هوبر أمامنا في المرآة.



إدوارد هوبر، المقصورة C، العربة 293. 1938.

بدأت حياة هوبر المهنية تشهد تحسّنًا مفاجئًا بعد زواجه. كان ذلك زمن الركود الكبير، لكن هذا لم يمنع لوحاته من العثور على مشترين لها. راح النقّاد يتحدّثون عنها؛ وراحت المتاحف تشتري بعضًا منها؛ وبدأ هوبر يفوز بالجوائز. لكن انطوائيته الشديدة بقيت على الرغم من ذلك كله. ازداد تمسكًا بوحدته بدلًا من فراره منها. ظل عشرات

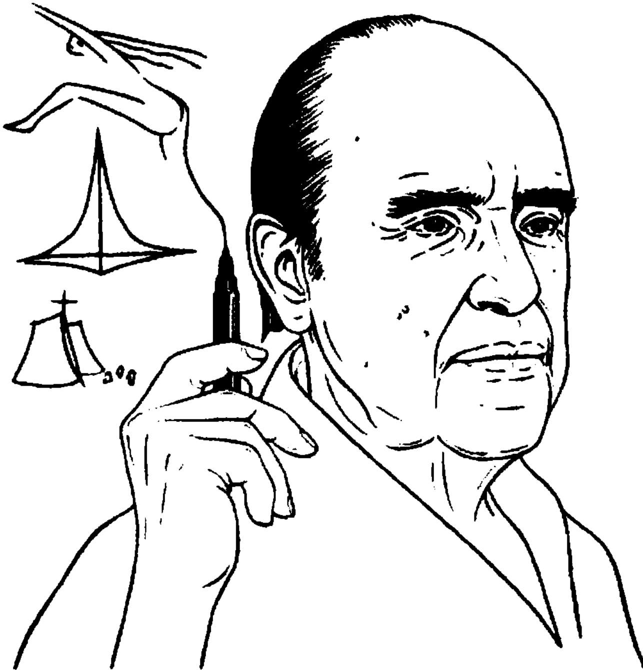
السنين يعتذر عن قبول الجوائز، ويرفض فرص إلقاء الكلمات، وعاش عيشة بسيطة بعيدًا عن أعين الجمهور. مات سنة 1967، لكن فنه لا يزال يساعدنا في رؤية الوحدة التي في حياتنا عبر منظور أكثر نضجًا وحكمة.

قال أوسكار وايلد ذات مرة إن ضباب لندن لم يكن موجودًا قبل أن يرسمه ويسلر. لقد كان فيها ضباب كثير، بالطبع؛ لكن ملاحظة صفات ذلك الضباب كانت أصعب قليلًا قبل أن يأتي مثال ويسلر فيوجّه أنظارنا إليها. ما قاله أوسكار وايلد عن ويسلر، نستطيع بدورنا أن نقوله عن هوبر: ما كانت في العالم هذه الكثرة من محطّات الوقود وعربات القطارات والمطاعم والفنادق التي على الطرق... ما كانت فيه هذه الأماكن الجميلة كلّها، المواسية كلّها، التي تثير الاهتمام وتسكن الأذهان بطريقة غريبة، إلّا بعد أن بدأ إدوارد هوبر يرسم لوحاته.

أوسكار نيميير

(Oscar Niemeyer)

2012 - 1907



إن مما يثير في نفس المرء أكبر قدر من الإحباط أثناء سفره اكتشافُه أن العالم كثيرًا ما يبدو هو نفسه في أماكن مختلفة كثيرة. الأبراج التي في قلب طوكيو يصعب تمييزها عن تلك التي في فرانكفورت أو في في سياتل. هذه ليست مصادفة؛ فقد قامت العمارة الحديثة على فكرة أن المباني ينبغي -منطقيًا أن تبدو متشابهة في كل مكان. كانت آراء الشخصيات البارزة الأولى في مذهب الحداثة متّفقة من حيث معارضتها الشديدة لأي نوع من أنواع «الخصائص المحلّية» لأنها اعتبرتها، رجعية، فولكلورية، قليلة الشأن. فإذا كانت الدراجات والهواتف والطائرات (كلها من بشائر العصر الجديد) لا تُصنع وفق أنماط محلية، فما الذي يوجب ذلك على المباني؟... فلتسقط الشاليهات الجبلية، وأكواخ الهنود الحمر، والمزاريب البارزة على الجدران!

بدأ المعماري البرازيلي أوسكار نيميير حياته المهنية معماريًا شديد التمسك بالحداثة. لا يقبل شيئًا غير عقيدته هذه التي يراها صالحة لكل شيء. لقد ولد سنة 1907 في مدينة ريو دي جانيرو، وظهر ميله إلى العمارة منذ أوائل مراهقته. وعندما قصد «المدرسة الوطنية للفنون الجميلة» للدراسة فيها، وقع على جماعة شديدة الإعجاب بكبار المعماريين الحداثيين في أوروبا وعلى رأسهم لو كروبيزييه الذي كان ملحًّا إلحاحًا شديدًا على ضرورة ألاّ تُقدم المباني على أي تنازل، مهما يكن، أمام الثقافة المميزة لمكان وجودها.

تحققت طموحات نيميير المهنية في سنة 1936 عندما دُعيَ لو كروبيزييه إلى ريو دي جانيرو وكُلّف بتصميم المبنى الجديد لوزارة التربية والصحة. وقد دُعي نيميير إلى الانضمام إلى فريق المعماريين البرازيليين المكلّفين بمساعدة المصمّم الأوروبي في تنفيذ الخطة التي وضعها لذلك المبنى المهم الجديد.

حافظ نيميير على أقصى احترام إزاء لو كروبيزييه أثناء عمله معه، لكنه لم يستطع -في الوقت نفسه- أن يغفل عن شدة تعامي ضيفه عن خصائص الثقافة والمناخ البرازيليين. ثم أفلح بسحره الأسطوري الذي سيشتهر به لاحقًا في إقناع لو كروبيزييه بالتخلّي عن بعض من أشد الجوانب «عمومية» في مخططه التصميمي لذلك المبنى الجديد، وبالإقدام على بضعة تنازلات أمام الشروط المحلية. وبتأثير منه، اكتسبت نوافذ المبنى «واقيات» من الشمس؛ وكان أهم من ذلك نجاح نيميير في إقناع لو كروبيزييه بوضع

مساحة كبيرة من الأرضيات المبلطة على النمط البرتغالي التقليدي والمزيّنة برسوم تجريدية في المساحات المخصصة للعموم في الطابق الأرضي.

شجّعه النجاح الذي أصابه في هذا المبنى، فشعر بأنه صار مستعدًا للقطيعة مع الحداثة الأوروبية. ولسوف يشتهر بأنه كان (ربما) أول معماري في أي مكان في العالم يمارس نوعًا محليًا من الحداثة: في هذه الحالة، كانت حداثة مُشبعة بالنمط البرازيلي.

أنجز في سنة 1943 (كان عمره ستة وثلاثين عامًا) عمله الأول الأصيل كلّه الذي كلّفه به جوسلينو كوبيتشك، عمدة مدينة بيلوهوريزونته الذي سيصير بعد ذلك رئيسًا للبرازيل. كان المشروع مُجمَّعًا يضم كازينو ومطعمًا وصالة رقص وناديًا لليخوت، فضلًا عن دار عبادة صارت الآن معروفة بكنيسة القديس فرانسيس أسّيزي في بيلوهوريزونته.

سرعان ما حظيت هذه الكنيسة باعتراف واسع على أنها تحفة فنية؛ وذلك على الرغم من أنها لم تعجب رجال الدين المحليين على الإطلاق (دعاها الأسقف أنطونيو دوس سونتوس كابرال «قنبلة شيطانية غير صالحة لأن تكون مكان عبادة»).

لم تكن في المجمّع كلّه أية خطوط مستقيمة لأن نيميير صار الآن يرى كل ما هو أوروبي ناضحًا بقدر مخيف من السلطوية (كان ذلك وقت بلوغ الفاشية أوجها). ومن الناحية النظرية، كان اختراع البيتون المسلح قد حرر العمارة من القيود الإنشائية الثقيلة التي كانت مفروضة عليها - رأى نيميير أن على المرء أن يستفيد من هذه الحرية الجديدة بطريقة إبداعية.

من هذه اللحظة فصاعدًا، سوف يستخدم نيميير المنحنيات في مبانيه كلّها لأنه صار يراها، من منظور وطني، سمة ذات طبيعة برازيلية خاصة. وهو يقول: «ليست الزاوية القائمة هي ما يشدّني، ولا الخط المستقيم الذي صنعه الإنسان، ذلك الخط الصلب القاسي الذي لا مرونة فيه. الخط المنحني الحر، الحسّي، هو ما يشدّني - المنحنى الذي أراه في جبال بلادي، وفي تعرّجات مجاري أنهارها، وفي أجساد المحبوبات». إن هذه الإشارة إلى أجساد النساء تقول شيئًا مهمّا عن نيميير؛ فقد كان طيلة حياته صاحب استجابة عميقة إلى الجمال الأنثوي. كانت علاقاته الأنثوية معروفة في ريو دي جانيرو. وكانت أكثر تلك العلاقات مع نساء أصغر منه كثيرًا. في سن الثانية والتسعين، كانت له علاقة مع صديقة في الخامسة والعشرين.

مثلما حدث في مشروع وزارة الصحة، كانت لكنيسة بامبولا واجهة كاملة من البلاط الملون. وكان هذا تذكرة لمن يراها بأن البرازيل قادرة على أن تكون حديثة من غير أن تنسى تراثها - قد يوحي شكل الكنيسة بحظيرة طائرات مستقبلية، لكن واجهتها

تعرض -في الوقت نفسه- صورة للقديس فرنسيس وبضع دجاجات (دجاجات متميزة الجمال).



كنيسة بامبولا، بيلوهوريزونته، 1944

إن النزعة الحسية التي لازمت نيميير طيلة حياته ظاهرةٌ أيضًا في كثير من المباني التي صمّمها. يجعل تصميم «كازا داس كانواس»[1] (1951) تلك الحسّية جزءًا من الحياة الناضجة، المتقنة. فبدلًا من الإيحاء بأن الحسّية ميدان خاصّ بالشباب، أو من لا همّ لهم، أو المتأنقين، أو الجميلين، صنع نيميير بيتًا يمكن أن يتخيل فيه المرء أنه مُحاسِب، أو أنه يعمل في وزارة البنية التحتية (أي أن يكون شخصًا مسؤولًا، مجدًّا في عمله، شديد الاهتمام بالمشكلات التقنية والإدارية)، لكنه يستمتع بجسده. شخص قد يكون منخرطًا في حديث يوسّع آفاق عقله، لكن أصابع تتحسس ركبة حبيبته؛ أو شخصٌ يمكنه أن يقبِّلَ الظلال الدافئة في امرأة تعجبه قبل أن يبدأ اجتماعًا هاتفيًا يناقش آفاق المبيعات المحلية.

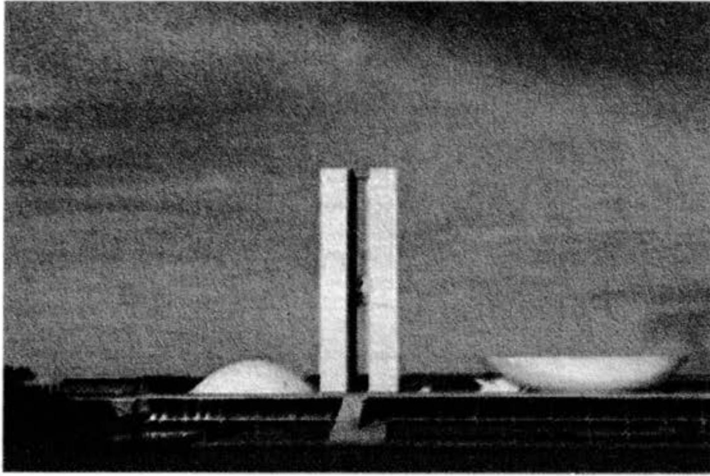
إن هذا البيت أشبه بصديق موثوق يشجع صديقَه في الوقت المناسب بتمتمةٍ تشيع الاطمئنان في نفسه. وقد يستطيع المرء تخيل رجل وامرأة يشعران في هذا البيت بأمانٍ كافٍ لأن يندفعا في مغامرة جنسية ظلا يعتبرانها مستحيلة طيلة سنين كثيرة في بيتهما المعتاد.

أتت محاولة نيميير الأكثر جسارة لجعل العمارة تجسيدًا للهوية البرازيلية من خلال

---

(1) كازا داس كانواس: بيت نيميير الشخصي.

التصميمات التي قدمها من أجل العاصمة الجديدة، برازيليا. ففي سنة 1956، طلب الرئيس كوبيتشيك من نيميير المساعدة في إقامة مدينة ذات تخطيط جديد كليًا في وسط البلاد بحيث تكون بعيدة عن فساد العاصمة القديمة، ريو دي جانيرو. صمّم نيميير الكونغرس الوطني، وكاتدرائيةً، ومجمعًا ثقافيًا، وعددًا من الوزارات والمباني التجارية والسكنية. كان مناخ تلك التصميمات كلّها مفعمًا بالجلال والأمل، وكان على صلة واضحة بالبيئة المحلية. رفعَ المباني السكنية على أعمدة بغية إتاحة حيّز لنمو النباتات تحتها لكي تظل على صلة بالبيئة المحلية والمناخ المداري.



الكونغرس الوطني البرازيلي، برازيليا، 1964

وبطبيعة الحال، لم تمثِّل أعمال نيميير البرازيل مثلما كانت، بل مثلما آمن وأمل بأنها ستكون في يوم من الأيام. كان مدركًا أن العمارة قادرة على الإيحاء بالمهمّة الحسنة على نحو يكون مشجعًا، مغذّيًا للأمل. البرازيل بلد فيه نشاط اقتصادي محموم، بلد الغابات المطيرة ونهر الأمازون والأحياء الفقيرة وكرة القدم والشواطئ والخلافات الشديدة في النظر إلى الأولويات السياسية... لكن شيئًا من هذا كلّه لا يظهر عند التأمل في مبنى الكونغرس الوطني في برازيليا. إن ذلك المبنى يتخيّلُ البرازيل التي ستكون في المستقبل؛ فهو مصنوع من زجاج وباطون مسلح، مثالٌ مُنبئٌ ببلد يريد أن يتقدّم. يقول لنا هذا المبنى إن البرازيل ستكون مكانًا تتمتّع فيه العقلانية بقوة كبيرة، ويسوده النظام والانسجام... بلد يكون فيه الجمال والصفاء أمرين معتادين. أشخاص هادئون، أذكياء، يعملون بعناية، ويفكّرون تفكيرًا صائبًا في التشريعات. وفي غرف المكاتب في البرجين، ستعكف سكرتيرات ماهرات على طباعة الخلاصات الحصيفة؛ وستكون

نُظُم الأرشفة ممتازة - لن يضيع شيء، أو يسقط سهوًا، أو يُهمَل، أو يساء استخدامه. ستجري المناقشات والمفاوضات في جو من التعقل البعيد عن الطابع الشخصي. سوف يدار البلد بطريقة ممتازة. من هنا، يمكن النظر إلى هذا المبنى باعتباره تجربة في المديح البَنّاء. فهو يوحي بأن هذه الصفات الحسنة موجودة بالفعل -إلى حدٍّ ما- لدى هذه البلاد ولدى الطبقة الحاكمة فيها. إن المُثُل كلّها تمتدحنا بهذه الطريقة - فنظرتها إليها غير مقتصرة على إشارات إلى مستقبل بعيد، بل نحن نرى فيها أيضًا وصفًا لأشياء موجودة فينا، وإن تكن غير ظاهرة تمامًا بعد. نحن معتادون على اعتبار المديح أمرًا سيئًا؛ لكن له فائدة في واقع الأمر. وهذا لأن المديح يشجعنا على الارتقاء إلى الصورة المغرية التي يعرضها أمامنا. فالطفل الذي يمتدح أهله محاولته المتواضعة الأولى في إلقاء النكات، ويدعونه «صاحب قدرة في الفكاهة»، طفلٌ يوجِّهُه ممتدحوه ويساعدونه في التطور إلى ما يتجاوز قدراته الحالية. يكبر الطفل ويصير ذلك الشخص الذي صوّره له المديح. هذا أمر مهم لأن الخُيلاء لا تكون، عادة، العقبة التي تعترض تطورنا تطورًا حسنًا، بل إن قلة الثقة في النفس هي ما يعوقنا.

ظل إنتاج نيميير غزيرًا حتى السنوات الأخيرة من حياته. واصل تعليم العمارة في أنحاء مختلفة من العالم؛ وظل يكتب ويصمم المنحوتات وقطع الأثاث. مات سنة 2012 عن عمر بلغ مئة وأربع سنين. حظي بجنازة تليق بالأبطال؛ وحضر دفنه آلاف الأشخاص. كانت بلاده تُكرّم معماريًا قدّم إليها صورة عن نفسها كانت صورة مثالية لكنها قابلة للتحقّق. لقد مكّن البرازيل من التحرّر من الحداثة الأوروبية العقيم - وكذلك من ابتكار تلك المباني التي تعكس فرادة البلاد. يظلّ نيميير مثالًا للمعماري الطامح إلى إقامة مبانٍ تتذكر الطابع المميز لسكانها - فالمعماريون الذين يكونون راغبين في أن يحمل تصميم هواتفهم طابعًا عموميًا، هم أشخاصٌ حريصون أيضًا على أن تكون مبانيهم ذات طابع خاص متميز من الناحية الثقافية.

لويس كاهْن

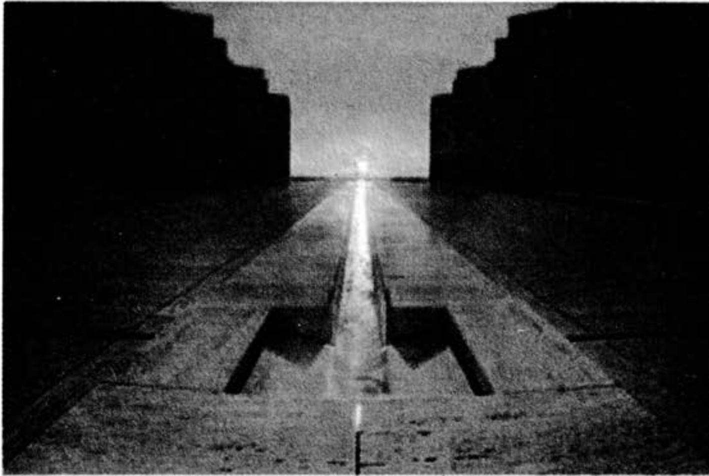
(Louis Kahn)

1974 - 1901



تقدم العمارة الحديثة عملًا مبتكرًا حقًّا: المباني المتألّقة ذات العلو الشاهق، ودور الأوبرا التي تشبه مجسّمات أوريغامي الورقية اليابانية، ومتاحف تبدو كأنها سفن فضاء. إلا أن التفاتَ الحداثة المعمارية صوب كل جديد قد أهمل أيضًا -على نحو دوغمائي- قدرًا كبيرًا من الأشياء التي تجعل المباني جميلة. لقد نجح أفضل معماريي العصر الحديث في تفادي هذه الزّلّة إذ تخلّصوا من أمور قديمة بليدة كانت موضع اتفاق عام مع محافظتهم على أوجه التقاليد الجميلة الغنية بالمعنى. ولعل لويس كاهْن، الأميركي ذو الأهواء المتقلّبة والذهن الشارد، واحد من أكثر المعماريين نجاحًا في العثور على هذا التوازن.

ولد كاهْن سنة 1901. وفي شبابه درس في جامعة بنسلفينيا؛ لكن مسيرته المهنية لم تزدهر حقًّا إلى أن أتى عقد الخمسينيات، إذ بعد أن ذهب في رحلة إلى روما تولّد لديه تقديرًا وإعجابًا جديدين بالتصميمات المعمارية القديمة. لقد كانت مساهمته المهمة في العمارة الحديثة متمثّلة في إدخال هذه العناصر القديمة، بل العتيقة جدًّا، في عمله من غير التضحية بما في الحداثة من ابتكار ووضوح.



معهد سالْك في فيرنال إكوينوكس

كان ولعه بالتناظر واحدًا من الأمثلة على نجاحه في إعادة استخدام الأفكار القديمة، ذلك التناظر الذي عادة ما يعتبره المعماريون الحديثون نزعة امتثالية خالية من روح الابتكار والتجديد.

صمّم كاهْن معهد سالْك في مدينة لاهويا، كاليفورنيا، ليكون مجمّعًا من المباني المتماثلة القائمة إلى جانبي بركة مركزية. كان هذا التناظر سمة متميزة في نمط العمارة الأكاديمي الذي يتّبع «منهج بو زار»[1]؛ إلّا أن هذه الردّة الظاهرية لم تُخِفْ كاهْن؛ فهو يقول: «إن أراد الناس رؤية بو زار، فلا مشكلة عندي. أنا مهتم بالعمارة الجيدة كغيري من الناس».

استخدم كاهْن صفوف المباني المتطابقة لكي يشد عين من يراها إلى مركز التصميم كلّه (البركة)، وإلى البحر الذي من خلفه. إن مسار مجرى الماء المنطلق من البركة القائمة في مركز المعهد مطابق لاتجاه أشعة الشمس يومي الاعتدال الخريفي والاعتدال الربيعي. من هنا، يستخدم كاهْن التناظر لا من حيث كونه قيمة جمالية في حد ذاته، بل بطريقة فيها قدر كبير من القصديّة حتى يضفي إحساسًا بالتوازن والتركيز وقوة الاندفاع.

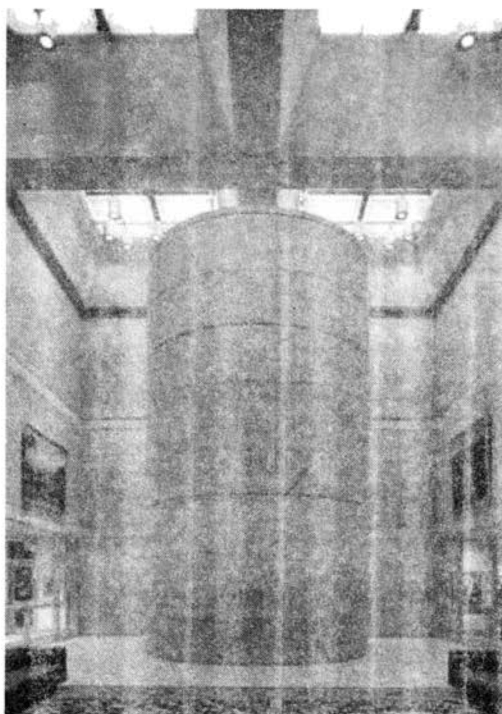
نجح كاهْن أيضًا في خلق إحساس بالعظَمة في تصميماته نادرًا ما يراه المرء في العمارة الحديثة. قد يقف المرء فاغرًا فمه دهشة أمام ناطحة سحاب، لكن علوَّها الشاهق نادرًا ما يثير في نفسه ذلك الإحساس بالخشوع الذي تثيره كاتدرائية عظيمة.

إلّا أن كاهْن نجح في إعادة هذا الإحساس بالعجب والعظمة إلى الأعمال المعمارية الحديثة. ففي مركز ييل للفن البريطاني، يجذب التصميم عينَي الرائي صعودًا إلى النوافذ السقفية المرتفعة، تمامًا إلى حيث تكون قبة الكنيسة. إن اتساع المبنى مدهش حقًا؛ وحتى السلّم نفسه يخلق إحساسًا بالارتفاع وبحيّز متسام. يشعر الناظر باحترام وتقدير لا للأعمال الفنية المعروضة أمامه فحسب، بل أيضًا للمبأني وللمتاحف ولفكرة الثقافة في حد ذاتها.

يعتمد أكثر المعماريين الحديثين اعتمادًا كبيرًا على الفولاذ والبيتون والزجاج. لكن كاهْن سعى إلى استخدام جملة واسعة من المواد المحسوسة. وكثيرًا ما كان يستدعي الاستشاريين إلى مكتبه حتى يعثر على استخدامات جديدة للسيراميك والنحاس الأصفر وغيره من المواد غير المألوفة. وفي وقت من الأوقات، جعل طلبته في جامعة ييل يفكّرون في الاستخدامات الممكنة الكثيرة للصلصال، وذلك إلى أقصى ما تذهب مخيّلاتهم. وفوق كل شيء، كان يرفض فكرة أن على العمارة أن تستخدم دائمًا مواد البناء الحديثة. كان يوجّه طلابه إلى طرح الأسئلة على المواد طلبًا للنصيحة: «تقول للحجر، 'ماذا تريد، يا حجر؟' فيجيبك الحجر: 'أريد أن أكون قنطرة'. لكنك تقول

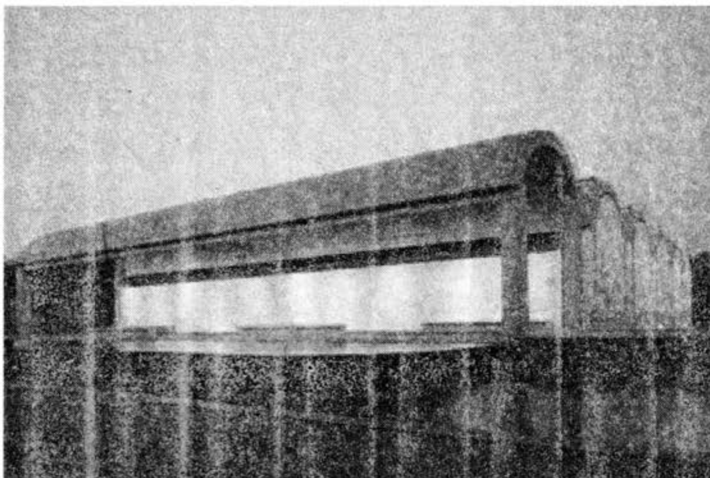
(1) بو زار: أي «الفنون الجميلة». وهذه إشارة إلى «مدرسة الفنون الجميلة» في باريس «Ecole Des Beaux Arts».

للحجر: 'وأنا أريد قنطرة، لكن القناطر مكلفة كثيرًا، وأنا قادر على استخدام بلاطات بيتونية'. ثم تسأله: 'ما قولك في هذا، يا حجر؟'. فيجيبك: «أريد أن أكون قنطرة'».



آرتيوم، مركز ييل للفن البريطاني، نيو هيفن، كونيكتكت

خلاصة القول، عليك أن تفعل ما يقوله لك الحجر. كان لدى كاهْن ميلٌ خاصٌّ إلى المزاوجة الذكية بين مواد لا يتوقع المرء المزاوجة بينها كالبيتون وخشب السنديان، هذا ما فعله في تصميم «إيشريك هاوس»، الذي بُني سنة 1959. عادة ما يستدعي خشب السنديان إلى أذهاننا صور غرف التدخين والمكتبات العتيقة المغبرة في العهد الفيكتوري. في حين يذكّرنا الباطون بالمصانع الخالية من الطابع الشخصي، وبالمباني المستقبلية التي تبدو بعيدة عنا. لكنّ هاتين المادتين توضعان معًا فتفسحان عن خصائص مختلفة اختلافًا مدهشًا، لكنها متكاملة تكاملًا يستلفت الأنظار. يمنح الخشب الحيّز دفئًا وألفة يجعلان البيت مكانًا مناسبًا لشخص مولِع بالقراءة، في حين يُضفي البيتون إحساسًا بالقوة والاستقرار يساهم في خلق شعور مُطَمِّئن بأنه يوفّر حماية من العالم الخارجي. إن في هذا الجمع بين المواد إشارة رهيفة إلى أننا قادرون على العثور على الراحة والقوة معًا.



متحف كيمبل للفنون، فورتوورث، تكساس

وفي النهاية، يبقى ذكر كاهْن حيًّا بصفته مثالًا لواحدٍ ممن حرصوا على «النُّصُب المعمارية»، في وقت شهد ميلًا حاسمًا لدى أكثر المعماريين إلى رفض النُّصب معتبرين إياها شيئًا عاطفيًا لا نفع فيه. ففي سنة 1938، أعلن الناقد المعماري لويس مامفورد: «إذا كان المبنى نصبًا معماريًا، فهو ليس حديثًا؛ وإذا كان المبنى حديثًا، فلا يمكن أن يكون نصبًا معماريًا». لكن كاهْن أحب النصب المعمارية. لقد كتب بعد قيامه برحلته المهمة إلى روما: «أدركت أخيرًا أن العمارة الإيطالية سوف تبقى مصدر إلهام لعمارة المستقبل... وأما من لا يرون الأمر هكذا، فإن عليهم أن ينظروا من جديد. تبدو مبانينا أشياء من سِقْط المتاع إن هي قورنت بها». وعلى سبيل المثال، كان الرخام الذي استخدمه كاهْن في متحف كيمبل للفنون في فورتوورث، تكساس، رجوعًا واضحًا إلى المباني القديمة التي كان شديد الإعجاب بها.

مات كاهْن سنة 1974؛ ولعله كان وقتها أوسع المعماريين شهرة في الولايات المتحدة الأميركية. ولا يزال له أثر عميق على العمارة حتى الآن. إن أهمية كاهْن كامنة في قدرته على تجاوز نزعة الحداثة الدوغماتية، وإعادة العناصر التقليدية الجميلة إلى مكانها الصحيح في «قانون» التصميم المعماري»، حيث تصير قادرة على مواصلة إحلال الجلال والرشاقة والروعة من أجل أجيال المستقبل.

كوكو شانيل

(Coco Chanel)

1971 - 1883



قد يبدو عالم الموضة بالغ السخافة. ومن الممكن أن يرى أشخاص كثيرون أنه يعزز الخيلاء الفارغ ويشجّع على العجرفة، فضلًا عن أنه يمنح أشياء غير مفيدة مكانةً لا تستحقها.

إن هذا الجانب الهوائي، النرجسي، في عالم الموضة أمر مؤسف لأن هذا العالم يحتل -عندما يكون مزدهرًا مساحة مهمّة في المجتمع. تحمل الملابس أفكارًا عما هو مثير أو موضع إعجاب؛ ولها أثرها على المزاج؛ وهي تحدّد الهوية أيضًا. ومن الممكن أن تحتل الموضة جزءًا كبير الأهمية من الحياة - لكنها متروكة، إلى درجة كبيرة، بين أيدي الزيف والإغراب والغباء. كانت مصممة الأزياء الفرنسية كوكو شانيل واحدةً ممن قدّموا أكبر مساهمة في إدراك القدرات الإيجابية للموضة ووجّهوها إلى مهمتها الحقيقية. ولدت كوكو شانيل يوم 19 آب 1883 في بلدة ثومور في وادي لوار الفرنسي. ماتت أمها عندما كانت طفلة؛ وترعرعت فقيرة، منعزلة. تلقّت تعليمها على أيدي راهبات محسِنات. كان اسمها غابرييل حتى بداية العشرينيات من عمرها عندما حاولت أن تعمل ممثلة في «كاباريه» فغيرت اسمها إلى «كوكو» لأنها رأته أكثر تميزًا.

بدأت عملها في تصميم القبّعات؛ وكسبت كثرة من الأصدقاء النافذين؛ وكانت لها عدة صلات بدوقات بريطانيين وروس - لعل هذا كان سعيًا منها إلى التعويض عن مكانتها الاجتماعية شديدة الهشاشة في الطفولة.

إن الملابس واحدة من أدوات التواصل مع أننا لا نولي هذه الحقيقة -أكثر الأحيان- قدرًا كبيرًا من الاهتمام. لكن الحقيقة هي أننا نتأثّر بما يرتديه الشخص. كانت الملابس الأنيقة، قبل شانيل، معقّدة ومكلفة جدًا. وكانت مصمّمة بحيث تخفي الخصائص الضعيفة، أو السلبية، عند من يرتديها.

وكانت تلك الملابس تُبرز صورة من الرقيّ والذوق الرفيع؛ فهي تجعل مرتديها يبدو شخصًا شاعريًا، أو حالمًا وحسّاسًا. كان من يرتديها يمكن أن يبدو شخصًا ليست له شهية طيبة لتناول طعام العشاء. ولم يكن مقصودًا منها أن تقدّم صورة واقعية دقيقة عن أي شخص بعينه. كانت الملابس إشارة إلى تطلّع: من الممكن أن تكون امرأة في العهد الفيكتوري شخصية لا تشعر بالأمان، لها ضحكةً صاخبة خشنة، فضلًا عن ولعها بكعكات المورينغ؛ لكن ملابسها تقدم صورة مثالية عن الاتجاه الذي هي راغبة في اتخاذه: صورة عما تحب هذه المرأة أن تكونه في حالتها المثلى.



مجلة الأزياء النسائية «لي غراند مود دو باري» - (1901 - 1933)

وأما ما فعلته كوكو شانيل هو ابتكار وجهة جديدة أفضل. لقد قدّمت في سنة 1926 قطعة ملابس شديدة البساطة: «الفستان الأسود الصغير».

كان هذا الفستان ناطقًا بلسان نسخة مختلفة من الوجود: مثالٌ مختلف. كان الفستان ناطقًا بالطاقة والتركيز؛ ومن الممكن أن تكون من ترتديه امرأة ذكية، منخرطة في شؤون العالم؛ وقد تكون أمضت يومها كلّه في إدارة عمل من الأعمال أو في وظيفة في وزارة المالية - أو في كتابة رواية تجريبية.

ثم إن كوكو شانيل كانت تجعل هذا المثال الجديد أقرب كثيرًا إلى متناول الناس. كان ثمن الفستان لا يتجاوز جزءًا بسيطًا من ثمن الفساتين المنافسة الأكثر فخامة. وقد صمّمته بحيث يدوم طويلًا. وليس المقصود بالعيش طويلًا أنه يظل صالحًا من الناحية المادية فحسب، بل بالمعنى النفسي أيضًا، لأنه لا يوحي بتقادم العهد عليه. كان معنى هذا أن الفستان الذي تشتريه في سنة 1926 يظل مناسبًا في سنة 1927، بل حتى في سنة 1937. الواقع أنه كان مقصودًا منه أن يعيش سنينَ طويلة حقًا، وهذا ما أدخل تغيرًا جذريًا على اقتصاديات الأناقة.

كانت محدودية الخيارات هي الوجه الآخر لما طرحته كوكو. كان فستانها أسود

اللون، مما يعني عدم الحاجة إلى تضييع أي وقت في التفكير واتخاذ القرار. لقد كانت تجعل فكرة الأناقة أكثر بساطة وأقرب متناولًا. صمَّمت «الفستان الأسود الصغير» لكي تجعل المظهر الأنيق سهلًا، منخفض التكلفة.



كوكو شانيل، باريس، 1936

وقد اعتبر «الفستان الأسود الصغير» قطعة الملابس المقابلة لسيارة «t Ford» (لم تكن مصادفة أن هذه السيارة كانت متاحة بلون أسود فقط). كانت سيارة فورد هذه ثورة في صناعة السيارات لأنها جعلت اقتناء السيارة -للمرة الأولى- أمرًا واقعًا ضمن حدود ميزانية عدد من البشر أكبر كثيرًا من عدد من كانوا قبلها قادرين على اقتناء سيارة. فبدلًا من أن تكون السيارة رفاهية مقتصرة على قلة محدودة، صار التنقل الشخصي أوسع انتشارًا... ثم لم يلبث آخر الأمر أن صار أمرًا عاديًا، مألوفًا.

لقد حملت كوكو شانيل الطموح النبيل نفسه: أن تجعل نظرتها إلى الأناقة بسيطة، غير محدودة بوقت قصير، وأكثر أهمية من هذا هو أن تجعلها واسعة الانتشار. وبحسب تعبير مقالة ذكية نشرتها مجلة فوغ سنة 1926، كانت شانيل تبحث عن «زي موحَّد للنساء صاحبات الذوق».

إن «الزي الموحد» الذي كانه «فستان شانيل» -أو أية قطعة ملابس قليلة التكلفة مستوحاة منه- ليس إلا تأكيدًا على جملة من الفضائل الداعية إلى الإعجاب: فكرة أن المرء قادر على أن يكون جادًا، منظَّمًا، فعّالًا، ممسكًا بزمام الأمور، من غير أن يبدو بيوريتانيًا، أو متزمّتًا. إن هذه الملابس تشدّد على فكرة البقاء فترة طويلة، مما يعني أنها توحي لنا بأن علينا أن نهتم بالأشياء التي تدوم، لا أن نغير آراءنا وتستبد بنا حماسة جديدة عند كل منعطف. وهي أيضًا دعوة إلى اعتبار الأناقة أمرًا مهمًا في عالم مزدحم دائم الانشغال: هي تعني إحراز الكفاءة من غير خسارة الأناقة والجمال.

على امتداد حياتها المهنية الطويلة التي لاقت فيها نجاحًا كبيرًا، كان قسم كبير من جهد كوكو شانيل مكرّسًا من أجل تطوير اسم تجاري متميز. ولم يكن تفكيرها مقتصرًا على الملابس وحدها، لقد صمَّمت حُليًا، وحقائب يد. ومن وجهة النظر التجارية، كان عطر «شانيل - 5» أهم تصميم لها.

على امتداد أزمان طويلة، استخدمت الكنيسة الكاثوليكية الروائح العطرية لتعزيز التمسك بالدين. كانت الكنيسة مدركة أن للروائح العطرية أثرًا على المزاج. فرائحة البخور قادرة على دفع الرعية إلى التركيز وإلى الإحساس بأن ما يحدث أمر ذو أهمية خاصة.

أرادت كوكو أن يكون عطرها تلخيصًا لصفات نوع بعينه من الأشخاص: الشخص الواثق، القوي، الجذاب، المستقل.

لم يكن هدفها مقتصرًا على توسعة إمبراطورية الأعمال التي أقامتها؛ فقد أرادت نقل تجربتها الناجحة من جزء من الحياة - لعل تلك التجربة الناجحة صارت مألوفة في ذلك الجزء - وتطبيقها على نطاق أكثر اتساعًا.

كانت تحب الشواطئ وملابس السباحة؛ وأحبت أيضًا الملابس التي يرتديها الناس عندما يمارسون الألعاب الرياضية. لم يكن هذا أمرًا غير معتاد على الإطلاق. فقد كانت الخطوات التي تتّخذها تبدو دائمًا أمرًا واضحًا، بل بديهيًا، عند التفكير فيه بعد حدوثه - لكنها لم تكن تبدو كذلك قبل أن تخطوها كوكو شانيل. كانت لها نظرة شديدة الجدية إلى متعة ارتياد الشواطئ، وسعت إلى الخروج من هذا النمط بعينه من المسرّة بخلاصة عامة قابلة للاستخدام مرات ومرات.

***

على أن كوكو شانيل لم تكن شخصية تستحق الإعجاب من كل ناحية! فخلال الحرب العالمية الثانية، عندما كانت قوات الرايخ الثالث تحتل باريس، عاشت كوكو في فندق ريتز، حيث كانت تمضي أوقاتًا طويلة مع كبار الضباط النازيين. كانت علاقتها بهم أكثر من ودّية، ثم صارت عميلة لهم؛ إلا أن هذا لم ينكشف إلا بعد زمن طويل. وعلى غرار فنانين كثر، كان عملها أفضل مما كانته بشخصها. ماتت في باريس سنة 1971 عن عمر بلغ سبعة وثمانين عامًا.

ستظلّ الموضة موجودةً في مجتمع مثالي طوباوي، لكنها ستكون مختلفة عما ألفناه وعايشناه. سوف تتخذ الموقف الذي اتخذته كوكو شانيل إزاء نمط الملابس الكلاسيكي.

فالكلاسيكي ليس منحصرًا بالشيء الذي يكون شهيرًا، أو الذي يكون علامة مميّزة باقية من زمن ماضٍ. إنه شيء يظلّ مفيدًا، مستمر الصلة مع الزمن، بعد انقضاء الحقبة التي شهدت ظهوره أول مرة. ليست المهمة الحقيقية للموضة ابتكار ملابس جديدة وتغييرها كل سنة. ليست الملابس تباهيًا بالمظهر، ولا هي تجميع فوضوي لأشياء مختلفة (مثلما نخشى أحيانًا أن يكون الأمر)؛ ففيها قدرة على أن تكون عونًا لنا، وسندًا، وصديقًا، في سعينا إلى أن نصير أكثر نضجًا وتركيزًا وتوازنًا وعقلًا.

وفي النهاية، لم تفعل شانيل كل ما كانت قادرة على فعله بالاسم المميَّز الذي أنشأته؛ لكنها تظلّ مصدرًا للإلهام من حيث استخلاصها بعض ما يمكن أن يكون أكثر جدّية في ما يتعلق بالملابس. ففي عالم مثالي، من الممكن أن تحدد شركة لصنع الملابس -بمساعدة فلاسفة يعملون فيها- ما هو أكثر أهمية في الحياة بحيث تنطلق إلى صنع الملابس التي من شأنها أن تساند هذه الالتزامات الأخلاقية وتعزّزها. وسوف تحظى الملابس الجميلة بالاحترام لقاء ما هي عليه حقًّا: تجسيدٌ لأفكار جيدة.

جين جيكوبز

(Jane Jacobs)

2006 - 1916



إن في المدن التي تثير مشاعر الحب في نفوس كثيرين منا (وتجعل بعضنا يخشاها) شيئًا مغريًا ومثيرًا. إنها مليئة بالجاذبية المتألّقة، وبالغرباء الساحرين، وباحتمالات لا نهاية لها من الأمور التي يصعب تخيّلها. لكن، وعلى الرغم من الهجرة الواسعة للعيش في المدينة في العصر الحديث، فإننا لم نتوصّل بعد إلى فهم المدن. ففي المدن أقسام كلها مفاجآت سارة، وأقسام مملة إلى حد مخيف - بل من الممكن أيضًا أن تكون تلك الأقسام خطيرة. إن من أهم الأشخاص الذين لا غِنى عنهم لفهم كيفية عمل المناطق الحضرية امرأة أمضت عمرها كله في شرح مدى تعقُّد المدن وأهميتها الحيوية.

ولدت جين جيكوبز سنة 1916 في مدينة سكيرانتون بولاية بنسلفانيا. كان أبوها طبيبًا، وأمها ممرضة. لم تعجبها المدرسة عندما كانت صغيرة، بل كانت تراها مملّة. كانت تحبّ أن تخبر صديقها المتخَيل، بنيامين فرانكلين، عن العالم الذي من حولها وعما جعله يصير على تلك الحال. لقد قالت في توضيح ذلك الأمر إن فرانكلين «كان مهتمًا بالأمور السامية؛ لكنه كان مهتمًا بالتوافه أيضًا، وبالتفاصيل الدنيوية البسيطة من قبيل الأمر الذي يجعل الزقاق الذي نسير فيه غير مُعبّد، ومن سيقوم بالعمل إن كان له أن «يُعبّد»». في وقت لاحق، سيجعلها هذا التفكير كاتبة عظيمة تعبّر عن أفكار عملية أمام مستمعين ليسوا من نسيج خيالها وحده مثلما كان الأمر في صغرها.

بعد تخرّجها في المدرسة الثانوية وعملها فترة وجيزة سكرتيرة من غير أجر في واحدة من الصحف، انتقلت مع شقيقتها إلى نيويورك إبّان ذروة الركود الكبير. وخلال البحث عن عمل، كانت جيكوبز تحب اختيار محطة مترو مختلفة تنزل فيها كل يوم، وذلك بحيث تكتشف حيًا جديدًا في كل مرة. وفي أحد الأيام، نزلت في محطة «كريستوفر ستريت» في «غرينويتش فيلدج» فوقعت في غرام الشوارع المتعرّجة التي تحف بها الأشجار. قررت أن تسكن ذلك الحي.

كانت أول وظيفة لها في نيويورك عملًا سكرتاريًا في مصنع للسكاكر. ثم عملت كاتبة وصحافية مستقلّة لصالح مجلات كثيرة. تلقت دروسًا في مواضيع مختلفة في «مدرسة التعليم العام» في جامعة كولومبيا. لكنها ظلّت ترفض التقيد بأي منهاج دراسي جامعي (كانت تفسّر ذلك دائمًا بالقول إن درجاتها أقل مما تقبله الكليات الجامعية؛ وهذا ما جعلها تتابع تعليمها بمفردها).

أتت الحرب العالمية الثانية، فعملت جيكوبز لصالح «مكتب المعلومات الحربية»، ثم لصالح مجلة «أميركا» التي تصدرها وزارة الدفاع. وهناك التقت روبرت الذي كان معماريًا. تزوجا بعد شهر من ذلك. وأنجبا ثلاثة أطفال.

انتهت الحرب، فتحوّلت جيكوبز إلى العمل مع مجلة أخرى هي «منتدى العمارة». كلّفتها المجلة بالكتابة عن مشاريع الإسكان الجديدة في فيلادلفيا التي كانت من تصميم إدمونت بيكون. أراد بيكون، على غرار معماريين كثيرين في ذلك الوقت، أن يجعل المدن الأميركية مراكز للحداثة تحيط بها طرق سريعة تسمح بمرور آلاف السيارات والشاحنات عبر المدينة... مدن تتوّجها ناطحات سحاب عالية، باهرة. وكانت تلك المشاريع تتلقى من الحكومة تمويلًا بالغ السخاء، وتعتبر ذات أهمية ضخمة (سوف تضع مجلة «تايم» صورة بيكون نفسه على غلاف واحد من أعدادها إشادة بالمساهمات التي قدّمها).

لكن جيكوبز ذهبت لكي ترى أعمال البناء الجارية في فيلادلفيا، ولكي تجري مقابلة مع بيكون. وهناك، قررت أن ما رأته لم يعجبها أبدًا. فعلى سبيل المثال، وجدت أن المشروع يبدو شيئًا حديثًا متألّقًا، لكن الشوارع التي من حوله خاوية كثيرًا بالمقارنة مع الشوارع القديمة. ليس مما يستهوي الناس كثيرًا أن يتجوّلوا في مشاريع الإسكان هذه، ناهيك عن العيش فيها. رأت جيكوبز أن المشكلة في قدر لا يستهان به من العمارة الحديثة -وفي التصميمات التي تشبه تصميمات بيكون خاصةً- هو أنها لا علاقة لها بما يحتاجه الناس. فالحقيقة أن هناك مشاريع كثيرة جدًا لم تكن أكثر من نتيجة لوفرة التمويل الحكومي ولفرط حماسة «المصلحين» الذين كان جهدهم منصبًّا على ملء جيوبهم. كان يجري تخريب المدن نتيجة التخطيط من الأعلى إلى الأسفل.

فاجأت جيكوبز محرري الصحيفة بموضوع سلبي عن مشروع الإسكان في فيلادلفيا. لكن انتقاداتها لقيت قبولًا حسنًا. ثم لم تلبث أن دُعيت في سنة 1956 لكي تلقي محاضرة في جامعة هارفارد. وهناك، تكلّمت عن الخطط الحمقاء الجارية من أجل التجديد الحضري في المدن الأميركية، وأهابت بمشاهير المعماريين أن «يحترموا -بأعمق ما في الكلمة من معنى مساحات الفوضى التي لها حكمتها الغريبة الخاصّة بها، تلك الحكمة التي لم يستوعبها بعد مفهومنا عن الانتظام الحضري». وقد كتبت في وقت لاحق مقالة بعنوان «مركز المدينة للناس» نشرتها مجلة فورتشن. ركّزت المقالة على معايب عدد كبير من خطط التطوير المديني. تقول جيكوبز في تلك المقالة محذرة: «ستكون لمدننا الخصائص كلّها التي نجدها في مقبرة محترمة معتنى بها جيدًا».

أعجب بعملها مركز للأبحاث في نيويورك اسمه «ذا نيو سكول»، فعرض عليها

وظيفةً لديه في حين أعطتها مؤسسة روكفلر منحة لكتابة دراسة نقدية عن التخطيط الحضري في أميركا، فكانت النتيجة كتاب «موت وحياة المدن الأميركية الكبرى» (1961). كان الكتاب نقدًا موسّعًا للمخططين الحداثيين العقلانيين، ولمعماري واحد على وجه الخصوص هو روبرت موسِس (1888 - 1981). كان موسس قد شق طريقه صعودًا عبر علاقاته في دوائر النخبة، فصار أكبر المخطّطين الحضريين في منطقة مدينة نيويورك، حيث كان استخدامه الذكي للأموال الناتجة عن الطرق مدفوعة الأجر لتمويل إنشاء الحدائق والمنتزهات والبحيرات والجسور والطرق السريعة. لا تزال ممكنة رؤية تصميماته في أنحاء مدينة نيويورك. كتبت جيكوبز أن موسس وزملاءه من المصممين كانوا مثل أطفال يلعبون بالمكعبات. إنهم يصنعون أبراجًا ضخمة ثم يصيحون فرحين: «انظروا ماذا صنعت!»، لكن من غير إدراك أن ما صنعوه ليس إلا فوضى اجتماعية. ففي رأي جيكوبز لم تكن نظرياتهم في التخطيط إلّا علمًا زائفًا.

فلماذا جرى التفكير في تلك المشاريع الفظيعة؟ لأنها كانت نتيجة التفكير الخاطئ في ما يحتاجه الآخرون. وأقل ما يقال فيها إنها مفتقرة إلى السحر والأصالة اللذين قالت جيكوبز إنهما مما يلزم الروح. لقد كتبت عن واحد من المباني في سان فرانسيسكو: «نظرة يلقيها المرء على معبد بوذي أحسن من ذهابه إلى محلّل نفسي».

أخيرًا، كانت هذه كلّها مشكلة اجتماعية تُدين نفسها بنفسها، بحسب رأي جيكوبز؛ وذلك نتيجة الفكرة القائلة إن منطقة بعينها فيها مبانٍ قديمة أو شوارع مزدحمة ليست إلّا حيًا فقيرًا مكتظًا امتصّت المصارف خيراته ثم لم تعد راغبة في استثمار المال في تلك المناطق من أجل الإصلاحات والتجديدات البسيطة القادرة فعلًا على تحسين حياة المدينة. عرضت جيكوبز في كتابها بديلًا عن التصميمات العملاقة الخالية من أي إحساس بالمودة، كتلك التصميمات التي أتى بها مصمّمون من أمثال موسس. كتبت قائلة إن الطريقة المثلى لرؤية ما تحتاجه المدينة هي النظر إلى طريقة استخدامها -فعليًا من قبل البشر. قالت: «إذا خرجت ومشيت، فسوف ترى دلالات كثيرة أخرى. لماذا يكون في مركز المدينة هذا الخليط من الأشياء؟ ما الذي يجعل العاملين في مكاتب شارع بارك أفنيو الجميل في نيويورك يغادرونه عند أول منعطف قاصدين شارع ليكسنغتون أو ماديسون آفنيو؟ ولماذا نجد المطاعم الجيدة -عادة- في المباني القديمة؟ ولماذا نجد المباني غير المرتفعة أميل إلى أن تكون مزدحمة بالمقارنة مع المباني المرتفعة؟».

رأت جيكوبز أن ما يجعل المدينة -في آخر المطاف- مدينة ناجحة، هو تنوّعها، وتعدد مشاربها، وكذلك القرب الذي يسمح لأولئك الناس المختلفين كثيرًا، ولتلك

الشركات المختلفة والجماعات البشرية المختلفة، بأن تكوّن معًا نسيجًا واحدًا يجمعها. تصل جيكوبز آخر الأمر إلى أن المدينة المصنوعة من أجل الناس، المدينة التي تحمي الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية لسكانها، هي المدينة التي تجعلهم سعداء، مرتاحين؛ وهي المدينة التي تقدم للناس ما يحبونه في المدينة فعلًا. لقد ظلّت مصرة على السؤال التالي: باختصار، هل ستكون المدينة ممتعة؟ المدينة «الممتعة» في نظر جيكوبز في حاجة إلى «مولّدات التنوّع» الأربعة التالية كلها. ولعل من الممكن أن تكون هذه «المولدات» نقاط علام في تخطيط المدن:

1 - ينبغي أن تكون المدن مثل الأنظمة البيئية

وصفت جيكوبز المدينة المثالية بأن فيها «استخدامات أولية مختلطة» بمعنى أنها ينبغي أن تكون سكنية وتجارية في كل منطقة من مناطقها. وفي الحالة المثلى، ينبغي أن يستمر النشاط في كل مبنى طيلة اليوم، هذا لأن الحركة والنشاط هما ما يجعل المدن أماكن حيّة يحب الناس أن يعيشوا فيها. فالمدن تكاد تشبه ساعة الغداء في حياة الإنسان على الأرض: إنها المكان الذي تجري فيه التبادلات الأكثر نشاطًا وحماسةً واتسامًا بالصفة الاجتماعية حيث تتشكّل العلاقات الجديدة. (في الواقع، كانت من أهم حجج جيكوبز في معرض إقامة الدليل على أن المناطق المختلفة في حاجة إلى أنواع مختلفة من الاستخدامات هي أنه -في منطقة من المناطق، يمكن لمباني المكاتب ودور السينما والمسارح أن توفّر للمطاعم نشاطًا مستمرًا في فترتي الغداء والعشاء معًا). وحتى تستفيد المدن استفادة مثلى من إمكانياتها، ينبغي أن يعيش أشخاص مختلفون وأعمال مختلفة في تقارُبٍ مباشر حتى تتواصل «التبادلات» بينهم طيلة ساعات اليوم.

2 - ينبغي أن تكون مباني المدينة قليلة الارتفاع

تمنح المباني قليلة الارتفاع الناس مزيدًا من زوايا الشوارع. وهذا أمر حسن لأنه يتيح لهم عددًا أكبر من المسالك بين نقطة وأخرى، وعددًا أكبر من فرص اكتشاف أماكن جديدة ولقاء أشخاص جدد. وأيضًا، تعني المباني قليلة الارتفاع إتاحة مزيد من الحيّز في الطوابق السفلية من أجل الأعمال.

3 - ينبغي وجود مزيج من المباني القديمة والمباني الجديدة

هذا لأن المباني القديمة قد سدّدت كلفة الإنشاء منذ زمن بعيد فصارت تكلفة الإيجارات فيها أقل. وهذا ما يتيح للناس وللشركات الأضعف حالًا فرصة للعيش والعمل بدلًا من قسرهم على ترك المنطقة؛ لأن هذا ما يحدث عند إجراء تجديد يشمل

منطقة كاملة. يمكن السماح بوجود عدد أقل من المباني الجديدة بغية اجتذاب بشر وشركات أكثر ثراء. كانت جيكوبز مقتنعة بوجوب أن يكون كل حي مزيجًا من القديم والجديد لأن هذا -ببساطة- يحول دون أن تصير المنطقة «ثرية» أو «فقيرة»، ويشجع بشرًا ذوي أوضاع اجتماعية مختلفة على العيش معًا في مكان واحد.

4 - ينبغي أن تكون المدن كثيفة

كان معماريون من أمثال موسس ولو كوربوزييه (1887 - 1965) يقولون بمنافع الشوارع العريضة والمنتزهات المفتوحة الواسعة. لكن جيكوبز كانت في خلاف عميق مع هذه الآراء. ففي رأيها، ينبغي أن تكون الشوارع أماكن تسمح بأن يلتقي الناس فيها، أماكن يصادف فيها المرء، بالمعنيَيْن الحرفي والمجازي، أمورًا جديدة. إن الساحات الضخمة والمناطق المخصصة للشركات والأعمال تدمر هذا الاحتمال. كانت جيكوبز مصرة على أن الفكرة من إعادة تصميم المدن هي... «الفكرة كلّها هي جعل الشوارع أكثر تراصًّا، وأغنى بالمفاجآت، وأكبر تنوّعًا، وأشد ازدحامًا من ذي قبل - لا أن نقلل هذه الأمور كلها».

ثم إن جيكوبز كانت مقتنعة بأن الكثافة جزء مما جعل المدن تظل أماكن آمنة. ففي الأحياء الكثيفة ذات المباني قليلة الارتفاع، يعرف المرء كل شخص من حوله، ويعرف ما يكون حدوثه عاديًا أو غير عادي (هذه المعرفة جزء مما دعته «رأس المال الاجتماعي»). نتيجة هذا، يكون للحي ما دعته جيكوبز «أعين على الشارع»، أي آلية أصيلة للسلامة والانتباه الجمعيَّيْن. وأما في مدينة مكوّنة من ناطحات سحاب عملاقة، فقد كتبت جيكوبز قائلة: «لا يعود أحد... حارسًا لأخيه». إن هذه التصميمات المدينية تدمّر طبيعة المدن نفسها، وتجعلها تفقد «دم الحياة» الذي هو العشرة الاجتماعية والاعتماد المتبادل بين الناس.

لم تكن جيكوبز أول شخص يحمل هذه الآراء، لكنها كانت ممن عبّروا عنها بطريقة وجيزة بالغة الوضوح. وقد كانت خصمًا عنيفًا جدًا للتطوير المديني في منطقة عيشها في نيويورك، أي غرينتش فيلدج، خلال عقدي الخمسينيات والستينيات. لقد وجد روبرت موسس طريقه إلى تلك المنطقة آملًا أن يهدم القسم الأكبر من الحي ويحوله إلى واحد من الطرق السريعة الجديدة، «طريق مانهاتن السفلى السريع». اشتمل ذلك المشروع على «إزالة الحي المكتظ الفقير»، مما كان يعني إزالة مئات البيوت السكنية ومقرات الأعمال لكي تحلّ محلها أبنية مرتفعة. وكان مقررًا لهذا المشروع أن يهدم بيت جيكوبز نفسه، ذلك البيت الذي جدّدته بعناية مع زوجها. نتيجة ذلك، استعانت

جيكوبز بشخصيات ذات الشهرة الواسعة، من أمثال مارغريت وايلد وإليانور روزفلت من أجل مقاومة هذا المشروع. وبعون من السكان ووسائل الإعلام، انتهى الأمر بإلغاء خطط موسس.

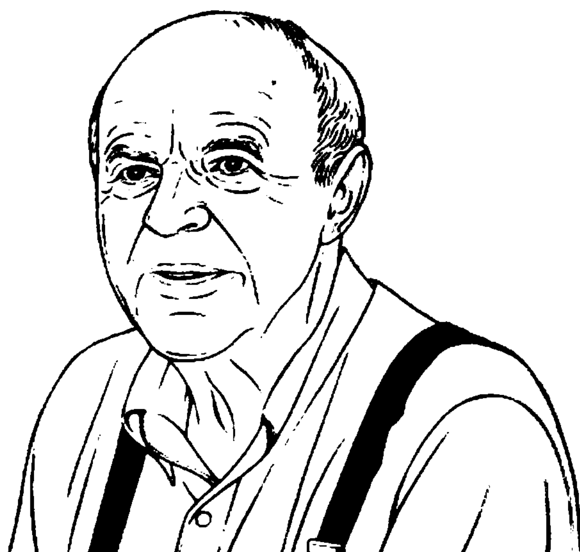
صارت جيكوبز بطلة محلية، لكنها اعتقلت في نيسان 1968 بعد اتهامها بإثارة الشغب في اجتماع عام عقد لمناقشة المشروع. وعلى الرغم من تبرئتها من القسم الأكبر من التهم التي وجهت إليها، فقد انتقلت إلى كندا بعد فترة وجيزة. كان قرارها بأن تغادر الولايات المتحدة ناتجًا في جزء منه عن إحباطها وغضبها مما يجري في مدينة نيويورك؛ وقد رمى في جزء آخر منه إلى تجنيب ولديها المراهقين السَّوْق إلى الخدمة في الجيش خلال حرب فيتنام. وسرعان ما تابعت جيكوبز المسار نفسه في تورنتو حيث صارت شخصية بارزة في المساعي الرامية إلى اعتراض مشروع إقامة واحد من الطرق السريعة (كانت من جملة مقولاتها الشائعة طرح السؤال: هل تبنى المدن من أجل الناس أم من أجل السيارات؟). وقد أطلقت حملة من أجل إعادة إحياء حي سان لورانس. ونجح هذا المسعى واستحق إشادة واسعة باعتباره نجاحًا عظيمًا في ميدان إعادة تخطيط المدن.

كانت لجيكوبز قناعات سياسية قوية. لم تقتصر حياتها على الدعوة إلى تخطيط حضري أفضل، بل إلى أجر متساوٍ للنساء، وإلى الحق في التنظيم النقابي. رفضت عدة شهادات فخرية من قرابة ثلاثين مؤسسة؛ وكانت تصرّ دائمًا على أن تعزو الفضل إلى الناس المشاركين في الاحتجاجات. صدر كتابها الأخير «عصرٌ مظلم أمامنا» قبل وقت قصير من موتها في العام 2006؛ وقد حمل فرضية متشائمة عن تدهور حضارة أميركا الشمالية وانحدارها؛ إذ رأت أنه خطر ماثل نتيجة الرأسمالية المفرطة وقلّة الاهتمام بالتعليم وبالجماعات البشرية المحلية. يمكن القول باختصار إنها عملت دائمًا من أجل الدفاع عن الحياة الحديثة في وجه «الإصلاحات» التي تجعل هذه الحياة أكثر سوءًا.

ساي تومبلي

(Cy Twombly)

2011 - 1928



يظلّ الفنّ المجرَّد مثيرًا لقدر من الضيق، ولقدر مماثل من الحيرة. نحن نعرف هذه اللوحات: لوحة قماشية كبيرة، بيضاء، خالية؛ وتحت منتصفها خط وحيد بلون أزرق داكن! بقعة من طلاء قرمزي على خلفية صفراء! عشر عوارض فولاذية في كومة عشوائية! ما معنى هذا؟ هل هناك من يسخر منا؟ حتى الأطفال لا يصعب عليهم أن...

حتى نتخذ وجهة نظر أكثر تفهّمًا (من الممكن أن تكون أيضًا أكثر دفعًا وإنصافًا) علينا أن نعود إلى المبادئ الأولى، وأن نطرح السؤال التالي: ما الأمر الحسن في عدم إظهار الأشياء كما تبدو فعلًا؟ إن الغاية المركزية في الفن التجريدي هي الوصول إلى المشاعر وصولًا مباشرًا وتجاوز تمثيل الواقع. وعلى غرار الموسيقى، فإن أفضل تفسير للفن التجريدي هو أنه يردّد أصداء بعض من أمزجتنا وحالتنا الداخلية، أو أنه يعطيها شكلًا. قد يكون بعض هذه المشاعر واضحًا نسبيًا، وذلك من قبيل «الهدوء» أو «الغضب»؛ في حين يظل بعضها الآخر ممتنعًا على التعريف اللغوي السهل. من هنا، لا يكون من المفيد كثيرًا أن نقول: لا تبدو هذه اللوحة شبيهة بأي شيء! صحيح أنها ليست شبيهة بأي شيء في العالم الخارجي؛ لكن هذا لأن الغاية منها أن تكون تمثيلًا للعالم الداخلي. ينبغي أن نسأل: ما الإحساس الذي يخلقه هذا العمل فينا؟ هل يستحضر أيًا من حالاتنا الانفعالية؟ أيُّ مشهد من المشاهد الداخلية لدى الإنسان مُستحضرٌ هنا؟

وُلد الفنان التجريدي الكبير، ساي تومبلي سنة 1928 في مدينة لكستنغون الجميلة المعروفة بالنزعة المحافظة الشديدة. إنها مدينة في ولاية فرجينيا الأميركية. كان أبوه لاعبًا في فريق البيسبول «شيكاغو وايت سوكس» - بتعابير هذه الأيام، يعادل ذلك أن يكون المرء لاعبًا في فريق كرة قدم من الدرجة الأولى. كان اسم الفنان إدوين باركر تومبلي، لكنه صار يدعى «ساي» تيمّنًا باسم واحد من أبرز اللاعبين في تاريخ البيسبول: ساي يونغ. ذهب إلى مدرسة دارلينغتون التي كانت مدرسة خاصّة، ممتازة، باهظة التكلفة. ثم ذهب لدراسة الفن في نيويورك أوائل عقد الخمسينيات، وأعقبت ذلك جولة حول البحر المتوسط استمرت سنة كاملة. لقد غيرت هذه الرحلة حياته. وجد لنفسه صديقة أرستقراطية، وانتقل للعيش في روما حيث استهلّ أسلوبه الفني المجرّد الذي صار علامة بارزة.

لم يهجر تومبلي المنطق، ولم يتركه خلفه. كان شديد الإحساس بدروس الفن

الروماني وفن عصر النهضة. لكن ما أراد فعله هو إعطاء الحالات الداخلية عند الإنسان شكلًا مرئيًا، تمامًا مثلما أراد كبار المعلمين القدامى تمثيل حالاتنا الخارجية.



ساي تومبلي، «أكاديمي»، 1955

ولنأخذ مثالًا على ذلك لوحته «أكاديمي» التي رسمها سنة 1955، وهي الآن في متحف الفن الحديث في نيويورك. لا نستطيع رؤية خطوط اللوحة رؤية واضحة، لكنها تملأ اللوحة كلها كأنها نص غامض مكتوب على لوح. نجد أنفسنا في لحظة الوجود على وشك حدوث أمر ما. نجد أننا على أهبة الفهم، لكننا لم نفهم بعد.

عمل تومبلي شبيه بمرآة مصمَّمة خصيصًا لكي تعكس جزءًا من حياتنا الداخلية؛ مرآة مصنوعة قصدًا حتى تسترعي الانتباه إلى تلك الحياة وتجعلها أكثر وضوحًا وأسهل تحديدًا. يكاد هذا العمل يكون شبيهًا بما تحسّه عندما تُقارب معرفة رأيك الحقيقي في أمر من الأمور، لكنك لا تبلغ تلك المعرفة تمامًا. إنها تُصوّر لحظة في الحياة التأمّلية، لحظةً موحية بالتطلع والتشوّش معًا.



ساي تومبلي، «هيرو وليندرو»، 1985

لا ينبغي لنا أن نشعر بالدهشة عندما نعرف أن تومبلي كان من محبي الفن الذي يمثّل الأشياء تمثيلًا حقيقيًا واضحًا. لقد كان فنانه المفضل الرسام توسان الذي عاش في القرن السابع عشر (كان من سكان روما أيضًا)، لكنه أراد فعل شيء آخر في أعماله: يشير اسم لوحة «هيرو وليندرو» إلى رجل وامرأة في الدراما الكلاسيكية الإغريقية. كان ليندرو يسبح كل ليلة ثلاثة كيلومترات مجتازًا خليج هيلسبونت -الدردنيل حاليًا حتى يرى محبوبته (حاول اللورد بايرون فعل ذلك بدوره؛ وهناك الآن نادٍ يحمل اسمه). لكن تومبلي لا يحاول جعلنا نرى الماء المتقاطر من جسد ليندرو، ولا صورة الأمواج في ضياء القمر الخدّاع، مثلما كان يمكن لتوسان أن يرسم هذا المشهد. بدلًا من ذلك، صنع لوحةً لما يمكن أن يكونه الشعور بالحب -لعله الشعور بمعرفة أن الشخص الذي تحبّه يبذل جهدًا كبيرًا حتى يصل إليك، أو لعلّه إحساسك بأن شخصًا تحبّه ينتظر لقاءك بكلّ شوق. إنه عمل من أعمال الدراما والعاطفة... عمل يُري من غير أن يُظهِر. ينظر المرء إلى سطح اللوحة المتموّج، الناعم، المتداخل، فيجد نفسه مشدودًا إلى إحساس ثمين؛ إنه إحساس... إحساسٌ بثمن الحب.

كانت حياة تومبلي العملية مكرّسة لإنتاج لوحات تصوّر الحياة الداخلية علّنا نتعلم كيفية إيصال ثمارها إلى أشخاص آخرين. يعرف الناس جميعًا صعوبة جعل الآخرين يشاركوننا تجاربنا. من الممكن أن تبدو الكلمات خرقاء إذا حاولت القيام بهذه المهمة.

ومن الممكن جدًا أن يقول واحدنا لصديق حميم: «في داخلي، أشعر هكذا، بعض الشيء». فيفهمه صديقه.

إلى جانب الرسم التجريدي كان تومبلي ميّالًا إلى محاولة كتابة نصوص صغيرة تبدو شديدة البساطة.

تشبه نصوصه ملاحظات يكتبها المرء لنفسه -كلمات مكتوبة كيفما اتفق على ظهر تقرير لشركة من الشركات- عبارة أو فكرة تخطر في ذهن المرء لكنه لم يحدّد معناها بعد.

يبدو ذلك أشبه بكتابات جدارية - أشبه بشيء مكتوب على عجل على جدار بيت واحد من الجيران... بغية الإساءة إليه، أو بغية التعبير عن مشاعر ضد المجتمع. واما بين يدي تومبلي، فإن ذلك الاستعجال، تلك الحماسة، ذلك الحب، ذلك الإقدام على المخاطرة، ذلك الاستعداد لتوجيه إهانة وإثارة الاضطراب في التطلعات المريحة لدى الناس - كلها مستخدمة باسم الرعاية الحكيمة للتطور الذاتي الحقيقي لتوسعة الروح والارتفاع بها (تلك الأشياء كلّها التي تختصرها عبارته المعروفة «غوته في إيطاليا»). هذه تذكرة بما ينبغي أن نفكّر فيه، وبما ينبغي أن ننتبه إليه؛ وهي أمر أكبر كثيرًا من الشعارات والأسماء التجارية التي نراها على الدوام وتستلفت انتباهنا.

مات ساي تومبلي سنة 2011 في روما التي أحبّها كثيرًا. كان في الثالثة والثمانين - وقد عاش إلى أن رأى أعماله تحظى بمكانة وتقدير كبيرين لدى من كانت آراؤهم موضع احترام لديه.

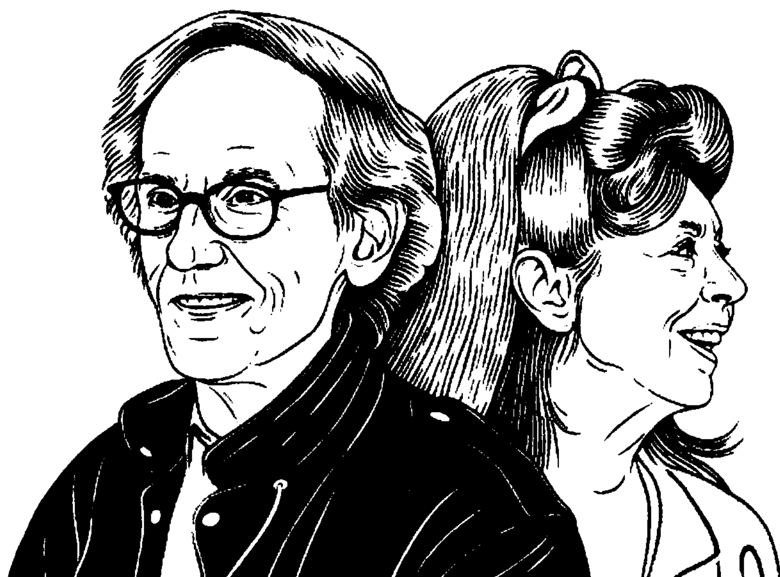
تتحدّث لوحاته، في وقت واحد، عن لا شيء وعن كل شيء مما هو شديد القوة والخصوصية، بحيث لا يستطيع إيصاله إلى الآخرين على الرغم من شدة أهميته في داخلنا. سوف يظلّ عمله باقيًا مثلما ستظل باقية أعمال عدد من فناني روما العظام الذين كان معجبًا بها كثيرًا.

كريستو وجان كلود

(Christo And Jeanne - Claude)

كريستو، مواليد 1935

جان كلود، 1935 - 2009



عادة ما يصنع الفنانون أشياء صغيرة جميلة. إنهم يبذلون الجهد بغية جعل بضعة إنشات مربعة من القماش شيئًا بالغ الجمال، أو بغية نحت حجر واحد وصولًا إلى شكله الأكثر تعبيرًا.

وعلى امتداد قرون كثيرة كان المقاس الأكثر شيوعًا للأعمال الفنية محصورًا بين ثلاث أقدام وست أقدام. وبينما كان الفنانون يعبّرون عن رؤاهم على هذه المساحة، كانت المشاريع ذات الحجم الكبير تصير كلها من نصيب الحكومات أو من نصيب مُطوّرين من القطاع الخاص - لكن ما لدى الحكومة والمطوّرين من تطلعات وطموحات أقل كثيرًا مما لدى الفنانين. كثيرًا ما تنتج الحكومات والسوق الحرة أشياء كبيرة قبيحة الشكل.

نحن على معرفة جيدة جدًا بهذا التفارق الذي نجد أنفسنا غير ميالين أبدًا إلى التفكير فيه. ننظر إلى هذا الاستقطاب كأنه حقيقة من حقائق الطبيعة لا سبيل إلى الفرار منها، ولا نراه على حقيقته: فشل ثقافي.

وبسبب من هذا الفشل، يبرز الفنانان كريستو وجان كلود ويكتسبان أهمية كبيرة. يدلنا كريستو وجان كلود على سبيل الوصول إلى نوع جديد من الفن، وإلى نوع جديد من الحياة العامة. كريستو وجان كلود فنانان لديهما طموح كبير متّجه إلى تحدي فكرة أن على الفنانين أن يعملوا على نطاق صغير جدًا: إنهما حريصان على إنتاج أعمالهما على نطاق صناعي واسع.

كان الفنانون الآخرون يجرون تجاربهم الفنية على نطاق أكثر اتساعًا؛ وكانوا يخاطبوننا بقدر أكبر من الخصوصية والحميمية. لهذا، فإن الأمر المتميّز والمهم لدى كريستو وجان كلود هو رغبتهما في صنع فن قادر على ملء مساحات كبيرة كانت فيما مضى مرتبطة بالمطارات والطرق السريعة والمتاجر الكبرى ومناطق الصناعات الخفيفة ومحطات القطارات الكبرى والمصانع وحدائق التكنولوجيا.

بدأ كريستو وجان كلود استكشاف أثر أداء العمل على أشياء كبيرة حقًا منذ سنة 1961، وذلك في منطقة كولاجين حيث قدما عمليهما «*Dockside Packages*» و«*Stacked Oil Barrels*». وفي سنة 1967 – 1968، قاما للمرة الأولى بتغليف مبنى بالقماش: إنه مبنى «Kunsthalle Bern» في سويسرا. ثم تابعا دفع هذه الفكرة قُدمًا

عندما غلّفا بالقماش منطقة كاملة من شاطئ البحر في أستراليا. وبعدها، علّقا ستارة برتقالية عملاقة عبر وادي كولورادو قبل أن يُحيطا عددًا من الجزر في خليج بيسكاين، في قلب ميامي، بستة ملايين ونصف مليون قدم مربعة (أي 60870 مترًا مربعًا) من قماش عائم وردي اللون حيك من خيوط البوليبروبيلين.



الجزر المحاطة، خليج بيسكاين، ميامي الكبرى، فلوريدا، 1983

وبعد ذلك، غلّفا «الجسر التاسع» في باريس، سنة 1991، وزرعا - في مشروع قاما به في الوقت نفسه - 3100 مظلّة على امتداد واديين، واحد طوله 18 ميلًا في الولايات المتحدة الأميركية، والآخر طوله 12 ميلًا في اليابان. وفي سنة 1995، نفّذا في ألمانيا مشروعًا ذا أهمية رمزية: حجبا الرايخستاغ الألماني الذي هو المقر التقليدي للسلطة الوطنية، وهو أيضًا مركز ذكريات مؤلمة كثيرًا لارتباطه بصعود الحزب النازي في ألمانيا. وقد اعتُبر هذا الحدث كلّه فعلًا رمزيًا من أفعال التجدد الوطني.

لقد تجاوز كريستو وجان كلود العمارة التقليدية، التي تعتبر الرتبة النموذجبة التالية بعد الفن، تجاوزًا كبيرًا: لقد احتلا مكانًا يحتله عادة المخططون أو المهندسون المدنيون عندما ينشئون محطة حاويات، أو يحتله معماريو المساحات العامة عندما يقيمون منتزهًا حول مدينة من المدن.

من الممكن أن يبدو كريستو وجان كلود شديدَيّ المَيل إلى الابتكار والتجديد، لكن فكرتهما عن الفن تقليديةٌ إلى حدٍّ كبير، بطريقة ما. إن ما يعنياه بالفن هو صنع أشياء جميلة. قد يُغلّفان الأشياء بالقماش، أو يحيطانها به، لكن ما يقود خطواتهما هو البحث عن سبل تجعل العالم أكثر جمالًا. كل ما في الأمر هو أنهما لا يريدان لهذا الأمر

أن يكون مقتصرًا على مساحة قصيرة. لقد كان هائلًا حجمُ جهدهما الرامي إلى جعل العالم جميلًا... وكان مبعث إلهام.



الرايخستاغ المغلّف بالقماش، برلين، 1995

كانت «ستارة الوادي» التي تلتقط ضوء الشمس مرئية من مسافة أميال. وقد تجوّل ملايين الناس في منتزه «سنترال بارك» في نيويورك بعد إعادة تكوينه بطريقة ساحرة.

ولعل أكبر ما فعله كريستو وجان كلود هو إشارتهما إلى وجهة المسار الذي لن ينتهي ولن يتوقّف عند الأمور العظيمة التي أنجزاها.

الخطوة المفتاح هي عدم الاقتصار على تخيل شيء رائع، بل وجوب التوصّل إلى طريقة تجعل ذلك الشيء المتخيّل حقيقة واقعة. فبدلًا من تصوُّر بثّ حياة جديدة في سنترال بارك، بثّ كريستو وجان كلود فيه حياة جديدة. وبدلًا من تخيّل إقدام ألمانيا على تجديد مشاعرها إزاء المركز التاريخي لحكومتها، +فعلا ذلك. وذلك لأن المهمّة المثلى للفنان ليست مقتصرة على الحلم بعالم أفضل، أو على التشكّي من مظاهر الفشل الحالية (مع أن للأمرين قيمتهما)، بل هي العمل الفعلي على جعل العالم أكثر جمالًا وأناقة.

هوية الفنان هي الهوية الأولى لكريستو وجان كلود. لكنهما أرادا العمل الفعلي على نطاق واسع، فكان لا بد لهما من استخدام مهارات كثيرة مما هو مرتبط تقليديًا بعالم الأعمال... مهارات نعتبرها واقعة ضمن مجال نشاطات رواد الأعمال.

كان على كريستو وجان كلود أن يتفاوضا مع مجالس المدن، ومع الحكومات، وأن

يضعا خطط المشاريع، وأن يرتّبا أمر التمويل على نطاق واسع، وأن يستفيدا من وقت ومواهب مئات الأشخاص، بل آلاف الأشخاص في بعض الحالات، وأن ينسّقا جهودًا كبيرة ويتعاملا مع ملايين المستخدمين أو الزوار. وخلال ذلك كلّه، كان عليهما أن يظلّا متمسكين بتطلعاتهما الرفيعة النابعة من كونهما فنانَيْن.



البوابات، سنترال بارك، مدينة نيويورك، 2005

فوق هذا كله -وهذا أمر حاسم الأهمية- تمكّن كريستو وجان كلود من النجاح في تحقيق أرباح أثناء فعل هذا كله. لم يكن الربح هدفًا أولَ لهما. لكن الربحية تعني إمكانية الانطلاق إلى المشروع التالي (لم يتلقيا أبدًا أيّ تمويل حكومي أو خاص). لقد جنى كريستو وجان كلود ثروة مما كانا يفعلانه.

وقد كان أسلوب جنيهما للمال ساحرًا: يموّلان المشروع عن طريق بيع مخطّطاته ورسوماته. كان هذا شبيهًا بان يموّل أفلاطون الدولة الجديدة التي أرادها عن طريق بيع نسخ من كتابه «الجمهورية» (لكن كريستو وجان كلود، على العكس من أفلاطون، جعلا اليوتوبيا التي أراداها أمرًا واقعًا).

إن كريستو وجان كلود مثال بالغ الأهمية على فكرة حاسمة مفادها أن خلق الجمال ليس رفاهية تجارية على الإطلاق، بل من الممكن جدًّا أن يكون دعامة مركزية من أجل تجارة جيّدة. إنهما يشيران لنا إلى مثل هائل: إذا أمكن أن يصير صنع شيء جميل سبيلًا رئيسيًا إلى زيادة ثروة المساهمين، فإن قوى الاستثمار الهائلة ستبدأ باتخاذ الوجهة الصحيحة.

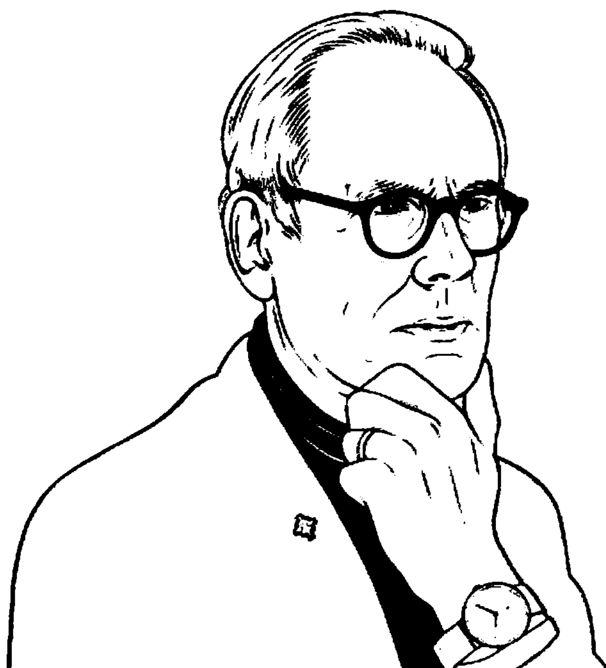
يرينا كريستو وجان كلود أن على الفنانين -في الحالة المثلى- أن يتشرّبوا أفضل ما في عالم الأعمال من خصائص. فبدلًا من رؤية تلك الخصائص خصمًا لما يناصره الفنانون، ينبغي النظر إليها على أنها قدرات تمكينية كبرى قادرة على مساعدة الفنانين في إنجاز مهمّتهم في تجميل العالم مقتفين خطى كريستو وجان كلود. وفي المستقبل، من الممكن أن يمضي الفنان في الدراسة في «مدرسة وارتون للأعمال» أو في «INSEAD» وقتًا لا يقل عما يمضيه في «الكلية الملكية للفنون».

لم يبنِ كريستو وجان كلود مطارًا، ولا متجرًا ضخمًا، ولم يخطِّطا مدينة جديدة - لكن من سيسيرون على نهجهما سيفعلون ذلك.

ديبتر رامز

(Dieter Rams)

مواليد 1932



ديتر رامْزْ واحد من أعظم من عرفهم العالم من مصممي الأشياء اليومية. لو عاش في زمن آخر، لانصبَّ نشاطه العقلي على صنع تماثيل من أجل مذابح الكنائس، أو موازين دقيقة من أجل تجّار الألماس؛ لكنه كرّس نشاطه من أجل صنع آلات حاسبة، ورفوف، وكراسي مكتبية، وأجهزة تلفزيون، وأجهزة راديو، وساعات، وآلات حلاقة، وآلات تسجيل، وخفّاقات بيض، وعصّارات فاكهة، وكاميرات فيديو، وآلات حلاقة كهربائية... وقد أنتج هذه الأشياء كلها بعناية وجمال.

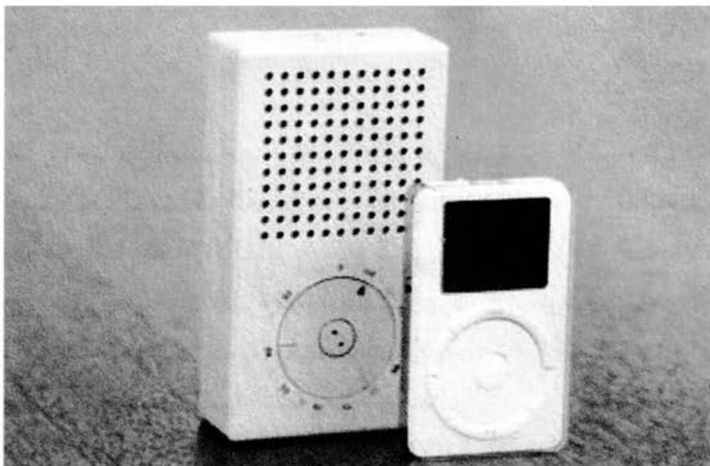
كانت حياته العملية نجاحًا استثنائيًا؛ فقد كبرت شركة براون التي بدأت تصنع في ألمانيا أجهزة راديو متوسطة الحجم وصارت عملاقًا عالميًا في مجال إنتاج السلع الاستهلاكية. ولما كان رامز مدير التصميم في الشركة، فقد وصلت ثمار عمله إلى مئات ملايين البيوت. تعاملت شركة آبل مع عمله بحماسة، واستوحت تصميم راديو الجيب t3 من أجل صنع أول جهاز آيبود لديها.

فما الذي يجعل تصميم السلع الاستهلاكية أمرًا مهمًا؟ جزئيًا، لأن الأشياء ذات التصميم السيئ تُبطئنا وتحزننا - الخزّازة التي لا تعمل، وكيس الجوز الذي لا ينفتح، وجهاز تحكم التلفزيون الذي يستحيل فهمه. هذه كلها حالات من سوء التواصل وضعف تفهّم الحاجات. ثم إن التصميم السيئ يثير الحزن أيضًا بالنظر إلى الثمن الذي يفرضه على كوكبنا. فمن الممكن أن تبدو الرأسمالية الحديثة منهمكة بإمطار العالم بسِقْط المتاع، وبسلع ينتهي الكثير منها إلى العوم في المحيط الهادئ حيث تختنق بها النوارس والسلاحف البحرية.

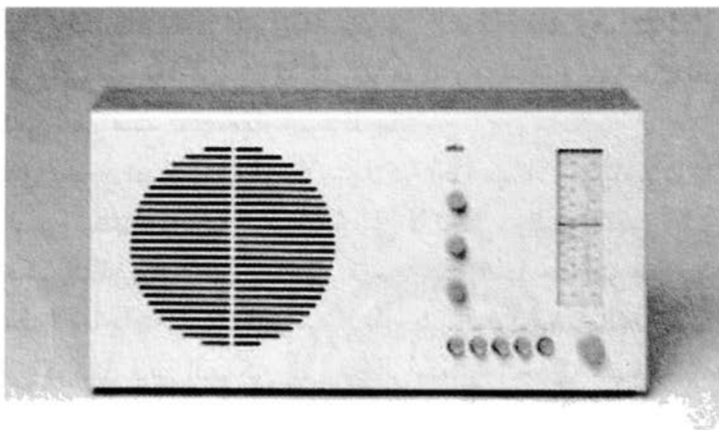
يُرينا رامْزْ أن على الرأسمالية ألّا تنتج سلعًا متدنّية الجودة؛ فعمله وحياته دليل إلى القيم التي يجدر بنا وضعها في مركز حياتنا وأعمالنا. يمكننا استخلاص خمسة دروس مهمة من عمله:

1 ـ قيمة البساطة

أراد رامْزْ دائمًا اختزال كل شيء إلى بضعة أمور مهمة أكثر من غيرها. تستطيع رؤية هذا في تصميم واحد من منتجاته الأولى: إنه راديو الطاولة rt 20. استلهم رامز هذا التصميم من غرامافون SK Phonosuper الذي عمل عليه في وقت سابق مع هانز غوجيلوت. يمكنك رؤية أوجه التشابه بين القطعتين عندما توضعان جنبًا إلى جنب.



استوحى آيبود تصميمه من راديو الجيب T3



راديو RT 20 الذي صمّمه دييتر رامْزْ، وصنعته شركة براون، ألمانيا، 1963

هناك أشياء كثيرة كان ممكنًا إدراجها في هذا الراديو: يستطيع المرء إضافة المزيد من الشاشات ومفاتيح التحكم، وإدخال مُنبّه، وسلك للتوصيل إلى مضخّمات صوت أكبر حجمًا، وهكذا دواليك. لكن رامز ذهب في اتجاه معاكس. لقد ضحّى بأمور لها قيمتها، لكنها ليست أولوية، حتى يحقّق بساطة التصميم.

البساطة مهمّة جدًا لأن حياتنا متشابكة كثيرًا، ولأن ما نعيشه من خيارات كثيرة يُثقل علينا دائمًا. وأما عندما نرى البساطة، فنحن ندرك أننا نجد فيها قيمة. إلّا أن في حياتنا مسارات كثيرة أخرى تجعلنا نلمس صعوبة، بل حتى نعاني حرَجًا يمنعنا من أن نكون بسيطين. إذا جرت ترقيتي إلى وظيفة مدير، فقد أشعر بأن من غير المناسب أن أتجوّل هنا وهناك

مستخدمًا قلم حبر جاف. ومن الممكن أن يشعر أحدُنا بحاجة إلى أن «يكبّر» قليلًا ذلك التقرير الذي يُعدّه في عمله حتى إن كان كل ما يريد قوله قابلًا لأن يصاغ في فقرة واحدة.

قد تتوق ذواتنا الحقيقية -سرًّا إلى شيء أساسي هو البساطة نفسها؛ لكن من الممكن أن نكون قد فقدنا تواصلنا مع أنفسنا إلى حد يجعلنا نشعر بالغرابة إذا سعينا إلى ما تريده؛ ففي مطعم غالٍ كثيرًا، يشعر المرء بضغط يدفعه إلى طلب طبق مُعقَّد حتى إذا كان راغبًا -في أعماق نفسه- بأن يكتفي بالجبن والخبز المحمّص.

كونك بسيطًا يجعلك تشعر بالهشاشة والضعف. لكن البساطة إنجاز حقيقي - إنها نتيجة الوضوح في شأن ما هو مهمّ حقًا، ذلك الوضوح الذي لا يكون إلّا ثمرة نضج وتجارب صعبة.

2 ـ قيمة التواضع

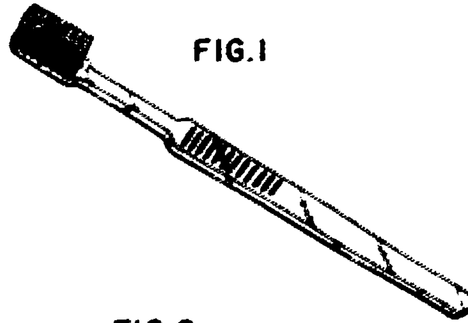
عندما صمَّم رامْز فرشاة أسنان، أمضى عدة أسابيع في التفكير وفي إجراء تجارب بغية تحديد نسبة طول المقبض إلى شعر الفرشاة، ونسبة العرض إلى طول المقبض، وعدد النتوءات التي يستند إليها الإبهام عند استخدام الفرشاة. لكن هذه الكمية الكبيرة من العمل غير ظاهرة في المنتج النهائي. يأتي هذا من مبدأ التواضع الذي كان رامز ملتزمًا به. إنه المبدأ المستمَد من الشاعر الروماني هوراس: «الفن كامنٌ في إخفاء الفن».

وقد كان رامْز متواضعًا من الناحية الشخصية. فمع أنه تعلّم العمارة أول الأمر (تعلم النجارة أيضًا)، فقد كان راغبًا في صنع منتجات تُحسّن حياة الناس، لا في تصميم مبانٍ متميزة فريدة تنشئ له مجدًا. كانت المنتجات التي صمّمها مشبعة بالتواضع: منتجات لا تحاول شد انتباهك من غير سبب. منتجات يسعدها أن تظلّ جالسة في خلفية المشهد، وأن تقوم بعملها جيدًا.

التواضع نقيضُ أن يكون المرء مُحبًا للاستعراض. إنه جزء من فكرة أكثر اتساعًا عن مفهوم الخدمة الذي هو مثال مركزي في أية رأسمالية جيدة. فالمرء ليس موجودًا هناك لكي يستلفت الأنظار، بل حتى يساعد المستهلك في عيش حياة أفضل... تمامًا مثلما يفعل نادل مطعم متميز في عمله. ومن الممكن أن توجد بضع أدوات أخرى مفيدة -لكن بصمت- وذلك من قبيل «نظام الرفوف الشامل 606»[1] الذي صممه رامْز لصالح شركة فيتسوي واستمرّ إنتاجه منذ سنة 1960.

(1) هو نظام الرفوف المؤلف من سكك معدنية نحيلة ذات فتحات منتظمة تثبت إلى الجدار ثم تعلق الرفوف عليها وفق الحاجة.

يأتي التواضع الحقيقي من الثقة بالنفس. فالتواضع هو ألّا يكون المرء قلقًا من أن يتجاهله الناس.













براءة اختراع فرشاة أسنان. النشرة ذات الرقم: USD305386 S

3 ـ تفهُّم المستهلك

كان من المبادئ التي اعتمدها رامز أن المُنتَج ينبغي أن يكون شيئًا يسهل العيش معه، وأن تكون «مقابلته» أول مرة أمرًا سهلًا أيضًا. إن منتجاته تقول لك بنفسها كيف تستخدمها، وذلك من غير حاجة إلى «دليل تعليمات»، بل من خلال مظهرها فقط.

إن القدرة على منح الشخص الآخر تجربة يشعر بأنها تُرحّب به واحدة من أكبر المهارات. لا نجد أشخاصًا كثيرين ممن يستطيعون فعل هذا جيدًا لأن الأمر آتٍ من منبع غير معتاد. فتجربة المستخدمين مع منتجات رامز معتمدة على أن المُصمم يتذكّر دائمًا كيف يكون الأمر عندما يشعر الإنسان بالكَرَب. إنه يعرف كيف تحسّ عندما تشعر

بأنك ضائع - تشعر بأنك متروك، مغتاظ. صحيح أن عمله يبدو بسيطًا وهادئًا، لكن هذا آتٍ من إدراكه مدى سهولة أن يستبد بنا الغضب والارتباك، وكم نشعر بالخجل نتيجة حيرتنا إزاء تعليمات استخدام ينبغي أن يكون أي شخص قادرًا على فهمها.

إن لدينا قدرًا من بساطة العقل أكثر مما نحب أن نعترف به. فنحن نريد، في الواقع، أن تكون الأشياء سهلة، وأن تكون «صديقةً للمستخدم». لكننا غير مستعدّين لإخبار الأشخاص الآخرين بأننا أغبياء قليلًا... على الرغم من أن كل واحد منا غبي قليلًا من عدة نواحٍ. هذا ما يجعل من مهمة المصمّم (أو مدير الفندق، أو الموظف المسؤول عن ملاحظات الزبائن) أن يتذكّر، بشعور من الرقة واللطف، حقيقة أننا كلنا نشبه الأطفال، وأننا ضائعون قليلًا. رامز أشبه بأب، أو بأم: إنه يجعل العالم أكثر صداقة لنا.

لا يصنع رامز أشياء من أجل طفل عمره ست سنين، لكنه يعرف كيف يمزج بين انتباهه الشديد إلى طبائعنا التي تشبه طبائع الأطفال وبين سياقٍ عامٍّ موحٍ بالرشاقة والجمال والاحترام.

علينا أن نتّخذ تذكُّرَنا حقيقة أن كل إنسان أكثر قابلية للتشوش والارتباك مما يحب أن يعترف به أساسًا لإصلاح العمارة والفنادق وتصميم الشوارع ومواقع الإنترنت وصناعة السيارات وتأليف الكتب.

4 ـ أن يكون المرء كلاسيكيًا

كان رامْز كلاسيكيًا. وهذا يعني أنه يعتمد على الأشياء التي لا تتغير. ينتج عن هذا أننا لا نكون مضطرّين إلى شراء أشياء جديدة طيلة الوقت. وعلى سبيل المثال، فإن من الكتب الكلاسيكية كتاب «الأقوال المأثورة» للفيلسوف لا روشفوكو. إنه كلاسيكي لأن سماع الدروس الأساسية التي فيه لا يزال مفيدًا لنا في أيامنا هذه، أي بعد مئات السنين من كتابته.

وعلى وجه الإجمال، ينبغي أن يكون الاقتصاد العالمي أكثر كلاسيكية. على صناعة الأزياء - إذا تناولنا هذا الميدان الذي هو الآن من أقل الميادين كلاسيكية - أن تكون أكثر استجابة لحاجتنا إلى امتلاك قطع ملابس متعدّدة الاستعمالات تستطيع أن تكون لائقة ومناسبة في أوضاع كثيرة، وذلك بدلًا من استجابتها إلى ذلك النزوع للظهور بمظهر متميّز عن الآخرين.

ثم إن لدينا إيديولوجيا رومانسية تميل إلى التركيز على كل ما هو جديد. لكن رامْز يسير في وجهة معاكسة لهذه الإيديولوجيا لأنه مهتم بما هو باقٍ. كان هدفه إيجاد منتجات لا يتقادم بها العهد ولا نجد أنفسنا مضطرين إلى رميها.

5 ـ الفن وتصميم المنتجات

إن كنت ممن يهتمّون باستقطاب مزيد من اهتمام الناس بالأشياء الصغيرة في الحياة اليومية في سنة 1650، فلعلك تتّجه إلى الرسم. لقد كان الرسام الهولندي يوهانس فيرمير من الداعين إلى إيلاء الأمور المتواضعة في الحياة اليومية قدرًا أكبر من الانتباه. ففي لوحته «الشارع الصغير» التي تقدّر قيمتها الآن بمئة مليون جنيه استرليني، يُصوّر حياةً يسودها التواضع والبساطة.

لقد لاحظ فيرمير التفاصيل: الانتظام والترتيب، والمقاعد المتينة في الخارج، والمكنسة القوية. يجد رامْز قيمةً في الأشياء نفسها التي وجدها فيرمير قيّمة، لكنه يوجّه هذه القيم إلى منتجات نستطيع استخدامها في حياتنا. لا لوجود خط فاصل بين الفن وتصميم المنتجات. ففي الأصل، كان المقصود في الرسم أن يكون جزءًا من الحياة اليومية، وأن تعلّقه على جدار مطبخك وصالتك حتى يسري إلى داخل حياتك. وفي أيامنا هذه، من الممكن ألّا ترى عمل فيرمير أكثر من مرة أو مرتين كل بضع سنين. وأما أعمال رامْز فنحن قادرون على شرائها والعيش معها كل يوم.

يرفع رامْز تصميم المنتجات إلى ذرى جديدة. فالفنان في يومنا هذا، يصمم هواتف وساعات منبهة بدلًا من أن يضع رسومه على قطع من القماش. فكل ما يمكن العثور عليه في الفن من كثافة وتركيز ومعايير رفيعة وحرص على الصدق قابلٌ لأن يوضع ضمن دائرة تصميم الأمور اليومية: هنا يكون له حظ أكبر في إحداث أثر في الناس كلما أرادوا معرفة الوقت، أو كلما ضغطوا على مفتاح إيقاف الجرس في الساعة المنبهة حتى يستمروا قليلًا في نومهم.

خلاصة

يرينا رامْز كيف يمكن أن تكون المنتجات جيدة: ذكية، مستدامة، محترمة. ينبغي أن تكون الرأسمالية كلها هكذا. ففي الحالة المثلى، يدرس رائد الأعمال مشروعه ويكرس نفسه لقيم البساطة والتواضع فيضعها في قلب نظرته إلى العالم. إن ذهنية رامْز فريدة في الوقت الحالي، لكنها ينبغي أن تكون تيارًا عامًّا واسع الانتشار.

آندي وارهول

(Andy Warhol)

1987 - 1928



كان آندي وارهول ألمع شخصية في الفن الأميركي في القرن العشرين. لقد اشتهر بصوره لعُلَب حساء كامبل، وكذلك بالصور ذات الألوان القوية لمشاهير من أمثال مارلين مونرو ومايكل جاكسون. كان قسم كبير من حياته يوحي بغرابة الأطوار - شعره المستعار ذو اللون الفضي، وولعه بتقشير البطاطس وهو مستلقٍ في السرير، وحبه الذهاب إلى محلات تنظيف الملابس والوقوف في الزاوية حتى يستمتع بروائح المواد الكيميائية ومواد التنظيف. كان يحب المطارات، وقد اعتاد أن يعبر البوابة الأمنية في المطار مرات كثيرة لقوله إنه يجدها ساحرة تبعث الإلهام في نفسه.

كان إنجاز آندي وارهول الكبير تقديمه نظرة سخية، مفيدة، لقوّتين كبريين في المجتمع الحديث: التجارة والشهرة. أمضى معظم حياته شخصًا شهيرًا على المستوى الدولي، لكنه كان أيضًا حريصًا على أعماله. ولد في بنسلفانيا سنة 1928؛ ثم عاش القسم الأكبر من حياته في نيويورك. كان أبواه من أصل تشيكوسلوفاكي. ويعتبر اسمه اليوم واحدًا من الأسماء الفنية الأكثر نجاحًا من الناحية التجارية على مستوى العالم كله. (تباع صور ألفيس برسلي التي صنعها بما يتراوح من خمسين إلى مئة مليون دولار). إن منبع عمل آندي وارهول فكرتان كبيرتان قادرتان على تعليمنا أسلوبًا أكثر إبداعًا في النظر إلى العالم، بل تستطيعان حثّنا على بناء مجتمع أفضل.

1 ـ تقدير الحياة اليومية

نُمضي الشطر الأكبر من عمرنا في العمل من أجل الوصول إلى ما نراه مكانًا أفضل: شراء بيت أجمل، أو شراء أشياء أحسن، أو ربما الانتقال للعيش في بلد آخر. كثيرًا ما نقلل من شأن الأشياء المعتادة وننظر نظرة إيجابية إلى ما هو غريب أو غير مألوف: وجبة من بانما فيها مكونات يابانية أو رحلة إلى تبيليسي. نشعر عادة بأن الأشياء المثيرة ليست موجودة حيث نكون: هذا شعور معروف، لكنه غير صحيح!

يريد آندي وارهول معالجة هذا الأمر من خلال جعلنا ننظر من جديد إلى حياتنا اليومية وأشيائها. يريد فتح أعيننا على أن علبة الحساء شيء ساحر.

يساعدنا وضعُ هذه الأشياء على الجدار في رؤية جمالها، وفي ملاحظة لُصاقاتها الجذّابة المغرية وشكلها القوي الرشيق الملائم لوظيفتها ملاءمة تامّة. عندما تكون موضوعة في صورة، ننظر إليها بالاهتمام نفسه الذي قد نُسبغه على شمعدان أو ملعقة

استُخرجت من أنقاض عائدة إلى زمن الرومان. فالفن قادر على وضعنا ضمن حالة ذهنية تساعد في النظر إلى الأشياء نظرة تقدير، وهي حالة ذهنية يصعب الإبقاء عليها عندما نكون منشغلين باستخدام الأشياء التي من حولها، أو عندما نكون منهمكين في استهلاكها. وضمن المسعى نفسه الرامي إلى إعادة توجيه انتباهنا، صنع آندي وارهول مقطع فيديو صوّر فيه نفسه وهو يأكل الهامبرغر.

إنه يحاول جعلنا نكتسب عادة عقلية جديدة: الإحساس بأن الأشياء التي نفعلها في حياتنا اليومية ليست مملة، وبأنها تستحق الملاحظة. يريد وارهول جعلنا ندرك أننا نعيش حياة جذّابة بالفعل -يريد أن نكفّ عن استصغار أنفسنا وتجاهل تجاربنا وخبراتنا المعتادة- ملء خزان السيارة بالوقود، ووضع الملابس عند محل التنظيف ونحن في طريقنا، وتسخين وجبة مسبقة الصنع في المايكرويف. لسنا في حاجة إلى الحلم بأماكن أخرى. ليس علينا غير رؤية أن في الأشياء التي نفعلها طيلة الوقت، وفي الأمور التي من حولنا طيلة الوقت، فضائلها الخاصّة بها... إنها ساحرة، كلٌّ بطريقته.

2 ـ صُنع المشاهير

خلال عقد الستينيات، صاحبَ وارهول جماعة من البوهيميين وغريبي الأطوار المناهضين للثقافة، ومنح كلًا منهم لقب «سوبر ستار». كان منهم نيكو، وجول داليسّاندرو، وإيدي سيدرغوي، وفيفا، وألترا فايوليت، وهولي وودلون، وجاكي كورتيس، وكاندي دارلينغ.

أدرك وارهول أن للمشاهير قوة مهمّة: إنهم قادرون على نشر السحر والمكانة الاجتماعية من حولهم. وكان يرى أن من الواجب نشر السحر بالطريقة الصحيحة حتى يسير المجتمع سيرًا حسنًا.

وعلى سبيل المثال، كان وارهول مقتنعًا بأن عمل الخدم يحظى بمكانة أقل كثيرًا مما يستحق. كتب يقول:

> ينبغي الآن أن تكون هناك دراسة جامعية للخدم، وأن يطلقوا عليها اسمًا جذّابًا. لا يرغب الناس أن يعملوا في أمرٍ ما، إلّا إذا كان له اسم فيه سحر. فكرة أميركا فكرة عظيمة جدًا، من الناحية النظرية، لأننا تخلّينا عن الخدم والبوّابين. مع هذا، لا يزال يتعيّن على أحد أن يقوم بهذا. أفكر دائمًا في أن الناس، بل حتى الأذكياء جدًا، يمكن أن يتعلّموا الكثير من عملهم خدمًا لأنهم سيرون عددًا كبيرًا من الأشخاص الذين يثيرون الاهتمام فعلًا، وسيعملون في أكثر البيوت جمالًا. أعني أن يفعل كل إنسان شيئًا من أجل إنسان آخر -الحذّاء يصنع لك حذاء، وأنت تقدّم له ترفيهًا

الأمر قائم دائمًا على التبادل؛ ولولا الوصمة التي نضعها على أعمال بعينها، فسوف يكون التبادل متكافئًا على الدوام. لا تتوقّف الأم عن فعل أشياء من أجل أطفالها، فما المشكلة إن جاء شخص من الشارع وفعل أشياء من أجلك؟

يقترح وارهول إمكانية استخدام الرئيس مكانته الكبيرة لإحداث تغيّرات في نظرة الناس إلى الأشياء.

إن ذهب الرئيس إلى الحمامات العامة في الكابيتول وجعل كاميرات التلفزيون تصوّره وهو ينظف المراحيض ويقول: «لم لا؟ لا بد أن يقوم أحد بهذا العمل»، فإن من شأن هذا أن يقدّم مساندة معنوية كبيرة للناس الذين يقومون بهذا العمل الرائع: المحافظة على نظافة المراحيض.

رأى وارهول أن ثقافة المشاهير لديها قدرات عظيمة. لكنه يريد منا أن نختار المشاهير اختيارًا صحيحًا. إذا أردنا اليوم أن نطلق لقب «سوبر ستار» على شخص من الأشخاص، فمن الممكن مثلًا أن نختار ممرضة، أو بوّابًا، أو حارس أمنٍ في المطار، أو مهندسًا في مستودع لوجستي، أو طالب فلسفة، أو اقتصادي، أو تلميذًا في الحادية عشرة من عمره بدأ مؤخّرًا تلقي دروس في الرسم.

3 ـ الجمع بين الفن والأعمال

لم يكن يطلق على مكان عمله في نيويورك تسمية «استديو» - ذلك المصطلح ذو المكانة المتميزة الذي دأب الفنانون على استخدامه منذ عصر النهضة للإشارة إلى أماكن عملهم. كان يدعو مكان عمله «المصنع».

نحن نميل إلى الإحساس بأن ما من شيء يجمع فكرة الفن إلى فكرة المصنع. لكن ما رآه وارهول هو أن العمل والفن ينتمي كل منهما إلى الآخر انتماء شديدًا: أن تكون جيّدًا في الأعمال، فهذا أكثر الفنون سحرًا. كان الناس يستصغرون فكرة الأعمال في فترة النزعة الهيبّيّة[1] - كانوا يقولون ʻالمال سيئʼ، وʻالعمل سيئʼ، لكن الحقيقة هي أن جني المال فن، والعمل فن؛ وأما أن تكون رجل أعمال جيدًا، فهذا أحسن فن».

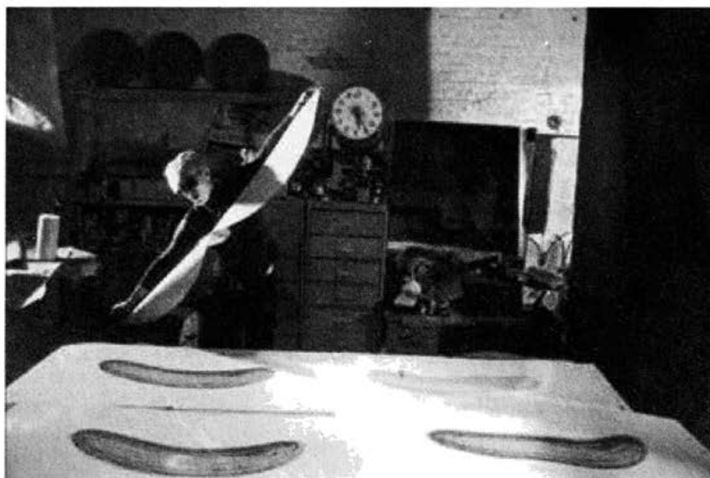
بدأ وارهول يحبّ الأعمال عندما أبرم اتفاقًا مع شركة سينما محلية لكي يقدّم فيلمًا كل أسبوع. وهذا ما نقل صناعة الأفلام عنده من شيء يقوم به على الهامش إلى إنتاج منظَّم. اكتسب مزيدًا من المهارات، وانتقل من أفلام قصيرة إلى أفلام أكثر طولًا إلى أفلام روائية. حاول أيضًا أن يتعلّم ما يلزم لتوزيع الأفلام، لكنه استنتج أنه في حاجة إلى ʻشريكʼ.

---

(1) أي في عقد الستينيات.

الدرس المستفاد من «المصنع» هو أننا قادرون على تنظيم أنفسنا بغية إنتاج أشياء جيدة بطريقة أكثر موثوقية وأخفض تكلفة. كان شراب الكولا (coke) المثال الذي قدّمه على ذلك. لقد أشار إلى أن الكولا تظلّ هي نفسها أينما ذهبتَ. وسواء كنت رئيسًا أو عامل تنظيف، فأنت تشرب الكولا نفسها... وهي شراب جيد. بشكل عام، لم يستطع الفن تحقيق هذا المثال، أي أن يكون جيدًا وواسع الانتشار أيضًا. يُنتج الفنانون أشياء غير كثيرة فلا يحوزها إلّا قلة من الناس. حاول آندي وارهول أن يقلب الآية. ففي يوم من الأيام، وبعد قراءته أن بيكاسو أنتج أربعة آلاف عمل فني خلال حياته، قرّر وارهول أن ينتج أربعة آلاف صورة في يوم واحد. اكتشف أن شهرًا كاملًا انقضى حتى تمكن من إنتاج خمسمئة صورة. لكنه كان مقتنعًا بأنه ينبغي إنتاج الفن بالجملة وتوزيعه على نطاق واسع. «إذا كانت 'صورة مطبوعة' واحدة جيدة، فهذا يعني أن النسخ كلّها جيدة مثلها».

ما نستطيع تعلمه من وارهول هو أن الإنتاج بالجملة ينبغي تطبيقه في ما يتجاوز صنع الصور المطبوعة وغيرها من أنواع «الفن الرفيع». نحن في حاجة إلى ما يحوزه قطاع الأعمال من قدرة على التنظيم والتسليع والترويج حتى نستطيع إنتاج وتوزيع ملابس جيدة، ورعاية أطفال رفيعة الجودة، ومعالجة نفسية، واستشارات عملية، وعمارة جيدة... والقائمة تطول.



وارهول أثناء عمله في «المصنع»، 1966

4 ـ توسعةُ الاسم التجاري

ليس للقسم الأكبر من الأعمال الفنية أثر في العالم. لكن وارهول كان توّاقًا إلى تحقيق ذلك. أتقن أنواعًا فنية كثيرة، من الرسم بالأقلام، إلى الرسم بالفرشاة، إلى

الطباعة، إلى التصوير، إلى التسجيل الصوتي، إلى النحت والمسرح. بدأ إصدار مجلة، وصمَّم الملابس، وأدار فرقة موسيقية، وصنع أكثر من مئة فيلم، وكانت لديه خطط لبدء تقديم برنامج حواري تلفزيوني. كانت نظرته إلى الحياة هي الجامع بين هذه الأمور كلها. وقد تجلّت في كل ما فعله. لقد كان شخصًا حساسًا، يلاحظ التفاصيل، ويظل منتبهًا إلى إحساسه، وتتأثر نفسه بما يراه على سطح العالم. كان أيضًا شخصًا لطيفًا: لم يكن متنمّرًا. لم تكن لديه مشاعر انتقامية إزاء العالم. ولم تكن غرابة الناس تزعجه. هذه الطبيعة المنفتحة الخالية من أيّ ميل إلى الانتقام منحته حرية اللعب والاستمتاع بالعالم.

هذه القيم كلّها هي ما صنع «اسمه التجاري». والمقصود هنا بتوسعة الاسم التجاري هو أخذ القيم التي تحقّقت وظهرت في شيء من الأشياء وجعلها حقيقة واقعة في شيء آخر. لنأخذ مثلًا على هذا: إذا نظرنا إلى القيم التي تمثّلها سيارة فولسفاغن غولف فقد نقول إنها سيارة، عملية، جميلة، مقبولة الثمن، غير مهتمة بالفروق بين الطبقات. هذه الخصائص ضرورية في نواحٍ كثيرة أخرى في العالم. تعني توسعة الاسم التجاري أن نأخذ تجربة فولسفاغن من صنع السيارات إلى صنع الملابس أو إلى إقامة المدارس.

كانت قدرة وارهول على توسعة عمله إلى قنوات مختلفة، ناتجة عن «شعبويته». يعني كون المرء «شعبويًا» أنه لا يخشى مد يده إلى الناس عند النقاط التي ينطلقون منها. البرنامج التلفزيوني الحواري «شعبوي» لأنه متجاوب مع ما تجده كتلة كبيرة من الناس ممتعًا أو فكاهيًا. لقد كان وارهول «شعبويًا» انطلاقًا من طبيعته السخية. أراد ترجمة الأشياء التي هو مهتم بها (الحساسية، وحب التألق والظهور، والطبيعة المرحة اللعوب) إلى أشياء مصنوعة وتجارب مُعاشة تمس نفوس بشر كثيرين.

الأمر المؤسف الوحيد هو أنه انتهى حيث انتهى. كان ممكنًا أن يبدأ ذلك البرنامج الحواري الذي فكر فيه؛ وكان ممكنًا أن يتابع السير - عبر شراكات تزداد اتساعًا إلى إطلاق علامة تجارية في عالم صناعة الملابس، وإلى تصميم فندق، وإلى إقامة سلسلة مدارس، وإلى بدء خدمة استشارات مالية، وإلى إقامة مركز طبي، أو سلسلة سوبرماركت، أو مطار.

إنها المهمّة التي لا تزال مفتوحة أمام الناس الذين يجذبهم الفن، لكنهم يريدون أيضًا أن يغيروا العالم.

مات وارهول سنة 1987 ولم يتجاوز الثامنة والخمسين من عمره، وذلك نتيجة مضاعفات ناجمة عن جراحة عادية في المثانة أجراها في مستشفى نيويورك. دفن في مقبرة صغيرة في بيثيل بارك، بنسلفانيا، على مقربة من مسقط رأسه.

الأدب

جين أوستن

(Jane Austen)

1817 - 1775



يحب الناس جين أوستن من حيث هي مرشد ساحر إلى الحياة الفخمة الأنيقة في «عهد الوصاية»[1]. وهي موضع إعجاب لأنها ترسم صورة البيوت الأنيقة، والحفلات الراقصة، والخدم، والشبّان المتأنقين الذين يقودون عربات قوية فخمة. إلّا أن رؤيتها الشخصية لمهمّتها كانت مختلفة عن ذلك كلّه اختلافًا جذريًا. لقد كانت داعية أخلاقية طموحًا؛ وكانت صارمة أيضًا. كان لديها وعيٌ حادٌّ بإخفاقات البشر؛ وكانت لديها رغبة عميقة في جعل الناس أكثر لطفًا: أقل أنانية، وأكثر عقلانية، وأكثر جلالًا واحترامًا، وأكثر حساسية إزاء حاجات الآخرين.

ولدت جين أوستن سنة 1775، وترعرعت في قرية صغيرة في منطقة هامبشاير حيث كان أبوها قسًا أنغليكانيًا. كانت للأسرة مكانة اجتماعية مرموقة حقًّا، لكنها لم تكن أسرة موسِرة. بدأت جين الكتابة في سن مبكرة: أنجزت عندما كانت في الحادية والعشرين من عمرها رواية رفضتْها واحدة من دور النشر الكبيرة. على امتداد القسم الأكبر من حياة جين بعد أن كبرت، كانت بلادها في حرب مع نابليون. صار اثنان من أشقائها ضباطًا كبارًا في سلاح البحرية. وأما جين، فقد كانت تمضي فترات طويلة من وقت الكتابة جالسة إلى طاولة صغيرة ثُمانية الأضلاع. كانت شديدة المهارة في الرقص، وشديدة الاهتمام بأن تكون حسنة الملبس. كانت شابة أنيقة، ذكية، نشطة. ولم تتزوّج أبدًا مع أنها وقعت مرتين في إغراء الزواج. عاشت أكثر حياتها في بيوت صغيرة حلوة في الريف مع أختها كاسندرا.

كانت الرواية السلاح الذي وقع عليه اختيارها في مسعاها إلى إصلاح البشرية، فقد أكملت جين أوستن كتابة ست روايات: «نورذاغر آبي»، و«كبرياء وهوى»، و«العقل والعاطفة»، و«مانسفيلد بارك»، و«إيما»، و«إقناع».

وهذا عددٌ من الأمور التي أرادت أن تعلمنا إياها:

1 ـ دع الحبيب يُعلِّمك

في روايتها «كبرياء وهوى»، تبدأ العلاقة بين السيد دارسي وإليزابيث بينيت بِنفُورٍ

(1) عهد الوصاية (1811 - 1820): اعتُبر الملك جورج الثالث غير قادر على أداء مهماته نتيجة المرض، فصار ابنه وصيًا على العرش إلى أن مات أبوه سنة 1820 فتوِّجَ ملكًا باسم جورج الرابع.

متبادل شديد، ثم يدركان شيئًا فشيئًا أنهما واقعان في الحب. يصير هذان الاثنان زوجًا رومانسيًا رائعًا: هو وسيم، ثري، حسن الصلات؛ وهي جميلة، ذكية، كلّها حيوية. ولكن، ما الذي يجعلهما شخصين يناسب كل منهما الآخر؟ جين أوستن واضحة جدًا في هذا الأمر: السبب هو ما نحن الآن ميالون إلى عدم التفكير فيه كثيرًا. السبب هو أن كلًا منهما يستطيع تعليم الآخر وتطويره. عندما يصل السيد دارسي إلى الحي، يكون لديه شعور بأنه «متفوّق» على كل من عداه لأنه أكثر مالًا وأعلى مكانة. وفي لحظة مفتاحية، تواجهه إليزابيث وتشجب غروره وتكبّره. يبدو هجومها عدائيًا إلى أقصى حدٍّ، لكن دارسي لا يلبث بعد حين أن يعترف بأن هذا هو ما كان يلزمه بالضبط:

> ماذا قلتِ لي من أشياء لم أستحقّها؟... ذكرى ما قلتُه آنذاك، ومسلكي، وطبعي، وتعبيري... ذكرى مؤلمة لي على نحو لا أستطيع التعبير عنه. لن أنسى أبدًا لومك الذي كنت شديدة البراعة في توجيهه... لقد لقّنتِني درسًا كان أول الأمر قاسيًا حقًا، لكنه بالغ النفع. أنت من عرف كيف يضعني في حجمي الحقيقي.

تشاركه إليزابيث هذه النظرة إلى الحب، وتراه تعليمًا. إن كل منهما مناسب للآخر... لأن:

> ذلك كان اتحادًا لا بد أنه مفيد للجانبين؛ فلعل عقله صار أكثر لينًا، ولعل طبعه صار أحسن حالًا، نتيجة لينها وحيويتها؛ ولا بد أن ما أتاها من نفع نتيجة معلوماته وسلامة أحكامه ومعرفته بالعالم قد كان كبير الأهمية.

قد يبدو هذا الدرس غريبًا لأننا لا نزال نزّاعين إلى اعتبار الحب ميلًا إلى أحد الناس نتيجة ما هو عليه الآن... لا نزال نعتبر الحب قبولًا تامًّا. لكن أوستن تقول إن الشخص المناسب لنا ليس من يجعلنا نشعر بالراحة أو بالاسترخاء، بل ينبغي أن يكون قادرًا على مساعدتنا في التغلب على مَواطن ضعفنا، وفي أن نصير أكثر نضجًا وصدقًا ولطفًا - ولا بد أيضًا لنا من القيام بدور مماثل تجاه هذا الشخص.

في «كبرياء وهوى»، يُحسّنُ كل من دارسي وإليزابيث الآخر، ثم تتركهما الكاتبة يصيران خطيبين. القصة تُحسِنُ مكافأتهما لأنهما تطوّرا تطوّرًا حسنًا. هذا ما يجعلنا نشعر بأن الرواية مبنية بناء جميلًا جدًا. ليست المسألة عبقريةً كتابية فحسب... فهذه الرواية توضّح حقيقة أساسية: يعتمد الزواج على النضج وعلى التعليم المتبادل.

2 - ليس علينا أن نمتنع عن تقييم الناس؛ إلّا أنّ علينا أن نقيّمهم بمزيد من الحرص والانتباه

تبدأ رواية «مانسفيلد بارك» عندما تذهب فايني برايس الهادئة الخجول للعيش مع

قريباتها الثريات -آل برترام- في بيتهم الريفي الكبير في مانسفيلد بارك. آل برترام أشخاصٌ أذكياء، أنيقون، واثقون، موسرون. هم نجوم وفق المعايير الاجتماعية؛ وفايني قليلة الشأن حقًا تنظر إليها قريبتها جوليا نظرة استعلاء لأنها لا تعرف مواقع بلدان أوروبا على الخريطة. لكن جين أوستن تُقيّم الناس انطلاقًا من معيار مختلف تمام الاختلاف.

فالعدسة التي ينظر عبرها الناس إلى المجتمع عادة، تلك العدسة التي تُضخّم الثروة والسلطة، تستبدل بها جين أوستن عدسةً أخلاقية تُبرز خصائص الشخصية. فبدلًا من التركيز على من ترتدي أجمل فستان، أو من لديها أفضل عربة، أو من لديها أكبر عدد من الخدم، تنظر أوستن إلى من تكون طائشة، أو أنانية، أو قاسية، وإلى من تكون صادقة، متواضعة، كريمة الطبع حقًا.

من خلال هذه العدسة، قد يصير القوي صاحب المكانة العالية شخصًا صغيرًا، وقد يكبر المنسيون والمنزوون. ففي عالم الرواية، تُوزَّع الفضائل من غير اعتبار للثروة المادية: لا يكون الشخص جيدًا لمجرد كونه ثريًا أو ميسور الحال (مثلما هو الأمر في التصورات السائدة عن المكانة)؛ ولا يكون سيئًا إذا كان فقيرًا أو غير متعلّم. قد تكون الفضائل موجودة لدى طفل بشع أعرج، أو لدى بوّاب فقير معدم، أو لدى أحدب يعيش في علّية بيت من البيوت، أو لدى فتاة لا تعرف أبسط المعلومات الجغرافية. صحيح أن فايني لا تملك فساتين شديدة الأناقة، وليس لديها مال، ولا تعرف الفرنسية - لكننا نراها في آخر الرواية شخصية نبيلة، في حين يسقط بقية أفراد الأسرة في حيرة وتشوّش أخلاقيين على الرغم من ألقابهم السامية وكل ما لديهم.

ليست جين أوستن عدوّة للمكانة الاجتماعية. وهي لا تريد أكثر من رؤيتها موزّعة توزيعًا صحيحًا مثلما يحدث في آخر كل رواية من رواياتها. يعلو شأن فايني، وتصير آخر الأمر سيدة مانسفيلد بارك، ويُحيقُ الخزي بقريبتها جوليا، تلك القريبة الأنانية، فارغة الرأس.

3 - لا تستهِنْ بالمال

جين أوستن صريحة جدًا في ما يخصّ المال. إنها تخبرنا بتفاصيل الوضع المالي لكل شخصية من شخصيات رواياتها. ففي «كبرياء وهوى»، توضح لنا أن دخل السيد بنغلي يبلغ أربعة آلاف جنيه في السنة (وواضح أنه مبلغ كبير)، في حين يحصل دارسي على أكثر من ضعفي ذلك المبلغ. بدلًا من الإحساس بأن هناك شيئًا من قلة التهذيب في الخوض في حديثٍ عمن لديه مال ومن ليس لديه مال، ترى أوستن أن المال موضوع

مناسب جدًّا للأدب الرفيع. هذا لأن كيفية تعاملنا مع مواردنا المالية لها أثر هائل على حياتنا.

تهاجم أوستن غلطتين كبيرتين يرتكبهما الناس في ما يتعلّق بالمال. الأولى هي فرطُ التأثر بما يمكن للمال فعله. ففي «مانسفيلد بارك»، تتزوّج جوليا برترام السيد روش وورث (أغنى شخصية في روايات جين أوستن كلّها)؛ لكنهما يعيشان تعيسين معًا، وسرعان ما ينهار زواجهما. لكن أوستن مقتنعة أيضًا بأن الزواج من غير توفّر مال كافٍ غلطة خطيرة. فعند نقطة من رواية «العقل والعاطفة» يبدو أن إيلينور داشوود وإدوارد فيرارز لن يكونا قادرين على الزواج على الرغم من التناسب الحَسَن بينهما: «لم يكن أيٌّ منهما واقعًا في الحب إلى حد يجعله يظن أن ثلاثمئة وخمسين جنيهًا في السنة [أدنى قليلًا من متوسط الدخل لدى الطبقة الوسطى] قادرة على أن تؤمّن لهما أسباب الراحة في الحياة».

تتبنّى إيلينور رأيًا يقول إن «الثروة مُهمة كثيرًا من أجل السعادة».... لكنها لا تعني بالثروة ثراء عظيمًا، بل ما هو كافٍ لعيشة حسنة فيها قدر معتدل من الراحة. وأما الزواج من غير أساس اقتصادي مقبول فهو حماقة.

تشقّ جين أوستن طريقها صوب موقف خدّاع، وإن يكن بالغ الأهمية. فالمال مهمٌّ جدًّا من بعض النواحي، لكنه غير مهم من نواحٍ أخرى. لا نستطيع أن نكون مع المال، ولا ضد المال. قد يبدو التأكيد على هذا الأمر الواضح شيئًا فيه قدر من البساطة؛ لكننا نضل الطريق دائمًا في الممارسة العملية.

4 ـ لا تكن متكبرًا

في رواية «إيما» تأخذ بطلة الرواية –أي إيما نفسها– الفتاةَ الجميلة هارييت سميث من القرية لكي تعيش تحت جناحَيْها. هارييت شابة متواضعة، بهيجة، بعيدة كل البعد عن الادّعاء. لكن إيما تقرّر أن عليها أن تكون أكثر من هذا كثيرًا. تريد أن تصير هارييت مناسبة تمامًا للقس الذكي الذي في البلدة. يطير صواب هارييت لكثرة ما تمتدحها إيما. ترفض عرض زواج مناسبًا جدًّا أتاها من أحد المزارعين لأنها لا تراه شخصًا جيدًا إلى الحد الكافي، مع أنه، في واقع الأمر، طيب القلب كثيرًا، فضلًا عن كونه ميسور الحال. ثم يتضح أن القس المنشود قد هالته فكرة إيما وصدمته كثيرًا، فينكسر قلب هارييت.

الحالة مضحكة في الراوية، لكن الفكرة الكامنة فيها فكرة جادة: إيما امرأة متكبرة، من غير قصد، لكن بطريقة قاسية فظة. هي متمسكة بنوع خاطئ من التراتبية. لا ترى جين أوستن أن علاج التكبر يأتي من خلال التفكير في أن الجميع متساوون. فالعالم

غير منصف أبدًا، في نظرها. لكن العلاج الحقيقي للتكبّر هو إيلاء الفضائل والمزايا الحقيقية انتباهًا كافيًا. فمن حيث الجوهر، كان المزارع شخصًا أفضل من القس؛ لكن التقاليد والأعراف الاجتماعية تجعل تجاهل هذه الحقيقة أمرًا سهلًا.

قلةٌ هم من يتعمّدون أن يكونوا متكبّرين. إن جين أوستن حريصة على اعتبار إيما واحدة منهم، فهي شخصية ساحرة من نواحٍ كثيرة. لكن موقف إيما يتّخذ وجهة صحيحة آخر الأمر. نرى أنها تدرك غلطتها وتشعر بالأسف الشديد وتتعلّم درسًا يبقى معها بقية عمرها. بكلمات أخرى، لا تسخر جين أوستن من التكبّر معتبرة إياه مسلك أشخاص كريهين جديرين بالازدراء. إنها تنظر إلى المتكبّر نظرة إشفاق – تراه أشبه بشخص أصابته آفةٌ (وإن يكن شخصًا مرتاحًا من الناحية المادية)؛ إنه شخص في حاجة إلى توجيه وإرشاد وإصلاح. لكن واقع الأمر، بالطبع، هو أن أولئك الناس لا يتلقّون المساعدة اللازمة لهم، أكثر الأحيان.

على أن أوستن لا تشدّد على فكرتها عن التراتبية الصحيحة بالطريقة المباشرة التي يتّبعها الواعظون، بل تعمد إلى جعلنا نتفهّم الحالة وتتعامل مع نفورنا منها بأسلوب بارع وبروح فكِهة جديرة بروائية عظيمة. لا تقول لنا أوستن شيئًا عن السبب الذي يجعل فهمها للأولويات مهمًا؛ بل تحملنا على رؤية ذلك السبب ضمن سياق قصة تجعلنا نضحك، وتستحوذ علينا إلى حد يدفعنا إلى الانتهاء سريعًا من طعامنا حتى نتابع القراءة (في صحيفة «كوارتلي فيو»، 1822، عبّر عن هذا الأمر واحد من نقاد أوستن الأوائل هو ريتشارد ويتلي الذي سيصير في وقت لاحق أسقف دبلن: «تتميّز الآنسة أوستن تميزًا واضحًا بأنها كاتبة مسيحية: مزيّة يعززها أن تديّنها ليس من النوع الذي يفرض نفسه فرضًا، سواء من حيث سلامة ذوقها أو من حيث براعتها العملية. لا يستطيع حتى أكثر النقاد تشدّدًا اعتبار أية رواية من رواياتها ’عرضًا مبالغًا فيه‘»). عقب الانتهاء من قراءة رواية من روايات جين أوستن، نجد أنفسنا مدعوين إلى العودة إلى العالم الذي انتزعتنا منه أوستن لكي نستجيب للآخرين مثلما علّمتنا ولكي ننتبه إلى الجشع والغرور والتكبّر وننفر منها كلّها، وكذلك لكي نصير مشدودين إلى كل ما هو حسنٌ في داخلنا وفي الآخرين.

***

عرفت جين أوستن أغزر سنواتها إنتاجًا خلال أواخر الثلاثينيات من عمرها، إذ كانت تعيش في بيت لطيف حسن الترتيب في قرية تشاوتن في هامبشاير. كانت رواياتها تلقى قبولًا حسنًا متعاظمًا، وبدأت تجني بعض المال منها (لكنها لم تصر شهيرة أبدًا لأنها

ظلّت طيلة عمرها تنشر رواياتها من غير أن تحمل اسمها). تدهورت صحتها سريعًا سنة 1816، أي عندما صارت في الأربعين. ثم ماتت في السنة التالية ودفنت في كاتدرائية ويتشستر. وصفت جين أوستن فنها وصفًا متواضعًا صار شهيرًا في ما بعد، بأنه «قطعة عاج صغيرة (عرضها إنشان فقط) أعمل عليها بفرشاة دقيقة فأنتج أثرًا صغيرًا بعد كدح طويل»؛ لكن رواياتها أتت مشبعة بتطلّعات أكبر من ذلك. إن فنّها محاولة، عبر ما دعته بنفسها دراسةَ «ثلاث أو أربع أُسر في مناطق ريفية»، لنقد الحياة، ولتغييرها. لقد كان لديها ذلك الافتراض المعتاد القائل إن الأمور المهمة، المثيرة، تجري في مكان آخر، وإنها تفوتنا... لسوء الحظ!

كان ممكنًا لجين أوستن أن تكتب عِظات. لكنها كتبت روايات. والمؤسف أننا نرفض أن نقرأ رواياتها مثلما كانت تحب أن نقرأها. إن التطلّع الأخلاقي في الرواية غائب كثيرًا عن عالمنا الحديث مع أنه، في الحقيقة، أفضل ما تستطيع الرواية فعله. فالرضا الذي نحسّه عندما نقرأ أوستن ناتج عن كونها راغبة في أن يتخذ العالم وجهةً بعينها نجدها شديدة الجاذبية؛ وهذا هو السر -الذي لا يدركه أكثر الناس- في بقائها كاتبة محبوبة كثيرًا.

يوهان وولفغانغ فون غوته

(Johann Wolfgang Von Goethe)

1832 ـ 1749



كثيرًا ما يجد الناس صعوبة في نطق اسمه نطقًا صحيحًا. وفي القرن التاسع عشر، سخروا في البرلمان مرة من رئيس الحكومة البريطاني بينامين دزرائيلي لأنه أخطأ نطقه. إذا لم يكن المرء ممن يتكلمون الألمانية فلن يكون واضحًا له كيف يجب أن يقول هذا الاسم.

غالبًا ما يعتبر الناس يوهان وولفغانغ فون غوته واحدًا من أبطال الثقافة الأوروبية الكبار - واحدًا من أمثال شكسبير ودانتي وهوميروس. لقد برع وتميّز في جملة واسعة من الميادين: كتب قصائد كثيرة، وكان روائيًا ناجحًا جدًا، وقدّم إسهامات علمية في الفيزيولوجيا والجيولوجيا وعلم النبات والبصريات. كان أيضًا دبلوماسيًا، وواحدًا من المعلّمين في عالم الأزياء، وموظفًا حكوميًا كبيرًا، وصانع مواد إباحية، ورئيس جامعة، ورسامًا جيّدًا، ومسافرًا مغامرًا، ومديرًا لأحد المسارح، ومدير شركة لاستخراج الفضة.

وخلال حياة غوته، كان معجبوه شديدي التأثر بأعماله الأدبية. لكن حياته التي عاشها، والشخص الذي كانه، كانا أكبرَ أثرًا على أهل زمانه من كتبه التي أنتجها. كانت الحياة أكثر أهمية من الكتب (هذا ما يساعد في شرح السبب الذي جعل أعماله الأدبية غير معروفة نسبيًا، خلافًا لأعمال جين أوستن ومارسيل بروست). ولد غوته في مدينة فرانكفورت سنة 1749. كانت أسرته موسرة - وثروتها حديثة العهد ناتجة عن نُزُل تديره.

اهتم والدا غوته بتعليمه أشد الاهتمام: تلقى أكثر تعليمه في البيت؛ وكان يكتب قصائدًا لأصدقائه، ويتلقّى دروسًا في الفنون، كما تعلم اللغة الإيطالية. كان يذهب إلى المسرح كثيرًا، وأقام علاقات صداقة مع بعض الممثلات. ولما كان واحدًا من أبناء الطبقة العليا، فقد كان يحمل سيفًا منذ أن بلغ الثانية عشرة من العمر.

درس في جامعة لايبزيغ، ثم حصل على درجة الماجستير من جامعة ستراستبورغ. كثيرًا ما كان يتغيّب عن المحاضرات فيذهب إلى «شُرفة المشاهدة» القائمة في مكان مرتفع من برج كاتدرائية قريبة. كان يخشى الارتفاعات، لكنه يُرغم نفسه على الصعود إلى تلك الشرفة لأنه يحب أن يقهَرَ الصعاب - ولأن المشهد من هناك كان يعجبه أيضًا.

يمكننا أن نستخلص من غوته بضعة دروس مهمة:

1 ـ من الحب الرومانسي إلى الحب الكلاسيكي

كانت أول وظيفة حقيقية يحصل عليها غوته بعد إنهائه دراسة القانون مركزَ قاضٍ مساعد في محكمة وطنية تفصل في النزاعات بين الدويلات الألمانية الصغيرة الكثيرةً

التي كانت «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» مكوَّنة منها في ذلك الوقت. وأثناء عمله، وقع في حب خطيبة واحد من زملائه. وقد ارتكب وقتها غلطة كبيرة ناتجة عن قلة احتراسه فكتب قصة الحب هذه على صورة رواية. وضع لروايته عنوانًا هو «آلام الشاب فيرتر». إن الشخصية المركزية فيها، الشاب فيرتر، صورة ذاتيةٌ له لم يموّهها إلّا قليلًا.

تحكي الرواية قصة وقوع فيرتر/غوته في حب شابة اسمها شارلوت. والرواية وصف شديد التفصيل لكل خطوة صغيرة يخطوها المرء على طريق الهيام بالآخر: يرقصان معًا، وفي مرة من المرات تتلامس قدماهما مصادفة تحت الطاولة؛ يبتسمان، ثم يكتب كل منهما للآخر رسائل غزلية قصيرة. ذلك كله يجعل حالة الحب تبدو كأنها أهم تجربة من تجارب الحياة. يسأل فيرتر نفسه: «ما الحياة من غير حب رومانسي؟... إنها مصباح سحري من غير ضوء».

صارت هذه الرواية ذات السحر العميق من أكثر الروايات مبيعًا في أوروبا كلّها على امتداد عشرين سنة تلت ظهورها. وقد قال نابليون مُباهيًا إنه قرأها سبع مرات. لكن للقصة نهاية بائسة. لم تحب شارلوت فيرتر حبًا حقيقيًا؛ ولم تلبث أن نبذته. يستبد به اليأس، فيقتل نفسه. تُبين هذه الخاتمة المأساوية أن غوته قد بدأ يرى حدود النظرة الرومانسية للحياة. الحب الرومانسي ذو جاذبية عميقة، لكنه يسبّب أيضًا مشكلات ضخمة.

المشكلة الجوهرية -في رأي غوته- هي على النحو التالي: يأمل الحب الرومانسي أن «يُجمّد» اللحظة الجميلة. أمسية من أماسي الصيف بعد العشاء. فيرتر سائر في الغابات مع محبوبته. يتمنّى أن يظل هكذا دائمًا، فيشعر بأن عليهما أن يتزوجا ويكون لهما بيت، وينجبا أطفالًا. وأما في واقع الأمر، فلن يكون الزواج أبدًا شيئًا يشبه تلك الليلة الجميلة من شهر حزيران. سيكون فيه إرهاق، وفواتير ينبغي دفعها، ومشاجرات، وشعورٌ بالقيد. إذا قورن الزواج بأقصى آمال النزعة الرومانسية، فإن الحب الحقيقي ينتهي بخيبة أمل رهيبة - دائمًا، وبالضرورة.

هذا ما جعل غوته يبتعد شيئًا فشيئًا عن الرومانسية صوب إيديولوجيا للحب أسماها «كلاسيكية» - إيديولوجيا متّسمة بقدر من التشاؤم، وبقبول المشكلات التي تصيب كل حبيبين مع مرور الزمن، وقبول ضرورة التخلي عن بعض الآمال المُسْكِرة التي تنشأ في الأيام الأولى ونسيانها مقابل راحة البال والقدرة على إدارة الحياة المشتركة. ما كان غوته ناقدًا للإيديولوجيا الرومانسية لأنه بارد القلب أو فقير المخيلة، بل لأنه فهم ما فيها من جاذبية فهمًا شديد العمق - وبالتالي، فهم ما فيها من مخاطر.

تُبين لنا سيرة حياة غوته رحلة ابتعاده عن رومانسيته الأولى (عند فيرتر) متّجهًا إلى نظرة ناضجة، كلاسيكية، للحياة. إن مسرحيته التي كتبها بعد ذلك، «إيفجينيا» تمثل تطويرًا كاملًا للبديل الكلاسيكي عن الحب الرومانسي.

إفيجينيا أميرة إغريقية أيام حرب طروادة. إنها ابنة كبير ملوك الإغريق، آغاممنون. تجد نفسها عالقة مع أسرتها في سلسلة مخيفة من القتل والثأر: مبالغة درامية في عرض صدمات الحياة الأسرية العادية.

وكالمعتاد، تستمر دورة تلك المشاعر العنيفة من جيل إلى جيل. يتخيّل غوته إفيجينيا شخصًا يفلح أخيرًا في أن يأتي لقومه بالسلم والمسامحة.

ترى إفيجينيا أن دورها في الحياة هو «جعل الرجال معتدلين». وهي تشجّع الناس دائمًا على أن يهدأوا ويكونوا رحيمين. إنها مكرَّسة للحب، لكنه حب متّسم لا بالعاطفة الجامحة، بل بالفهم والتعاطف والرغبة في التناغم:

تذكُّرُ أننا جميعًا لا بد ميتون
ينبغي أن يجعل أقسى القيود تلين.
أوليسَ حَريًّا بنا أن نُظهر للآخرين
أحسن ما تعرفه نفوسنا من لطف؟

كان وصول هذه الرسالة بطيئًا إلى جمهور غوته الأول الذي نشأ على الرومانسية. هل كان غوته يولي الحب الرومانسي ظهره؟ أين اختفت العاطفة كلّها؟ لقد وصفوا قصة إفيجينيا بأنها أشبه بـ«النظر إلى ضباب رمادي». لكن غوته، الذي بلغ الآن أواسط العمر، كان مِقدامًا لا ينثني. لقد اكتفى من فيرتر وعبّر عن رأيه تعبيرًا شديد الوضوح. الرومانسيةُ مرض، والكلاسيكيةُ عافية. لكنه واجه مشكلة ثقافية جوهرية: كيف السبيل إلى جعل الأمور الجيدة لنا قادرة على منافسة المواد العاطفية المثيرة والنجاح في استقطاب الاهتمام؟

2 ـ شرف الإدارة

في شهر نيسان 1775 صار غوته موظفًا حكوميًا، أي أن هذا حدث قبل انقضاء وقت طويل على النجاح الذي حققته رواية «آلام فيرتر».

لقد عيّنه دوق فايمار، كارل أوغست، مستشارًا أول له، ووضعه في منصب إداري كبير حتى يساعده في تسيير البلاد.

استمر غوته في هذا المنصب معظمَ ما بقي من حياته؛ وكانت مهماته الرئيسية -باعتباره وزيرًا للطرق- حاسمة الأهمية من أجل محاولة تطوير التجارة. كان مشرفًا

على الشركة الحكومية المسؤولة عن استخراج الفضة. وتولى مهمات دبلوماسية، واتخذ قرارات كبرى في ما يخص التعليم وتخطيط المدن. كان يمضي وقتًا طويلًا في الاجتماعات الحكومية التي تنعقد مرتين كل أسبوع (اجتماعات فيها الكثير من الكتابة ومن قراءة التقارير).

قد تبدو هذه نقلة غريبة من جانب شخص مبدع حقّق نجاحًا كبيرًا: وكأنَّ فائزًا بجائزة بوكر يصير موظفًا حكوميًا في وزارة البيئة والأغذية والشؤون الريفية. هذا ناتج عن افتراضنا أن الفن والأدب يتعارضان مع الحماسة للإدارة الحكومية.

لكن غوته لم يكن يرى الأمر هكذا. فعلى مر السنين، أمضى قسمًا كبيرًا من وقته في إعداد التقارير وحضور اجتماعات تناقش حسنات ومساوئ شراء تجهيزات تخصّصية لصرف المياه، والمواد المفضلة لإصلاح الطرق، وكيفية التعامل مع الجار المتغطرس، دولة بروسيا.

كان لديه إحساس بأنه في حاجة إلى المسؤولية والسلطة والتجربة حتى يصير شخصًا أكثر نضجًا وحكمة - وحتى يصير شاعرًا أفضل وفيلسوفًا أفضل. لكن هذا أدى إلى شيء آخر أيضًا: مكّنهُ من وضع أفكاره موضع التطبيق.

شغل في وقت لاحق منصب وزير الفنون. وصار قادرًا على إقامة أفضل مسرح في ألمانيا. وأشرف على العروض الأولى لكثير من مسرحيات تلك الحقبة. بتعابير عصرنا الحديث، كان ذلك أشبه بأن يقيم المرء شركة كبرى لإنتاج الأفلام. إن الاحتكاك بالسلطة والمسؤولية والموازنات والمال -أي بالآليات التي تجري بها إدارة العالم- هو ما مكّن غوته من السير في درب تطوّر بالغ الأهمية. لقد انتقل من كونه مفكّرًا مبدعًا معزولًا يعمل منفردًا إلى شخص قادر على وضع أفكاره موضع الفعل. فبدلًا من الكتابة عن أن إقامة مسرح وطني أمر جيد، صار قادرًا على إقامة ذلك المسرح. وبدلًا من الاكتفاء بالقول إن المدن يجب أن تكون فيها مساحات خضراء، صار قادرًا على تحريك آلة الحكومة لإقامة منتزه نموذجي في المدينة.

3 - السفر باعتباره معالجة

استولت على غوته خشية من أنه يبدد حياته هباء، وذلك بعد قضائه عشر سنين في وظائفه الحكومية في فايمار، وعندما قارب سن الأربعين، أي في شهر أيلول 1786. أقلقته فصول الشتاء الباردة والاجتماعات التي لا تنتهي، وعبء العمل الذي جعله يجد صعوبة في العثور على وقت للكتابة. يمّم وجهه صوب إيطاليا، إلى فيتشنزا وفينيسيا أولًا حيث تأثر كثيرًا بمباني المعماري أندريا بالاديو.

ثم سافر إلى روما التي جعلها مكان إقامته الرئيسي. أمضى في إيطاليا قرابة سنتين. كانت لديه فكرة كلاسيكية جدًا عن الغاية من السفر. ينبغي أن تكون الرحلة الخارجية سندًا لرحلة داخلية في اتجاه النضج. أحسّ وكأن جزءًا من نفسه لا يمكن اكتشافه إلا في إيطاليا - «أنا توّاق إلى العنب والتين».

لكنه ذهب إلى روما فأصابته الخيبة مثلما تصيب الكثير من زوار تلك المدينة.

يصف غوته في مجموعة قصائد كتبها عن تجربته هناك، اسمها «المرثيات الرومانية»، كيف بدت المدينة العظيمة مليئة بخرائب لا حياة فيها... خرائب شهيرة، لكنه لم يستطع رؤية أية معنى فيها: «حدثيني، أيتها الحجارة»، هكذا كان يتوسّل إلى آثار روما. هذا إحساس انتاب زوارًا كثيرين أتوا بعده.

أيقن أن ما يلزمه لم يكن دليلًا سياحيًا لديه معلومات أكثر تفصيلًا، بل امرأة مناسبة يستطيع أن يقيم معها علاقة غرامية - امرأة تجعله شريكًا في حب مدينة روما وتريه المعنى الحقيقي للمكان. تصف إحدى قصائده المرأة التي التقاها: اسمها فاوستينا. يُمضيان في الفراش أمسيات كسلى؛ ليست امرأة واسعة الثقافة؛ تحكي له عن حياتها، وعن المباني التي تمر بها في طريقها إلى السوق -البانثيون، والكنيسة الباروكية التي صممها بروييني- مبانٍ لم تكن تعرف أنها شهيرة؛ لم تكن أكثر من مبانٍ شاءت المصادفة أن تعيش على مقربة منها، وكانت مصادفةً أيضًا أنها تعجبها. في غرفته إلى جوار فاوستينا، يدرك غوته أنه يدخل روح الثقافة الكلاسيكية: علاقة بسيطة مريحة بالجمال والجنس؛ وتفكيره أن الشعراء الكلاسيكيين كانوا بشرًا مثله.

في نظر غوته، ليست الغاية من السفر منحصرة في الاسترخاء أو في الاستراحة من وقع الحياة اليومية الرتيب. كان في ذهنه هدف أكثر اتساعًا: غاية السفر هي أن تذهب إلى مكان تستطيع العثور فيه على أجزاء ناقصة من مكوِّنات نضجك.

لم تستمر إقامة غوته في إيطاليا. فبعد قرابة سنتين، تطوّر خلالهما واكتسب ما يكفي من الخبرة لكي يعود إلى فايمار ويتابع عمله السياسي ونشاطه الإبداعي.

4 - عيش الحياة إلى أقصاها: البطل الفاوستي

إن كثرة الأشياء التي فعلها غوته واحد من الأمور المفاجئة في ما يتعلق به. فكم كانت آفاقه واسعة، وكم كانت اهتماماته متعدّدة. لقد استكشف هذا بعمق خاص في كتابه الأكثر شهرة «فاوست». عمل غوته على «فاوست» طيلة حياته. تعود المحاولات الأولى إلى أيام مراهقته. لم يقرّر أنه انتهى من هذا الكتاب إلّا بعد أن صار في أوائل

الثمانينيات من عمره. يقع «فاوست» في جزأين؛ ويستغرق العرض المسرحي له قرابة ثلاث عشرة ساعة. غوته نفسه لم ير المسرحية كاملة. ولم يشاهدها منذ ذلك الوقت إلّا قلة من الناس. فاوست رجل أكاديميٌّ عالمٌ من القرون الوسطى. شخص غزير المعرفة، لكنه لا يفعل الكثير. لم يبلغ الرضا في الحب، ولم يجن أي مال، ولم يحرز أية سلطة. معارفه عقيمة كلها. تبدو له حياته من غير غاية؛ ويتمنّى لو يستطيع أن يموت.

لكن شيطانًا يزوره -اسمه ميفيستوفيليس- ويعرض عليه طاقة لا حدود لها، ومظهرًا وسيمًا، وقدرة على فعل أي شيء يريده. السؤال هو: ما الذي يريد فاوست فعله؟ الخطر الأول في نظر فاوست هو أن يظل رجلًا أكاديميًا يرفض تأثيرات العالم.

يساعده الشيطان فيصير «دودة كتب» إلى أقصى حدٍّ. يصير قادرًا على وضع يده على أقدم المخطوطات وأشدها ندرة. لكنه يملُّ الكلمات ويتوق إلى الفعل.

الخطر الثاني هو أنه سيستخدم قدراته الجديدة بغية إشباع كل شهوة حسّية. وسوف يصير منغمسًا في الملذات انغماسًا خالصًا. يسير فاوست في هذه الدرب مسافة: يذهب إلى حانة حيث يجعل روادها جميعًا في حالة سكر شديد، ثم يذهب في حفلة ماجنة كبرى. ثم لا يلبث أن يدرك أن الجمال والحب هما بغيته الحقيقية، وهذا ما يقود إلى الابتعاد عن الكحول والجنس.

الخطر الثالث هو أن فاوست سيصير زعيمًا سياسيًا واثقًا، لكنه ضحل. إلّا أنه يضع لنفسه غاية كبيرة في الجزء الثاني من المسرحية: يتولى أخيرًا تنظيم إقامة بلد جديد - بلد على غرار ما كانته جمهورية هولندا في أيامه: في ذلك الوقت، كانت هولندا أكثر مجتمعات العالم كله استنارة ونجاحًا.

إن «فاوست» حكاية أخلاقية بالنسبة إلينا جميعًا: يرينا فاوست مزالق الحياة وكيف يمكن أن نتفاداها. يعرف فاوست الكثير، لكنه يرفض أن يكون أكاديميًا؛ وهو يحب الجنس، لكنه لا يتيح سبيلًا إلى الانغماس الزائد في الفسوق. يحب السلطة، لكنه لا يستخدمها لإرضاء جنون العظمة، بل يضعها موضع العمل في خدمة غايات نبيلة.

ليست سيرة فاوست مختلفة عن حياة غوته. وذلك أن فاوست، في جوهر الأمر، يرسم لنا نظرية عن طريقة عيش حياة مليئة. هو مهتم بالأفكار كثيرًا، لكنه ليس باحثًا، يزور إيطاليا، لكنه لا يبقى فيها. يعود إلى العمل، ويجرب الإدارة ويتعلّم كيف يمارس السلطة، لكنه يبلغ الإتقان في هذا الجانب من جوانب نفسه فينتقل إلى شيء آخر. الفكرة الفاوستية هي أن علينا، حتى نتطوّر تطوّرًا كاملًا، أن «نُلاعب» أشياء خطيرة حقًا، لكننا نظل متمسكين بإحساسنا بغايةٍ أسمى.

5 - العلم بالنسبة إلى محبي الفنون

كان غوته آخر أوروبي يفعل هذا الشيء المتميّز: يكتب روايات ومسرحيات عظيمة، ويلعب أيضًا دورًا مهمًا في العلم. امتدت اهتماماته إلى الجيويولوجيا والأرصاد الجوية والفيزيولوجيا والكيمياء. على أن أهم أعماله كان في ميدان علم النبات -نشر في سنة 1790 دراسة حملت عنوان «تحولات النبات» وكتب أيضًا في البصريات والألوان حيث جمع أبحاثه في كتاب اسمه «نظرية الألوان» صدر سنة 1810.

بعد غوته، لم تعرف الحضارة الأوروبية أبدًا هذا الجمع بين الأعمال المهمة في الفنون والآداب من ناحية والدراسة العلمية من ناحية أخرى. يقدّم لنا غوته إشارة إلى السبب الذي جعل هذا يحدث. غوته بطلٌ عند أهل الحساسية الأدبية والفنية ممن تجذبهم -عن بُعد- جملة واسعة من الموضوعات العلمية، لكنهم لا يجدون في تفاصيل العلم الدقيقة ما يغريهم.

يحب غوته العلوم التي تستطيع أن تؤدّيها بنفسك عن طريق النظر المنتبه إلى العالم الذي من حولك.

لقد أجرى قسمًا كبيرًا من أبحاثه في البصريات داخل مكتبه مستخدمًا شموعًا وقطع ورق ملوّنة. وكان يحب ما يمنحه هذا التمرين من قدرة على أن يطرح المرء أسئلة على نفسه: ما الذي أراه حقًا؟ هذا أمر قادر على مقاومة رغبتنا في رؤية ما نتوقّع رؤيته فقط. ثم إنه مفيد أيضًا في تحويل انتباهنا إلى الخارج ليكون ذلك استراحة لنا من انشغال أذهاننا بأنفسنا.

كان غوته شديد الاهتمام بالجانب النفسي في علاقاتنا بذلك النوع من الأشياء الذي يتحرّاها العلم: النباتات والضوء والحجارة. فبدلًا من تجريد هذه الأمور من المعنى الشخصي، يراها غوته مركزية في السعي إلى استكشاف الطبيعة استكشافًا صحيحًا كاملًا.

سَحَره اكتشافه أن لأنواع الصخور المختلفة شخصيات مختلفة. وتأثر كثيرًا بالاستمرارية الكائنة بين حياة البشر وحياة النباتات والحيوانات. فالغاية من دراسة فك الفيل هي استيعاب دروب ارتقائنا. كان غوته يفكّر في الطبيعة البشرية فيراها صقلًا متدرّجًا للطبيعة الحيوانية.

كان لدى غوته قلق شديد إزاء الوجهة التي كان العلم يتّخذها - كان هذا مرتبطًا خاصة بعمل إسحاق نيوتن. رأى غوته أن ذلك العالم الأكاديمي المحترف غير مهتم بالمعنى الشخصي للأشياء التي يدرسها. لا يعني غوته بهذا أن نيوتن كان مخطئًا من الناحية «الفنية». المسألة هي أن وجهة عمل نيوتن لم تعجبه.

خلاصة

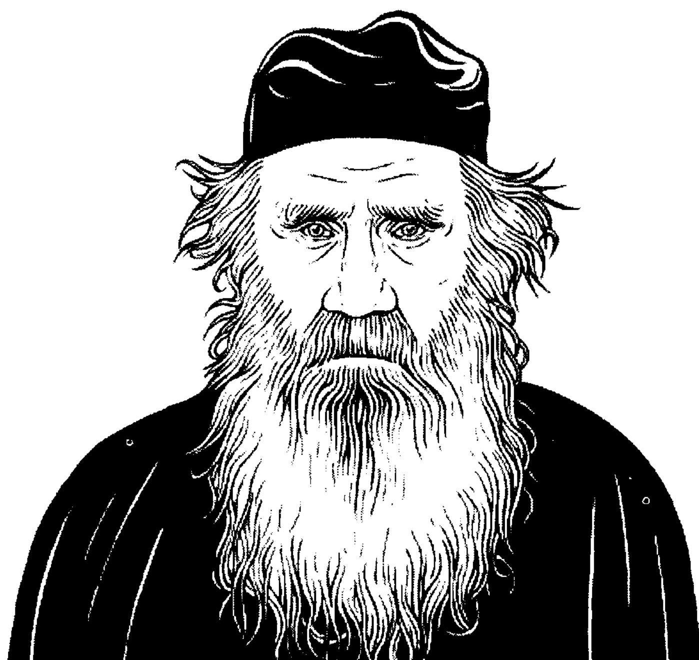
واصل غوته العمل مع تقدّمه في السن. وواصل التماس الحب... والجنس أيضًا. مات في بيته في فايمار سنة 1832. وكان في الثالثة والثمانين.

إن لدينا الكثير الكثير مما نتعلّمه من غوته. لا نسمع أشخاصًا كثيرين يعلنون عن رغبتهم في أن يكونوا، قليلًا، «مثل غوته». وأما إذا فعلنا ذلك، فسوف يصير العالم مكانًا أكثر حيوية وبشرية.

ليو تولستوي

(Leo Tolstoy)

1910 - 1828



ما كان ليو تولستوي يقدم رواياته لتصير مصدر تسلية، بل اعتبرها أداة إصلاح وتثقيف نفسي.

ففي نظره، كانت الرواية الواسطة الأعلى التي نستطيع بها أن نعرف الآخرين، وأن نعرف خاصة من قد يبدون لنا من الخارج أشخاصًا مُنفّرين؛ فهذا ما يزيدنا إنسانية وتسامحًا.

ولد تولستوي سنة 1828 في ياسنا بوليانا، وهي عزبة عائلية ضخمة واقعة على مسافة مئة ميل إلى الجنوب من موسكو. وسوف يظل مقيمًا في ذلك المكان طيلة حياته.

مات والداه عندما كان يافعًا، فنشأ على أيدي أقاربه. تعثّر في دراسته الجامعية. وقد وصفه واحد من المحاضرين في الجامعة بأنه «غير قادر على التعلم، وغير راغب فيه». أنفق بضع سنوات في القمار والشرب وملاحقة الغجريات قبل أن يلتحق بالجيش ويصير ضابط مدفعية إبّان حرب القرم.

تزوّج في أوائل الثلاثينيات. وكانت زوجته، صوفيا، منحدرة من أسرة راقية رفيعة الثقافة. كان عمرها ثمانية عشر عامًا فقط. أنجبا ثلاثة عشر طفلًا لم يعش منهم بعد فترة الرضاعة إلّا تسعة.

كان زواجًا صعبًا شابَتْه خلافات كبيرة في ما يخص الجنس، وكان وقع ذلك مُرًّا على الطرفين. أطال ليو لحيته كثيرًا، وصار مهووسًا بالتمرينات الرياضية، ويمضي أكثر وقته في غرفة مكتبه.

وأما ما فعله في غرفة مكتبه تلك فهو تأليف كتب كثيرة لقيت نجاحًا هائلًا، وكان من بينها خاصةً روايات «الحرب والسلم» و«آنا كارينينا» و«موت إيفان إيليتش».

لم يكن تولستوي مؤمنًا بفكرة الفن من أجل الفن؛ بل كان عميق التمسك باعتقاد مفاده أن على الفن الجيد أن يجعلنا أقلَّ وعظًا بالأخلاق وأقلَّ ميلًا إلى الحكم على الناس؛ وينبغي أيضًا أن يكون مُكمّلًا للدين من حيث تنمية ما لدينا من لطف وأخلاق. كثيرًا ما يتجاهل النقاد الحديثون هذا الجانب، أي هذه المهمة الأخلاقية التي يلقيها تولستوي على نفسه -هم لا يريدون تلويث الفن بأية «رسالة» إلا أن هذا هو أكثر الجوانب أهمية لدى تولستوي؛ ولا سبيل إلى تقدير عمله حق قدره من غير تذكّره دائمًا.

كانت «الحرب والسلم» أول رواية عظيمة من روايات تولستوي. وقد نشرها في سنة

1869 عندما كان في الحادية والأربعين من العمر. نلتقي فيها ناتاشا روستوف، شابة حرّة الروح، كلها بهجة.

تتم في البداية خطبة ناتاشا إلى أندريه، وهو رجل لطيف مخلص يحبها حبًّا عميقًا، لكنه أيضًا شخص «متجنِّب» وبعيد من الناحية العاطفية. وخلال سفرة لأندريه إلى إيطاليا، تلتقي ناتاشا شخصًا عابثًا متهكّمًا وسيمًا اسمه أناتولي فتقع تحت تأثير سحره. يكاد أناتولي يفلح في إغوائها وإقناعها بالهرب معه؛ لكن أسرتها تتمكّن من وقفها في اللحظة الأخيرة. يغضب الجميع من ناتاشا، ويهولُهم ما فعلته. إن من شأن هذا الجنون أن يدمّر آفاق حياتها وأن يلحق العار بعائلتها.

وفق القوانين السائدة في العالم، يمكن القول إن ناتاشا فشلت فشلًا ذريعًا. وإذا صادفنا خبرًا عن امرأة من هذا القبيل فقد نستنتج سريعًا أنها في وضع لا يتيح أي إمكانية طبيعية للتعاطف معها. لقد كان لديها الكثير جدًا، فلم تفكر إلا في نفسها، ثم لقيت ما استحقته.

على أن تولستوي يرى أننا إذا أدركنا كيف كانت الأمور في داخل عقل ناتاشا، فسنجد أنفسنا غير قادرين على حرمانها من تعاطفنا، ولا راغبين في حرمانها منه.

> فالحقيقة أنها ليست امرأة طائشة، أو مُفرطة التساهل مع نفسها، أو مفتقرة إلى الإخلاص افتقارًا كليًا. هي ليست أكثر من شابة من غير خبرة جنسية تشعر بالهجران والبعد من جانب حبيبها الذي يظل ذهنه دائم الانشغال. إنها امرأة ذات تلقائية عميقة وطبيعة دافئة، ويسهل أن تنجرف مع السعادة والبهجة. ثم إنها حريصة كثيرًا على ألّا تخذُل أحدًا؛ وهذا ما يقودها إلى التورط في المتاعب مع أناتولي الخبيث الذي تلاعب بها.

يبقينا تولستوي في صف ناتاشا. وبفعله هذا، يجعلنا نتمرّن على أمر يَعتقدُ أنه في أساس الحياة الأخلاقية: إذا رأينا الحياة الداخلية عند الآخرين رؤية أكثر دقة، فليس ممكنًا أن نراهم باردين أو أحاديي الجانب مثلما يظهرون لنا عادة - ولسوف نعاملهم باللطف الذي يستحقونه ويحتاجون إليه حقًا. لا ينبغي أن يكون أحد واقعًا خارج دائرة التفهّم والصفح.

إن على الرواية مهمة خاصة -في نظر تولستوي- هي أن تساعدنا في فهم ما ندعوه شخصيات «مُنفّرة». إن من أكثر الشخصيات المثيرة للنفور -أول الأمر- في كتاباته زوج آنا كارينينا، بطلة الرواية العظيمة التي تحمل الاسم نفسه: إنه كارينين الجامد، المعجَب بنفسه. تحكي هذه الرواية التراجيدية قصة آنا المتزوجة، الحيوية، ذات القلب

السمح كثيرًا، التي تنهار حياتها عندما تقع في هوى فرونسكي - ضابط خيالة شاب رائع.

إن زوج آنا -الكونت ألكسي ألكساندروفيتش كارينين- مسؤول حكومي كبير، سيئ الطبع، كثير الجلبة، شديد الإعجاب بمكانته، وكثيرًا ما يكون قاسيًا على آنا وغير قادر على تلبية أي شيء مما تتوق إليه عاطفتها. ومع نمو العلاقة بين آنا وفرونسكي، يكون أكبر ما يثير قلق زوجها هو أن تلك العلاقة يمكن أن تؤدّي إلى نمائم اجتماعية من شأنها أن تؤثّر سلبًا على مكانته الاجتماعية العامة. يظهر كارينين وكأنه من دون مشاعر على الإطلاق حتى تجاه زواجه نفسه. يظل على حاله: باردًا، فظًا.

لكن آنا تلد طفل عشيقها، ثم تقع فريسة المرض. وفي مشهد مؤثّر، نرى كارينين متأثّرًا تأثّرًا عميقًا، ونراه يبكي من أجل الطفل الوليد، ومن أجل أمه، ويصفح عن آنا:

> [تقول آنا]: «لا، لا يمكنك أن تصفح عني!». على أنه يحسّ فجأة... حالةً روحية هنيّة تهَبهُ على الفور سعادةً جديدة لم يعرفها من قبل... تملأ قلبه مشاعرُ سعيدة، مشاعر الحب والصفح عن أعدائه. يركع ويسند رأسه إلى ثنية ذراع آنا... وينتحب كأنه طفل صغير.

كارينين الذي كان باردًا حتى ذلك الحين، يقع في حب طفل آنا:

> أحسَّ عاطفة عجيبة تمامًا إزاء الوليد الصغير... لم تكن شفقة فقط، بل رقة أيضًا. كان مهتمًا، أول الأمر، بذلك المخلوق الصغير الرقيق انطلاقًا من إحساسه بالعطف وحده... وكان يذهب إلى مهده مرات كثيرة في اليوم الواحد... يجلس أحيانًا نصف ساعة يحدّق صامتًا في الوجه المتغضّن المزغب للرضيع النائم، ويرقب حركات حاجبيه عندما يعبس، واليدين الصغيرتين الممتلئتين بأصابعهما الممتلئة وهما تدعكان العينين والأنف الصغير.

بفضل حصافة تولستوي، نرى في هذا الرجل جانبًا ما كان متوقّعًا أبدًا. حياته الداخلية ليست مثلما نظنّها عندما نحكم عليها من الخارج، ليست كذلك على الإطلاق. لكن فكرة تولستوي هي أن كارينين هذا ليس، في حقيقة الأمر، شخصية استثنائية من هذه الناحية. هو ليس أكثر من المزيج المعتاد مما هو سيئ وما هو حسن. ومن المعتاد كثيرًا أن يكون لدى أشخاص كريهين أو منفّرين بعض الشيء احتياطي كبير من الرقة الدفينة في نفوسهم: إن في شخصياتهم أبعادًا شديدة الاختلاف، بل غالبًا ما تكون ألطف كثيرًا مما يوحي به مظهرهم الذي لا جاذبية فيه أبدًا.

يدعونا تولستوي إلى رحلة مماثلة مع شخصية أخرى من شخصياته القصصية

هي بطل رواية «موت إيفان إيليتش» (صدرت سنة 1886). نتعرّف على إيفان في أول الرواية. إنه قاضٍ في محكمة عليا، شخص في قمة المجتمع يبدو لنا أنانيًا، متهكّمًا، عابثًا. لكن إيفانً هذا يرتقي سُلّمًا في يوم من الأيام لكي يساعد في تعليق الستائر فيسقط ويشعر بألم داخلي كان العلامة الأولى من علامات مرض، سرعان ما يشخّصه الأطباء على أنه مرض قاتل. لن تكون أمامه إلّا بضعة أشهر يحياها. ومع اقتراب موته، يمضي إيفان شطرًا كبيرًا من الوقت جالسًا على أريكة في بيته.

كان اهتمام أفراد أسرته منصبًّا كله على الأثر غير المواتي الذي سيكون لموته على مركزهم الاجتماعي والمالي، فيكرهونه ويكرهون مرضه. يعود في نظرهم رجلًا قصير القامة، رديء الطبع. لكن إيفان يمر، في داخله، بسلسلة تجلّيات. ينظر خلفًا إلى حياته ويتحسّر لما يراه من ضحالتها. ينشأ لديه إحساس جديد إزاء الطبيعة – وكذلك إزاء اللطف المعتاد الذي يبديه له خادمه: رجل ريفي، متواضع، غير متعلّم. ينتابه الغضب نتيجة الطريقة الغبية التي يتجنّب بها الجميع إيلاء الحقيقة الجوهرية الوحيدة في الحياة أيّ اهتمام: كلنا فانون. ندرك هنا أن أخلاقنا ينبغي أن تأتي دائمًا قبل عقولنا، وينبغي أن تُلهمنا لطفًا وتعاطفًا دائمين. ومع موته، يتخيّل تولستوي أن إيفان ينتهي إلى الإحساس أخيرًا بالشفقة على كل من حوله، والصفح عنهم.

وكما هو مألوف في كتابته، يسرد تولستوي تفصيلًا تلك الدراما الواسعة، النفسية والفلسفية، الجارية داخل رأس بطله. لا يرى كل من حوله -الأطباء وأفراد الأسرة- شيئًا غير رجلٍ نكِدٍ مكفهرٍّ يُمضي أكثر الوقت مديرًا وجهه إلى الحائط ويقول دائمًا: «اذهبوا عني، واتركوني وحدي»... رجل يعوي بؤسًا بعض الأحيان؛ لكننا نستطيع رؤية شخص صاحب رؤية، نبيًا، رجلًا ذا كرم وشجاعة أخلاقية متميزين. عندما يكتب تولستوي عن إيفان، يريد منا أن نرى في حياته تمثيلًا للإمكانيات البشرية كلّها... ليتنا فقط نكون قادرين على الوصول إليها قبل أن يتأخّر الوقت كثيرًا!

***

عندما بلغ تولستوي السبعين من العمر، جمع أفكاره عن كون المرء كاتبًا وصبّها في مقالة طويلة جعل عنوانها «ما الفن؟».

هذا واحد من أهم كتب تولستوي؛ فهو يذهب فيه إلى أنه لا بد للفن من رسالة عظيمة. فمن خلال الفن العظيم، يقول لنا تولستوي إن «المشاعر الوضيعة -الأقل لطفًا، والأقل لزومًا لخير البشرية- تصير مُرغَمةً على تركنا لتحلّ محلّها مشاعر أكثر رقّة ولطفًا وأفضل خدمة لنا، أفرادًا وجماعة» بفعل الفن العظيم، «هذه هي غاية الفن».

ولما كان تولستوي كاتبًا فائق البراعة والقدرة على إغراء القارئ، فقد عرف أن الروايات ينبغي أن تكون مسلية، وإلّا فلن نهتم بقراءتها. لكنه مقتنع أيضًا بأن على الروايات أن تتطلّع إلى أن تكون شيئًا آخر أيضًا: أن تكون عونًا أساسيًا لسيرِنا المتعثّر على طريق النضج ولطف الروح. وهي قادرة على فعل هذا لأنها تستطيع النفاذ إلى مكان نادرًا ما نعثر على السبيل إليه، مع شدّة حاجتنا إلى ذلك: إنه الحياة الداخلية لدى الأشخاص الآخرين.

لقد تناول أكثرُ ما كتبه تولستوي في «ما الفن؟» أعمال مؤلفين آخرين؛ لكنه يلخّص فيها -تلخيصًا متواضعًا، غير مباشر- ما أنجزه هو نفسه. لا يجوز أبدًا للكتّاب الكبار بأن يكتفوا بمساعدة القراء على تزجية الوقت. ينبغي أن تكون كتابتهم نوعًا من معالجة، أو محاولةً لتثقيفنا بطريقة تمنحنا صحة انفعالية وحسًّا أخلاقيًا سليمًا.

ازداد التوتر بين ليو وزوجته مع تقدّمهما في السن. بات يشتكي من أن لديهما «أفكارًا عن معنى الوجود متعارضة تعارضًا تامًا». لكنه ظلّ مصرًا على أنه باقٍ على حب صوفيا مع أنها «تزداد تجبُّرًا، وسرعة غضب، وبُعدًا عن أي ضبط». لكنه يُقرُّ بأنه نفض يده من محاولة التعبير لها عن مشاعره. كتب يقول: «ما من مأساة أكبر من مأساة فراش الزوجية». وأخيرًا، بعد أن تجاوز عمره ثمانين عامًا، لم يعد تولستوي قادرًا على احتمال المزيد، فهجر زوجته وأسرته. فرّ هاربًا عند منتصف ليلة صقيعية من ليالي شهر تشرين الثاني، فأصابه التهاب رئوي ومات في محطة السكك الحديدية حيث كان جالسًا ينتظر قدوم القطار.

كانت جنازة تولستوي واحدًا من الحوادث العامة الكبرى. شارك فيها آلاف الناس من روسيا ومن أنحاء العالم.

كانت هذه المشاركة الواسعة في محلّها نظرًا لضخامة النتائج الاجتماعية لما هو موجود في جوهر ما طرحه تولستوي. لقد أدرك أن الصورة التي لدينا عن حقيقة الأشخاص الآخرين أشبه بقوة محرّكة عظيمة في العلاقات البشرية، وفي الاقتصاد والسياسة. لقد حمل الفكرة «المعذِّبة» القائلة إن الفن قادر على أن يكون سبيلًا رئيسيًا إلى تكوين أفكار أكثر دقة -وأكثر لطفًا، أكثر الأحيان- عما هو جارٍ في عقول الآخرين (وفي حياتهم).

نُقل جثمانه إلى بيته ودُفن في حديقته تحت بضع أشجار كان يحب اللعب تحتها في طفولته.

مارسيل بروست

(Marcel Proust)

1922 ـ 1871



كان مارسيل بروست كاتبًا فرنسيًا في أوائل القرن العشرين؛ وهو مسؤول عن الرواية التي تعتبر رسميًا أطول رواية في العالم: «البحث عن الزمن المفقود». رواية مؤلّفة من 1,267,069 كلمة، أي ضعفي عدد كلمات «الحرب والسلم» لتولستوي.

صدر الكتاب باللغة الفرنسية في سبعة أجزاء، وذلك على امتداد أربعة عشر عامًا. وقد حملت أجزاؤه العناوين التالية:

«بجانب منزل سوان»، 1913.

«في ظلال ربيع الفتيات»، 1919.

«جانب منزل غورمان»، 1920.

«سدوم وعمورة»، 1922.

«السجينة»، 1923.

«البرتين في الشتات»، 1925.

«الزمن المستَعاد»، 1927.

جرى الإقرار على الفور بأن الرواية واحدة من التحف الأدبية؛ واعتبرها كثيرون أعظم عمل أدبي في القرن العشرين، بل رأى آخرون أنها أعظم الأعمال الأدبية على الإطلاق.

ما يجعل الكتاب عملًا خاصًا إلى هذا الحد هو أنه ليس رواية بالمعنى السردي المباشر. إنه عمل يُطعِّم الوصف ذا السوية العبقرية للناس والأشخاص بفلسفة متكاملة في الحياة.

إن في عنوان الكتاب إشارة إلى هذا: البحث عن الزمن المفقود (*À La recherche du temps perdu*).

يحكي الكتاب قصة رجل واحد - هو نسخةٌ عن الكاتب نفسه لا يكاد يخفيها إلّا حجاب رقيق- وذلك في مجرى بحثه المتصاعد عن معنى الحياة وغايتها. يحكي لنا عن سعيه إلى الكف عن تبديد الوقت وإلى بدء تقدير قيمة الوجود.

أراد مارسيل بروست أن يكون كتابه عونًا لنا. لقد كان أبوه -أدريان بروست- واحدًا من أهم أطباء زمانه، وهو من أنهى مرض الكوليرا في فرنسا. وفي مرحلة متأخّرة من حياته، قال ابنه مارسيل لمدبرة المنزل سيلست (كان مارسيل يعيش على مال أبيه بعد أن

خيّب أمل أسرته لأنه لم يستطع الاستقرار في أي عمل على الإطلاق): «ليتني أستطيع أن أقدّم للبشرية، عن طريق كتبي، مثل ما قدمه أبي من خلال عمله طبيبًا». الخبر المهم هو أنه حقّق أمنيته، وأكثر.

ترسم رواية بروست مسار الاستكشاف المنهجي لثلاثة منابع محتملة لمعنى الحياة.

المنبع الأول هو **النجاح الاجتماعي**.

لقد ولد بروست لأسرة برجوازية مرتاحة مادية؛ لكنه بدأ يفكر منذ أيام مراهقته في أن معنى الحياة يمكن أن يكون كامنًا في الانتماء إلى عليّة المجتمع. وكان معنى هذا في أيامه الالتحاق بعالم الأرستقراطيين بدوقاته وأمرائه. ليس لنا أن نعتبر أنفسنا متفوّقين لأن أولئك الناس لا يثيرون لدينا أدنى اهتمام. فمن المحتمل كثيرًا أن نجد أنفسنا منزلقين إلى الميل نفسه نحو الفئة المعادِلة لها في زماننا الحاضر: المشاهير، و«حيتان الأعمال».

أمضى الراوي سنوات في محاولة شق طريقه صعودًا في التراتبية الاجتماعية. ولما كان شابًا ساحر الشخصية، واسع المعرفة، فقد صار آخر الأمر صديقًا لشخصيتين كبيرتين في المجتمع الباريسي الراقي، الدوق والدوقة دو غيرمان.

لكنه لم يلبث أن أدرك حقيقة أثارت اضطرابه. فهذان الشخصان ليسا بالنموذج المثالي المتفوّق مثلما تخيّلهما. أحاديث الدوق مضجرة، خالية من أي إحساس. والدوقة قاسية القلب، عديمة الاهتمامات، على الرغم من لياقتها الشديدة.

ملّ مارسيل هذين الشخصين، وملّ دائرتهما الاجتماعية. أدرك أن الفضائل والرذائل موزعة بين الناس جميعًا بصرف النظر عن دخلهم أو شهرتهم. صار الآن حرًا في أن يكرس نفسه لمجموعة أوسع من البشر. ومع أن بروست ينفق صفحات كثيرة في هجاء العجرفة والتكبّر الاجتماعيين، إلّا أن هجاءه مشبع بالتفهم وبالتعاطف الكامن تحت السطح. إن الدافع إلى تسلّق السلم الاجتماعي غلطة طبيعية جدًا... في شباب المرء خاصة. فمن الطبيعي الظن بأنه قد تكون هناك طبقة من أشخاص متفوّقين في مكان ما في هذا العالم، وبأن حياتنا يمكن أن تكون بليدة لأننا، من حيث الأساس، نفتقر إلى العلاقات المناسبة. إلّا أن رواية بروست تقدّم إلينا فكرة مطَمئنة قاطعة: الحياة الحقيقية لا تجري في مكان آخر، بل هنا.

الأمر التالي الذي يستكشفه الراوي لدى بروست في مجرى بحثه عن معنى الحياة هو **الحب**.

ففي الجزء الثاني من الرواية، يذهب الراوي إلى شاطئ البحر مصطحبًا جدته فيقصدان منتجع كابورغ ذا الشهرة الواسعة (مثل باربيدوس في زماننا هذا).

وهناك، يُفتتن افتتانًا جارفًا بفتاة مراهقة جميلة اسمها ألبرتينا. فتاة قصيرة الشعر، لها ابتسامة صبيانة وأسلوب كلام يتّسِم بتلقائية ساحرة.

وعلى امتداد ثلاثمئة صفحة، نرى الراوي غير قادر على التفكير في شيء غير ألبرتينا. لا بد أن معنى الحياة كامن في حبها. لكن مرور الوقت لا يلبث -هنا أيضًا أن يأتي بخيبة الأمل. تأتي لحظة يتمكّن فيها الراوي أخيرًا من تقبيل ألبرتينا:

> يا رجل!... كائنٌ من الواضح أنه أكثر بدائية حتى من قنفذ البحر، بل حتى من الحوت... كائن يفتقر إلى عدد من الأعضاء الأساسية، ويفتقر خاصة إلى أي شيء مما يستخدم في التقبيل. كائن يستبدل شفتيه بذلك العضو المفقود؛ ولعله يحقق بهذا نتيجة أفضل قليلًا من مداعبة محبوبه بأنيابه الصلبة...

غاية الحب النهائية -في نظر بروست- هي أن نكفّ عن كوننا وحيدين، وربما أن نتمكّن من صهر حياتنا مع حياة شخص آخر يفهم كل شيء فينا. إلّا أن الرواية تصل إلى نتيجة قاتمة: ما من أحد قادر على فهم أحد آخر فهمًا تامًّا. الوحدة مستوطنة فينا. ونحن رحّالة غرباء متوحّدون يحاولون تقبيل الآخرين «قبلات الأنياب» تلك في الظلام.

يصل بنا هذا إلى المنبع الثالث من بين المنابع الثلاثة المرشّحة لأن تكون هي ما يعطي الحياة معناها، إلى المرشح الناجح الوحيد: الفن.

بالنسبة إلى بروست، يستحق الفنانون العظام تقديرنا لأنهم يجعلوننا نرى العالم بطريقة منعشة، حيّة، تستطيع تقديره حق قدره.

وأما نقيض الفن عند بروست فهو شيء يسميه «الاعتياد». ففي نظره، يفسد القسم الأكبر من حياتنا بفعل ستارة -أو حجاب- الاعتياد والألفة اللذين ينسدلان بيننا وبين كل ما له أهمية. إنه يبلّد أحاسيسنا ويحرمنا من الاستمتاع بكل شيء، من جمال غروب الشمس، إلى العمل، إلى الأصدقاء.

لا يعاني الأطفال داء الاعتياد. وهذا ما يجعلهم متحمّسين لكل شيء مهمٍّ -وإن يكن بسيطًا كبُرك الماء، والقفز على السرير، والرمل، والخبز الطازج.

وأما نحن الكبار، فقد فسدنا فسادًا لا يُغتفر؛ وهذا ما يجعلنا نبحث دائمًا عن «مُحفّزات» أكثر قوة (كالشهرة أو الحب).

يرى بروست أن الحلّ كامن في استعادة القدرة على الإعجاب، أي في أن نستعيد قدرة الطفولة هذه بعد أن نكبر، لكي نزيح حجاب الاعتياد فنبدأ النظر إلى الحياة اليومية بعين جديدة حساسة أكثر امتنانًا.

يرى بروست أن في الناس مجموعة تفعل هذا الأمر دائمًا: إنهم الفنانون.

فالفنانون أشخاص يزيحون الاعتياد بعيدًا، ويعيدون إلى الحياة ما تستحقّه من مجد. على سبيل المثال، يحدث هذا عندما يولي الفنان زنابق الماء أو محطات الوقود قدرًا وافرًا من الاهتمام.

لا يقول بروست إن علينا جميعًا بالضرورة أن نصنع فنًا، أو أن نكون ممن يكثرون ارتياد المتاحف. فهو يريد جعلنا ننظر إلى العالم، إلى عالمنا هذا، بشيء من السماحة والكرم اللذين ينظر بهما الفنان، فهذا ما من شأنه أن يعني اكتشاف المتعة في أشياء بسيطة - كالماء، أو السماء، أو عمود نور ساقط على جدار خشن.

ليس من المصادفة في شيء أن يكون فيرمير الرسام المفضَّل لدى بروست: فنان كان يعرف كيف يستخلص السحر والقيمة من العادي واليومي.

إن روح فيرمير معلّقة فوق رواية بروست؛ فهي أيضًا روح كرّست نفسها لمشروع مُصالحتنا مع شروط الحياة العادية - يصف بعضٌ من أكثر المقاطع جاذبية لدى بروست سحرَ ما هو يومي: القراءة في القطار، وقيادة السيارة في الليل، ورائحة الأزهار في الربيع، والنظر إلى تغيرات نور الشمس على سطح البحر.

اشتهر بروست بكتابته عن الكعكات الصغيرة اللذيذة في فرنسا، تلك الكعكات المسماة: «مادلين».

سبب هذا أن له علاقة بأطروحته عن الفن والاعتياد. ففي مرحلة مبكرة من الرواية، يخبرنا الراوي بأنه كان يشعر بالحزن والاكتئاب برهة من الزمن، ثم جاء يوم تناول فيه فنجانًا من شاي الأعشاب مع المادلين - وفجأة، حمله ذلك المذاق وارتحل به خلفًا في الزمن (مثلما تفعل النكهات أحيانًا)، إلى سنيّ طفولته عندما صبيًا صغيرًا يمضي الأصياف في بيت خالته في الريف. يعود إليه تيار من الذكريات فتمتلئ نفسه أملًا وعرفانًا.

وبفضل كعكات المادلين، عاش الراوي في روايةبروست ما صار يُعرف منذ ذلك الوقت بـ«**اللحظة البروستية**»: لحظة تذكُّر مفاجئ، حاد، لا إرادي، ينبثق فيها الماضي منطلقًا من رائحة أو طعم أو ملمس.

ومن خلال هذه الطاقة التي تستحضر صورًا ومشاعرَ إلى الذهن، تُعلّمنا اللحظة البروستية أن الحياة ليست بالضرورة بليدة، خالية من الإثارة - كل ما في الأمر هو أن المرء ينسى أن ينظر إليها بالطريقة الواجبة: نحن ننسى كيف هو الإحساس بأن نكون أحياء، أحياء كليًا.

إن لحظة الشاي لحظة محورية في الرواية لأنها تبيّن كل ما يريد بروست تعليمنا إياه

عن تقدير الحياة بقوة أكبر. إنها تساعد الراوي في إدراك في أن ما هو «صغير الشأن» لم يكن حياته نفسها، بل الصورة التي لديه عن تلك الحياة في ذاكرته الواعية القصدية.

السبب الذي يمكن أن يجعلنا نحكم على الحياة بأنها تافهة، قليلة الشأن، مع أنها تبدو لنا، في بعض اللحظات، رائعة الجمال، هو أننا عادة ما نصوغ أحكامنا لا انطلاقًا مما تقدّمه الحياة نفسها، بل انطلاقًا من صور مختلفة تمام الاختلاف ليس فيها شيء من الحياة. هذا ما يجعلنا نحكم عليها بطريقة تنتقص منها كثيرًا.

وهذا ما يجعل الفنانين مهمّين كثيرًا. فعملهم يشبه لحظة بروستية طويلة. إنهم يذكّروننا بأن الحياة جميلة حقًّا، وبأنها معقّدة، وساحرة؛ أي إنهم يبددون عنا ما يعترينا من ضجر وجحود.

إن فلسفة بروست عن الفن معروضة في كتاب يمكن اعتباره، بحد ذاته، مثالًا على ما يقوله لنا: إنه عمل فني يوقظ فينا جمال العالم وكل ما يجعلنا مهتمين به.

تقرأ هذا الكتاب، فتستيقظ أحاسيسك من جديد. تنتبه من جديد إلى آلاف الأشياء التي عادة ما تنسى أن تلاحظها. إنه يجعلك حينًا من الوقت- شخصًا ذكيًا حسّاسًا مثلما كان الكاتب نفسه. ولهذا السبب نفسه، علينا أن نحرص على قراءة بروست، أي على قراءة مليون ومئتي ألف كلمة قادرة على منحنا الحياة... كلمات كان شديد البراعة في تأليفها.

فيرجينيا وولف

(Virginia Woolf)

1882 ـ 1941



كانت فيرجينيا وولف كاتبة مهتمة، قبل أي شيء آخر، بأن تلتقط كلماتها الجمال والألم والإثارة والذعر في زمانها الذي أطلقت عليه «العصر الحديث». ولدت سنة 1882، وكانت مدركة أنها كاتبة حداثية متميّزة تقف على طرفي نقيض مع فرضيات أدب القرن التاسع عشر، تلك الفرضيات الرصينة الراضية عن نفسها كل الرضا.

لقد أدركتْ أن زمنًا جديدًا -زمنًا متّسمًا بالتنمية الحضرية الفائقة، وبتطور التكنولوجيا والأسلحة والنزعة الاستهلاكية والحياة العائلية- سوف يكون في حاجة إلى أن يعبّر عنه كاتب من نوع مختلف تمامًا. كانت مبدعة جدًا -مع بروست وجيمس جويس- في بحثها عن أشكال أدبية جديدة قادرة على أن تفي تعقيدات الأدب الحديث حقّها. إن في كتبها ومقالاتها قدرة على إيصال ما في القرن العشرين من نشوة ودراما.

ولدت فيرجينيا وولف في لندن: كان أبوها كاتبًا شهيرًا، وكذلك متسلّق جبال شهيرًا؛ وكانت أمها عارضة أزياء معروفة. وقد اعتادت أسرتها أن تستضيف أهم أعضاء جمعية الأدب الفيكتوري وأشدّهم تأثيرًا. لكن فيرجينيا ظلّت شديدة الميل إلى التهكم والسخرية من تلك الشخصيات الكبيرة؛ وكانت تتهمها بالخيلاء وضيق الأفق. لم يُسمح لفيرجينيا وشقيقتها بالالتحاق بجامعة كامبردج التي التحق بها أشقاؤهما، فبات عليهما أن تسترقا ثقافتهما استراقًا في مكتب أبيهما.

ماتت أمها عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها فأصابتها أول سلسلة من الانهيارات العقلية التي ستظل تعاوِدها طيلة حياتها - كانت تلك الانهيارات عائدة في جزء منها إلى الإساءات الجنسية التي لقيتها من جانب أخيها غير الشقيق جورج داكوورث.

صارت صحافية على الرغم من مرضها، ثم صارت روائية - صارت أيضًا شخصية مركزية في مجموعة «بلومزبري» التي كان من أعضائها جون ماينارد كينز وإ. م. فورستر وواينن ستريتشي. تزوجت واحدًا من أعضاء الجمعية: الكاتب الصحافي ليونارد وولف.

اشترت مع ليونارد آلة طباعة يدوية صغيرة أسمياها «هوغارث برس»، وراحا يصدران الكتب من غرفة الطعام في بيتهما. طبعًا روايات وولف الراديكالية، ومقالات سياسية، في وقت ما كان أحد يقبل طباعتها. أنتجا أيضًا أول طبعة إنكليزية كاملة من أعمال فرويد.

في أربع سنوات فقط، خلال الفترة الفاصلة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، كتبت وولف أربعة من أشهر أعمالها: «السيدة دالاوي» (1925)، و«إلى المنارة» (1927)، و«أورلاندو» (1928)، ومقالة على شكل كتاب بعنوان «غرفة لها وحدها» (1929).

وفي شهر آذار من سنة 1941، شعرت بأنها موشكة على الإصابة بنوبة جديدة من نوبات مرضها العقلي فأغرقت نفسها في نهر آوس.

إن في أعمالها أمورًا فائقة الأهمية أرادت تعليمنا إياها:

1 ـ انتبه إلى كل شيء

كانت وولف من أهم ملاحظي الأدب الإنكليزي. ولعل أرفع قطعة نثر قصيرة كتبتها هي مقالتها، «موت الفراشة»، المنشورة سنة 1942. تكتب فيها ما لاحظته وهي جالسة في غرفة مكتبها ترقب فراشة صغيرة عالقة تحت زجاج النافذة. نادرًا ما استخلص أحد هذا القدر كلّه من الأفكار العميقة من أمر يبدو صغيرًا إلى هذا الحد (مع أنه ما كان هناك أبدًا أي شيء صغير في نظر وولف):

> لا يستطيع المرء منع نفسه من مراقبتها. بل إن إحساسًا غريبًا من الشفقة ينتابه تجاهها. كان صباحًا واعدًا باحتمالات سعادة كثيرة جدًا، متنوّعة جدًا، حتى إن لم يكن للمرء نصيب من الحياة أكثر من نصيب فراشة... لكن يوم الفراشة بدا قدَرًا قاسيًا، وبدت حماستها للاستمتاع بفرصها الضئيلة إلى أقصاها محاولات محزنة. طارت نشطة إلى إحدى زوايا حبسها، ثم انتظرت هناك لحظة لم تلبث بعدها أن طارت إلى الزاوية الأخرى؛ ماذا بقي لديها بعد هذا غير أن تطير إلى الزاوية الثالثة، ثم إلى الرابعة؟ كان هذا كل ما هي قادرة عليه على الرغم من اتساع السماء ومن رائحة دخان البيوت الآتية من بعيد، ومن صوت رومانسي ينبعث من حين لآخر... صوت سفينة في البحر.

كانت وولف تلاحظ كل شيء مما نميل، أنا وأنت، إلى تجاوزه: السماء، والألم في أعين الآخرين، وألعاب الأطفال، وصبر الزوجات، ومباهج المتاجر الكبيرة، ومشاغل الموانئ والأرصفة... لعل إيمرسون (واحد من كتّابها المفضلين)، كان عموميًا في كلامه، لكنه التقط كل ما يجعل وولف متميزة عندما قال: «في أعمال كاتب عبقري، نكتشف من جديد أفكارنا التي أهملناها».

وفي مقالة عظيمة أخرى بعنوان «في المرض»، تأسف وولف لندرة تنازل الكتّاب لكي يصفوا المرض... تغاضٍ يبدو علامة على التكبّر على أدب الحياة اليومية:

اللغة الإنكليزية القادرة على التعبير عن أفكار هاملت، وعن مأساة الملك لير، لا كلمات عندها لوصف الصداع ورعشات الحمّى... عندما تقع أبسط الفتيات في الحب، تجد لديها شكسبير ودون وكيتس يحدّثونها عما في ذهنها. لكن من يعاني ألمًا في رأسه يجد أن اللغة تنضب سريعًا عندما يحاول أن يصف للطبيب حالَهُ.

هذه ستكون رسالتها: حاولت وولف على امتداد حياتها كلّها أن تجعل اللغة قادرة على أداءٍ أفضل عندما نريد أن نحدّد من نحن حقًّا، بكل ما فينا من هشاشات وارتباكات وأحاسيس جسدية.

ارتقت وولف بحساسيتها إلى أعلى شكل فني. كانت لديها الثقة والجدية الكافيتين لأن تستخدم ما يحدث لها -التفاصيل الحسية في حياتها نفسها- أساسًا للأفكار الكبيرة.

2 ـ تقبّل اليومي

كانت وولف عميقة دائمًا، لكنها لم تخش أبدًا ما يعتبره الآخرون تافهًا أو قليل الشأن. كانت واثقة من أن تطلعات عقلها -إلى حب الجمال وعيش الأفكار الكبيرة- متّفقة اتفاقًا تامًا مع الاهتمام بالتسوّق والحلوى والقبّعات... تلك الموضوعات التي كتبت عنها بعمق وطلاقة يكادان يكونا فريدين.

وفي مقالة أخرى من مقالاتها ذات الجودة المتميزة اسمها «زحام شارع أكسفورد»، تحتفي وولف بالسوقية الصارخة في شارع التسوّق اللندني هذا.

> يشير واعظو الأخلاق بإصبع الاحتقار إلى شارع «أكسفورد». يقولون إنه يعكس ما يتّسم به عصرنا من خفة ومباهاة سوقية وتعجّل وانعدام مسؤولية. ولكن، لعلهم مخطئون في قولهم هذا بقدر ما نكون مخطئين إذا طلبنا من زهرة السوسن أن تكون مصبوبة من برونز، أو من الأقحوانة أن تكون بتلاتُها ذات ألوان لا تزول.
> سحر لندن الحديثة هو أنها مبنية لا لكي تدوم... بل لكي تكون عابرة.

وفي مقالة رافقت المقالة السابقة ولم تكن أقل منها انفتاحًا على الوجه غير المتميز في الحياة العادية، تذهب وولف في زيارة إلى أرصفة السفن العملاقة في لندن:

> ألف سفينة بألف حمولة تُفرغ هنا كل أسبوع. لا يقف الأمر عند إنزال كل رزمة من هذه الرزم الضخمة والسلع المتنوعة ووضعها بدقة في أماكنها، بل يزنون كل رزمة منها ويفتحونها ويأخذون نماذج منها ويسجّلونها، ثم يغلقونها ويضعونها في مكانها من غير تعجل ومن غير تضييع، من غير تسرّع أو ارتباك من جانب الرجال القلائل جدًا المرتدين واقيات الأكمام ممن يعملون بالقدر الأقصى من

التنظيم من أجل الخير العام... لكنهم يظلّون قادرين على التوقف لحظة أثناء عملهم والقول لزائر عابر: «أتحب أن ترى ما قد نجده أحيانًا في أكياس القرفة هذه؟ انظر إلى هذه الأفعى!».

3 ـ كُنْ نسويًا

كان لدى فيرجينيا وولف إدراك حاد لحقيقة أن الرجال والنساء يضعون أنفسهم في أدوار صلبة يحدّدها نوع الجنس. وبفعلهم هذا، يسهون عن شخصياتهم الأكثر اكتمالًا. ففي نظرها، لا بد لنا حتى ننمو من القيام بشيء من لَيّ نوع الجنس؛ علينا أن نلتمس تجارب تشوّش قليلًا معنى أن يكون المرء «رجلًا حقيقيًا» أو «امرأة حقيقية».

كانت لوولف بضعة تجارب مثلية خلال حياتها. وقد كتبت نصًّا ذا جرأة غريبة رائعة اسمه «أورلاندو» كان صورة لحبيبتها فيتا تصفها فيها بأنها رجل نبيل صار امرأة.

«أمر قاتل أن يكون المرء رجلًا خالصًا أو امرأة خالصة؛ فعليه أن يكون رجلًا فيه شيء من المرأة، أو امرأة فيها شيء من الرجل». (رواية «غرفة لها وحدها»).

وفي ورقتها التي كتبتها ضد الحرب، «ثلاثة جنيهات»، تذهب وولف إلى القول:

> بأننا لن نتمكّن أبدًا من إنهاء الحروب إلّا إذا أعدنا التفكير في عادة تأليب جنس ضد جنس... هذا الزعم كلّه بالتفوق وبنسبة النقص إلى غيرنا منتمٍ إلى مرحلة «المدرسة الخاصة» التي مر بها الوجود البشري حيث كان في الصف «جانبان»، وحيث كان على كل جانب أن يهزم الجانب الآخر ثم -هذا ما كانت له أقصى أهمية- يسير فيصعد إلى المنصّة ويتلقّى من يد المدير نفسه كأس النصر المزخرفة.

تمنّت وولف كثيرًا أن تساهم في رفع مكانة المرأة في مجتمعها. لقد أدركت أن القسم الأكبر من المشكلة متعلّق بالمال. النساء محرومات من الحرّية، ومن حرية الروح خاصّة، لأنهنّ غير مسيطرات على دخلهنّ المالي: «كانت النساء فقيرات دائمًا، ليس منذ مئتي سنة فحسب، بل منذ أول الزمان. كانت للنساء حرية ذهنية أقل مما تمتّع به أبناء العبيد في أثينا. من هنا، لم تكن لهنّ أية فرصة في كتابة الشعر».

لقد توّجت أكبر عمل لها في دعوتها النسوية، «غرفة لها وحدها»، بمطلب سياسي واضح التحديد: حتى تقف النساء على قدم المساواة مع الرجال من الناحية الذهنية، فإنهن لسن في حاجة إلى الكرامة وحدها، بل إلى حقٍّ متساوٍ في التعليم وفي الدخل... «خمسمئة جنيه في السنة» و«غرفة لها وحدها».

***

لعل فيرجينيا وولف كانت أفضل كُتاب اللغة الإنكليزية من خلال وصفها ما في

أذهاننا من غير استخدام الكلمات الخاصّة بعلم النفس. كان الجيل الذي قبلها، جيل «الفيكتوريين». وقد كتب أولئك رواياتهم مركّزين على التفاصيل الخارجية: مشاهد في المدينة، وزيجات، ووصايا المتوفّين... لكن وولف تصورت صيغة جديدة من صيغ التعبير تستطيع، بدلًا من ذلك، أن تركّز على ما نشعر به في داخلنا عند معرفة أنفسنا ومعرفة الآخرين.

إن الكتب التي على غرار كتب وولف -أي الكتب التي لا تبالغ في السخرية والتهكم، ولا تتورّط كثيرًا في حبكات روائية مغامرة، ولا تكتفي مرتاحة بما هو متفق عليه- كتبٌ واجبةُ القراءة. تنتظر فيرجينيا وولف منا أن «نخفّض صوت» الخارج لكي نجرّب نظرتها وننفق طاقتنا في جمل ذكية رهيفة. ثم إنها تتيح لنا فرصة ملاحظة الرعشات التي تفوتنا عادة، وتتيح لنا فرصة الإعجاب بالفراشات وبالصداع الذي يصيب رؤوسنا، وكذلك بميولنا الجنسية الساحرة المتغيرة دائمًا.

عن المترجم

الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من أربعين عملًا مترجمًا؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر»
- هوارد زِن: «ماركس في سوهو» - مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد»
- تشارلز تايلر: «المتخيّلات الاجتماعية الحديثة»
- إيفان كليما: «حب وقمامة» - رواية
- جورج أورويل: «1984» - رواية
- جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية»
- سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» - رواية
- سينكلير لويس: «بابيت» - رواية
- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي» - رواية («موت في العائلة» و«رجل عاشق» و«جزيرة الصبا»)
- لاسلو كراسناهوركاي: «تانغو الخراب» و«كآبة المقاومة» - روايتان
- فيليب روث: «حكاية أميركية» - رواية
- دونا تارت: «الحسّون» - رواية

صدر لألان دو بوتون

في دار التنوير

- عزاءات الفلسفة.
- كيف يمكن لبروست أن يغير حياتك.
- قلق السعي إلى المكانة.
- دروس الحب.

أما الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ فهو الكتاب الأول من سلسلة «مدرسة الحياة» التي يشرف ألان دو بوتون على إعدادها وتحريرها.



يضم كتاب «مفكّرون عظماء» مجموعة من أهم المفكّرين الذين تركوا بصمةً في حياتنا؛ فنستعرض فيه أفكارًا مستمدة من أعمال فلاسفة، ومنظّرين سياسيين، وعلماء اجتماع، وفنانين، وأدباء ممن نرى أن لديهم الكثير مما يستطيعون تقديمه إلينا اليوم.

هذا الكتاب بمثابة «قانون» لمدرسة الحياة. إنه عرض لأشخاص من عصور مختلفة كانت لهم مساهمة في تكوين مشروعنا الثقافي - وسوف نعتبر أننا قد نجحنا في مسعانا، في الأيام والسنين القادمة، إذا وجدت نفسك، عزيزنا القارئ، تعود إلى هذه الأفكار لتساعدك في إلقاء الضوء على ما تجده في حياتك اليومية من معضلات وأحزان ومسرّات.

إن «مدرسة الحياة» مشروع رائد يقدّم أفكارًا جيدة من أجل الحياة اليومية؛ فهو يتناول أمورًا من قبيل كيفية العثور على عمل يحقّق لك الرضى والإشباع، وكيفية إتقان فن العلاقات العاطفية، وكيف تستطيع أن تصل إلى فهم أفضل للعالم... وذلك عبر دورات، وجلسات معالجة، وكتب، وأفلام. يقع مقر المشروع في لندن، وله مقرّات في ملبورن وباريس وأمستردام وساو باولو واسطنبول وبلغراد وأنتويرب وسول.

إن «مدرسة الحياة» تهدف إلى تطوير الذكاء العاطفي -بمساعدة الثقافة- إيمانًا بأن العديد من مشكلاتنا تعود إلى عجز في فهمنا لذواتنا، وضعف في التعاطف والتواصل مع الآخرين.

نعمل من خلال عشر مدارس حول العالم، وننتج أفلامًا، وننظّم دورات تدريبية. إن سلسلة مدرسة الحياة تنشر كتبًا عن أهم مواضيع الحياة الثقافية والعاطفية... هي كتب مصمَّمة للمتعة والتعلّم.

التنوير

مدرسة الحياة THE SCHOOL OF LIFE